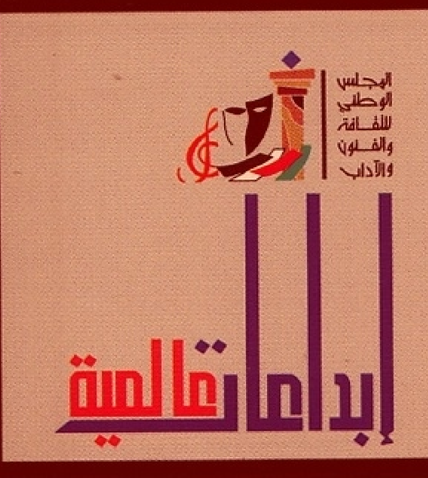


يونيو 2015

407

إِنِّيْ أَتَعَافَى



رواية

تأليف: دافيد فوينكِينوس
ترجمة وتقديم: د. محمود المقداد
مراجعة: د. منتجب صقر

الوصول إلى الحقيقة يتطلب إزالة العوائق
التي تعترض المعرفة، ومن أهم هذه العوائق
رواسب الجهل، وسيطرة العادة، والتبجيل المفرط
لمفكري الماضي
أن الأفكار الصحيحة يجب أن تثبت بالتجربة

روجر باكون

حصريات مجلة الابتسامة
* شهر أغسطس 2015 *
www.ibtesamh.com/vb

التعليم ليس استعدادا للحياة ، إنه الحياة ذاتها
جون ديوي
فيلسوف وعالم نفس أمريكي


إِنِّيْ أَتَعَافَى



إِنِّيْ أَتَعَافَى

رواية

تـــألــــيــــف: دافيد فوينْكِيْنوس

ترجـمـة وتـقـديم: د. محمود المقداد

مــــراجـــعـــة: د. منتجب صقر



تصدر كل شهرين عن

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

التنضيد والإخراج والتنفيذ: وحدة الإنتاج

في المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

التدقيق اللغوي: وائل أحمد حمزة

www.nccal.gov.kw

ebdaat_alamia@nccal.gov.kw

ebdaat_alamia@yahoo.com

ISBN: 978-99906-0-445-9

رقم الإيداع: 2015/339

• إنّي أتَعَافى

رواية



DAVID FOENKINOS

Je vais mieux

الطبعة الأولى - الكويت

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2015م

إبداعات عالمية - العدد 407

صدر العدد الأول في أكتوبر 1969م

تحت اسم سلسلة من المسرح العالمي

أسسها أحمد مشاري العدواني

(1990 - 1923)

المقدمة

تمهيد

تدخل هذه الرواية في إطار الأدب الروائي الفرنسي المعاصر، إن لم نقل المعاصر جداً، لأن طبعتها الأولى ظهرت للجمهور يوم 2013/1/10 ضمن (المجموعة البيضاء) La Collection Blanche، في دار (غاليمار) Gallimard الشهيرة للنشر بباريس، ثم أعيدت طبعتها طبعة ثانية شعبية أرخص ثمناً وبغلاف جديد في الدار نفسها ضمن مجموعة (فوليو) Folio، وظهرت هذه الطبعة يوم 2014/5/27.

(1)

حياة (دافيد فوينكينوس) ودراسته وأنشطته وتأثراته

ولد الكاتب (فوينكينوس) Foenkinos سنة 1974 في باريس، ودرس الآداب في جامعة (السوربون) la Sorbonne، وحصل على تكوين موسيقي بدراسة آلة (الجاز)، ولكنه أصبح أستاذاً لآلة (الغيتار)، ولا نعلم عن نشأته، ولا أسرته، شيئاً سوى أنه كان في السنوات الأخيرة إلى جانب بعض أجداده، واستلهم من ذلك موضوع روايته (الذكريات) Les Souvenirs التي نشرها سنة 2013، وأن له أخاً اسمه (ستيفان) Stéphane يعمل في مجال الإخراج السينمائي والتلفزي، وقد شاركه سنة 2011 في إخراج روايته (الرقة) La Délicatesse، المنشورة سنة 2009، فلماً، وهو متفرِّغ اليوم للكتابة. وكان نشاطه الرئيسي فيها قائماً

على الرواية للكبار، غير أنه كتب للأطفال قصة بعنوان: (الصبي الصغيـر الـذي كان دائمـاً يقـول: لا) Le Petit Garçon qui disait toujours: non المنشـورة سنة 2011، كما كتب بعض السـيناريوهات للسينما، وكتب سـيناريو بعض القصص المصورة بالرسوم الملونة لبعض المجلات المتخصصة. وقد انتشرت أعماله منذ نشـره روايته الأولى سـنة 2001 إلى روايته الحادية عشـرة (شـارلوت) Chrlotte، التـي ظهـرت يـوم 2014/8/5، ضمـن (المجموعة البيضاء) في منشـورات (غالِّيمار) أيضاً، بعد الطبعة الثانية لروايتنا الحالية، انتشـاراً واسعاً في فرنسا بخاصة. فقد وقعت رواية (إني أتعافَى) Je vais mieux في المرتبة الخامسـة على سلَّم المبيعات خلال الأسابيع الثلاثة الأولى من ظهورها في المكتبات الفرنسـية. وذكرت صحيفـة (لا برِس) La Presse يوم 2013/2/18 أن (فوينكينوس) عضو في نادي المؤلِّفين العشـرة الأوائـل الأكثـر مبيعـاً لكتبهم فـي فرنسـا، وقد بيع مـن روايته (الرقة) -حسـبما ذَكَرَتْ هذه الصحيفة- أكثر من مليون نسـخة منذ ظهورها.

يبدي (فوينكينوس) إعجابه الشديد بالأدب الروسي، وبخاصة الكاتبين (دوستويفسكي) Dostoïvsky و(غوغول) Gogol، كما كان مغرمـاً بأعمال الكاتب السويسـري (ألبيـر كوهين) Albert Cohen، وبخاصة روايته الضخمة (جميلةُ السيِّد) La Belle du Seigneur، التـي نُشِـرَتْ فـي دار (غالِّيمـار) سـنة 1968، وكانـت بدايةُ كتابتها في منتصف ثلاثينيات القرن 20، وتقع في نحـو 845 صفحـة تقريباً فـي طبعة (المجموعـة البيضاء)، وفي

نحـو 1110 صفحـات في طبعة (فوليو)، وقـد بُولِغ في تقديرها فـي فرنسـا؛ فقد نالـت الجائزة الكبـرى للرواية مـن (الأكاديمية الفرنسـية) l'Académie française أكبـر صـرح علمـي فـي فرنسـا، وعدها بعض النقاد أعظم رواية فرنسية في ذلك القرن. كمـا وصفهـا آخـرون بأنهـا الرواية المركزيـة في الأدب الفرنسـي كله[1]. واقْتُبِسَـتْ فلماً باللغة الإنكليزية سـنة 2012، من إخراج (غلينيو بوندر) Glenio Bonder، وهو من أسرة روسية يهودية مهاجرة إلى البرازيل، تعرَّف في جنيف على (ألبير كوهين) مؤلف الروايـة، كما التقى سـنة 1993 بناشـر الرواية فـي باريس لأخذ حقـوق الاقتبـاس. وكان الفيلـم من بطولـة (ناتاليـا فوديانوفا) Natalia Vodianova بـدور (أريـان) Ariane الشـابة السويسرية البروتستانتية، و(جوناثان ريس-مايرز) Jonathan

(1) كان موضوعها خيانة الشـابة السويسرية البروتسـتانية الجميلة (أريان) لزوجها بحب شاب يهودي وسـيم يدعى (سـولال)، كان يعمل في (جمعية الأمم SdN Société des Nations)، أو مـا يعرف فـي الإنكليزية بـ (عصبـة الأمم) League of Nations في جنيف بسويسـرا، فـي منتصف ثلاثينيات القـرن 20، بعد أن أغواها، وكان زوجها أحد موظفي هذا الشـاب في العصبة. وقد فُصِل (سـولال) هذا من عمله بسـبب تغيُّبه عنه وإهماله فيه، وحُرِم من الجنسية الفرنسية لمخالفته شـروط الإقامة في فرنسا. ويصور (كوهين)، في هذه الرواية، معاناة اليهود الألمان، لعدم قبول الدول الأوروبية عموماً استضافة النازحين والفارين منهم من ألمانيا والنمسا، عندمـا بدأ النازيون، سـنة 1936 باضطهادهم والتضييق عليهم فـي المعايش والحريات، فكان طوفان هجرتهم للجوء يتجه إلى فلسـطين في تلك السـنة وما تلاها؛ من ألمانيا والنمسـا أولاً، ثم من الدول التي تعرضت للاحتلال النازي في أوروبا الغربية والشـرقية على السواء، بدءاً من سـنة 1939 التي شهدت انطلاق شـرارة الحرب العالمية الثانية رسمياً حتى نهاية الحرب سنة 1945. يرسـم (كوهين)، في روايته، حلم الهجرة إلى فلسـطين، لأنه كان من المتحمسين للحركة الصهيونيـة وطروحاتها، ولكنه بعد وصول تلك الحركة إلـى حلم تكوين دولة، لم يزرها. ورفض أن يكون سـفيراً لها في سويسـرا، ربما لأنه رأى من معاناة الفلسطينيين على يد الصهيونية في فلسـطين ما كان يشـكو من مثله من معاناة اليهود على يد النازية. وقد وصف بعض النقاد هذه الرواية بأنها (ترنيمة حب لشـعبه اليهودي)، ونحن نرى -وبـكل صراحة- أن المبالغة في تقدير الرواية كان بفعل فاعل.

Rhys-Mayers بدور (سـولال) Solal الشـاب اليهودي، وظهر الفيلم بنسخته الإنكليزية في فرنسا يوم 2013/6/19 بالعنوان نفسه، وترجم الحوار فيه إلى الفرنسية على الشاشة.

وقد اعترف (فوينكينوس) -في إحدى المقابلات الصحافية- بأن أعمال (كوهين) كانت قد غيَّرت مجرى حياته. ومن الآثار المباشرة التي نلمسـها لهذه الأعمال عموماً فـي أعمال (فوينكينوس) أنه اتخذ موضوع (الحب) مِثْلَهُ موضوعاً مركزياً في أكثرها.

وتدلّ كثرة إشـارات (فوينكينـوس) وتلميحاته في أثناء روايته الحاليـة إلـى كثيـر من الكتّـاب المترجَمِـين من مختلـف اللغات والآداب إلى الفرنسـية، أو من الكتّاب الفرنسـيين أنفسـهم، على أنـه قـارئ نهم، وواسـع الثقافـة والاطـلاع، وعلى أنـه متابع لكل أنواع الكتابات، ومتواصل مع كل صنوف الكتّاب. ويشعر المرء، في الوقـت نفسـه، أن لديه نزعـة إلى التباهي الثقافي حينما يسـرد بعـض الحـوادث أو الوقائع من روايات أولئك الذين يعلن إعجابه أو تأثـره بهم. ويبدو لنا أيضاً أنه مبحِرٌ ضليع في (النت) ومتابع ممتاز لما ينشـر في مواقعه المختلفة، لأنه يستشهد أحياناً ببعض المشـاهد نفسـها المسـجلة بصورة مقاطع (فيديو) علـى موقع الـ (يوتيوب) Youtube وغيره من المواقع.

حصـل الكاتـب على عـدد مـن الجوائز الشـهيرة علـى بعض أعماله الروائية المتميزة، ومن أبرزها:

1 - جائزة (فرانسوا مورياك) F. Mauriac، سنة 2001.

2 - جائزة (روجيه نيمييه) R. Nimier، سنة 2004.

3 - جائزة (جان جيونو) J. Jiono، سنة 2007.

ومن غرائب ما صادفتُه، أثناء تتبعي لعدد اللغات التي تُرْجِمَتْ إليها أعمال الكاتب، هذا التدرج المتزايد لها من 15 لغة، إلى 20، ثم 25، بعدها 30، وأخيراً 35 لغة حية، وربما كان هذا التزايد مرتبطاً بالتراكم الزمني من نحو، أي من سنة 2001 إلى سنة 2014، ومرتبطاً أيضاً بتراكم الإنتاج من عملٍ واحدٍ إلى أحد عشر عملاً عبر هذه المدة الزمنية، والعمل الحادي عشر هو رواية (شارلوت)، ولا شك في أن الشهرة وذيوع الصيت كانا يترافقان حتماً مع هذين التراكمين، ويتزايدان معهما طرداً أيضاً.

(2)

آثاره

ذكرنا من آثار (فوينكينوس) آنفاً خمسة، وأما بقيتها فأهمها:

1 - (انعكاس البلاهة: عن تأثير بولونيَّيْنِ اثنين) Inversion de l›idiotie: de l›influence de deux polonais، غالِّيمار، سنة 2001.

2 - (بين الآذان) Entre les oreilles، غالِّيمار، سنة 2002.

3 - (الطاقة الغرامية لزوجتي) Le Potentiel érotique de ma femme، غالِّيمار، سنة 2004.

4 - (في حالة سعادة) En Cas de Bonheur، فلامَّاريون Flammarion، سنة 2005.

5 - (القلوب المستقلة ذاتياً) Les Cœurs autonomes، غراسّيه Grasset، سنة 2006.

6 - (مَنْ يتذكَّر دافيد فوينكينوس؟) Qui se souvient

David Foenkinos ؛، غالّمار، سنة 2007.

7 - (انفصالاتنا) Nos séparations، غالّيمار، سنة 2008.

8 - (لِنُّون) Lennon، بلون Plon، سنة 2010.

(3)

أسلوب (فوينكينوس) وأدواته التقنية في السرد

كان (فوينكينوس) يستعمل في رواياته جملة من التقنيات السردية، وكان في بعضها متأثراً ببعضِ مَنْ كان مغرماً بقراءة آثاره، ونتناول فيما يلي أبرزها على نحو سريع ومجمل:

1) كان يمزج معطياتِ من الواقع واختراعات من خياله الروائي المبدع، فهو يذكر مثلاً واقعة حقيقية مثل غرق السفينة البريطانية (التايتانيك) Titanic أو جنوح السفينة الإيطالية (كوستا كونكورديا) Costa Concordia، وواقعة انفجار مفاعل (فوكوشيما) Fukushima الياباني، وواقعة الأزمة المالية العالمية، وأشباهَ ذلك من وقائع حقيقية، ثم يواصل سرده من خياله القصصي الذي يخترعه متابعاً الخيط الدرامي الذي اختطه ليكون جوهر الرواية.

2) الحوار الداخلي (المونولوغ) الذي يتجلّى في تلك الوقفات السردية الطويلة أحياناً بين نقاط الحوار الدائر بين بطل الرواية وإحدى شخصياتها، فقد صرح الكاتب مرة، حول هذه النقطة، بوضوح في إحدى مقابلاته، بقوله عن روايته (الذكريات) بأن هذه الرواية (مستلهمة من أموره الشخصية، لكنها ليست سيرة حياته، لأنه أدخل فيها الخيال لتكون رواية). ولما سُئل عن سر

وصفه الدقيق، في الرواية المذكورة، لما يكابده كبار السن في عزلتهم من اكتئاب وتحسُّر على ماضيهم، وعن وصفه الدقيق أيضاً لعواطفهم وانفعالاتهم، مع أنه شاب في أواخر الثلاثينات، أجاب بأنه كان في السنوات الأخيرة كثير المخالطة لأجداده، أي أنه استمد أشياء من واقعه وأشياء من خياله وهو ينسج أفكار روايته، وهذا القانون ربما يسري على كل من مارس هذا النوع من السرديات. ومما يذكر أن الكاتب انتقى شخصيات روايته هذه من الشخصيات الواقعية الشهيرة في الواقع ممن بلغوا سن الشيخوخة ومن مختلف الفئات؛ من فنانين، وفلاسفة، ومصورين، ومعماريين، ونقاد، وصحافيين، إلى جانب بعض المجهولين عند الرأي العام ممن سلّط عليهم أضواءه للتعريف بهم.

3) الجمل القصيرة المتدفِّقة والمتتابعة، والتقطيع السريع للكلام في أثناء السرد.

4) النَّضْح الثقافي، وقد ظهر في سرد عدد كبير من الإشارات والتلميحات إلى كتّابٍ وممثلين ومخرجين ومغنين وموسيقيين ومقدمي برامج تلفزية، ورجال سياسة وفلاسفة، وإلى أعمالهم، أو إلى مشاهد من أفلامهم أو مقابلاتهم أو أفكارهم. كما استعمل الكاتب عدداً لا بأس به من الرموز والمختصرات. وقد كان الظاهر أن استيعاب هذه الرواية يكاد ينغلق دون أفهام كثير من المثقفين الفرنسيين أنفسهم، فضلاً عن القراء العاديين، وقد اضطررنا إلى الوقوف عند هذه الإشارات والتلميحات والمختصرات على طول الرواية، لتفسير المقصود بكل منها في هوامشها، ولتيسير

متابعة الرواية على القراء عموماً من غير بذل جهد البحث عنها. وربما أدت ترجمة هذه الرواية إلى أي لغة من اللغات، من غير تفسيرها، إلى التقليل من القدرة على متابعتها، وربما يؤدي ذلك إلى التقليل من قيمتها.

5) يستنبط المرء أن (فوينكينوس) يتمتَّع بروح الدعابة والسخرية في مقابلاته المتلفزة والصحافية، وهي ذات الروح التي لمسناها من خلال ترجمتنا للرواية الراهنة، ومن خلال كتابات النقاد والمراجعين، ومن خلال تعليقات القراء عامة في بعض المواقع الثقافية، لكن هذه الروح تمتزج بالروح التشاؤمية، وربما يفسِّر لنا ذلك جانباً خفياً من حياة الكاتب عانى فيه من مرارة الحياة، وتمكَّن من تجاوزها بشيء من سعة الصدر والتفهُّم والاستيعاب الواعي لها. وقد ذكر بعض النقاد، مثلاً، أنه كان يتحدَّث في روايته (الذكريات) عن الثلاثي (الشيخوخة - العزلة - الموت)، لكنه عالجه بروح من الدعابة، مع أنها قاسية، وكانت روح الدعابة هذه ملفَّعةً بشيء من الحزن والسوداوية، وهي تسري في معظم أعماله الروائية، بما فيها الرواية الراهنة؛ فحين أراد أن يخفف من شعور أعضاء الوفد الياباني بالذنب والعار لتأخرهم عن اجتماع في المكتب الهندسي الذي يعمل فيه بطل الرواية، جعل مديرَ المكتب يقول لهم إن تأخرهم هذا تكريم لفرنسا، لأن من تقاليد الفرنسيين الراسخة أن يتأخروا عادة عن مواعيدهم. وعندما كان في الباص وحده مع السائق وهو في طريقه إلى أحد المشاريع رأى بطل الرواية أسنان هذا السائق التي تقشعر لها الأبدان حين ضحك، فكان رأيُه ضرورةَ رفع شكوى أو دعوى على طبيب أسنانه، ومثل ذلك كثير في هذه الرواية.

6) كان الكاتب يستعمل في روايته الراهنة (تقنية المقابلة التناظرية) في رسم صورة شخصياته الرئيسية، ولدينا مثالان واضحان على ذلك؛ الأول صورة بطل الرواية مع زوجته التي كانت تريد هجره وتطليقه، وتقابلها صورة صديقه مع زوجته التي كانت تريد أن تهجره وتبتعد عنه، لكن زوجة البطل تطلقه فعلاً، وأما زوجة صديقه فتعود إليه. والصورة الثانية صورة البطل وهو في سن الثامنة، وتقابلها صورة زميلته التي كان يحبها وهي في مثل سنه، حين كانا في الصف الثاني الابتدائي، ثم صورتهما في سن الأربعين وكلٌّ منهما يبحث عن معارفه القدماء في سن الطفولة بفضل تسهيل وسائل التواصل الاجتماعي الوصول إليهم. فكانت هي تبحث وتجد بعضهم، وهو بحث عنها فوجدها، وذلك من باب الفضول لمعرفة كيف أصبح شكل الآخر، وما المهنة التي يمتهنها، والمشكلات التي يعاني منها، وقد كان كلٌّ من البطل وزميلته القديمة قد تزوج وطلق، وأنجب ابناً ذكراً، ولكل منهما مهنته المحترمة.

7) تطعيم سرده ببعض المشاهد الجنسية المحقَّقة وغير المحققة، ونجد ذلك مثلاً في روايات (ألبرتو مورافيا) (1990م) A. Moravia الإيطالي، و(إحسان عبد القدوس) (1990م) العربي، و(غابرييل غارسيا ماركيز) (2014م) G. G. Marquez الكولومبي، على سبيل المثال لا الحصر. وأصل كل ما جاء في السرديات الغربية والعربية يغلب على الظن أنه متأثِّر بما ورد في قصص (ألف ليلة وليلة) العربية من هذه المشاهد. وكان أدبنا العربي القديم قد وصل في العصر العباسي إلى درجة من التحرُّر الفكري أن ألَّف الكُتَّابُ كتباً كثيرة في قضايا المواضيع الجنسية، حتى المحض منها، وكان

كبار كُتَّابنا في ذلك العصر؛ كالجاحظ (م255هـ) مثلاً يرى أن يُنْقَل الخبر كما هو وبحذافيره، بلا حرج، من باب نقل المنقول بأمانة تامة، وكان ابن قتيبة (م276هـ) لا يمانع في روايةِ ما في الخبر أو الشعر من ألفاظ نَصِفُها نحن اليوم بالفاحشة أو البذيئة، حتى بلغ بهم الأمر إلى حد القول (ناقل الكفر ليس بكافر)، وذلك لأن معرفة الإنسان لما يُكْتَب من كتاباتٍ مخالفةٍ لعقيدته أو أخلاقه وقيمه في قليلٍ أو كثيرٍ أمرٌ مفيد في الاطلاع والإلمام بما يكتب الآخرون، كما أن جهل ذلك مُضِرٌ، وحتى لا يكون المؤمن جاهلاً بكثير مما يحيط به، ما دام إيمانه راسخاً في القلب والعقل. وسبب هذا الرأي أنهم ذهبوا إلى أَنْ ليس الوعظُ أو الوعظُ المباشر من وظائف النصوص الأدبية النثرية أو الشعرية في شيء، لأن أهم وظائف هذه النصوص إنما هو تصويرُ الإنسان الطبيعي في المجتمع على ما هو عليه من فضائل ورذائل، لا تصويرُه على ما ينبغي أن يكون عليه من أحوال مثالية، كما يفعل الوعظ بأشكاله المختلفة، وكما تحاول الفلسفات الطوباوية أن تفعله. فالخير في المجتمع موجود، والشر موجود، والصراع بينهما لا ينتهي إلى قيام الساعة. كما أن الوعظ والهداية إلى الخير والحق والصواب يبقيان، في نهاية المطاف، هدفاً غير مباشر، ومن وراء ستار للنصوص الأدبية المختلفة، عن طريق الاعتبار واتخاذ القدوة أو النموذج الأمثل لفلسفة السلوك. وما نظرية (التطهير) catharsis التي توصَّل إليها (أرسطو) من خلال تحليله المسرحيات الشعريةَ المأساوية (التراجيدية) والمسرحيات الشعريةَ الملهاوية (الكوميدية) عند قدماء اليونان، سوى برهانٍ على ذلك.

8) استعمل الكاتب سرد كل ما في الرواية الراهنة على لسان البطل، بضمير المتكلِّم، حتى ليكاد يوحي إلينا بأن هذه الرواية إنما هي مذكرات تسجيلية حقيقية لبطل الرواية الذي لم يُذْكَرِ اسمُه لا على لسانه، ولا على لسان إحدى شخصيات الرواية، ولو مرة واحدة، فبقينا نجهل اسمه، على الرغم من ذكر أسماء مجموعة لا بأس بها من الشخصيات التي احتك بها بوضوح، من أمثال:

1	إيليز: زوجته
2	ألكسيا: أختها
3	بول: ابنه
4	أليس: ابنته
5	ميشيل: صديق ابنته الذي تعيش معه في شقته
6	إدوار: صديقه
7	سيلفي: صديقته وزوجة صديقه إدوار
8	صوفيا كاستلو: زميلته في الصف الثاني الابتدائي
9	بولين: عشيقته
10	هكتور: زميل سكن بول في نيويورك
11	أوديبير: صاحب مكتب الهندسة المعمارية ومديره
12	ماتيلد: سكرتيرة بطل الرواية
13	غايّار: منافسه في العمل
14	باتريك: رئيس بلدية
15	فاسِّيلس: صاحب فندق الأهرام

إضافة إلى مجموعة لا بأس بها من الشخصيات التي احتك بها، ولا نعرف سوى المهن التي يعملون بها.

9) كان الكاتب يكثر من الاستطرادات ويقف على كثير من التفاصيل الجزئية ويكرر ويعيد فيها، وكأنه كان يتلذّذ بتلك التفاصيل التي قد لا تخطر على البال، كما فعل عند تذكره سبباً من أسباب وجع أسفل ظهره وهو (عدم دعوة زميلته في الصف الثاني الابتدائي إياه إلى عيد ميلادها الثامن)، وعندما توقَّف، في زيارته الغريبة لابنته وصاحبها بعد منتصف الليل، عند (القماش المشمَّع) الذي يغطي المائدة في المطبخ.

10) تأثُّر (فوينكينوس)، في الرواية الراهنة، بطريقة أستاذه (ألبير كوهين) في روايته (جميلة السيِّد) من حيث التقسيم والتقطيع والعنونة؛ فقد قسَّم (كوهين) روايته سبعة أقسام، فقسَّم (فوينكينوس) روايته (إني أتعافَى) خمسة أقسام. وقسَّم الأستاذ كلَّ قسم فصولاً بلغت في مجمل أقسام الرواية مئة وستة فصول، أما التلميذ فبلغت أقسام مجمل فصوله الخمسة في الرواية مئة وسبعة فصول، إضافة إلى خاتمة قصيرة. وأعطى الأستاذ كلَّ فصلٍ عنواناً، ففعل (فوينكينوس) فعله في إعطاء عنوان لكل فصل من فصوله.

11) أعطى الكاتب الحدس والأحلام والخوارق قيمة خاصة في روايته.

(4)

تحليل الرواية

يمكن القول، من حيث المبدأ، إن أي قارئ لهذه الرواية لا بد أن يلمس في صفات بطلها وشخصيته شيئاً من الصفات المشتركة معه في قليل أو كثير.

كانت شخصية بطل هذه الرواية مقاربة لشخصية كاتبها (فوينكينوس) في أمرين: الأول إبداؤهما شدة إعجابهما بالكاتب السويسري (ألبير كوهين). والثاني إبداؤهما شدة إعجابهما بالأدب الروسي. وقد أبدى الكاتب ذلك في مقابلاته وتصريحاته، وبطل (إني أتعافى) أبدى ذلك عبر الرواية. وتختلف شخصية الكاتب عن شخصية البطل في أن الأخيرة كانت تملك في العشرينات من عمرها مشروعاً أدبياً يتمثّل في كتابة روايةٍ عن الحرب العالمية الثانية، وبقي الحلم يراوده ويعاوده إلى سن الأربعين، ثم اكتشف أنه لا يصلح لأن يكون كاتباً، أما (فوينكينوس) فقد امتلك حلم المشروع الأدبي وطبقه ونجح فيه خلال نحو عقد واحد من بداية القرن الحالي نجاحاً باهراً.

فكرة الرواية بسيطة، تدور حول رحلة كئيبة مع الوجع الإنساني، ومحاولة التخلص منه، من خلال التعلق بأي قشة أمل قد توصل إلى انتزاعه، أو -في أسوأ الأحوال- إلى التخفيف منه، فالوجع نوع من العذاب، والوجع الإنساني عام لا يتمثل فقط في وجع أسفل الظهر الذي يعاني منه بطل الرواية، ويقضُّ مضاجعه، وإنما هو وجع شامل لكثير من الأوجاع، التي

اتخذ الكاتب من وجع أسفل الظهر، الذي يستند إليه العمود الفقري والرأس وسائر الأعضاء المهمة في الجسم، رمزاً لها.

ما الرابط بين الوجع وسعادة الإنسان؟ أوليس أحدهما نفياً للآخر؟ ولذا كان البحث عن العلاج الناجع بحثاً في الوقت نفسه عن السعادة أو عن الإطار الذي تدخل فيه كل عوامل السعادة. هل (كلُّ شيءٍ جنسٌ) كما نقل البطل عن لسان عالم التحليل النفسي (فرويد)؟ وهل كان التقصير الجنسي سبب فتور العلاقة بين البطل وزوجته إلى حد الطلاق؟ أو بين صديقه (إدوار) وزوجته (سيلفي)؟ أولم تكد تقع كارثة جنسية زليخية ذات صباح بين البطل و(سيلفي) زوجة صديقه (إدوار)؟ وهل كان الإرواء الجنسي سبب تمرد ابنة البطل (أليس) على إرادة والدها حينما اختارت العيش عيشة الأزواج في شقة واحدة مع الشاب الثلاثيني (ميشيل)؟ ثم ألم يكن بناءُ البطلِ علاقةَ حميميةً مع (بولين)، زوجة مصوِّر الفوتوغراف الحربي، باندفاع من قِبَلِها أساساً طلباً للحفاظ على النوع (من خلال سعيها إلى إنجاب طفلٍ منه قبل أن يفوتها القطار، وهي في سن الثامنة والثلاثين، ولكن زوجها الذي يغطي أخبار الحروب في مواقعها كان يرفض أن يضيف شقياً جديداً إلى هذا العالم المخبول)، من أبرز عوامل شفائه؛ فإلى أي حد كانت نظرية (الليبيدو)[2] la libido مسيطرة على فكرة الرواية؟ وهل صحيح أن المجتمعات تتطور وتتقدَّم بقدر الارتواء من هذه النزعة كما لمَّح إلى ذلك الكاتب؟

---

(2) الليبيدو: هو النزعة الغريزية لدى الكائن الحي إلى البحث عن اللذة عموماً، واللذة الجنسية خصوصاً، وقد ضبطت الشرائع والقوانين الأخيرة بجملة من الضوابط التي تشرعنها أو تحرمها، وفي هذا تفاوت بين المجتمعات، وتختلف النظرة أيضاً إلى سائر أنواع اللذة.

كان البطل خلال رحلة العلاج المريرة يعاني الخوف من الموت، كما يعاني القلق من أن يكون مرضه خطيراً، ومن الفحوص الطبية التي لا تنتهي غالباً إلى شيء ملموس وقاطع، على الرغم من كثرة وسائل التحليل والكشف والتصوير، ومن قاعات الانتظار في المشافي أو العيادات. فكان (فوينكينوس) يسمي روايته (روايةَ الوجع) بسبب كل ذلك، وكان يصفها بأنها (كوميديا الألم)، كما وصفها بعض النقاد بأنها (يومياتُ ظَهْرٍ). وبلغ من تأثيرها في القُرّاء أن علَّقت قارئةٌ في بعض مواقع التواصل الاجتماعي أنها كانت تعاني من وجع الظهر مدة طويلة، فلما قرأت هذه الرواية تعافت من مرضها، كما ذكر (فوينكينوس) للصحافية (جوزيه لابوانت Josée Lapointe، من صحيفة (لابرس La Presse، في عدد يوم 2013/2/18، قوله: (إن أناساً قالوا لي إنهم بكوا وهم يقرؤون الرواية).

إن اختيار الكاتب موضوع وجع الظهر هذا كان شديد التوفيق، لأن بعض الإحصاءات لأمراض المواطنين الفرنسيين تذكر أن لدى نحوِ 80% منهم آلاماً في الظهر، أي أن الرواية تتوجه بالخطاب المباشر إلى نحو 52 مليوناً من الفرنسيين، كما أن نحو 95% منهم لم يستطع الطب أن يشخص لهم سبباً محدَّداً لحالاتهم. وذكر بعض النقاد قوله: (ووجده فوينكينوس) من باب الدعابة أو من باب الجدّ على السواء. وقد ذكَرَتْ صيدلانيةٌ لبطل الرواية -وهي تَصْرِف له بعض المسكِّنات- أن وجع الظهر اليوم هو (موضة العصر)؛

فهل لتعقُّد الحياة ومتطلباتها دورٌ في هذه الموضة؟

يبدو أن (القلق) l'angoisse الذي يعاني منه مواطن القرن 20 والقرن 21، في العالمِ أجمع، والمعبَّر عنه بالضغوط النفسية le stress، والمتمثِّل في رد فعل العضوية على أي عدوان، أو في حالة من التوتر الدائم أو الغالب، تجاه الأمن والسلامة وحفظ البقاء والمصير، أو المحافظة على (الكليات الخمس)، وهي من أهم غايات الشارع، وأهم وظيفة لنظام الحكم في أي دولة بالمفهوم الصحيح للدولة في المجتمعات البشرية العاقلة، والمحافظة عليها ينشر في النفوس (الطمأنينة) التي هي العلاج الطبيعي لـ (القلق) الذي يسحق النفوس تحت ثقله، ويبعث في الأجسام أمراضاً نفسية وعضوية لها أوَّلٌ وليس لها آخر؛ كان بطل رواية (إني أتعافى) يتعرَّض لضغوط دائمة من أبيه تتمثل في النقد الدائم له بغية إظهاره إنساناً مخفقاً. وهذا الأسلوب ربما يأتي من الأهل بقصد الحث على التحسُّن وتقويم السلوك والنجاح، أي أنه يكون بحسن نية، لكنه أسلوب مثبِّط في أغلب الأحيان. وكان يتعرض في عمله المهني في مكتب الهندسة لمنافسةٍ غير شريفة من أحد زملائه الذي نجح في التآمر عليه والحط من قدره في عيون مديره في العمل، ودفعه إلى كف يده وتجميد وضعه في المؤسسة. وكانت زوجته ترى فيه رجلاً ضعيفاً وخاملاً لا رأي له ويحب الرتابة والثبات، ولا يملك شيئاً من الطموح، وهو إنسان هادئ ومسالم إلى أبعد الحدود، كما أنه ميَّالٌ إلى العزلة والانطواء. وأما ابنته

فكانت مخالفة لرأيه في العلاقة بمن تحب، والابن حصل على منحة دراسية في نيويورك من غير أن يخبر والده.

كان هو يشعر بالإحباط، ولا يجرؤ على إبداء رأيه في شيء، وإن كان له رأي فإنه لم يكن قادراً على الاحتجاج له والدفاع عنه، ولم يكن قادراً على التعبير عن مشاعره، كما أنه لم يكن يأخذ المبادرة في أي شيء. ولكل هذه العوامل كان يشعر بعقدة نقص أو اضطهاد أو نفي واستبعاد (فتفتَّتَتْ حياته غصباً عنه) كما يقول عنه كاتب الرواية نفسه، وقد توصل أخيراً إلى القول: (إن المشكلة ليست ظهري، وإنما حياتي.. ووجع ظهري حصيلةٌ لجميع العقد التي لم تُحَلَّ بعدُ).

إذن كانت المشكلات النفسية والضغوط والتوترات التي يجابهها في الحياة مع الآخرين هي سبب وجع ظهره، فهو يشبه المريض بالوهم، وعندما أدرك ذلك أخذ يحل مشكلاته مع الآخرين واحدة فواحدة، إلى أن توصَّل إلى الشفاء التام في نهاية المطاف من غير أدوية ولا جراحات ولا أجهزة، وتحولَّت شخصيته 180 درجة تقريباً، فأصبح رجلاً حيوياً، ذا شخصية قوية مستقلة، وصار يفرض رأيه أو يعبر عنه أو يحتج له بطلاقة، واستقل في مجال العمل بمشروع مشترك مع آخر، وكان هو المحرك الأول فيه، وأصبح شخصية اجتماعية قوية ومنفتحة ومتفاعلة، وأصبحت له علاقة غرامية أدخلت السعادة إلى نفسه، واستقر مؤشِّر وجع ظهره، المكون من عشر درجات، على الصفر، بعدما كان يترجَّح صعوداً ونزولاً بحسب الحالة المعنوية التي كان يمر بها في مختلف مراحل الرواية.

وقد حظي -في نهاية المطاف- بالسعادة التي كان يفتقر إليها، وكان الفصل (12) (13)، من القسم الخامس في الرواية، معبراً تعبيراً دقيقاً عن حصيلة هذا التحوُّل الكبير في شخصيته وحياته، ويذكرنا هذا الفصل بآخر كل حلقة من حلقات المسلسل الأمريكي الشهير (سفينة الحب Love boat).

تخلَّلتْ هذه الروايةَ إشاراتٌ إلى كثير من الجنسيات في العالم؛ كاليابانيين، والصينيين، والكوريين، والروس، والأمريكان، والمغاربة، واللبنانيين، والتشيكيين، والألمان.. كما أن الكاتب كان يشير إلى أحدث معطيات تقنيات الاتصال والتواصل الاجتماعي؛ كالهواتف المحمولة، والرسائل القصيرة sms، والإنترنت، والإيميلات، والفيسبوك، والسكايب.. وقد أشار إلى بعض أحدث القضايا المعاصرة (كالأزمة المالية العالمية مثلاً).. وإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على عقلية انفتاحية عالمية لدى الكاتب، ربما تنسجم مع طبيعة العولمة التي أخذت تزحف في كل اتجاه، لتذيب كثيراً من الفوارق بين الأمم والشعوب، وتطبعها بطابع واحد أو طابع متقارب على الأقل.

وأرجو -في نهاية المطاف- أن أكون قد رفدت المكتبة العربية، من خلال هذه الرواية، بعمل أدبي يكشف لنا عن طبيعة فن الرواية في آخر مراحله وتياراته في أدبٍ غربيٍّ عريقٍ كالأدب الفرنسي، كما أرجو أن تسهم هذه الترجمة في دعم لغتنا العربية الجميلة وترسيخِ قدرتها على التعبير عن الأفكار التي

تعبِّر عنها واحدة من أكثر اللغات العالمية انتشـاراً واستعمالاً، علماً أن لغتنا تقف جنباً إلى جنب معها في المنظمات العالمية ضمن اللغات الست الأكثر تداولاً في العالم كله.

د.محمود المقداد

القسم الأول

(1)

يعلـم المرء دومـاً متى تبدأ قصـةٌ ما، وقد أدركت أن شـيئاً ما كان قـد جرى، وبالتأكيد، لم أكن أسـتطيع أن أتصوَّر جميع الاضطرابـات التي سـوف تأتي. ففي بداية الأمـر، كنتُ أحسُّ بوجع غامضٍ، بقَرْصَةٍ عصبية بسيطة في أسفل الظهر. لم يكن ذلك يحصلُ لي من قبل، فلم يكن هنالك من داعٍ للقلق، لقد كان ذلك بالتأكيد توتُّراً مرتبطاً بتراكم الهموم العصرية.

حدَث هذا المشـهد الأولي يومَ أحدٍ بعـد الظهر، وهو واحد من تلك الآحاد الأولى من السـنة التـي يكون فيها الجو جميلاً، فقد كان المرء سـعيداً برؤية الشـمس، وهي واهنة قليلة الثَّبات، وكنـا أنا وزوجتي قـد دعونا زوجين من الأصدقـاء إلى الغداء، إنهما في النهاية الزوجان نفساهما دوماً؛ لقد كانا في الصداقة مـا كنا عليه في الحب، إنه شـكل من الرَّتابـة. وأخيراً، تغيَّرت جزئية ما؛ فقد انتقلنا إلى الضاحية، وأقمنا في منزل صغير ذي حديقة، وقد كنا فخورين إلى حد بعيد بحديقتنا، وكانت زوجتي قد زرعت فيها شُـجَيْرات ورد بودٍّ شِبْهِ غرامي، وكنتُ أدرك أنها قـد وضعت فـي بضعة الأمتار المربَّعة هذه مـن الخضرة كلَّ ما تشتهيه، وكنت أصحبها، أحياناً، قرب الأزهار، ويصيبنا ما يشبه

رعشات ماضينا، فنصعد حينئذ إلى غرفتنا، لنستردّ عشرينيات عمرنا خلال عشرين دقيقة. كان ذلك نادراً وقيماً، وكانت هنالك مــع (إيليز) Élise دائماً لحظات تمرُّ في فتور، لقد كانت رقيقة وطريفــة، وكنت أعتبر كلَّ يوم إلى أي درجة كنتُ خائفاً، كم كنت رائعاً لأنني أنجبت أطفالاً منها.

عندما كنت أعود من المطبــخ، حاملاً الصينية، ومرتباً عليها أربعة فناجين قهوةً، كانت تسأل:

- هل أنت بخير؟ لا تبدو هيئتك على ما يرام.

- إن ظهري يؤلمني قليلاً، وهو لا شيء.

فيقــول (إدوار) Édouard، بهذه النبرة الســاخرة التي لم تكن تبارحه:

- إنه العمر..

طمأنت الجميع، أساساً، لم أكن أحب أن يهتم أحد بي، وعلى كل حال، لم أكن أحب أن أكون موضوع أي نقاش، ومع ذلك، كان من المســتحيل القيام بخلاف هذا، كنت لا أزال أشــعر بوخزات خفيفــة في الظهر، وقد واصلت امرأتي وصديقاي حديثهم، من غيــر أن أتمكن من متابعة مجــراه. فقد كنتُ مركّــزاً كلياً على الوجــع، وأحاول أن أتذكَّــر إذا ما كنتُ قد قمت بأي جهد خاص في هذه الأيام الأخيرة، فلم أجِد شــيئاً. لم أكن قد رفعتُ شيئاً، ولم أقم بأي حركة غير صحيحة، ولم يخضع جســمي لســقوط أثناء التزلج حتى يمكنه اســتدعاء الوجع الحالي. ومنذ الدقائق الأولــى لألمي، كنت أعتقد أن هــذا الأمر يمكن أن يكون خطيراً، وبشكل غريزيّ، لم أكن أستخف بما حصل لي، وهل يُشتَرَط على المــرء في أيامنا أن يتوقع الأســوأ دائماً؟ لقد كنتُ أســمع مراراً

كثيرة قصص حيواتٍ خرَّبها المرض.

وحينئذٍ سألتني (إيليز)، قاطعة بذلك بداية السيناريو المخيف:

- هل ترغب في قليل من الفريز؟

مددتُ صحني كما يفعل الطفل، وعندما كنت آكل، شرعت في جَسِّ أسفلِ ظهري، فبدا لي شيء ما غير عادي (إنه نوع من الورم)، ولكنني لم أكن أعلم إن كان هذا الذي أشعر به حقيقياً أم كان ثمرة خيالي القلِق. توقف (إدوار) عن الأكل ليراقبني، قائلاً:

- هل هذا يؤلمك دوماً؟

- نعم..

أفضيت لهم بأنني لا أدري ما لديّ، بصوتٍ يعتريه شيءٌ من الذعر.

قالت (سيلفي) Sylvie:

- ربما كان عليك أن تذهب لتتمدَّد.

كانت (سيلفي) امرأةَ (إدوار)، وكنت قد التقيت بها أثناء السنة الأخيرة في الثانوية، ويعود ذلك إلى أكثر من عشرين سنة، وهي أكبر مني بسنتين. إن فارق السن هو المسافة الوحيدة التي يستحيل تغييرها بين شخصين، وإذا ما كنت قد انجذبت إليها تماماً في البداية، فقد كانت دائماً ترى فيَّ صبياً صغيراً، وقد كانت تصحبني أحياناً يوم السبت لنزور محلات غير متوقعة، أو معارض مؤقتة كنا نحن الوحيدَيْنِ اللذين يتجولان فيها، وكانت تتحدَّث لي عما كانت تحب، وعما لم تكن تحب، وكنت أحاول أن أشكِّل ميولي بطريقة مستقلة (وعبثاً ما كنت أتفق معها بصورة منظمة). كانت تسرِّح شعرها آنذاك كثيراً، وكانت تجسد في

نظري الحرية والحياة الفنية. وقد تخلَّيت عن كل ذلك بسرعة حينما سجَّلتُ في كلية الاقتصاد. وكنت متردِّداً طيلة الصيف، لأنني وددت أن أكتب: ولنقل أخيراً إنه كان لديَّ مشروع أولي لكتاب عن الحرب العالمية الثانية. ومن ثَمَّ، أخيراً، خضعتُ للرأي العام[1] باختياري توجهاً عملياً. ومن الغريب، أن سيلفي دفعتني أيضاً نحو هذا الاختيار. مع ذلك، لم تطَّلِع على شيء عني، وإن نصيحتها لم يُرَ فيها أي انتقاص لعملي، ولم يكن عليها أن تؤمن بقدرتي على أن أعيش حياةً مزعزعة، مليئة بالشكوك وعدم اليقين.

إن لي بالتأكيد رِجلٍ شابٍّ متوازن، وجهَ رجلٍ انتهى بعد عشرين سنة من العمل إلى جناحٍ سَكنيّ في الضاحية مع ألم في الظهر.

وبعد بضعة أشهر من لقائنا، قدَّمت لي (سيلفي) (إدوار)، وقالت باحتشام: (هذا رجُلُ حياتي)، لقد كانت هذه العبارة تؤثِّر فيَّ دوماً، وبقيتُ مفتوناً بهذه البلاغة الرائعة، وهذا الثبات الهائل الذي يخُصّ الشيءَ الأقلَّ توقُّعاً الذي هو: الحب. كيف بإمكان المرء أن يكون متأكِّداً من أن الحاضر سيأخذ شكل الديمومة؟ يجب أن نؤمن بأنها كانت على حق، نظراً لأن السنين لم تخدش يقينها الأولي. لقد كانا يشكِّلان أحد الأزواج غير المحتملين، حيث لا يستطيع أحدٌ حقيقةً أن يدرك النقاط المشتركة فيها. هي التي طالما كانت تشيد لي بفن عدم الاستقرار، وقعت إذن عاشقة مجنونة بطالبٍ في أمراض الفم والأسنان. وعلى مرّ السنين، تعلمتُ أن أكتشف الجانب الفني في (إدوار)، لقد كان

(1) يعني رأي الأهل (الأصل الفرنسي).

قـــادراً على أن يتكلم عن مهنته بحماســـة المبدعين، وكان يدقِّق، بانفعال، في أدلة الأجهزة السِّـــنِّيَّة بحثاً عن دُحْرُوجَةٍ[2] من آخر صيحة. إنه يحتاج إلى شـــكل من الجنون حتى يقضي حياته في تأمُّل أسنان الآخرين. ولســـوف أضع بالحسبان الوقت لتوضيح كل ذلك. فبعد أن التقيت (سيلفي) لأول مرة، أتذكَّر أني سألتها:

– بصراحة، ما الذي أعجبكِ فيه؟

– أعجبتني طريقته في الحديث عن أضراسي.

– توقَّفي، وكوني جادَّة.

– لا أدري ما الذي أعجبني فيه. لقد جرى الأمر هكذا، وهذا كل شيء.

لا يمكنكِ أن تحبي طبيبَ أسنان، وليس بإمكان أحد أن يحب طبيبَ أسنان، ثم إن المرء يصبح طبيبَ أسنان لأن أحداً لا يحبه.

لقد كنتُ أقول ذلك غَيْرَةً، أو فقط لأجعلها تبتسم.

وقد مرَّرتْ يدها على وجهي، قبل أن تقول لي:

– سترى، لسوف تحبه أنت أيضاً.

– .....

وفـــي غمرة دهشـــتي العظيمة، كان الحقُّ معهـــا، لقد أصبح (إدوار) صديقي الأكثر قرباً.

بعد بضعة أشـــهر، التقيتُ بالحب بدوري، وكان ذلك بمنتهى البساطة، فطوال ســـنوات، وقعتُ في حب فتيات لم يكُنَّ ينظرن إليّ. كنت أجري وراء شيء صعب المنال، وأنا مصابٌ بنقص الثقة في النفس، وكنتُ أوشِـــك على التخلي عـــن فكرة الزواج عندما ظهرت لي (إيليز). وليس هنالك شـــيء اســـتثنائي أتحدَّث عنه،

(2) الدحروجة: عجلة صغيرة مسننة يستعملها طبيب الأسنان في القص (المترجم).

أعني أن كلَّ شيء كان واضحاً، لقد كنا نشعر بالراحة معاً، نتنزَّه، ونذهب إلى السينما، وكنا نذكر مذاقنا. وبعد سنوات كثيرة، ظلت إعادة التفكير بتلك الفترة من بداياتنا مؤثِّرة جداً. ولديّ الانطباع بأنني أستطيع لمسَ تلك الأيام بيدي. ولا أستطيع أن أصدِّق أننا قد شِخْنا، ثم من بإمكانه أن يؤمن بالشيخوخة؟ إن (إدوار) و(سيلفي) دائماً هنا، ونحن معاً لتناول الغداء، ونحب أن نطرق المواضيع نفسها. الحياة لا تتقدَّم بنا، لا شيء تغيَّر، سوى شيءٍ واحد هو: الوجع الذي أعاني منه اليوم.

وبناءً على نصيحة (سيلفي)، صعدت لأتمدَّد. كان رأسي يدور كما يحصل بعد سهرة يُدار فيها الخمر، مع أنني لم أكن قد شربت أكثر من كأس واحدة عند تناول المقبِّلات.

استمر الألم يستخفُّ بي، ولا يمكن إدراكه، وبعد بضع دقائق، انضمّ إليَّ (إدوار)، وقال:

- أنت بخير؟ قلقْنا عليك، أنت تعلم.
- الأمر غير مُسَلٍّ، أنا جادّ.
- أعلم. إنني أعرفك معرفة كافية لأعلم أنك لستَ من النوع الذي يمثل.
- .....
- هل بإمكاني أن أرى أين يقع الألم؟
- إنه هنا.

قلت ذلك وأنا أريه منطقته.

- إن كنتَ تودُّ، فسوف أنظر فيه.
- ولكنك طبيبُ أسنان.
- نعم، طبيب الأسنان، في النهاية، طبيب.

– أنا، في الحقيقة، لا أرى صلة بين الظهر والأسنان.

– اسمع، هل تريدني أن أنظر أم لا؟

رفعتُ قميصي، وجَسَّ صديقي ظهري. وبعد بضع ثوانٍ كانت تطفو فيها إمكانية إعلان خبر سيِّئ، أعلن بطريقة مطمئنة أنه لم يشعر بوجود شيء ذي بال.

– ألم تحسّ بأي ورم بسيط؟

– كلا، لا يوجد شيء من ذلك.

– ولكنني أحسّ به.

– هذا أمر عادي، فعندما يتألم المرء، يتهيَّأ له وجود تحولات في جسمه، وهذا شكل من التهيُّؤات مرتبطٌ بالوجع، وهو ما يحصل كثيراً، في أغلب الأحيان، مع مرضاي؛ فهم يشعرون بأن خدودهم متورمة، مع أنها ليستْ كذلك.

– آ..

– الأفضل هو أن تأخذ حبَّتي (دوليبران[3] Doliprane)، وأن ترتاح قليلاً.

فكرت، في دخيلة نفسي، أن هذا طبيب أسنان، وما قاله لي إنما هو تشخيص طبيب أسنان. وهو لا يعرف شيئاً عن الظهر، وأي طبيب أسنان غير خبير بالظهر. شكرته من طرف شفتيَّ، قبل أن يخيِّم عليَّ النُّعاس. والغريب أن الحبتين حسَّنتا من وضعي، فغطط في النوم. وطوال قيلولتي كنت أعتقد أن الوجع كان سراباً، وأن كل شيء سيعود إلى مجراه، وعندما صحوت، نظرت من النافذة. كان أصدقاؤنا بالتأكيد قد غادروا، لأن (إيليز) كانت جاثية على الركب في الحديقة، وهي تشم أزهارنا. لستُ

(3) حبوب مسكِّنة للألم ومُخَفِّضةٌ للحمَّى (المترجم).

أدري كيف يتم ذلك، ولكن النساء يشعرن، في أغلب الأحيان، بأن أحداً ينظر إليهن. وكما في السحر، أدارت زوجتي رأسها نحوي، وأرسلت إليّ ابتسامة، فرددت عليها بابتسامة، وكنت أعتقد أن هذا الأحد سيكون أخيراً أحداً، غير أن الوجع أصبح، في آخر النهار، شديداً.

(2)
شدَّة الوجع[4]: 6
الحالة المعنوية: قَلِق
(3)

لم أنقطع، طوال الليل، عن الصحو، وكنتُ أنظر آنذاك إلى المنبِّه (الترانزيستور) Transistor الصغير قرب السرير وهو يشير إلى الساعات والدقائق بأرقام مضيئة. لمت نفسي لأنني لم أمر على الصيدلية قبل النوم، لأشتري مضادات للآلام. وكنت أفكر بقلق فيما كان ينتظرني صباح الإثنين، فقد كان لديَّ اجتماع مهم مع بعض العملاء. كل الناس سيكونون جالسين جيداً حول الطاولة، وأنا لا أرى كيف سأخرج مع وجع ظهري، فقد كنتُ أُعِدّ لهذا اللقاء منذ أسابيع مع اليابانيين، وكان السيد (أوزيكيمي) Osikimi قد حضر شخصياً للقاء مسؤولي الوكالة، وهذه فرصتي أيضاً لأثبت لـ (يان غايّار) Yann Gaillard أخيراً أنني أجدر منه، ففي سبيل ترقية ذات مغزى، وجدت نفسي في

(4) قياس شدة الألم على سلّم مدرَّج من 1 إلى 10 (الأصل الفرنسي).

منافســة مع هذا الزميل، وإذا كنت قــد اخترت نوعاً من النزال المتزن والشــريف، فقد كنت أشعر بأنه جاهز لاستعمال كل أنواع الضربات ليطرحني أرضاً. إن حياتي في المؤسســة صارت منذ الآن لا تحتمــل، ولكن يجب عليَّ أن أتماســك، ولقد كنت أقاتل من أجل التقدُّم في المجموعة (وعندي بيت عليَّ تســديد ثمنه)، وقد كنت أنظر بحسد إلى بعض أصدقائي الناجحين في حياتهم المهنية، في حين إن حياتي المهنية كانت تأخذ أبعاداً غير إنسانية من الكفاح.

عندما رنَّ المنبِّه، كنت لا أزال مفتوح العينين، وأخبرت امرأتي بأنني لم أنم عملياً في الليل، فقالت:

- لقــد أصبــح الأمر بالفعــل مقلقاً، ولســوف أصحبك إلى إسعاف الطوارئ هذا الصباح.

- لا أستطيع، فأنت تعلمين جيداً أن عندي اجتماعاً.

- انظر إلى وجهك، إنك لا تستطيع الذهاب إليه هكذا، اتصل بالمكتب لتقول إنك ســتصل متأخِّــراً قليلاً، وأنا متأكدة من أنهم ســينتظرونك. إن كل النــاس يعلمون أنك لســت من النوع الذي يمثِّل.

لقد حصل مرتين في يومين أن ســمعتُ هذه العبارة بشأني، ولــم أكن أدري كيف عليّ أن آخــذ الأمر، فالمحيطون بي يعلمون بالتأكيد أنني لم أُفْطَر على المبالغة، ولقد كانت كلماتي متطابقة مع أفكاري، وينبغي أن يكون ذلك أصل عبارة (عدم التمثيل).

ولما كانت امرأتي تبدو مقنعة، فقد ذهبنا إلى المشفى، وبعثتُ رســالة إلى أمينــة ســري (ماتيلــد) Mathilde، ذات الأصل السويسري، لتُخْطِر الاجتماع بتأخري.

قالت (إيلِيز) خلال ذهابنا بالسيارة:

- أنا متأكّدة من أنه مرتبط..

- ماذا؟

- ألــم ظهرك والاجتماع هــذا الصباح مرتبطــان، الضغط النفسي اســتحال ضغطاً جسدياً، فأنت لم تتوقف عن القول إن هذا الاجتماع مهم لك إلى حد بعيد.

- نعم.. ربما..

وبعد بضع دقائق، ونحن منطلقان، تلقيت رسالة من (غايَّار) يقول فيها: (قالت لي ماتيلد بشــأن ظهرك، لا تقلق، فاليابانيون أيضاً أخبروا أيضاً بأنهم ســيتأخَّرون، وســوف ننتظرك.. أراك لاحقــاً «أ+»). لقــد كنتُ أكــره الناس الذين يختمون رســائلهم بـ (أراك لاحقاً «أ+»)، وعلى أي حال، كنت أكره كل من له علاقة مع هذا الرجل، ومعه أي رســالة كانت ستحدث الأثر نفسَه فيَّ، ولحســن الحظ، كانت (إيليــز) دائماً قربي، تخفِّــف عني دوماً بامتلاكها نزعةً عدوانيةً واضحة. وقد أدارت المذياع، فكانت فيه أغــانٍ من الماضي تهدهــد يوم «إثنيننا» صباحــاً، ولما كنت قلقاً برعبٍ من الحاضر، فقد كنت أسلِّم أذنيَّ للحنين.

عند وصولنا، جلســنا في قاعة واســعة مضــاءةٍ بمصابيح صفــراء، وكانت حولنا وجوه كثيرة منقبضــة، لم أكن وحيداً في جماعة الأحد المبلبل، فكل واحد كان يبدو مشغول البال، وبصورة مخجلــة قليلاً، كنت أطمئن لدى رؤية بعض الأشــخاص يعانون أكثــر مني. هذا يفيد ذلك الأمر، في قاعة الانتظار؛ يقيس المرء حالته بالنســبة لحالة الآخريــن، فهو يراقب ويســتمع، لم يكن يبدو أن حالتي أشــد حرجاً مــن الحالات الحرجة الأخرى. كان

هنالك فتى شـــاب منحنٍ قربي ويتنفَّس بطريقـــة مخيفة، وكان ينطق بكلمات غير مفهومة، تشبه صلاة، وعندما دعتني الممرضة اقترحت عليها قائلاً:

- ربما عليك أن تهتمي به أولاً، أليس كذلك؟

وبصراحة بدت مندهشـــة، وبالتأكيد كانت معتادة على مبدأ (كلٌّ ملزَمٌ بنفسِه)، وقالت:

- لا تقلق، سوف يأتي الطبيب.

- ......

- ينتظرونك في القاعة 2.

- آ.. حسناً.. شكراً.

وحين نهضتُ، أمعنتُ النظر للمرة الأخيرة في الفتى الشاب، وكان يبدو على (إيليز) أيضاً أنها قد تعكَّر صفوها بهذا المريض، ومع ذلك، وفي الوقت الذي غادرتها فيه للمعاينة، قالت لي:

- سأستغل الفرصة للذهاب إلى محل (ديكوراما) Décorama، إنه في الزاوية، سأحاول العثور على مصباح جديد لبهونا.

- آ..

- اتصل بي عندما تخرج.

هي التي كانت قد أظهرت كثيراً من الحنان منذ البداية، وهي التي كانت قد دفعتني للمجيء إلى هنا، وها هي ذي تغادرني فجأة، ربما كانت تخاف حضور صدور الحكم الرهيب. لا، لم يكن هذا محتملاً؛ فلو كانت تتخوف من الأســوأ، لما اســتطاعت الذهاب للتســوُّق. لم يكن لدي الوقت للتوقف على أسباب هروبها، ربما كانــت هذه حالة انفعالية مكتومة أو إعراباً عن فقدان الشـــعور (الذي ينبثق أحياناً مع الزمن في الحب الثابت)، لا بأس. وأعتقد

بخاصة أنها كانت تحاول تأزيم اللحظة، بجعلها تافهةً أيضاً مثل نزهــة خاضعة لحوادث غير متوقعة في حوانيت متضاربة. وفي الأصل، الحــق معها بالتأكيد، لأنني كنت قد بدأت أشــعر بثقل العالــم على كتفيَّ، ولم أكن قــد وصلتُ إلى أن أواجه بعزة نفس ما كان قد حصل لي. كان ذلك غير معقول، فوجع الظهر يحصل لكل الناس، وهذا لا شــيء، إنه نوع من الموعد الطبي الذي يمكن فيه للزوجة أن تقوم تماماً بالتسوُّق.

وفي القاعة 2، انتظرت أيضاً قليلاً، وبعد اجتياز مرحلة الفرز الانتقائــي، صرت الآن في الخدمة المناســبة، ومنذ وصولي إلى المشــفى، راح عقلي يركِّز على كل ما كان يجري حولي، مع نتيجة غريبة هي أن وجعي قــد زال، وحينذاك دعاني الطبيب لأتبعه، لقــد كنت أعاني منذ أكثر من يــوم، وهناك، أمام الاختصاصي، لم أكن أشــعر بشيء مطلقاً، ولسوف أبدو وكأنني مريض بالوهم يقوم بالاستشــارة لأتفه ســبب، أو كأنني واحد من أولئك الذين يثقلون على المشافي العامة بمراجعاتهم الوهمية. وبعبارة أخرى كدت أصبح واحداً ممن يمثِّلون، وعندما سأروي لـ (إدوار)، فيما بعد، هذه الواقعة، فهو قد يشرح لي إلى أي حد كان الأمر يتعلَّق بظاهرة نفســية تقليدية، ففي بيئة طبية، ليس نادراً أن تتلاشى الأوجاع، كما لو كانت تخشى أن تظهر للنور، ولذلك تتبدَّد.

اســتقبلني الطبيب بكثير من الحرارة، ونظر إليَّ كما لو كنت مريضه الوحيد هذا اليوم، وشــعرتُ بأنه كان يعشق مهنته، حتى إنه كان يتنــاول صَدْريَّته كل صباح بعاطفــةٍ وداد، وكنت أتخيله متزوجــاً من امرأة كانت تزاول مهنة حــرة بنصف وقت، وأنهما كان يسافران معاً إلى (صقلية) Sicile هذا الصيف، ليغوصا في

البحر، وأنها كانت خائفة، لكنه كان يعرف كيف يطمئنها، وأنه لمن المستحسن أن يسافر المرء معه لقضاء الإجازات.

قال لي:

- إنك لمحظوظٌ، ليس هنالك أناسٌ كُثُرٌ هذا الصباح.

- آ.. حسناً جداً.

- غالباً ما ينتظر المرضى أربع ساعاتٍ أو خمساً، ويمكن أن يصل ذلك إلى ثماني ساعات.

فعلاً إني لمحظوظ..

- والآن، ماذا يمكنني أن أفعل من أجلك؟

- عندي وجع في الظهر مستمر منذ أمس.

- هل يحصل لك غالباً؟

- كلا، إنها المرة الأولى.

- هل قمت بجهد خاص؟

- كلا، لا شيءَ يذكر، لقد حدث هكذا أمس، أثناء تناول الغداء.

- عَمَّ كنتَ تتحدَّث؟ هل نكَّد عليك شيء ما أثناء الحديث؟

- كلا.. في الواقع، لم أرَ ذلك، كل شيء كان عادياً.

- هل أنت مضغوط[5] stressé في هذه الأوقات؟

- قليلاً.

- إن ضغط الحياة هو السبب الأول لألم الظهر، وليس عبثاً أن يَقول الناس: (طَفَح الكَيْل)، فإلى هذا الجزء من الجسم تلجأ الهموم.

- آ..

(5) يعني ضغط هموم الحياة ومشكلاتها التي تسبب القلق، لا ضغط الدم الشرياني (المترجم).

كان بإمكانـــي أن أتصوَّره بســهولة يكرِّر هذه العبارة على كل المتوجعـــين من الظهر، وكان ذلك يســمح بجعل حالة غيرِ حتمية أمراً شبه عادي. كنت موظَّفاً تحت الضغط، وليس في ذلك شيء غريب. كنا جيشـــاً ندع أنفســـنا للقلق كي يجتاحنا، كلُّ شيء كان يبدو منطقياً.

– اخلع قميصَك، وتمدَّد على البطن.

نفَّذتُ ذلك بإذعان، كانت المرة الأخيرة، التي وجدت نفســـي فيهـــا هكذا، أثناء رحلـــة بعيدة إلى (تايلنـــد Thaïlande) مع (إيليز)، فقد دلَّكتني امرأةٌ شـــابة، ذات شعر أسود طويل، بزيوتٍ عطريَّـــة. يمكننـــا بصعوبة أن نجد لحظتـــين مختلفتين إلى هذا الحد. جَـــسَّ الطبيبُ لي ظهري وقتاً طويـــلاً من غير أن يتكلَّم، وكنتُ أحوِّل صمته ذهنياً إلى حكمة. وأخيراً قال:

– هل ألمك هنا؟

– نعم.. أخيراً.. في هذه المنطقة.

– تمام.. تمام..

لماذا قال (تمام) مرتين؟ إن تكرار الأشـــياء ليس إشارة جيدة، لقد قال إنه في حاجة إلى وقت قبل أن يعلن الحكم، وقال:

– حســـناً.. الأفضل أن نجـــري تصويراً شـــعاعياً radios، لنعرف منها أكثر قليلاً، وهذا سوف يساعدنا..

– فيمَ سوف يساعدنا؟

– في التقدم بالتشخيص.

– ......

– يمكنك الذهاب إلى خدمة التصوير الشعاعي هذا الصباح إن شئت.

- الأمـــر معقد قليلاً، فلديَّ اجتماع مهم، فهل يمكن الانتظار إلى هذا المساء أو إلى الغد صباحاً؟

- نعم، بالتأكيد.. على ألا تتأخر..

قال ذلـــك، صراحةً، بطريقة مقلقة، كما لـــو كان يحاول أن يخفي الضـــرورة العاجلـــة لحالتي، وقد حاولـــت الحفاظ على هدوئي، دافعاً بشـــجاعة آلاف الأفكار السوداء التي كانت تهاجم عقلي. كما أنني شـــكرته قبل أن أرتدي قميصي آلياً، وعلى عتبة الباب، وقبيل انطلاقي مباشرة، كنت آمُل أن ينطق الطبيب بجملة مطمئنة. ومثلَ كلبٍ يســـتجدي عَظْمة، كنت أريد أن أقضم كلمة صغيرة مشجِّعة، ولكن لا شيء من هذا القبيل، فقد كان يبدو في مكان آخر، وقد صرف نظره إلى مرضى آخرين، ولظُهُورٍ أخرى، لا أدري لماذا، ولكن هذه اللحظة بدت لي شبهَ مُذِلَّة.

وبالعودة إلى بهو الاستقبال، حددت موعداً صباح الغد، وقد طلبت إليَّ أمينة ســـري عدةَ مراتٍ أن أعيـــد ما كنت أقوله لها، وظلَّت الكلمات مســـتعصيةً في فمي، وكنت أشعر بالألم إلى حد بعيد، وأفكر مرة تلو مرة فيما جرى. أردت أن يقول لي الطبيب:

- هذا لا شيء.

أو يقول:

- هذا فقط نتيجة توتُّر.

غير أنه لم يقل شـــيئاً، ولقد مر صمـــتٌ طويل قبل أن يعلن ضرورة إجـــراء تصوير شـــعاعي، هذا الرجل كان يـــرى ظُهُوراً طوال اليوم، كان أفضـــل اختصاصي في آلام الظهر، وقد اتخذ قراراً بالاســـتمرار معي، والأســـوأ أنه قال إن عليه أن يتقدَّم في التشـــخيص. كانت هنالك مشـــكلة حتماً، نظراً لأنه كان يتحدَّث

عن بداية تشـــخيص، وهذه الكلمة ذات نغمة سلبية جداً، وليس بإمكاني أن أنظر إليها بخلاف ذلك، لم يكن المرء ليشخِّص جسماً في صحة جيدة. لقد كانت الكلمة ترِنّ كتمهيد لمأساة.

كنت أحاول استرداد أفكاري، من الواضح أنني كنت قد سوَّدت اللوحـــة، لقد غيَّر قلقي الواقع، وكنت أَثَرتُ انزعاج الطبيب، كان يتكلَّم ببساطة، وبطريقة محايدة ومتقطِّعة، كما يُفْعَل مع مريض لا يعاني من شـــيء خطير، وقد عشت خلال بضع ثوانٍ في وهم هذا الخِيَار المطَمْئن، قبل أن أتمرَّغ ثانية في الحقيقة القاســية، وكنت متأكِّداً من أن شــيئاً ما قد عكَّــر صفوَه، لقد كنت صافي الذهن، وذلك هو الذي خوَّفني من عاقبة الأحداث.

من جهة أخرى، ومنذ نهاية الاستشـــارة، حضر الوجعُ ثانية، وعادت التشــنجات أكبر، وقد بدا لـــي حينذاك أن منطقة الألم أخذت في الاتساع، وتفشَّتْ مثل بقعة حبر على ورقة، وقد لامس الألم الآن عظمة العُصْعُص، وتوسَّع ليغطي المنطقة القَطَنية كلها.

وقد وجدتُ (إيليز) عند الخروج من المشفى، فقالت:

- هل أنت بخير؟ أنت شاحب تماماً.
- عليَّ أن أجري تصويراً شعاعياً غداً.
- تصوير شعاعي؟
- نعم، فقط للتحقُّق.
- ......

ويبدو لي أنها سلســلت الحديــث بتعليقين أو ثلاثة، ولكنني لم أســتطع الإصغاء لها، وكنت أحاول الاســتماع لصوت العقل والتفكير في الاجتماع الوشيك. لم يكن لديَّ ما أفعله، فقد كنت مختطَفاً بصورة منتظمة من قبل الموقف مع الطبيب. كنتُ أعيد

التفكيـر في اسـتجوابه الأوّليّ: هل كان هنالـك على غداء يوم الأحد شيءٌ ما يمكن أن يكون كدَّرني؟ كلمة، أو جملة، أو حركة؟ وقد أعدت التفكير في نقاشـنا، فلم أرَ شـيئاً يفسِّـر معاناتي الحالية. ولكن للحظة، كنت أشـعر بأنني مرتبك جداً في العثور على جميع كلمات أمس. وهذا المسـاء، بهدوء أكبر عليَّ أن أعيد عـرض حديثنا، ويجب مواصلة التحقيـق، وعدم إهمال أي أثر، والعودة بمنهجية إلى آثار الوقت حيث كان كل شـيء قد بدأ. إن ظهور ألم ما، إنما هو مسـرح جريمة، وحينما كنا في السـيارة، ولا أقولُ شيئاً، التفتت (إيليز) إليَّ، وقالت:

- هل أنت عاتبٌ عليّ لأنني تركتك؟
- بالطبع لا.. على الإطلاق..
- لقـد أقلقني الانتظار معك هنالـك، لقد كان ذلك يذكِّرني بأمي عندما كانت ترافق أبي إلى المشفى أثناء علاجه الكيميائي chimio.
- ......

لقد فوجئت بأن امرأتي تمكنت من إقامة صلة بين سرطان أبيهـا وما جرى لي، ولم تكن هذه المقارنة من المقارنات الأكثر تطميناً، غير أنني كنت أفهم شـعورها؛ فهروبها لم يكن ثمرة فقدان شـعور أياً كان، ومن جهة أخرى لماذا كنت قد تصورت ذلك؟ لقد كانت ممتازة، وتوازن عن علم بين ما يلزم من رحمة وما يلـزم من تفاؤل، وحين رأت حالتي، لـم تكن تحب كثيراً فكرة ذهابي إلى العمل، ولكنها كانت تعلم أهمية الاجتماع في هـذا الصباح، وقررت اصطحابي، وكنـت أرغب في أن آخذ سـيارة أجرة كي لا أؤخِّرها أكثر، غير أنها رفضت، وببساطة

أعلمتْ معاوِنتَها بتأخرها. كانت امرأتي سـيدة عملها، وهذا مـا كان يسـهِّل ترتيب جـدولِ مواعيدها، لقـد كانت تدير حضانة، وعملاؤها كانوا رجالاً ونسـاء مسـرورين باستعادة أطفالهم في المسـاء، وكل ذلك يجري في جوٍّ مَرَح لطيف، إنه عالَم صغير، عالَمٌ ما قبل الناس الراشدين. لقد كانت (إيليز) سـعيدة مِهَنياً، باسـتثناء أمرٍ واحد تقريبـاً، هو أن الأطفال لم يكونوا يتذكرونها، ويحدث أن يقابلوها في الشارع، وينظروا إليها وكأنها مجهولة تماماً عندهم، وقد كانت تقول في أغلب الأحيان:

- إني لآسَـف إلى حد بعيد لأن الذاكرة لا تبدأ في زمن أبكر من ذلك.

وصلنـا قبل السـاعة العاشـرة بقليل، كنت قـد تمكنت من حضور اجتماعي، وقبل أن أنزل من السـيارة مباشـرةً، وضعت (إيليز) يدها على خدي وهي تهمس بقولها:

- كل شيء سيمر على ما يُرام.

شدة الوجع: ٦
(4)
الحالة المعنوية: مشغول البال
(5)

لقد مرت عشـر سـنوات على عملي لـدى (ماكس باكون MaxBacon، وهـو واحد من أهم مكاتب الهندسـة المعمارية، وكنت أهتم بالقسـم المالي للمشاريع، ولم يكن هذا الأمر يمنعني

من إبداء رأي حساس، أو لا أقول رأياً فنيّاً، في الملفّات. وإن لم تكن وظيفتي -بحصر المعنى- مؤثِّرةً، لكنني كنت مرتبطاً بهذه الحياة التي تنتظمها البيانات والميزانيات، وكنت أَمَسُّ مساً خفيفاً كذلك المجال الحسي للأرقام. وكنت أحب البحث عن الأسباب العاطفية، حتى في الأشياء الأقل أهمية، مثل أثاث مكتبي، فقد كنت أشعر مثلاً بشكل من المحبة تجاه خزانتي، التي كانت تَصِرُّ بطريقة مؤثِّرة، وكان ذلك منقولاً عن (متلازمة ستوكهولم[6] le syndrome de Stockholm)، فإذا شرع بعضهم في حب جلاديهم خلال اعتقالهم، فقد كنت أشعر ببعض الراحة في مسايرة الناس المخدَّرين بحياة الالتزام. وقد أمضيتُ سنوات مريعة في هذا الضيق بلا روح، وكان ذلك يحزنني، لأنه كان يتوجب عليَّ أن أتلف تلك السعادة بحماقة المنافسة، وهكذا كان، فقد تغيَّر الناس، وصار على المرء أن يكون فعّالاً، وأن يكون منتجاً، ويجني الأموال، ويجب عليه أن يقاتل للكفاح ضد جميع صيغ (يجب). إننا نسمع طرق الجيل الجديد، الذي جوَّعتْه البطالة، على بابنا، هذا الجيل الذي حولته التقنيات الجديدة إلى (روبوتات). كلُّ هذا ولَّد لديَّ كثيراً من الضغط، إن العصر

(6) ستوكهولم هي عاصمة السويد، وكان أول من أطلق هذا المصطلح في علم النفس، سنة 1973، الطبيب النفساني السويدي (نيلز بيجيروت) Nils Bejerot، الذي كان استاذاً للطب الاجتماعي في (معهد كارولينسكا) Karolinska Institute، ويعني به مشاركة الضحايا لسجانيهم أو المختطفين لخاطفيهم أو أهل بلد مستعمر أو محتل للمعتدين عليهم، مشاركة وجدانية تنشأ من خلال المعايشة، وتتم عن طريق إثارة الإعجاب بهم وبسلوكهم، ولكن بشرط ألا يمارس هذا المعتدي عليهم أي نوع من أنواع التفرقة الإثنية أو العرقية أو الكراهية، مع نمو الشعور بالثقة من قبل الضحايا بالمعتدين عليهم، ونمو الشعور الإيجابي من المعتدين نحو ضحاياهم، وهذه المتلازمة ظاهرة من ظواهر اللاشعور عند الإنسان، ويمكن أن نلخص هذه المتلازمة بكلمة (الألفة) بين الطرفين، وذكر الكاتب هنا الألفة بين بطل الرواية والأشياء المحيطة به كهذه الخزانة التي كانت تصدر صريراً مزعجاً، نظراً لتعوُّده عليه، فأحبه (المترجم).

الذي كان المرء يشرب فيه (المقبِّل[7] l'apéro) يوم الجمعة مساء عند هؤلاء أو أولئك يبدو أنه قد انتهى، والآن، صار المرء يرتاب، فصار بالإمكان أن تبدو العلاقة الودية أمراً مشبوهاً تقريباً. وبعد سنوات من اللامبالاة، أصبحت حياة الشركة تشبه بلداً تحت الاحتلال، ولم أكن أعلم إنْ كان عليَّ أن أقاومه أو أتعاون معه.

وحينما وصلت في ذلك الصباح، هرعت إلى المصعد للوصول إلى الدور السابع، حيث ينعقد الاجتماع، وأثناء الصعود، استغللتُ الأمر لأنظر إلى نفسي؛ ففي المصعد مرآة كبيرة كانت تتيح للمرء أن يعيد تسريح شعره، وتضبيط ربطة عنقه أو ثَنْياتِ لباسه، فلاحظت ثانية وجهي المثير للشفقة، غير أن ذلك لم يكن الجزئية الأهم، فقد صُدِمتُ بشيء غير مألوف أكثر بكثير؛ بقطرة عرق.

هذه هي المرة الأولى التي يظهر فيها العرق لديَّ هكذا من غير أدنى صلة ببذل جهد جسدي. راقبت للحظة وجيزة هذه القطرة على صُدغي قبل أن أمسحها، وفور خروجي، وقعتُ على (غايّار)، فقال:

- آ.. هذا أنت، لحسن الحظ أن اليابانيين تأخروا، فلم يَفُتْك شيء.

- آ.. حسناً.

- وهمومك، هل أنت بخير؟ كنتَ في إسعاف الطوارئ، أليس كذلك؟

- بلى، بلى، ولكنني بخير، شكراً، لقد كان الأمر إنذاراً خاطئاً.

(7) كلمة (l´apéro) هي الكلمة الشائعة عن أصلها (l´apéritif) بمعنى المقبِّل، وهو الشراب الذي يتم تناوله قبل الطعام ليفتح الشهية (المترجم).

- تمام، فهذا ليس الوقت لندع أنفسنا نسقط، نحن بحاجة إليك، يا عجوزي!

لقد تلفَّظ العبارة الأخيرة وهو يُرَبِّتُ على ظهري، لقد كان مظهرنا مظهرَ صديقين دائمين، وكان جَزَعُه يبدو حقيقياً، وللحظة، قلت لنفسي ربما كنتُ قد بالغت في تقدير منافستنا، فهو يبدو سعيداً بعودتي. كان هذا الاجتماع يقوم على مشروع واسع جداً لإعادة الإعمار بعد كارثة (فوكوشيما[8] Fukushima)، وسيكون موضوع بحث مع (أوزيكيمي) وزملائه من القسم المالي في الملف، وقد تقاسمنا أنا و(غايّار) هذه المهمة الكبيرة، وسيحضر رب العمل (جان - بيير أوديبير Jean - Pierre Audibert) بالتأكيد هذا اللقاء الجوهري، وقد كان نموذجاً للرئيس الذي يحاول أحياناً أن يظهر بمظهر القريب من مرؤوسيه، مع أنه عاجز عن إقامة علاقة إنسانية حقيقية، ويمكننا أن نعتقد تقريباً بأنه كان قد وُلِد ربَّ عمل، ومع أنه حُقِنَ بدروس خصوصية، فقد عرف الشروط الكاملة للانتساب إلى مدرسة كبيرة، وبعد دخوله في الـ HEC [9]، انقاد لميوله. ولما كان لا يتحمَّل الضغط الدائم، بدأ يدخِّن الحشيش ويُفْرِط في الشراب. ولكنه أدرك بسرعة قصوى أنه لم يُخْلَق للانحراف، واستعاد سيطرته على نفسه بصرامته الطبيعية، ومنذئذٍ قضَّى حياته في الاستقامة، وحتى

(8) كارثة فوكوشيما هي الكارثة التي أصابت محطة فوكوشيما النووية اليابانية شمال طوكيو، نتيجة تعرضها في آذار (مارس) من سنة 2011، لضربة من أمواج مدٍّ عاتية (تسونامي كما يسميها اليابانيون)، فأدت إلى انصهار قضبان الوقود في ثلاثة مفاعلات، وإلى تسرب شعاعي لوَّث الهواء والماء والمواد الغذائية، وإلى إجلاء نحو 160 ألف نسمة من محيط المحطة، ولا تزال عقابيل الكارثة تتفاعل حتى اليوم (المترجم).

(9) هذه الحروف اختصار لـL´École des Hautes Études Commerciales de Paris، وتعني: مدرسة الدراسات التجارية العالية بباريس، وهي من أرقى المدارس التي تخرِّج رجال الأعمال في فرنسا، وترجع جذورها إلى القرن التاسع عشر (المترجم).

شارباه الرماديان الدقيقان، ذوا الطراز شبه الإنكليزي، لم يحيدا قط عن استقامتهما الأفقية التامة.

وفي الأوقات الحاسـمة، كان (أوديبير) يعلم بالتأكيد كيف يبرهـن على حرارة الاسـتقبال. لقـد كان اليابانيون منزعجين بصراحة لتأخرهم؛ لأن التأخُّر في بلادهم شـكل من الأشـكال العليا لعدم التهذيب، وعند اسـتقبالهم، حاول أن ينشر قليلاً من جـو المرح، قائلاً إنه يقدِّر لهم محاولتهم اتباع عاداتنا، وكان يرى في تأخرهم هذا (تكريماً لفرنسـا)، وقد ابتسـم الجميع بشكل عفـويّ؛ كان هذا مَرَحاً في اجتمـاع تقليدي جداً، يفيد بترطيب الجـو عند الانطلاق فيـه. وحينئذٍ باشـرنا الاجتماع بمنهجية، عارضين تفاصيلَ المشـروع الطموح نقطـة فنقطة، وبينما كنتُ مركِّزاً على ملفِّي، ناسـياً حتى في تلـك اللحظات آلام ظهري، وكنت مرتاحاً تماماً، قاطعني فجأة أحد مستشاري (أوزيكيمي)، وهو الذي كان يتكلَّم الفرنسية، قائلاً:

– اعذرنـي لمقاطعتك، ولكني لـم أفهم كيف توصَّلتَ إلى مثل هذه النتيجة.

– بخصوص أي قسم؟

– بخصوص المركز التجاري.

– آ..

– نعم. إنه مقدرٌ تقديراً مفرطاً، ولا أدري ما قاعدة حسـابك أو كيـف أجريتـه، ولكني أفضِّل أن أقول لك فـي الحال إننا لن نأخذ بعين الاعتبار مقترحك.

– لكن..

– ولو أطلعتُ رب عملي عليه، لكنتُ أخشى أن يغادر الطاولة.

فتمتمتُ قائلاً:

– أنا لا أفهم.. ومن المستحيل أن يكون أكثر تنافسية..

وعندئذٍ شَـــحُب لوني، وقد لاحظ الجميع ذلك. وفي خضم هذا الشـــحوب، كان بإمكاني أن أشعر بنظرة (أوديبير) السوداء إليَّ. وفي هذه اللحظة، أحسستُ بقطرة أخرى من العرق تتكون على صُدغي (لقد كانت الأولى وكأنها إنذار مسبَّق بهذه القطرة)، وقد عملتُ فوراً على هذا الملف؛ إن هوامشنا الربحية قليلة جداً، لم أكن أفهم ردة الفعل هذه، واســـتعدت في رأسي بسرعة جميع حســـابات الأشـــهر الأخيرة، على طريقة إنسان يستعرض، وهو يحتضِـــر، صور حياتـــه قبل أن يرحل. كلا، حقيقـــةً، لا أرى أين تكمن المشكلة.

ومـــع ذلـــك، بقيت المشـــكلة قائمة، كان (غايّـــار) يجلس في مواجهتي، وفجأة شَرَع في الكلام، قائلاً:

– أعتقـــد أن معاوننا لم يُدخِل كل البيانـــات، والنتيجة مبنية على قاعدة سيئة. لقد أدركتُ خطأه، وبناء على ذلك ردة فعلك..

– ......

– وفـــي الحقيقة، الأمور بســـيطة.. ولســـوف يُصحِّح تقدير الأرقام مباشرة.. انظر إلى هذه الوثيقة.. برِبربر.. بربربر[10]..

لم أسمع بقية أُطروحتِه الظافرة، لقد كان قد نصب لي فخاً بدفعي إلى العمل منذ أسابيع على وثائق مزوَّرة، وقد انتظر حتى أقف بلا حَرَاك أمام الجميع، لينقذ الموقف، وكان المسكين يبدي تخوفه من عـــدم مجيئي هذا الصباح، وقد أدركتُ الآن بشـــكل

(10) هذا الصوت يقابل في الأصل الفرنسي الصوت (blablabla .. blablabla) الذي يعني الكلام الكثير الذي لا يتابعه المرء أو لا يفهمه، بسبب الشرود أو عدم المتابعة الجيدة (المترجم).

أفضل شعوره بالارتياح عندما وصلتُ. كان هذا الوقت يبدو ذروة المجد لطاقة الإضرار لدى هذا الإنسان. ماذا أفعل؟ أصرخ؟ أحطم كل شيء؟ كلا. ولئلا أعرِّض هذا المشروع للخطر، كان عليَّ أن أسكت، وهذا كل ما فعلته إلى أن غادر اليابانيون، لقد استغرق الاجتماع ساعة، كانت عذاباً طويلاً ومُذِلاً، إنه النسخة اليابانية من التعذيب الصيني.

وعندما غادر اليابانيون، الذين كانوا مع ذلك قمة في التهذيب، حَيَّوني دون اكتراث، وفي القاعة التي أصبحت فارغة، بقيتُ جالساً، بلا حَرَاك، ولاحظتُ جدول الاجتماع وعليه خربشات منظور خطِّيّ داعم لتنظيم مدينة ما بعد (فوكوشيما)، وقد سمعتُ (أوديبير) يصرخُ في الممرات:

- لكن أين هو هذا المغفَّل؟!

وأخيراً وجدني، وقد بدا لي رب عملي حينئذٍ كبيراً، كبيراً بإفراط، حتى ليمكن القول إن رأسه يكاد يلامس السقف، وقد بقي لحظة من غير أن ينطق بشيء، وكنتُ أعلم تماماً أن الصمت كان أسوأ من أي شيء، وقد عبَّر الناس عن ذلك بقولهم: (الهدوء الذي يسبِق العاصفة)، وأنا، كنت أرى حينئذٍ العاصفة في هدوئه، لقد كانت تتخبط داخل هدوئه لتنفجر بأسرع ما يمكن. قال:

- ما الذي أصابك؟ أتريد أن تُودِي بنا أم ماذا؟!

- لكن..

- لا يوجد (لكن..).. ولحسن الحظ أن زميلك كان هنا، ولستُ مستعداً أن أُوكِل إليك مسؤولياتٍ جديدةً في هذا المشروع!

- ......

- لقد خيَّبتَ أملي، خيبتَه بشكلٍ فظيع..

- ......

- وحتى صــدور أمر جديد، لن تفعل شــيئاً هنا، ولن تلمس شيئاً، مفهوم؟

- ......

- مفهوم؟؟!!

- نعم..

لقــد كان يكلِّمنــي كما يتكلَّــم إلى طفل، وقــد اضطررت إلى الخضوع التام، وكانت لديَّ رغبة في البكاء، ولحســن الحظ لم أكن أعلــم ماذا أفعل، فأنا لم أبكِ منذ زمن طويل جداً، ولم تعد عيناي تعرفان كيفية استعمال الدموع. واصل (أوديبير) الصراخ قليلاً قبل أن يغادر أخيراً، أصبحتُ مشوشــاً، وأخذ ظهري يذكِّرني بنفســي، لقد كان جسمي يرغب في أن يلحق عقلي في السباق إلى الكارثة، غيــر أنني بقيت فــي هذه اللحظة مقتنعاً بــأن آلام ظهري لم تكن مرتبطة بأي عَرَض جسدي أياً كان. ورحت أبحث لنفسي عن شيء مــا خطير وغير قابل للعــلاج، وكان هذا يلائمنــي تقريباً، إن رب العمــل لن يكون حاقداً عليّ أبداً إن أصبت بمرض لا بُرءَ منه، لقد كان هــذا هو الحل الوحيد الذي كنت قد فكرت فيه لجلاء صورتي لديه، ولســوف يتأسَّــف بالتأكيد على صراخــه العالي في وجهي، وعلى استبعادي من كل المشاريع، وسأذهب بعد ذلك كي أموت.

عاد (غايّار) حينئذٍ إلى القاعة بمشــية قائد صغير للمكتب، وهيئة موظف فاســد، وكان وجهه يَرْشَــحُ متعةً، وكنت أتســاءل كيف بإمكان امرئ أن يصل إلى هذا الحد من الرغبة في ســحق الآخريــن، وخصوصاً معي، فأنا لم أكــن الزميل الأكثرَ إزعاجاً، ولا الأكثــرَ طموحاً، إن مَجّانيةَ جموحه ســوف تحرِّضه أكثر من

ذلك، ولما كان بلا أساس حقيقي، فإن الرغبة في سحقي ستزداد أضعافاً مضاعفة. نظرَ في عينيَّ مباشرة قبل أن يقول:

- كلُّ امرئ مُلْزَمٌ بنفسه.

كانت هذه العبارة أسخف عبارة سمعتها في حياتي، فما حاجته إلى أن يغطِّي سَفَالته بالكلمات؟ لقد خامرني الشك على الرغم من أن كلَّ امرئ ملزَم بنفسه، فأنا لست في حاجة إلى شعاره كي أدرك الكره المعلن بيننا. لقد كان يرغب على وجه الخصوص في دفعي إلى الحافَّة، فبعد عبارته، ظل بصره شاخصاً إليَّ لبرهة. ربما كان يقول في نفسه:

- من غير الممكن ألا يَردّ.. من غير الممكن..

كان يبدو أن موقفي قد فاجأه. إنني لم أكن أتحرك، ولم يكن ذلك خِيَاراً. لم يكن بإمكاني أن أفعل خلاف ذلك، فبعد صبيحة المشفى، غرقتُ كليةً في الذهول مما كان قد جرى لي، وليس لذلك سوى أَمَد وحيد، لم أكن أعلم متى ولا كيف، غير أنني متأكِّد منه؛ إن هذه المسألة لن تطول.

(٦)

شدة الوجع: ٨

الحالة المعنوية: جاهز للانتحار

(٧)

في صباح الغد، وأنا أراقب المرضى في قاعة الانتظار في المشفى، فكرت ثانية في عبارة: (كلُّ امرئ ملزَمٌ بنفسه)، إننا جميعاً هنا، جنباً إلى جنب، على خط الانطلاق إلى غرفة التشخيص، وبيننا من معه أورام، ربما كانت سرطانات، ومن

هو سـليم، ولو كانت هنالك محاصصة للاختيار من بين أصحاء البنية، فسنكون حينذاك مثل كلابٍ نقاتل لنكون في صحة جيدة. إن ظلم المصادفة يلغي الصراع، إنَّ عبارة (كل امرئ ملزَم بنفسه) تعني هنا أن (كلَّ إنسان وحيدٌ في مواجهة قَدَرِه). كان لديَّ خوف إلى هذا الحد من أن أفقد حياتي قبل الأوان. إن كل ما كان يبدو لي عادياً جداً (في الأيام الخالية قبل المرض) تظهر لي الآن في ثـوب مختلف، كنت أريد أن أترحَّم على السـاعات التي لم أكن أدرك فيها سعادتي المجنونة، ولما كنت متألماً من الظهر، ومنقبضاً من الخوف، عاهدت نفسـي، إن خرجتُ حياً من هذا المأزق، أن أتمتَّع إلى النهاية بالحياة الصحيحة.

لـم تتمكـن زوجتي، في هـذه المرة، من مرافقتـي، وكان هذا يلائمنـي، لأنني كنت أفضّل إذا ما تم اكتشـاف شـيء ما خطيرٍ في صوري الشـعاعية ألا أتحدَّث عنه، وهذا بالتأكيد أسوأ ما في الأمر، وهو أن يعلن المرء للآخرين عن مأسـاته، ويبالغ أحياناً في هذه الحالة حتـى يطفَح كيل تصنُّعه، وكان واجبه أن يطمئنهم. إن الميـل إلى التكتم كان من طبيعتي الفلكية المنتمية إلى برج العقرب، فقد كنتُ أحب الانطواء على نفسـي، وأحترم السر أعظم احترام، وأحب أن أشـعر أكثر من الآخريـن بأني في الظل، وفي مأمنٍ من النـاس، فمثلاً، لم أَروِ شـيئاً لـ (إيليز) عمـا حصل معي أمسٍ في المكتب، فقد جعلتها، بطريقة تملُّصية، تفهم أن كل شـيء سار على ما يُرام، وفي النهاية، لم يكن عسيراً كثيراً تغطية الحقيقة هكذا، لأن (إيليز) أخذت تتحدَّث فوراً عن شيء آخر، إن اهتمامها باجتماعِي الحاسم كان قد تم ذكره بتهذيبِ أولئك الذين يسألونك إن كنتَ قد أمضيتَ نهاراً سـعيداً من غير أن يسـتمعوا في الحقيقة للجواب.

لقــد كان زواجنا غارقاً في هذا الحنان المهذَّب حيث من الســهل جداً قــراءة هموم الآخر قراءة خاطفــة. إن إخفاء حياتي لم يكن يتطلَّــب جهداً كبيراً. وعموماً، ما أعيشــه لم يكن خاضعاً لاهتمام زائد من محيطي، وفي الأســاس، كنتُ أكذب قليلاً بالتأكيد؛ فقد كنت أحب الســر لأتكيَّف مع نقص اهتمــام الآخرين، وإذا ما جاء أحدهم يطرح عليَّ أدنى ســؤال شخصي مظهِراً اهتماماً حقيقياً، فقد كنت مستعداً لأن أروي له حياتي من الألف إلى الياء، وقد كنت أحسُــد أحياناً وقاحة أولئك الذين يتحدثون عن أنفسهم ساعاتٍ، محقونين بمركزيةِ الذات مرهفةِ الشعور.

وبعــد بضع دقائــق، دعاني مصــوِّر الأشــعة، وعلى عكس زميلــه في الأمس، بدا لي جافَّ الطبع جداً، فقد بيَّن لي إجمالاً مــا ينبغي لــه عمله، حتى من غير أن ينظر إلــيَّ.، ولكي أُطَمئن نفسي، أقنعتها بأن كل ذلك كان أمراً عادياً، وكان عليه هو ببساطة أن يهتم بالجانب التقني من استشارتي، وقد تم التشخيص، وكان عليَّ أن أمر بهذا الفحص الشــعاعي، ولم يكن هنالك من سبب للمماحكة ســاعات بشــأن حالتي. من جهة أخرى، كان يلائمني تقريبــاً أنه يتم الأمر بطريقة باردة نســبياً، وينبغي أن أقول إنه كانت ترافقه مساعدة شابَّة، كانت في رأيي متمرِّنة، وقد رشقتني بابتســامات خفيفة محتشِمة، وعدَّلت هذه الابتسامات من برود رئيســها. وخلال بضع ثوانٍ، تمكنت مــن ملاحظة كل الإعجاب الذي كانت تُكنُّه لــه، وكان عليه أن يجعلها ضمن الطاقم الطبي جافــة الطبعِ قليلاً، ولولاها لربمــا كان الرجل الأكثر حرارة في الناس، لقد غيَّرته النظرة الســاحرة من امرأة شــابة إلى عمله، ولم يكن هنالك شيء مفهوم.

أن تكـــون مريضاً الآن أمر مرهق بما فيه الكفاية، فقد كان عليَّ في الوقت الحاضر أن أُلْصِق ظهري على لوح بارد، أو حتى جليدي، وأنا قاطع النَّفَس. لقد شـــلَّ القلق قدرتي على الفهم، حتى كان عليَّ أن أبدو بهيئة الأبله الكامل وأنا أعيد السؤال عن الأوامر. لـــم أتوصَّل إلى أن أفهم بالتحديد متى عليَّ أن أقطع النَّفَــس، فقد كنت أتنفس دوماً عند تغيير الوضع، وقد أُضيف إلى الخوف من النتيجة خجلٌ صغير من أن أكون مريضاً سيِّئاً، فكل مريض يرغب في أن يبرهن بطريقة مثيرة للشـــفقة بأنه زبون جيد، حتى إنه يتفوه أحياناً قليلاً من الفكاهة، كي يعرض أبهةً مخادِعة لاســـترخائه، ولـــم تكن تلك حالتـــي، فقد كنت تحللتُ ســـريعاً جداً، ولديَّ رغبـــة تقريباً في أن يخبروني فوراً عن مرض لا شـــفاء منه لينتهي إلى هذا الشـــكل من التعذيب الحديث، نعم (تعذيب)، وليســـت هـــذه الكلمة قوية جداً، فقد كنت أســـمع تعليمات مصوِّر الأشعة من غير أن أراه (لقد كان في الجانب الآخر من لوح زجاجي) على طريقة المعذِّبين الذين يبهـــرونَ عينيك حتى لا تتم رؤيتهم، وكان يطلب إليَّ أن أتحرك إلى اليســـار، ثم إلى اليمين، تماماً كما يُصَوَّر مجرمٌ تم إيقافه للتو، وربما كنتُ سأُدان.

وبعد جلسة مركَّزة، توقَّفتْ التوجيهات، وأعتقد أنني سمعت مصور الأشـــعة يهمس، كان عليه أن يحلل مع مســـاعدته ما كان يـــراه، ولكن لِمَ لا يكون ذلك أمامي؟ إنه بذلك يتركني كجِذْع عارٍ ملتصـــق بلوح بارد، بينمـــا يتذاكى أمام طالبـــة بعمر ابنته. وقد ترَدَّدْتُ في أن أسأل:

– هل كل شيء بخير؟

أو أي شـــيء يذكِّرهما بوجودي، غير أنني لم أفعل ذلك، لن أعود إلى التعامل مع مصور أشـــعة معه متدربة، لقد كنتُ هشـــاً جداً نفسياً كي أصبح حالةً للدراسـة، وكنت أرغب في أن يُغرِيَها، ويَعِدَها بقضاء عطلة نهاية الأســـبوع في (البندقية) Venise أو في (هامبـــورغ) Hambourg، ولم أكن مبالياً في الوقت الذي تذكَّرا فيه أنني موجود. كانت جلسة التصوير الشعاعي قد بدأت بتنـــاول عذاب طويل بطريقة شـــاذة، وفي قاعـــة الانتظار، كنت أتمكن من القيام بحســـاب الزمن المتوســـط الذي يلزم المريض، فتبيَّن لي أنني أقف على رأس القائمة.

خرج الطبيب أخيراً من حجرته، فقال:

– لسوف أجري سلسلة جديدة.

– سلسلة جديدة؟ لكن لماذا؟

– أفضل أن أكون متأكِّداً..

– متأكِّداً من ماذا؟

– لا شيء.. والصحيح أن.. هناك واحدة من الصور الشعاعية.. إنني في حاجة إلى مزيد من التدقيق.

– ......

– سيتم ذلك سريعاً، لا تقلق..

وذهب بســـرعة، حتى من غير أن يتيح لي الوقت لأســـتجيب لجملته الأخيرة، لا شـــيء أكثر إقلاقاً من أن يســـمع المرء عبارة: (لا تقلـــق)، وقد كنـــت أحاول المحافظة علـــى هدوئي، ومواجهة حالتـــي بســـكينة، إن الذعر لن يفيد شـــيئاً. الطبيب يريد فقط التحقُّقَ.. ولكن التحقُّق من ماذا؟ قال:

– خذ نَفَساً عميقاً.. واقطع.

- ......

- جيد جداً، بدأتَ تصبح موهوباً.

كنت أسـمع جيداً، لقد كان يمرح، وليس هنالك أكثرُ إقلاقاً مـن أن يمرح إنسـان عندما لا تكون الحالـة مضحكة، ولم أكن أتحمَّـل أن يتذاكى عليَّ، بينما كنت أشـعر بالألـم أكثر فأكثر، وأصبح الوقت لا يُطاق، كل شـيء هنـا يرهقني، كم من الرجال والنسـاء مثلي، وحيدين ونصـفَ عراة، ينتظـرون الحُكْم! وكم دخلوا إلى هنا في صفاء، قبل أن يغادروا مرعوبين من القلق! أنا لا أعرف هذا المصور الشـعاعي، إنه لا يعني لي شيئاً، ولا أعلم شيئاً عن حياته، وها هو يضع مصيري بين يديه. إن حياته تقوم على توزيع الأخبار الجيدة والسيئة، ليس بإمكاني أن مارس مثل هذه المهنـة، فلو كان عليَّ أن أوجد أمام صور شـعاعية كارثية، ولو كنت أعلن لمريض عن موت على وشـك الوقوع، لكنت نجوت بنفسـي راكضاً، وحتى هذه اللحظة، لا يزال مصور أشعتي هنا، ولم يقرِّر بعدُ الهروب.

ومن حجرتـه، أعلمني أنه بإمكاني أن أرتـدي ثيابي، وهذا ما جرى، فقد كنت سـعيداً بالعثور على ثيابي ثانيةً، كشـكلٍ من الحماية، وتقدَّم نحوي ليخبرني قائلاً:

- اسمع، إن صورك الشعاعية تبدو في مجملها عادية تماماً..

- في مجملها؟

- هل صحيح أن عندك ألم أسفلَ الظهر؟

- نعم.. نعم، هو ذاك.

- كي أقول لك كل شيء، أعتقد أن ليس عندك شيءٌ خطير، ولكـن في الأعلى قليـلاً، فوق مركز الوجع الذي أشـرتَ إليه..

هنالك ما يشبه لَطْخَةً صغيرة..

- ......

قال لي وهو يريني الصورة الشعاعية المقصودة:

- انظر، إنها هنا..

- لست أراها.

- نعم، إنها حقاً صغيرة، وهي ليست خبيثة، هل صحيح أنك لا تراها هنا؟

- آ.. نعم، بالفعل.

- ليس من داع لأن تقلق.. ولكني أعتقد أن من الأفضل أن تأخذ صورة [11] IRM.

- صورة ماذا؟

- صورة IRM.. من أجل رؤيةٍ أدقَّ للصور الشعاعية، ويتيح ذلك الكشف عن الأورام المحتملة.

- رؤية.. ورم؟ ولكن لماذا تقول لي هذا؟ هل تعتقد بأن عندي ورماً؟

- كلا بالطبع.. قلت لك هذا بشكل عام، وإن وجد ذلك، فلديك ببساطة فقرتان متلاصقان.

- لا يبدو عليك أنك تؤمن بهذا الخِيَار..

- بلى..

- ......

إن كلمات هذا الرجل، إضافةً إلى الوجع الذي أشعر به منذ يومين، زعزعتني، ولا أشعر أني بخير، فتقدمت نحو الحائط

(11) أصل هذه المختصرات الفرنسي: Imagerie par Résonnance Magnétique، وتعني: التصوير بالرنين المغناطيسي (المترجم).

لأســند ظهري إليه، أما هو فقد بدا أيضاً أنه سيمضي، وقد طلــب إلــى المتدربة أن تحضر لي كأس مــاء، ثم اقترب مني، وقال:

- اسمع، هذا فحص شائع جداً.. ولسوف يسمح لنا أن نتأكَّد أنّ ليس عندك شيء..

- ......

- وهذا شديد الاحتمال.

قال ذلك مــن غير قناعة، وهو يتراجــع إلى الخلف لتجنب إصابتي بوعكة أثناء خدمته، فأؤخره بالنتيجة عن متابعة نهاره، وعن اســتراحة الغداء، حيث كان يأمُل بأن يَثِب على مســاعدته الصغيرة التي تخدمه. أنا لم أكن مجنوناً، إن هذا الرجل لم يكن قط مُطَمّئِناً، لقد كانت لديــه طريقة مُقْلِقة جداً هي عدم إنهاء جمله، وترك علامات وقف بين كلماته، وهذا يعني حتماً شيئاً ما، فالمرء لم يكن ليترك فراغات في كلامه إن لم يكن يخفي شــيئاً؛ كالنيات الســيئة، والكوارث المقَنَّعة. لماذا افتقد إلى اللطف لهذا الحــد؟ لا يمكن أن ينطق المرء بكلمــة (ورم) هكذا، ومن ثَمَّ يبيِّن كأن شــيئاً لم يكن، وقد سألتُ متى عليَّ أن أجري هذا الفحص، فقال:

- فــي أبكر وقت يكــون أفضل.، وهذا مثل ذاك.. وســوف تَخْلُص.

- تقول هذا مثل ذاك.. أم من أجل ســتر الطابع المســتعجَل للأمر؟

- وهو كذلك. فقط من أجل أن تَطْمَئنَّ بأسرع وقت ممكن.

- ......

- لن تشعر بشيء، إن الأمر كحجرة لإجراء صورة [12] UV.

استنتج ذلك وهو يرمق مساعدته التي كانت قد عادت إلى الحجرة وبيدها كأس ماء.

ارتديت ثيابي داخل الحجرة. لم يكن هذا الرجل يكف عن الموالاة بين الحرارة والبرودة، لم يكن الاستماع إليه يعني شيئاً، ولكن ذلك كان ضرورياً كذلك لدفع التحريات، وهو أيضاً، كان يرغب في أن يتقدَّم في التشخيص، ومن ثَمَّ نطق بكلمة (ورم)، وهي واحدة من كلمات اللغة الفرنسية الأكثر ترويعاً لي[13]، وكنتُ أرى في نفسي عنكبوتاً، ولقد بذلت دقائق طويلة في إغلاق أزرار قميصي، وكان كل زرٍّ مثل سباق (الماراثون) [14] marathon.

وأنا خارج، التقيت بالمتدربة، فوجَّهتْ إليَّ ابتسامة عريضة قبل أن تقول لي:

- إنه يحبّ كثيراً أن يجري المقارنة مع صورة (الأشعة فوق البنفسجية) ليرطِّب الجو.

- ......

- من الطبيعي أن يشعر المرء بالضغط، إن ألم الظهر يثير الأعصاب.

---

(12) أصل المختصرين في الفرنسية UltraViolet (أي الأشعة فوق البنفسجية) وهي تستعمل في التصوير الطبي للخلايا، وهذه الأشعة تصدر في الطبيعة عن الشمس، ولها منافع كاكتساب اللون النحاسي للجلد (البرونزاج) واكتساب فيتامين (د)، ولها مضار كسرطان الجلد، وضربة الشمس، وذلك بمقدار التعرض لأشعة الشمس وكيفيته (المترجم).

(13) تماماً مثل الكلمات: gérer (أدارَ شركة)، وfraction (كَسْر عشري)، وbilan (ميزانية)، وjuilletiste (تموزي [يأخذ إجازته في شهر تموز / يوليو])، وchroniqueur (محرر أخبار)، وconsanguin (قريب)، وponction (بَزْل)، وderechef (مرة أخرى)، وrâpeux (خشِن) (الأصل الفرنسي).

(14) الماراثون: سباق على الأرجل لمسافة نحو 42 كم، وهو من المسابقات الأولمبية (المترجم).

- ......

- كل شيء سيمضي بخير ويمر.. حسناً، سوف أدعك.

قالت ذلك وهي تبتسم.

وقد حاولتُ الابتســـام أيضاً، ولكن فكي كان متشـــنجاً، وقد شـــعرت بنوع من الخجل للظن بما كنت أعتقده فيها، لقد كانت تبدو رصينة، ومُجدَّة، وإنسانية، وقد رأيتها تغادر، وفجأة بدا لي ظهرها رائعاً.

(٨)

شدة الوجع: ٨
الحالة المعنوية: يائس

(٩)

انتقلتُ بصعوبة من مكاني، وكنت أشعر أن قسماً من الجسم محصورٌ بين بابين. قبل مغادرتي المشفى، كنت أرغب في أن أمر لرؤية طبيب الأمس، ولحســـن الحظ، صادفته في أحد الممرات، فســـألني في الحال كيف حالي، وقد بهرني هذا الأمر. لقد رأى عشـــراتٍ من المرضى منذ موعدنا، مـــع ذلك يمكن الاعتقاد أننا تركنا بعضنا منذ قليل، فأسررت إليه أن مصور الأشعة نصحني بأن أمـــرّ بفحص صورة الرنـــين المغناطيســـي IRM. وللحظةٍ كالبرق، بـــدا متفاجئاً، ولكنه بمهنية تمالك نفســـه فـــوراً بهيئةٍ اعتيادية. نعم كل شيء عادي، ولا ينبغي على وجه الخصوص أن تقلق، إنه فحص دقيق يتيح حقيقةً إقامة تشـــخيص دقيق، وأخذ وقتـــاً في إضافـــة بعض الكلمات ليصف انتشـــار تصوير الرنين المغناطيســـي وطمأنني، وفي أقل من دقيقة، جعلني أرتاح. كنت

منزعجاً لتعطيله أكثر، ومع ذلك كلّمته عن الآلام التي لا تنقطع، فقال:

- آ.. نعم.. سأصف لك مضادات للآلام، إنها حبوب (الكوديئين) codeine [15]، وعليك أن تداوم عليها، وسأضيف لك على الوصفة بعض المسكِّنات.

- ......

- وهنالك أيضاً إبَرُ (الكورتيزون) cortisone [16]، ولكني لا أنصح بها.

لم يكن لي أي رأي في المسألة، وقد شعرت بثقة تامة بهذا الرجل، وبعد أن أعطاني الوصفة، شكرته بحرارة لمساعدته ولطفه، وقد أتاح لي موقفه أن أتماثل للشفاء قليلاً، ومنحني القدرة على أن أواصل نهاري كما ينبغي.

وفي الشارع، بحثت عن صيدلية، وبدا لي غريباً ألا أعثر على واحدة في الحال في مقابل مشفى، فحول المقابر، هنالك الكثير من بائعي الزهور وفي كل مكان. وأخيراً، على بعد أقل من مئتي متر، لمحت واحدة، استقبلتني فيها امرأة مبتسمة، ولكنها بطيئة قليلاً، وقد استغرقت خمس دقائق على الأقل في فك رموز الوصفة والعودة إلى المراجع في الحاسوب، وكان يلزمها خمس دقائق أخرى أيضاً للبحث عن العُلَب. عندما يعاني المرء، عشر دقائق، فكأنها الأبدية. وبعد انطباع أولي لطيف عنها، أصبحت لدي الآن رغبة في أن أقتلها. وعند الدفع، قالت لي:

- هل لديك ألم في الظهر؟

(15) يستعمل للتخفيف من الآلام المعتدلة والشديدة (المترجم).

(16) يستعمل لمعالجة جملة من أنواع الالتهابات (المترجم).

- نعم.
- أنت لست الوحيد، في هذا الزمن كل الناس لديهم ألم في الظهر.
- آ..
- إنها حقاً الموضة.
- ......

لم أكن أرى في الحقيقة ما يمكن أن أرد به على ذلك، لديَّ إذن ألم على الموضة، كان بإمكاني على الأقل أن أستخلص من ذلك بعض الرضا. ومن ثَمَّ، كانت هنالك منافع؛ منها أنني لا أعاني من مرض يتيم، مجهول من الجميع. إن الحياة الطبية نشأت من أجلنا، وقد طلبتُ إلى الصيدلانية كأس ماء لأبتلع حبتين مباشرة، وخرجت، وأنا أتخيل صف الانتظار الطويل الذي كان يمتد خلفي.

وفي الخارج، لم أكن أعلم ماذا أصنع؛ فالذهاب إلى العمل كان فوق طاقة قواي، ولم أكن أملك القدرة الضرورية لمواجهة الكارثة. ما الطائل من ذلك؟ لقد أصبحت رجلاً منبوذاً، إنهم لا يريدونني، كنت أستبعد الفصل من العمل، لأن ما فعلتُه لم تكن له نتيجة مباشرة، ولكن مهمتي القادمة ستكون اختباراً للعبارة القائلة: (وُضِعَ على الرف) être mis au placard، وكنت أستبعد أن أُطرد من الوظيفة بفضل ماضِيَّ كموظف نزيه، فمسيرتي المهنية كانت بلا لَطْخَةٍ حتى الآن، ويبدو لي كذلك أنني كنتُ مقَدَّراً من الجميع، وأستثني (غايّار) بالتأكيد، ويمكنني أن أقول له بلا فخر:

- لقد كنتُ زميلاً طيِّباً، وكنتُ أعرف كيف أعمل في

مجموعــة، وكيــف أســتمع لكــل واحــد، وكنت أعرف كيف أُدْخِل جُرعة من الإنسانية في (النزعة المكتبية) البيروقراطية bureaucratie.

أمــس، بعد الظهر، عــاد (أوديبير) ليرانــي، وبينما غادرت رجــلاً هائجاً، ومحاطــاً بعاصفة، فإذا به قــد ظهر في مكتبي بهدوء تام، وقــد فكرت غريزياً بأنه مثــال الرجل الصالح؛ فهو صادق ومســتقيم، ويخضع منذ نعومة أظفــاره لقوانين العدالة والإنصاف، وكان ينبعث منه علــى الدوام نوع من القوة الهادئة. وحتــى لو كان رد فعله تجاهي مســوَّغاً، فقد توقعتُ، من خلال رؤيتــه يظهر في مكتبي، أنه كان يلوم نفســه. ولم يكن يحب أن يَحِيد عن طريق العلاقــات الودية، لقد كان يملك جميع صفات الدبلوماسي البارد والمدير الإداري المزهو، ولم يمنعه ذلك من أن يصيح كتاجر سجاجيد، وبصوت رزين، ولكنه ضعيف جداً، قال:

- يمكن أن يحدث لكل الناس أن يرتكبوا خطأً يوماً ما.

- ......

- وأنا أعرف مزاياك، ولقد كنتَ بالتأكيد ضحية إجهاد.

- هذا هو الأمر..

- وعليك أن تدرك أنني أســتطيع أن أعهد إليك بمسؤوليات في الأزمنة القادمة..

- ......

- وأنا لا أشك في أن الثقة سوف تعود بيننا، ولسوف نتصدى آنذاك للمستقبل بهدوء.

إن لطــف هذا الرجل المباغت كان قــد فاجأني لدرجة أنني لم أســتطع الرد عليه، وكان هذا هو الوقت الملائم لأفضي له كل

شـــيء، وأن أروي له المكيدة التي كنتُ ضحية لها، ولكن شيئاً ما منعني، ففي قرارة نفســـي، كنتُ أشـــعر بأني مذنب، ولم يكن لي عُذْر. وأنا مســـؤول عن منحي ثقتي لـ (غايّار)، فقد كان عليَّ أن أتحقَّق من المستندات التي زوَّدني بها، ولا يستطيع المرء أن يقول إنـــه كان يتصرَّف بمكر، فقد كان دومـــاً يبدي لي بوضوح تفهمه للتنافس بيننا. لقد كان يســـتأهل كل كرهي، ولكنني كنتُ ساذَجاً بشـــكل فظيع، لأنني لم أتفحَّص كلَّ شيء، وليس بإمكاني إلا أن أتقبَّل نصيبي من المسؤولية عن زَلَّتي.

وبينما كنت أمشي بصعوبة في الشارع، وأستعيد التفكير في زيـــارة رب عملي لي، كان عليَّ أن أعترف بشـــيء رهيب، وهو أن ما كان يحدث لي لم يفاجئني تماماً، وكأنني كنت أعلم دوماً أنني ســـوف أنتهي إلى الدرك الأســـفل بين الناس. لدى بعض الناس يقـــينٌ بنجاحهم، فيمتلئون طموحاً وهم يعلمون أنهم ســـيدفعون ثمن ذلك يوماً ما، كما هو شـــأن السياســـيين، وأنا، كان يبدو لي أنني كنتُ أعيش حياتي مع الشـــعور بأن في جسمي عداً عكسياً للإخفاق، وكنت أعيش في يقين لاشعوري بالكارثة، وقد استفحل هذا الشـــعور في الســـنوات الأخيرة، إن شـــيئاً ما قد تفتَّتَ فيَّ، فاستبعدني نهائياً من فئة المنتصرين، وقد أظهر نهار أمس إتمام شـــعورٍ كنتُ عاجـــزاً عن التعبير عنه حتـــى الآن، وهو أنني كنت أعاني طيلة حياتي.

وبشكل غريب، لم أكن يائساً من الموقف المهني الحرِج الذي وجدت نفسي فيه، صحيح أنني كنتُ في حالة سيِّئة، ولكن ميلي إلى التشـــاؤم أنقذني من الانهيار الكلي، وقـــد كنتُ غارقاً في هذه النقطة من تأملاتي عندما تلقيتُ رســـالة من (إيليز) على

هاتفي المحمول[17]، كانت تعبِّر فيها عن قلقها من نتيجة الصور الشعاعية، فأجبتُها بأن كل شيء كان على ما يُرام، وقد كنت أحب حداثتنا لأجل ذلك؛ فقد أصبح بالإمكان تبادل الأخبار بين الناس من غير كلام، ولم أكن موهوباً كثيراً في المحادثات الهاتفية، فهي غالباً ما تورِّط، ويكون هنالك دوماً شكل من الخشونة في إغلاق الخط، وعلى الأقل، لا يكون بإمكان زوجتي أن تلمح القلق في صوتي. كانت الحبّتان قد فعلتا فعلاً جيداً، ولكن هذا لم يغيِّر شيئاً في وجهتي، فغداً سأذهب لعمل تصوير بالرنين المغناطيسي IRM. لقد كان الجميع يسعون جاهدين لطمأنتي، وكان هذا دورَهم، ولكنني لم أكن لأكفَّ عن تصوير حالتي وإعادة تصويرها في ذهني، فهم لم يكونوا ليجروا تصويراً بالرنين المغناطيسي هكذا، والجميع يعلمون إلى أي حد كانت المشافي مزدحمة. لقد انتهى الزمن الذي كانت فيه الاستشارات تجرى بلا تروٍّ، حيث كانت تنقصهم كثير من الوسائل، فكانوا يذهبون مباشرة إلى الأمر الجوهري في الحالات الأكثر خطورة. تنفَّستُ بملء رئتيَّ الهواء حتى أُوَقِف هذا السيناريو المخيف، ولم أجد سوى المشي؛ المشي بهدوء، حتى تهدأ نفسي. منذ زمن طويل لم أرَ مدينتي يوم الثلاثاء صباحاً. لقد نسيت تقريباً وجود أيام الثلاثاء، وقد أبعدتني حياة المكتب عن كثير من الأيام، وبلا انقطاع، كنتُ أوالي ما بين الحار والبارد في نفسي[18]، لقد كان الجنون الدوريُّ يسري في

(17) لقد أصبح بعضنا مرتبطاً ببعض عن طريق هذه الأجهزة، وفي بعض الأيام، كنتُ أشعر معها بسعادة حقيقية، وفي أيام أُخَر، أحس بشعور الاختناق.. (الأصل الفرنسي).

(18) يستعمل الكاتب هذه الكناية للمرة الثانية ليعبِّر بها عن تقلب تفكيره بين الشيء ونقيضه، فتارة يرتاح ويطمئن ويتفاءل، وتارة أخرى يتشاءم ويتخوَّف ويقلق (المترجم).

عروقي، وبدأت أدرك قيمة تسكُّعي، إنه لشيء ساحر أن تتمكن من التنزُّه في بحر الأسبوع، هكذا، من غير هدف محدَّد. لقد كنتُ ألاحظ كل جزئية بإعجاب جديد، وكان يلزمني بضع دقائق لأتقبَّل إلى أي درجة كان كل هذا مألوفاً. إن حبي المفاجئ ليوم الثلاثاء كان بالغ التأثير. علينا الخوفُ من فقد الأشياء كي نحبها بشغف. إن كل ما قد رأيته حولي كان جماله لا يقاوم كما يبدو لي، لقد كنتُ مثلَ بطل قصة (الموت في البندقية) [19] La Mort à Venise، غير أن الكوليرا كانت تنقصني.

وحينذاك فكرت في (إدوار)، فإذا كان لديَّ انطباع بأننا كنا أقل قرباً في الأوقات الأخيرة، فأنا أرغب الآن في رؤيته، فقد كان ذلك النوع من الأصدقاء الذي يمكنني أن أشاطره همومي من غير أن أسوِّغها له، وحتى من غير أن أحدِّدها له. وقد سرتُ ساعةً كاملة لبلوغ عيادته. كانت قاعة الانتظار فارغة، فجلست بلا ضجة، وبعد بضع دقائق خرج، ومن غير أن يبدي أي علامة للدهشة سأل:

– هل تؤلمك أسنانُك؟

(19) هي قصة للكاتب الألماني (توماس مان) (1875-1955) Thomas Mann، الذي مُنح جائزة نوبل في الآداب سنة 1929، وأصبح من أشهر كتاب أوروبا في القرن العشرين، وتقع ترجمتها الفرنسية في نحو 91 صفحة، كتبها بالألمانية ونشرها سنة 1912، وهي من وحي رحلة قام بها الكاتب سنة 1911 إلى شاطئ الأدرياتيك الإيطالي وإلى البندقية، التقى خلالها بأسرة بولونية، من أفرادها مراهق بعمر 11 سنة، يدعى (آتسيو) Adzio، كان أشقر وفائق الجمال، فأغرم به الكاتب، وأصيب (مان) بوعكة صحية في البندقية، وقد جعل بطل قصته (آشِنْباخ) Aschenbach كاتباً من ألمانيا أيضاً، ويصف معاناته من إعجابه بالفتى، وإصابته بالكوليرا وموته على الشاطئ، ويسود فيها ذكر مواضيع المرض والموت، والفن، والحنين.. وقد وصفها بعض النقاد بأنها أروع قصة في القرن العشرين. وله أيضاً عمل مهم هو قصة (الدكتور فاوست) سنة 1947. كان الكاتب متعصباً في بعض أعماله، قبل ظهور النازية، للمزايا الألمانية، ثم أصبح ديمقراطياً ومعادياً للنازية، ولذا هاجر إلى سويسرا سنة 1933 حين تولى النازيون السلطة في بلاده (المترجم).

(١٠)

شدة الوجع: ٧
الحالة المعنوية: صوفيّ

(١١)

لا، لم يكن لديَّ ألم في الأسنان، وبإمكان المرء أيضاً أن يقوم بزيارة طبيب أســنان صديقٍ له من غير أن يعاني من أضراسه. لقــد كان يظهر بصراحة متفاجئــاً، إن أصدقائي يرون فيَّ إذن رجلاً بلا جاذبية في الأمور غير المتوقعة في العلاقة الإنســانية، فإذا لم أكن من النوع الــذي يمثِّل، فبالإمكان القول أيضاً بأنني لست من النوع الذي يقوم بمفاجآت، وهذا صحيح، فأنا أحب أن أخطِّط، وأن أُخبِر، وأن أُنْذِر. قال:

– في الحقيقة، لقد ســرَّني قدومك، أضف إلى ذلك، وهذا عظيم، أن الســيدة (غَرِّيش) Garriche ألغــت للتو موعدها، وهكذا يُتاح لنا الوقت، فليس عندي شيء حتى الساعة 14.45.

– آ.. حسناً.

– يمكننا أن نذهب إلى المطعم الإيطالي في الزاوية، ولسوف ترى! إنهم يصنعون (تيراميسو) tiramisu [20] لذيذة جداً.

– ......

– علــى الأقــل أنــت لا تفــضِّل (الجــزيــرة العائمة) [21] ؟flottante leî

(20) التيراميســو: الحلوى المفضلة عند الفرنســيين، وهي مأخوذة مــن المطبخ الإيطالي، ولذا حملت اسمها بالإيطالية معها أيضاً، ولها أنواع (المترجم).

(21) الجزيرة العائمة: نوع من الحلوى الفرنســية، وتســمى أيضاً (بيض بالثلج)، نظراً لمنظرها بعد تجهيزها للتناول (المترجم).

وقبــل أن نذهــب إلى المطعــم، ودَّ بأيِّ ثمــنٍ أن يريني آخر مشترياته، وهو كرسيٌّ مريح جداً لمرضاه، وقال:

- انظر، يمكنهم أن يضعوا أيديَهم هنا، إنه مكســو بنســيج ناعم..

- آ..

- ويمكــن أن يتيــح لهم تخفيف الوجع. إنــه لا يبدو كذلك، ولكنه يخفِّض خوف المريض بنسبة 10%..

- آ..

- وهنا، كما ترى، لوضع الساقين.. والمستوى يتكيَّف، وكأنك في الدرجة الأولى على (الطيران الفرنسي) Air France..

- ......

- لن أقول لك إن الذهاب إلى طبيب الأسنان سيصبح، عما قريب، متعةً حقيقية..

وعند هذه الجملة الأخيرة لم أرُدّ، ويبدو أنه هو نفسه لم يكن ليضيف شيئاً إليها. إنه لرائع أن يحب المرء مهنته هكذا (مع أنه طبيب أسنان)، وأن يفكِّر في مرضاه بتأثُّر. وإن لم يكن هذا الأمر في زمن مضى يهمني، فقد بــدأت أتأثَّر بتوهُّجه المهني، ورحتُ إلى حدٍّ أن أطرح عليه بعض الأسئلة، لأعرف بعض الإيضاحات عن كرسيِّه هذا، وقد جعله سعيداً، إلى حد بعيد، لأننا بقينا وقتاً طويلاً نتحدَّث عنه، كأننا مأخوذون بعاطفة عميقة نحوه.

وفي طريقنا إلى المطعم، وقف (إدوار) فجأة، وقال:

- لكن.. ألم تعمل اليوم؟

- أخذتُ يومَ راحة.

فقال وهو قلق:

- آ.. آ.. لعله خير؟

- ......

- هل لديك شيء ما تخبرني به؟

- لا..

- أتيتَ تتغدَّى معي من غير إخطار، وتريد أن أصدق أنْ ليس لديك شيء تقوله لي؟

- بالضبط، إن الأمر كما قلتُ لك: لا شيء. لقد مررتُ فقط لرؤيتك، هكذا، كما في السابق.

- ولكنك لم تفعل ذلك في السابق قط.

- حسناً، لو كان الأمر كذلك لكنتُ بدأتُ..

هــذا صحيح، لــم أكن قد جئت قط لرؤيتــه بهذه الطريقة، إن صداقتنا ترتكز على لحظــات ذات معالم، والخروج المفاجئ للقطــار عن الخط أوقعنا في الارتبــاك التالي: هل بإمكاننا أن نكــون أصدقاء خارج الأمكنة والأزمنــة التي تحدِّدها صداقتنا؟ كان (إدوار) قــد تقــدم، مثلي، في الحياة بطريقــة متوقَّعة، في المطعم كانت طاولته نفسها تحجز دائماً. إن الناس الذين يملكون هــذا النوع من نقاط العلّام يبهروننــي، لا أطيق أن يتعرف عليّ أحد، لأن ذلك يتطلب كلاماً، ولست أملك دوماً الكلمات الطيبة، وهذه الطريقة من الانغلاق على العادات لا أحد يرى فيها روعة حيائــي، وكان (إدوار) على النقيض؛ فهو يحبّ أن يكون معروفاً، وأن يهتــم المرء بــه، وأن يُؤخذ بعين الاعتبــار، وكان هو ومدير المطعم يتخاطبان بضمير المفرد، ويسأل أحدهما: (كيف الحال؟)، فيــرد الآخر: (وأنت كيف الحال؟)، وبعد تمهيدات المجاملة، كانا يتنــاولان بالحديث دوماً بعض العموميات عن السياســة، وحالة

الجو، والعمل، وكل ذلك في أقل من دقيقة، وهذا نوع من المقدمات قبل الوصول إلى الطلب. وإذا كان كل هذا لا يبدو متغيِّراً، فإنه يبقى نطاقاً يؤدي إلى غير المتوقع؛ وهو طبق اليوم، وكان هذا التنويع يومياً يثير قليلاً من (الأدرينالين)[22] adrénaline عند المرتاد، وقد اكتشفتُ بوضوح بريقاً في عين صديقي حينما سأل:

- ما طبق اليوم؟

يمكنني أن أتصوَّر (إدوار) وهو يأتي وحيداً إلى هنا بعد الظهر، فأراه يتلذَّذ بكُرَيّات اللحم وهو يقرأ صفحات (سومون فيغارو)[23] les pages saumon du Figaro. كانت هذه الصحيفة تمنحه أهمية برجوازية، وقلقاً مالياً، بينما لا شيء كان يهمه غير حركات البورصة، وكان ينظر بطرف عينه إلى النسوة الثلاث الجالسات قربنا، واللواتي كنَّ يأتين أيضاً بانتظام كما يبدو إلى هنا، وكنَّ دائماً ما يردِّدن النقاشات نفسها عن الزملاء أنفسهم. لم يكن يتغيَّر شيء في عالم بطاقات - المطاعم[24] - tic ets - restaurant، كانت الأولى تفكِّر بصوت عالٍ، وكنت على استعداد لأن أُراهِن على أنها كانت تنطق كل يوم بهذه الكلمات:

- أوه.. هل سأتناول اليوم معجَّنات أم (بيتزا) pizza؟

وبعد قليل تصرف النظر قائلة:

- كلا، سوف آخذ طبق (سلطة)، وهذا مناسب أكثر.

---

(22) الأدرينالين: هرمون تفرزه الغدة الكَظَرية عند الكُلْيَة فتسرِّع ضربات القلب (المترجم).

(23) صفحات (سومون فيغارو): باب في صحيفة (لو فيغارو) الفرنسية يهتم بأخبار المال والأعمال والاقتصاد والبورصة والمشاريع، إلخ.. (المترجم).

(24) بطاقات إلكترونية تشتمل على أسماء المطاعم التي يمكن دفع ثمن الطعام فيها عن طريقها، بدلاً من النقود المحمولة، وبمجرد استقطاع الثمن تأتي رسالة على النقال بحسم المبلغ من الرصيد، والرصيد المتبقي، وفي فرنسا نحو 3.5 ملايين مستخدم لهذا النوع من البطاقات (المترجم).

وهكذا أخذت صاحبتاها بجريرتها طبقي (سـلطة) أيضاً، ولـم تتناولا (بيتـزا) ولا معجَّنات، وكنت أتوه مـراراً أيضاً في متاهـة هـذا الخيار. لا يعـرف المرء إلا أن يـأكل، وأن يختار، وأن يلغـي كل الآخريـن، إن لائحة الطعـام تلخيص مطلق لكل حرماناتنـا. تناولت النسـوة الثـلاث أطباق (السـلطة)، وهن يحلمن بـ (الإسـكالوب الميلاني) escalope milanaise [25]، وبعد ذلك طلَّقْنَ (السلطة) ليجرِّبْنَ حياة جديدة مع (اللازانيا) lasagnes [26]، غير أن هذا لم يكن قط بسـيطاً، فالمرء يتعب أيضاً من (اللازانيا).

كان (إدوار) ينظـر مثلي تماماً إلى النسـوة الثلاث، وقد كان يحلم في أنه ربما تجرَّأ، في يوم ما، على التقرُّب منهن، وقال في نفسـه: لكن من الصعب جداً أن يتعرَّض المرء لامرأة هكذا، ومَنْ بإمكانه أن يُقْدِم على هـذا النوع من التصرف؟ ومن بإمكانه أن يجد الكلمات المناسـبة من غيـر أن يُعرف أنه صيادٌ وضيع؟ أما إذا كان لديهن مشكلات في الأسنان، فسيكون هذا الأمر أسهل. وفـي هذه اللحظـة، اعترف لي بأنه ليس ضـد القيام بمغامرةٍ صغيـرة خارج الزواج، وهي قصـة يريد بها أن يضيف قليلاً من الفلفل إلى حياته، وهنا سأله النادل:

- هل ترغب بقليل من الزيت المفلفل مع طبق (البيتزا)؟

فأجابه:

- كلا، كلا.. شكراً..

---

(25) شـرائح من اللحم الأبيـض (الدجاج أو السـمك) على الطريقة الإيطاليـة في (ميلانو) (المترجم).

(26) اللازانيـا: نوع من الأطعمة الإيطالية تتكون من أشـكال من المعجنـات مع اللحم والجبنة وغيرها، وهي بالإيطالية (لاسانيا) (lasagna) (المترجم).

كنا قد اخترنا طبقَيْ (بيتزا الأجبان الأربعة)، ولم أكن أعتقد أن بإمكاني تناولها، لكن اتضح آن معدتي تعيش مستقلة بذاتها، ولا تكاد تتأثَّر بظهري، لقـــد فاجأني (إدوار)، ويمكنه، بالتأكيد، أن يشـــعر بالرغبة في نساء عابرات، ولكنه هنا يتكلم عن قصة، ولما كان يحب امرأته بعمق، فلن يكون خاضعاً لرغبة في الذهاب لرؤيـــة مكان آخر، وأظن على وجه الخصوص أنه كان في حاجة إلى التعبير عن هذه الرغبة لئلا يحرم منها، فالكلام علاج مهدِّئٌ دون المضـــيّ إلى الفعل، وأنـــا أعلم أنه عاجز عن أن يعيش قصة أخرى، ولم يكن ليذكر احتمال ذلك بصراحة إلا لأنه كان يشـــعر تماماً بأنه غير قادر عليه. وقد سألته:

– هل الأمور جيدة مع (سيلفي)؟

– جيدة جداً. إنها تعمل كثيراً. إنها منشـــغلة كلياً بمعرضها الضخم. يجب عليك أن تمر لرؤيتها في مشغلها، وهذا سيسرها.

– نعم، لقد وعدتها أن أمر.

– ......

– ولكن هل الأمر جيد بينكما أنتما؟

– بيننا؟

– نعم، بينكما.

– لماذا تسأل عن ذلك؟

– لا أدري، أجد الأمر شاقاً، أعني الحياة في اثنين.. وأنتما، أنتما تبدوان دائماً..

– أليس الأمر جيداً مع (إيليز)؟

– بلى، إنه جيد جداً، ومع الزمن.. لا يبدو هذا واضحاً دائماً.

– اسمع، نحن مرتاحان، وهذا رائع جداً..

وحينئذ اقترب مني، ليقول بصوت خفيض:

- أنت تعلم، هذا الأمر سـخيف.. هذه الليلة مارست الحب ثلاث مرات، وقد مضت عشرون سنة ونحن معاً، ولن نتوقف.

- هذا جميل..

- ولكن أنت، ومنـذ غادر الأبناء، ألا ينبغي أن تصبح الأمور جيدة؟

لقد وجدت هذه الجملة غريبة، وكأن مغادرة الأبناء تستدعي فضاءً من الحرية المؤاتية لتجديد الغرام. لا، إن مغادرتهم لم تغيِّر شيئاً، بل إن الأمر تدهور، وقد زعزع أحوالَنا اتِّفاق الظروف؛ لقد غادر الاثنان في وقت واحد، ففي آخر الصيف، أعلمتنا (أليس) Alice بأنها ستذهب للعيش مع (ميشيل) Michel خطيبها، وهو أكبر منها باثني عشر عاماً، وأنا لا أعرفه إلا قليلاً جداً، وقد التقيا قبل شهرين أو ثلاثة، ويُشْبِه هذا حباً غير أكيد أخذ بسرعة شكل ارتباط ثابت، وقد لامتني، على ما يبدو، لأنني أبديت بروداً عندما أعلمتني بهذا الخبر، ومن ثَمَّ لم أكن لأذهب دوماً لرؤيتها في شقتهما المشتركة، على الرغم من وعودي الواهية، لأن ذلك فوق طاقتي، فقد تمت الأمور بسرعة مفرطة وبقسوة هائلة، ولا يمكن لبنت أن تغادر أباها بهذه الطريقة، وكان ينبغي اتباع المراحل بمنهجية.

وكما أن الخبر السيئ لا يجيء وحده قط، فإن ابني الشاب أعلن أنه سيرحل ليواصل دراساته في الولايات المتحدة، وسيقضي سنة كاملة في (نيويورك)، ولما كان طالباً متألِّقاً، فقد حصل على منحة حتى من غير أن يُعْلِمَنا بأنه كان قد قدَّم طلباً. أي أب كان سيفرح بهذا المسار الجميل، وقد بدا لي هذا الأمر، وبخاصة بعد

رحيل ابنتنا، شيئاً ثقيلاً، ولم أكن الوحيد في ذلك، فقد تشاطرت هذه الصدمة مع امرأتي، وبين ليلةٍ وضحاها، بقينا وحدنا نحن الاثنان. إن ابني لم يبلغ بعدُ الثامنةَ عشرة، وقبل سنتين، كان عمره خمسة عشر عاماً، وقبل ذلك بثلاثة أعوام أيضاً، كان عمره فقط اثني عشر عاماً. يمكنني أن أدير الأرقام في كل اتجاه، ولكن لا شيء يمكن أن يبطِّئ سرعة الإيقاع المرعب لنموِّه. كلا، إن رحيل الأبناء لم يكن رحيلاً جديداً في حياتنا الزوجية، لقد كان هنالك رحيل جديد في حياتنا، إنه تحوُّلٌ قاس، تحوُّلٌ لم نكن مهيئين له، وقد جعلنا مُبلبَلَيْن وأخافنا بقدر ما أثارنا.

ولما شعر بأنه اقترب من موضوع حساس، انتقل إلى شيء آخر هو ظهري، وقد تردَّدتُ لبضع ثوان في أن أخبئ عنه الحقيقة، ولكن بعد كل شيء، كنت في حاجة إلى الحديث عنه على الأقل لشخص ما. ومن جهة أخرى: أولم آتِ لرؤيته من أجل ذلك؟ فرويتُ له كل شيء؛ الجلسة الطويلة الغريبة وغير العادية لصور الأشعة، ومن ثم مقاطعة التصوير بالرنين المغناطيسي IRM، فقال:

- آ.. طيب؟ صورة IRM؟

- هذا غريب، أليس كذلك؟

- كلا.. إنهم يريدون أن يعرفوا عن ظهرك المزيد.. هذا كل ما في الأمر..

- هذا خطير، ألا تعتقد ذلك؟

- لا أدري، لم أرَ صورك الشعاعية، ولكن لا تقلق، هذا الفحص شائع جداً..

- لقد اكتشف الطبيب شيئاً ما، لا يمكن تفسير الموضوع غير ذلك.

- إن قلقك الآن لا يفيد شيئاً، هل تتألم دوماً؟
- نعم، إن الألم ينقضُّ عليَّ بانتظام.
- يمكنك أن تجري جلسات وخز إبَر acupuncture. يبدو أن هذا فعّال جداً.
- آ.. لا.. إنني أفضل الموت على أن أعرِّض نفسي لغرز هذه الإبَر.
- إذن اعرِض نفسك على طبيب عظام ostéo. إنني أعرف منهم واحداً جيِّداً، إن أردتَ.
- ......
- طيِّب، لا تغضب، سيُحَدَّد لك موعدٌ غداً، وسيجري كل شيء على ما يُرام، أنت تعلم أن الرجال أحياناً يجلبون لأنفسهم المال هكذا.. بأن يفرضوا فحوصات إضافية.. إنهم يسعون إلى الأرقام..
- ......
- لا ينبغي لي أن أقول لك ذلك، ولكن هذا ما يحصل لي أنا أيضاً.. أن.. كيف أقول.. أن أقوم بتصوير شعاعي لزبائني.. الذين أعلم أنْ ليس عندهم شيء.. إن الطب تجارة كغيره..
- أنت تعتقد أن تصويري بالرنين المغناطيسي مثل ذلك؟ إنه لأمر مقزِّزٌ أن يتلاعب المرء بقلق الناس.
- أنا لم أقل ذلك، ولكن هذا ممكن.
فقلتُ آلياً:
- إن له ظهراً سليماً، وظهري..
من غير أن أحسب حساباً للعب بالكلمات، فأخذ (إدوار) يضحك، ولكن بالمعقول، كصديقٍ قلِقٍ يريد أن يستر قلقَه.

وقــد حاولتُ أثنــاء الغداء أن أتنــاول مواضيع أخرى، ولكن ذهني ظل مرتبطاً بمناقشــة التصوير بالرنين المغناطيسي، وقد كنتُ أجيب إجابات آلية عن أسئلة (إدوار)، وقد ألح عليَّ أن أطلب حلوى، فوجدتُ نفســي مع (جزيرة عائمــة)، وكان لدي انطباع بأنني أمام مــرآة، فرحت آكل المُطابِقَ المحلَّــى لحالتي المعنوية، وحينئذٍ قال (إدوار):

– هل تعلم من سيقدِّم لنا الخير؟

– لا.

– لننطلق نحن الاثنان، في عطلة نهاية الأسبوع بين الأصدقاء. بصراحة، أنا أيضاً في حاجة أن أروِّح عن نَفْسي.

– نعم، هذه فكرة جيدة.

– يمكننــا الذهــاب إلى (جنيــف) Genève. أنت تعشــق (سويسرا) la Suisse، أليس كذلك؟

– نعم، ولكني ذهبت إليها عدة مرات من أجل العمل، وأفضل تجنُّبها.

– إذن إلى (برشلونة) Barcelone؟ إنها الحلم.. (برشلونة)!

– لقد كنتُ في إسبانيا الصيف الماضي مع الولدين..

– آ.. نعــم، هــذا صحيح. و(روســيا)؟ ســتكون عطلة نهاية الأســبوع رائعة في (سان-بطرسبرغ) Saint-Pétersbourg، ففيها أجمل الفتيات في العالم..

– ......

– ولسوف نزور منزل (دوستويفسكي)[27] Dostoïevski..

(27) دوستويفســكي (فيــدور – Fedor): كاتب روســي (1821–1881)، له جملة روايات من أبرزها (الجريمة والعقاب) و(الإخوة كارامازوف) (المترجم).

وقد فاجأني هذا الاقتراح الأخير، لأنني و(إدوار) لم نكن منذ سنوات نتحدَّث في الأدب، وربما كانت هذه ميزة لصداقتنا منذ زمن طويل، وكانت ترتكز على أوهام سنواتنا الأولى، وقد أعادني ذكر (دوستويفسكي) إلى عشرينيات عمري، وإلى ميلي المفرط للطيش الروسي والخراب النفسي، وكان (إدوار)، وهو يتكلم على زيارة بيت الكاتب الروسي الكبير، قد تأخر تقريباً عقدين عن اهتماماتي، وكان ذلك في نهاية المطاف أمراً مؤثِّراً جداً، لقد أعاد إليّ صورتي التي كنت أحبها جداً، بعد أن كنت قد ابتعدت عن الكلمات إلى حد بعيد. منذ أشهر لم أقرأ رواية، وآخرها رواية كانت قد نالت جائزة (غونكور) Goncourt [28] الأخيرة، ولست متأكِّداً من ذلك، فقد اشتريتها، إن كنت أذكر جيِّداً، ولم أقرأ منها سطراً واحداً. إن كل شيء أصبح مشوشاً منذ بعض الوقت، بينما اجتازت كتب شبيبتي السنين بوضوح تام، ولا يزال بإمكاني أن أسمع بأذني أنفاسَ (راسكولنِيكوف) Raskolnikov [29] قريبة جداً من أذني. إن الزمن لا يزيل حماستنا الأولى، حتى لو علاها الغبار في ذاكرتنا.

وبعد بضع ثوانٍ من التردُّد، وافقت على أن هذه الفكرة كانت فكرة رائعة، وأن الحقَ معه، وكنتُ سعيداً بهذا القرار المفاجئ، فأنا

(28) غونكور: جائزة أدبية سنوية تصدرها (أكاديمية غونكور l›Académie Goncourt) التي أسسها (إدمون غونكور) (1896 - 1822) (Édmond Goncourt)، وكان هو وأخوه (جول) (1830) (1870–Jules) كاتبين فرنسيين روائيين (المترجم).

(29) راسكولنِيكوف: هو بطل رواية (الجريمة والعقاب) لدويستوفسكي التي نشرها سنة 1866، تروي قصة طالب قديم في (سان - بطرسبرغ)، معدم ومصراف، ارتكب جريمة قتل بحق امرأة عجوز مرابية، كانت غنية وتقرض بالرهن، وقد استولى على أموالها، وقتل أيضاً أختها بالمصادفة. وتعبر الرواية عن رؤية المؤلف الدينية والوجودية لموضوع الخلاص عن طريق الآلام، من خلال رصد نتائج هذه الجريمة على القاتل متمثلة في عذاب الضمير والنفس، وفي الاضطراب الجسدي (المترجم).

لم أمنح نفســي ما يكفي من المســرات في هذه السنوات الأخيرة، إن الســفر مع صديق، والتخلي عن حياتي، لسوف يفيدني إلى حد بعيد، وســيزودني ذلك بفرح عام في المســتقبل، وبدافع إلى أن أبقى واقفاً، لدحر الوجع، وسأكون بخير، وسأشــرب الـ (فودكا) [30] la vodka، وسنرى في (سان - بطرسبورغ) كذلك مطاعم إيطالية.

(١٢)
شدة الألم: ٧
الحالة المعنوية: روسية
(١٣)

لقــد أفادني هذا الغداء، حتى إنني لــم أذكر همومي المهنية. فقد كان عليَّ أن أتراجــع، وكان على كل الناس أن يعتقدوا بأنني كنتُ محطمــاً جداً فلا أتــردَّد على ممرات المؤسســة، في حين إنني كنت أمشــي بهدوء في (باريــس)، وكان وجعي يبدو محتملاً فــي هذه اللحظة. وعلى أي حــال، لم يكن يمنعني من التنزُّه (لأن ذلك لم يكن ألماً قَطَنِيّاً أو فتقاً قُرْصِيّاً)، وعلى طول نهر (الســين) la Seine، كنــتُ أتصفح كتب باعة الكتب المســتعملة، وقد رأيت أســماء كانت تبــدو منبثقة من مــاضٍ بعيد جــداً: (لوترياموني) Lautréamont، (ميشو) Michaux، (غيران) guérin. وقد اشــتريت بعض المؤلفات، وكذلك دليلاً لمدينة (سان - بطرسبرغ)، وكانــت فكرة هذه الرحلة تعجبني أكثر فأكثر، وتجعلني ســعيداً، وباســتثناء عطلنا الأُسَــرِية في إســبانيا، وبعض سفرات العمل،

(30) الفودكا: نوع من الأشربة الشعبية المسكرة، المنتشرة في روسيا، وفي الدول المطلة على بحر البلطيق، وفي شرقي أوروبا. نسبة الغول (الكحول) فيها 40% (المترجم).

لم أغادر عملياً فرنسا في السنوات الأخيرة هذه. وقد كنا ذهبنا في الصيف إلى مقاطعة (بريتاني) Bretagne لزيارة أهل (إيليز). وكانت رحلة لطيفة للولدين خاصة، التقيا خلالها بأصدقائهما، ولكن كل هذا لا يمكن أن يتم الآن، فالولدان لن يعودا يرحلان بالتأكيد معنا. انقضت تلك السنون، وعليَّ أن أقبل بذلك.

ومن غير الحديث عن ارتباط عاطفي حقيقي، كنت أقدِّر أهل زوجتي. وقد كنت أتخيَّل في أغلب الأحيان أسرة جميلة مضيافة، حيث بإمكاني أن أوسع قواعد عالَم عاطفي. وعلى الرغم من مَرِّ السنين، بقينا في نوع من الحرارة لَيس مُلِحَّاً جداً، وإنما أنيقٌ، كنوع من الرقة السويسرية، وكنت أقدِّر نفسي حق قدرها، لا أكثر ولا أقل. وربما كنتُ أتمنى مزيداً من الاستفاضة، غير أن الكلمات ومظاهر العاطفة تظلّ عن بعد. وأخيراً، كانت تلك طريقتي في ملاحظة الأشياء. كانت (إيليز) تكرِّر عليّ القول:

- إن أهلي يحبونك كما يحبونني.

وقد فعلتُ كل شيء كي أكون الصهر الكامل، وكانت تلك الطاقة المنتشرة تبدو مثيرة للشفقة، لأن حماتي في أحد الأيام قالت لزوجتي:

- يبدو أن زوجك كان يفتقد الحب في طفولته.

لقد كنت أركض وراء شيء لا وجود له، لأن المرء لا يستطيع أبداً ردم القصور العاطفي في النشأة.

كانت (إيليز) معجبة بأبيها، ككل الفتيات اللواتي أحببتُهن. وأقول، أخيراً كل الفتيات، ولكن فتاة وحيدة كانت تفوقها[31]،

(31) الأمر هنا يتعلق بـ (نينا) Nina. وأسأل نفسي عما صارت إليه: أهي حقوقية أم بائعة أزهار أم صاحبة محل؟ (الأصل الفرنسي).

وأعتقد أنني كنت أحب هذا: أن تُعجَب البنتُ بأبيها، ومستبعداً أن أرى في ذلك منافسة، كان عندي نظرة سند الأسرة، الأمر الذي كان يتيح لي غالباً أن أفهمهم. كان والد (إيليز) دوماً شديد الأثر في نفسي، متألِّقاً، وقوياً، وكان يتمتع أيضاً بحسٍّ فكاهي عظيم، دَرَّس التاريخَ في جامعة (رين) [32] Rennes، وساهم في كتابة مؤلفات عديدة، وكان يصاحب الكاتب (ميلان كونديرا) [33] Milan Kundera، وأنا الآن أستعيد التفكير فيه، فعندما التقيت به تخليت عن كتابة هذه الرواية التاريخية التي كانت قد استحوذت عليَّ طيلة بضع سنين، ولم أكن لأؤيِّد فكرةَ أن يحكم عليَّ هذا الرجلُ الذي كان يوحي إليَّ بكثير من الاحترام. كان يبدو لي أنه يُقدِّرني، ولم أكن أرغب قطّ حينذاك في أن أعرِّض للخطر ثروتي من المشاركة الوجدانية التي كوَّنتُها، ولقد كنتُ أمكث في مكاني، وأرفض كل جدلٍ أثناء الوجبات الأُسَرية يوم الأحد، وعندما كان يسألني عن موضوع أو آخر، قائلاً:

– وأنت، ماذا تعتقد فيه؟

كان يحصل دوماً أن أبدي رأياً مختلفاً اختلافاً طفيفاً عن رأيه، لأثبت استقلاليتي وحيويتي الذهنية، وأنا أوافقه تماماً في الأساس كي أريحه في وضعيته المهيمنة. إن السلام الأُسَرِيّ يقوم على هذا التوفيق المسيطَر عليه بين الحماسة والتعبير

(32) رين هي المدينة الرئيسية في مقاطعة (بريتاني) الفرنسية (المترجم).

(33) ميلان كونديرا: كاتب روائي ومسرحي تشيكي (ولد سنة 1929)، ويكتب المقالات أيضاً، وكان يكتب بلغته وباللغة الفرنسية، هاجر سنة 1975 إلى فرنسا، وحصل على جنسيتها سنة 1981، واقتصر على الكتابة بالفرنسية، ونال جوائز كثيرة جداً، وكان يُرَشَّح في آخر المطاف لجائزة نوبل في الآداب، وترجمت أعماله إلى نحو ثلاثين لغة في العالم (المترجم).

الشـــخصي. وكان لذلك أيضاً الفضل في تســـهيل العلاقات مع امرأتي التي كانت دوماً، من حيث المبدأ، مع أبيها.

لقـــد كان ينتظر تقاعدَه بلهفة، معلنـــاً أن لديه أخيراً الوقتَ لإنشـــاء كتابه، فقد كان يعمل منذ ســـنوات على ربيع (براغ) [34] Prague، جامعاً وثائق عديدة تتعلَّق بتحضيرات الغزو الروسي، وأتذكَّر أنني كنت أراه يســـافر غالباً إلى (الجمهورية التشيكية) la République Tchèque، مع صندوقه الصغير وابتسامته الخفيفـــة. وكان المـــرء يقـــرأ علـــى وجهه حب مشـــروعه الذي لا يقـــاوم. وعندما أحيل إلى التقاعد، كان هنالك عيد في البيت في مقاطعة (بريتاني) (وقد احتفلنا بسنواته الستين في المناسبة ذاتها). وقياســـاً على شعبيته، فكَّرت بقلق: إني أرجو عند بلوغي الســـتين، أن يكون حولي كثير من الناس، ولكن الســـنوات المقبلة عليه كانت تبدو مليئة بالوعود المهينة، فقد سقط مريضاً، هكذا، بعد بضعة أشـــهر فقط من بداية تقاعده، وكان يتنفَّس بصعوبة، وقد وقع عليه نبأ التشخيص بسرعة فائقة وقاسية، وكأنه حكم بالإعدام: إنه الســـرطان. خارت قوى الأســـرة كلها، واستيقظت زوجتي في الليل، وهي تبكي وتردِّد قولها:

– هذا غير ممكن، هذا ظلم عظيم.

(34) براغ: هي عاصمة الدولة الاتحادية التي كانت تسمى (تشيكوسلوفاكيا) Tchécoslovaquie، وكانت قد نشـــأت بعد الحرب العالمية الثانية، تحت النفوذ الشـــيوعي، والتبعية لـ (حلف وارســـو) pacte de Varsovie (1955-1991)، الذي كان الاتحاد الســـوفييتي يتزعمه، وكانت براغ قد بدأت بتطبيق إصلاحات سياسية واجتماعية على يد زعيم الحزب الشيوعي (الكساندر دوبتشيك) Alexander Dubcek منذ مطلع ســـنة 1968 (يناير)، فيما اصطلح على تسميته (ربيع براغ)، فاتخذ الاتحاد السوفييتي قرارَ قمع هذه الإصلاحات خشية تفكك المعسكر الاشتراكي، واجتاحت قوات حلف وارســـو المشتركة الأراضي التشيكوســـلوفاكية في 21 أغسطس 1968، وقضت على حركة الإصلاحات هذه، وأصبحت براغ - بعد تحلل الشيوعية وتفكك الدولة الاتحادية - عاصمة تشيكيا التي انضمت إلى الاتحاد الأوروبي UE الحالي (المترجم).

وكنـــتُ أحاول أن أهدِّئها، ولكن الأمـــر كان معقداً، لم يترك الأطباء سوى فرص قليلة للأمل، وهذه الفاجعة جعلتني أفكر في (فرانســوا ميِّتيرَّان)[35] François Mitterran؛ لقد أمضى حياته في كفاح ضارٍ ليصبح رئيســاً للجمهوريـــة، وما إن انتخب رئيساً حتى أعلَنوا لهُ أنه مصاب بالسرطان، تنبؤوا له بستة شهور للعيـــش، لا أكثر، وكـــاد يطـبع تاريخ (الجمهورية الخامســة) la 5ème République[36] بقِصَـــر مـــدة ولايتـــه، ولكن لا، لـــم يكن ذلك ممكناً، ولم يدع نفســـه يتهاوى، فراح يكافح، وقاوم بضراوة، فغيَّـــر مجرى مصيره، وما فعله هو أنه دفع المرضَ إلى أبعد الحدود الممكنة، ثم إنه انتخب لســبعية ثانية ســنة 1988، ثم توفِّي بعد بضعة شـــهور من نهايـــة ولايته الجديدة، ولم يغادر الدنيا خلال رئاسته، ومن أجل أن أعطي الأمل لزوجتي، ذكَّرتُها بهذا الأمر، فقد كان لدى أبيها كتابٌ يكتبه، وهذه أشـــبه بمهمة، ولا يستطيع التخلي عنها الآن، وإن حافزه هذا سيدفعه إلى قهر المرض، وكنت مقتنعاً بذلك.

وقـــد صدَّقني المســتقبل، فبعد شـــهور من العـــلاج الكيميائي، والقلـــق، والآلام له ولمحيطـــه، نجا من الموت، وأصبـــح أمره مؤثراً،

(35) فرانســوا ميتران: رجل دولة فرنســي (1916–1996)، كان منذ ســنة 1948 عضواً في الجمعية الفرنســية، وقد وحد الحزب الاشــتراكي مع اليســار الراديكالي والشيوعيين ببرنامج سياســي مشترك سنة 1973، وانتخب ســنة 1981 رئيساً للجمهورية، وأعيد انتخابه مرة ثانية سنة 1988، وقد عمل لصالح بناء أوروبا، وكان مؤلفاً لعدة كتب سياسية (المترجم).

(36) الجمهورية الخامسة: مصطلح في تاريخ السياسة الفرنسية، التي قسمت تاريخ فرنسا إلى خمس جمهوريات، هي: الأولى التي قامت بعد اســتقرار الثورة الفرنسية إلى إعلان إمبراطورية نابليون (1792–1804)، الثانية التي أسـقطت الملكية بعد عودتها (1848–1852)، والثالثة من بعد سقوط الإمبراطور نابليون الثالث وقيام كومونة باريس الشيوعية إلى احتلال فرنسا على يد ألمانيا النازية (1870–1940)، والرابعة منذ تحرير فرنســا من الاحتلال النازي إلى تولي شارل ديغول رئاسة فرنسا (1944–1958)، والخامسة من تولي ديغول الرئاسة سنة 1959 إلى اليوم (المترجم).

وقــد غيَّرته هذه التجربة، فلم يعد الرجل نفســه تماماً، أصبح حيّاً ومعافى، ولكنه فقد جزءاً كبيراً من حيويته في المعركة. وخلال تناول طعــام الغداء مع الأســرة، وهو الذي كان من قبل يســتأثر بالكلام وحــده، صار يبقى أحياناً دقائق طويلة من غير أن يتكلَّم، غارقاً في مكان آخر، وغائباً حتى عن نفســه، ومن ثَمَّ اســتردّ تدريجياً جميع قدراته، فجعل هذا الأمر كلَّ الأشياء أكثر بهجة، وأعظم جمالاً، وقد ضمَّت زوجتي أباها بين ذراعيها فرحة. كانت تريد أن تنعم بوجوده، وبعد بضعة أشهر، كنا قادرين على أن ننسى ما كان قد مرَّ به، وكنا مندهشين من قدرته على استثمار الحاضر.

وهذا يبيِّن لماذا لم أكن أود الحديث لزوجتي عن التصوير بالرنين المغناطيسي. بالطبع، أنا حتى الآن لم أُصَب رسمياً بأي مرض، ولكن إذا كان الأمر كذلك، فإنني أود أن أحميَها، وعلى كل حال، لا أريد أن أقلقها. وعندما عادت إلى المنزل وسألتني كيف حال ظهري، أجبتها بأن كل شيء على ما يُرام. وأتذكَّر أنني أضفت قائلاً:

- إني أتعافَى [37] Je vais mieux.

(١٤)

شدة الوجع: ٥

الحالة المعنوية: ميَّال إلى القتال

(١٥)

ولكنــي لم أكن أتعافَى، فقد اســتحوذتْ عليَّ المخاوف طوال الليل، وكانت ظلال الخوف تشــكِّل رُصَداءَ على جلدي، ولم أكن فــي الحقيقة أفكِّر في المــوت، وكنت في أغلب الأحيان أشــعر

(37) وهي العبارة التي ارتأى المؤلف إطلاقها عنواناً لروايته هذه (المترجم).

بأنني تقدمت في العمر، وأنني أنتظر الشـيخوخة كحالة يتوافق فيها ذهني مع جسـمي، وقد أعددت لأن أكون عجوزاً، ولا شيء سـيمنعني من إتمام هذا المصير. لقد كانـت المعطيات مختلفة الآن، ولأول مرة كنت أتقبَّل أن كل شيء يمكن أن يتوقف بقسوة. قالت امرأتي:

- أولم تنم؟

فهمستُ بطريقة غير منطقية تماماً:

- بلى، بلى.. أنام.

نعم، كنت أخاف من الموت، وكان كل شـيء يبدو لي ساخراً؛ ماذا كنتُ قد أنجزت في الحقيقة؟ كنت ألفُّ في دائرة من غير أن أجد شيئاً مهماً، إنهما ولداي بالتأكيد، ولكن ما طبيعة علاقاتنا؟ فابنـي في (نيويـورك)، ونتكلم كل ثلاثة أيام على الـ (سـكايب) skype، وأصبحـت عواطفنا افتراضية، فهو الذي كنت كثيراً ما أضمه بين ذراعيَّ، لم أعد أراه إلا عبر شاشـة، ولا أعرف حتى مـا يفعله اليوم، ولا ما فعله أمس، ولا أول أمس. إن أطفالنا هم رواياتنا، ولكننا لم نعد نكتبها نحن.

وابنتـي كانت أميرتـي، وجنونَ مملكتي، ولم تتغير الأشـياء حقيقة، فنحن نتهاتف غالباً، ونتبادل الرسائل الهاتفية القصيرة، وحصل أن قالت مرة: (يا أبتي الصغير)، ولم يكن هذا شبيهاً بما كان قبل أن تعيش مع (ميشـيل)، لقد اسـتحوذ عليّ هذا الاسم طوال الليل، أكاد أموت وها هو لا يزال يستخفّ بي، وأنا لا يروق لي أن يكون اسـمه (ميشيل)، لقد كان اسمَ زميلٍ لي، كما أن لي كثيراً من الزملاء ممن يدعون (ميشيل)، ولم يكن ينبغي أن تعيش ابنتي مع رجل يحمل اسم زميل. قالت لي زوجتي:

– ولكن لا يهمنا إذا كان يدعى ميشيل!
– بل يهمنا ذلك!
– أنــت متعصِّب. ولم أكن قد رأيتُك قــط هكذا، ابنتك الآن امرأة، وعليك تقبُّل ذلك.
– إني أتقبّله.
– لا، أنــت تتوتَّر من هذا الاســم، وليس ذلــك إلا حجة؛ إن الاسم هو باب الدخول إلى الشخص!
– باب الدخول إلى الشخص..
– نعم! وأنت لا تريد الدخول!

لم تكــن مخطئة، ولكن عليها أن تفهم أســبابي، وليس لديَّ الوقت للاعتياد على قصتهما، فكل شــيء كان قد مضى بسرعة كبيرة جداً، منذ قرون، كان مرور بضعة أشهر على الأقل ضرورياً حتى يسلِّم الأب برحيل ابنته، وأخيراً، كان رحيل ابنةٍ كابنتي، لم أكــن أقبل بعلاقتهما، وكنتُ أعلم أننــي مخطئ، كانَ الأمر أكبر مني، وكنــت أتألَّم ممن فرَّق بيننـــا، إن علاقتنا التي كانت تبدو لي دائماً قوية جداً، كيلا أقول: لا يمكن هدمها، تكشَّــف لي أنها هشَّـــة، ولم يبقَ منها شـــيءٌ يُذْكَر، لقد بذلــتُ طاقة عظيمة في تربيتها، وفي ختام الأمر، كنت أسأل نفسي: لماذا؟ لقد اضمحلَّت أسباب الحياة عندي بعضُها وراءَ بعض.

كان رحيل وَلَدَيَّ عني يشــير إلـــى خلو طريقي على الأرض، إنهما يعيشـــان حياتهمـــا ولم أكن متأكِّداً مـــن وجودي عبرهما، فماذا ورَّثتُهما؟ لا شيء، ولم أكن قادراً على أن أذكر شيئاً واحداً، وقـــد فكَّرت دقائق عديدة، قبل أن أجد في النهاية أنني علمتُهما كيفيـــة تـــذوُّقِ الناس، وكنـــت أردِّد عليهما طـــوال الوقت قولي:

(يجب الاهتمام بالآخرين)، وهذا ما كان، ولكن هل كنتُ أنا أهتمُّ بالآخرين؟ من قليلٍ إلى أقلَّ، ليس هنالك أي قيمة لتوريث تعاليم لا يطبِّقهـا المرء بنفسـه، ماذا أيضاً تـذوُّق الكتب؟ لم أعد أقرأ شيئاً، العناية بكبار السن؟ لم أكن أتحمَّل والدَيَّ، إذن ماذا؟ ماذا يظنـان فيَّ، وفي قِيَمي، وفـي الطريقة التي كنت ألعب فيها دور الأب؟ لقـد كنت غارقاً في العدم، وأساسـاً، لن يغيِّر موتي كبيرَ شيءٍ في قَدَر كل منهما، لقد كانت أفكاري بالتأكيد تزداد سواداً بفقدان النوم، ولكن الحقيقة لم تكن متنكِّرة، إنني لم أترك شيئاً ورائـي، لقد كنت أمشـي في حياتي على زلاجـات، من غير أن أترك آثاراً.

كنت أفكِّر في جميع هؤلاء الفنانين الذين غيَّروا الإنسانية، مع أنهم ماتوا في عِزِّ شـبابهم، مثل: (فرانتس شوبيرت) [38] Franz Schubert في الواحدة والثلاثين من العمر، و(فولفغانغ أماديوس موتسارت) [39] Wolfgang Amadeus Mozart في الخامسة والثلاثين من العمر، ولن نتكلَّم حتى عن (جون لِنُّون) [40] – Jhon Le non، وقـد أمضيت الليلة وأنا أحصيهم، بينما لم يلزمني سـوى

(38) شـوبيرت: مؤلِّـف موسـيقي نمسـاوي (1797–1828)، كتب في حياته القصيرة تسـع سيمفونيات وسواها (المترجم).

(39) موتسـارت: مؤلف موسيقي نمساوي أيضاً (1756–1791) كتب في كل الأنواع الموسيقية، وبخاصة (السيمفونية) و(الكونشرتو) و(السوناتة) التي أصبحت الأشكال الموسيقية الكلاسيكية (المترجم).

(40) لِنُّون: موسـيقي إنجليزي ومغنٍّ وكاتب أغانٍ (1940–1980) وهو عضو مؤسس في فرقة الـ (بيتلز) The Beatles لموسـيقى الـ (بوب) (1962 – 1970)، وقد أبدع في مجال الموسيقى والأغاني الشعبية أكثر من كل السابقين في المجال، انتقل لِنُّون إلى الولايات المتحدة، وكان ناشطاً ضد الحرب في (فيتنام)، وأغنيته (أعطوا فرصة للسلام) Give Peace a Chance من اشهر أغانيـه في ذلـك، اغتاله أحد المعجبين في نيويورك في مدخل عمارته سـنة 1980، وهو عائد مساء مع زوجته الثانية (يوكو أونو) Yoko Ono الفنانة اليابانية، بإطلاق أربع رصاصات عليه من الخلف من مسدس (المترجم).

أقل من خمس دقائق لاســتذكار المشاريع التي شاركت فيها: برج (لامارتين) la tour Lamartine في (كريتيّ) Créteil، ومتحف (جاك-بريفيــر) Jacques-Prévert، وثانويــة (رومان-غاري) Romain-Gary فــي (نيــس) Nice.. وكان الأفضــل لي أن أتجنب التفكير في حياتي المهنية، فماذا يتبقى حينذاك؟ الأوقات مــع (إيليز)؟ نعم، كان بإمكاني أن أصنع قائمة بأجمل ســهراتنا، وبأجمــل نزهاتنــا المؤثرة، وكتابة مختــارات منطقية من لحظات ســعادتنا؛ فقد حصل لي أن جَرَيْتُ للحاق بها، وانتظارها ممدَّداً ساعات طويلةً في سريرنا، والجلوس إلى جانبها في السينما، وقد عرفتْ حياتنا كل الأوضاع، ومن الغريب أنه لم يحصل أنني ركَّزت علــى نقطة وحيدة، لقد كنت أتجوَّل في حبنا كما يتجول المرء في أفق، وأنا غير قادر على التوقف عند جزء ما، فقد تاه بصري في كثــرة حركاتنا، حتى إن تصريحاتنا عن الحــب لم تعد تصل إلى ذاكرتــي، لقد كانت قربي، وكنت أرغب في إيقاظها، أرغب في أن أقول لها إنها كانت حبَّ حياتي، وإنني في حاجة إليها حتى النفس الأخير، ولكنني لم أفعل شيئاً، ولم أتحرَّك، لقد كانت نائمة براحة تامة، في مأمن من أوجاعي.

وبعــد الفنانين، فكــرتُ في مصائر أخــرى حطَّمها المرض، ومــن غير أن أعلم لمــاذا، تركَّز ذهنــي على (باتريــك روا)[41] Patrick Roy، هنالــك حوادث تترك فيك أثــراً دائماً، بينما تلاشــت في ظل النســيان الجماعي، فلقد مات بســرعة فائقة مصعوقــاً، وأتذكَّــر مقابلة مع أحد أقاربه الــذي قال إن مرضه

(41) باتريك روا: ولد في (نيور) Niort ســنة 1952، وتوفي في 18 فبراير ســنة 1993 في (فيلجويف) Villejuif، بسرطان العظام (الأصل الفرنسي).

تم تشـــخيصه أولاً بوجع في الظهر، وقد كنـــتُ أحب دوماً برامج التســـلية في التلفـــزة، أتابع مع ولدَيَّ في أغلـــب الأحيان برنامج (أســـئلة من أجل بطل) [42] - Questions pour un champ on أو (من يرغب في كســـب ملايين؟) [43] Qui veux gagner des millions؟ وفي مطلع التسعينيات، كان (باتريك روا) النجم الصاعد في (التلفزة الفرنســـية1) TF1، كان نشـــيطاً، متوقِّداً، ســـاحراً، وهو نوع من المنشِّـــط الذي يتعشَّى المرء معه بكل سرور، كان له رأس رجل جذَّاب، ويحتفظ على الدوام بشيء من السخرية في نظرته. إن الرجـــال القادرين على نيل إعجاب هذا القدر من النـــاس نادرون، في تلك الفترة، كانت قنوات التلفزة لا تزال قليلة، وكانت قناة (TF1) تحقـــق باطِّراد عدداً من المتابعين يقدَّر بأكثر من خمســـة عشـــر مليونَ مشـــاهد، ولذلك، أصبح (باتريك روا) بسرعة فائقة نجماً مشـــهوراً، وأنا لا أعلم كيف جاء إلى التلفزة، ويبدو لي أنـــه قَدِم من (راديو مونتيكارلـــو) RMC، كان صعوده خاطفاً، بفضل برنامجه المســـلي (أسرة من ذهب) [44] - Une f mille en or على وجه الخصوص، وفيه تتقابل أسرتان تبحثان عن أجوبة يطرحها أشـــخاص معينون حول مسائل متنوعة، وكان الأمر يستلزم أن يحاول المرء التفكير فيما كان الناس يفكِّرون فيه،

(42) وهو برنامج مُتَلْفَز ذو شعبية يبث على قناة (فرانس3) France3، وظل متواصل البث منذ ســـنة 1988 إلى اليوم، ويعد أطول برنامج في التلفزة الفرنسية، وتطرح فيه أسئلة ثقافية عامة على أربعة متســـابقين مرشحين لكل حلقة، وينال الخاســـر بعض الهدايا الثقافية العينية، وينال الفائـــز مبلغاً مالياً قد يكون كبيراً فـــي بعض الأحيان، وحلقات هذا البرنامج متوافرة على موقع (يوتيوب) YouTube على النت (المترجم).

(43) وهـــو كالبرنامج الذي كان يبث بالعربية (من ســـيربح المليون؟) الذي كان يقدمه الإعلامي المشـــهور (جـــورج قرداحي)، وكلاهما مقتبس من النســـخة الإنجليزية (مـــن يرغب في أن يكون مليونيراً؟) How wants to be a Millionaire؟ في بريطانيا (المترجم).

(44) ويعتمد على طرح أسئلة وتلقي أجوبة عنها (المترجم).

فكانت هنالك أجوبة مضحكة، والتباسات، ومن ثَمَّ كانت هنالك أُسَرٌ تتبادل الشتائم، وأسرٌ أخرى كانت تصاب بالهيستيريا عندما تربح، ولم يكن هذا البرنامج قط تسليتي المفضَّلة، لأنني كنت أفضل البرامج القائمة حصراً على الأسئلة، ولكنني أصبحتُ معتاداً على ذلك بفضل (باتريك روا) على وجه الخصوص، لقد كنت على خير ما يرام معه، وفي أحد الأيام استُبْدِل به (فيليب ريزولي) Philippe Risoli، وكان (فيليب ريزولي)، في تلك الفترة، يقدِّم برنامج (المليونير) Le Millionnaire، وهو لعبة يدير فيها المرشحون لها عجلة على أمل أن يربح الفائز مليوناً، تدفعهم تشجيعات الجمهور الذي يصيح بقوة:

– المليون! المليون!

وعندما لا يحصِّل الفائز سوى مئة ألف فرنك، كان يخيب أمله، إلا أنه كان يقول:

– وهذا مع ذلك مبلغ جيد جداً..

كان (ريزولي) طيباً جداً، له مظهرٌ قريب من الشعب أيضاً، ولكنه أصلب منه قليلاً؛ كان قادماً من قناة (قنال+) Canal+ حيث كان يدير برنامجاً فاتني هو (Starquizz)، وكان أشبه قليلاً بـ (فيليب لافيل) Philippe Lavil في التلفزة، وباختصار، هو الذي أمسك في أحد الأيام بزمام برنامج (أسرة من ذهب)، وكانت هنالك مشكلة بالتأكيد، وبدأت تنتشر الشائعات الغريبة، ثم أخلت الشائعة مكانها للحقيقة، فعلم الناس أن (باتريك روا) كان مريضاً مرضاً خطيراً، وفي بضعة أشهر انتهى كل شيء.

وأنا أتذكر مراسم دفنه، كان نجوم آخرون من التلفزة (TF1) يحملون نعشه، وكان فيهم (جان-بيير فوكو) Jean-Pierre Foucault

(الأمسية المقدســة) Sacrée soirée وأيضاً (كريستيان موران) Christian Morin (دولاب الحظ) La Roue de la Fortune، وقد أثار موته انفعالات شديدة جداً، وخلال أيام، لم يكن الناس يتحدثون إلا عن ذلك، وكانوا يودون أن يعرفوا كل شيء عن هذا المصير الفاجع، وكانت هنالك مقابلات مع زوجته الأخيرة، ويبدو لي أخيراً أن كل ذلك أيضاً أصبح بعيداً قليلاً، وما أنا متأكِّد منه، رؤيتي لوالديه، فلقد رأيتهما في التلفزة، وبعد ذلك بقليل نشــرا كتابــاً تكريمياً عنه، وأنا أتذكَّر تمامــاً وجهيهما، وهنا، في الليل ببيتــي، وبينما كانت امرأتي تغط في النوم، كنت أفكِّر في والدَيَّ (باتريك روا)[45].

(١٦)

شدة الوجع: ٨

الحالة المعنوية: إيصائيّ

(١٧)

وفي صباح اليوم التالي، واصلتُ الادِّعاء أنني بخير، ولم يكن يبــدو أن (إيليز) قد لاحظت مظهري الرهيب، وبالمقابل، فوجئَتْ عندما أعلنت لها قائلاً:

- لسوف أهاتفُ والِدَيَّ.
- حقاً؟
- نعم، سوف أدعوهما على العشاء هذا المساء، إن وافقتِ.
- ......

(45) يمكن أن يتعرف القارئ الكريم على كل هذه الشخصيات المعاصرة المذكورة في الفقرة (15) من هــذه الرواية، مع الاطلاع على برامجهم أيضاً من خــلال مقاطع الـ (يوتيوب) YouTube على النت (المترجم).

– هل يعجبك ذلك؟
– أولستَ متأكِّداً من أنه يعجبني؟
– بالطبع.. ربما أن رؤية البيت والحديقة ستسرهما..
وأمــام ردة فعلها، قدَّرتُ الهوة التي كانــت توجد بين والِدَيَّ وبينــي، وكان يبدو غير محتمل إلى حد بعيد أن أدعوهما، فلقد كنــت أفضِّل دومــاً أن أذهب إليهما في البيــت، وكانت قاعدتي الذهبية هي أن ذلك كان يســمح لي بأن أرحل عندما أرغب في ذلــك، وأما دعوتهما فإنها تنطوي على شــيء من الخطر؛ فأمي يمكن أن تشرع في التعليق على كل شيء، وفي حشر أنفها بشؤون غيرهــا، ومن ثم لم أكن أراهما إلا علــى بضع وجبات غداء في السنة، وعموماً في احتفالات ذكرى الميلاد السنوية وفي الأعياد، حيث لا يمكن أن يحيد المرء أبداً عن هذه المناســبات، ويمكن أن تبدو دعوتهما هكذا، من غير ســبب خاص، ولا عيد ميلاد لأحد يلــوح في الأفق على الأقل، أمراً مدهشــاً، وقد أضافت زوجتي تقول:
– من المؤكَّد أن شيئاً ما سيئاً يحصل.
– لِــمَ تقولين هذا؟ لأنني أقوم بخطــوة نحوهما لمرة واحدة، ينبغي لك أن تشجعيني.
– أوه، يبدو أن وقتاً طويلاً قد مر لم أدخل خلاله في مشكلات مــع والديك.. ففي كل مرة نذهــب فيها إليهما، كنتَ تعود متوتِّرَ الأعصاب.. وهذا هناك، وأما عندنا.. فلا أجرؤ حتى أن أتخيَّل..
– اسمعي، الأمر هكذا، لديَّ رغبةٌ في أن أراهما.
– حسناً جداً، حسناً جداً، في نهاية المطاف، هما والداك..
– ......

لقـــد كان معها حقٌّ، فالفرصةُ ضئيلـــة لأن يمر الأمر بخير، فإذا أخبرت أبي أن موتي قريب الوقوع، فإنه سيجيبني فوراً:

– أوه، أنت دائماً تجذب الأنظار إليك.

اندفعـــتُ إلى تحت المرَشّ (الدوش)، فهنا يمكنني أخيراً أن أطلِـــق العِنان لوجعي، وأن أعبُـــسَ في مأمَنٍ من نظرات امرأتي، وجهتُ فوهة الماء إلى منطقة الألم، مؤمِّلاً في أن يخفِّف التدليك المائي من الألم، لم ينفع ذلك في شـــيء، فقد بقي الألم شديداً، اغتسلتُ وتنشَّـــفتُ، وراقبت ظهري في المرآة، فلم يكن فيه شيء مخصوص يمكن رؤيتـــه، اختفت الكارثة، وكانـــت مؤامرة داخل جسدي، أغلقت أزرار قميصي ببطء، متجنِّباً أن يؤثِّر في جلدي، وقد كنتُ أشـــعر كأنني أحترق، فقط قبل مغـــادرة المنزل، قالت (إيليز) مقترحة:

– ألن تشرب القهوة؟

– كلا، لسوف أتأخَّر، عندي اجتماع مع الصينيين..

– أعتقد أنهم يابانيون..

– نعـــم، هو كذلك، وفي النهاية، يتعلَّق الأمر بالطرفين.. إنهم نصف صينيين، ونصف يابانيين..

– ......

– أعتقد أن هنالك اثنين أو ثلاثة من الكوريين، في النصيب..

ثم غـــادرتُ من غير انتظار ردها، لن أواصل إغراق نفســـي في هذه الكِذْبة الآسيوية، تقدَّمتْ امرأتي نحو النافذة لتقول لي إلـــى اللقاء، تمكنت من رؤيتها من الشـــارع، هذه هي المرة الأولى التي كانت تفعل فيها ذلك، لقد وجَّهت إلي إشارة صغيرة بيدها، وكأنها تقول لنفسها:

- هنالك أشياء لا تجري لديه على ما يرام هذا الصباح.

كان معها حقٌّ، أنا لا أسير على ما يرام، وكنت أحاول أن أبدو بوجه بشـــوش، ولكن حياتي تتســـرَّب، وكنت قد حاولت أيضاً أن أماشـــي الجميع، وها أنذا أنهارُ مريضاً، وحيداً، مَهيضَ الجناح في حياتي المهنية، وحاولتُ الابتســـام بالمقابل، غير أنني لســـت متأكِّـــداً من أنني نجحت في ذلك، ركبت في الســـيارة، وكما كان الأمر تحت المِرَشّ (الدوش)، شـــعرت بالراحة لأنني احتمي من الأنظار.

كنت أشـــعر من حركة امرأتي بشـــكل من أشـــكال الحنان، لا الحـــب، وأثنـــاء انطلاقي نحو المشـــفى، بقيت رؤيـــة حركتها تستحوذ عليَّ، وظلت يدها في خيالي، وقد رأيت فيها واحدة من تلك (التوديعات) التي يمكن توجيهها إلى الغرباء عندما يغادرون منزلك، قد تكون حـــارة بالأحرى، ولكنها من تلك الحرارة الآلية التـــي تكون قليلـــة الانفعال، وفكَّرتُ فيها أكثـــر، ورأيت في هذه الحركة وكأنها حركة من امرأة مجهولة، ورأيت أيضاً، وأيضاً في رأسي، الطريقة التي رفعت بها الستارة لتضع يدها، وتمدها من اليسار إلى اليمين، ببطء، خلال بضع ثوانٍ، إنني لم أكن لأعرف امرأتي بهذه الحركة، ولا أســـتطيع تفســـيرها، لكن لم تكن هي، ويمكنني أن أشـــعر، من لحظة إلى أخرى، بالتغيرات العميقة في العاطفة، إن الحب يتوارى حتى يتيح المجال لظهور حقيقة جديدة للقلب.

(١٨)
شدة الوجع: ٨
الحالة المعنوية: انفصام في الشخصية (شيزوفرينيا)
(١٩)

كنتُ أجد نفسي، للصبيحة الثالثة على التوالي، في قاعة الانتظار في المشفى، ومثلَ راسب يعيد صفه في الثانوية، كنت أرغب بتطمين المرضى الجدد: (كل شيء سيمضي على ما يرام، والمرء يُعالَج هنا معالجة جيدة)، فظهرتُ بمظهر المتمرِّس بالوجع، وتجنَّبتُ البحث في (الإنترنت) عن أي معلومة تخص التصوير بالرنين المغناطيسي، ولم أكن أرغب في أن تصدمني شواهد الأورام، وفي دقيقتين، يقوم المرء بجولة على كل المصائب، لم يكن أحد يترك تعليقاً في المنتديات الطبية ليقول إن كل شيء كان يسير على ما يرام، ليشيد بمزايا الصحة المتألقة، وكل واحد يعرض فيها شكاواه، وكأن (الإنترنت) يسمح بهذا: تشاطر الآلام، وبعضهم كان يضع صورةً لأكالِ أنسجته (الغرغرينة) gangrènes، وبعضهم يفصِّل في وصف آلامه المبرِّحة، يبدو أن الحداثة التقنية (التكنولوجية) كانت نقيض ما أنتجت؛ ربما كان علينا أن نطمئن بعضُنا بعضاً، وأن يساعد بعضُنا بعضاً في الملِمَّات، كنتُ أسرح بأفكاري عندما صرخ أحدهم في ممر، وبعد هذه الصرخة الأولى، سمعت حشرجات متوالية، ولم أتوصَّل إلى معرفة إن كان المتألم رجلاً أم امرأة، لأن الصرخة أخذت شكلاً غير آدمي، ومثلَ كل الناس، أدرت رأسي إلى جهة الصوت، ونهضت لأرى، رأيت من بعيد امرأة محمولة على نقالة بين اثنين

ابتعـــدتْ وتواريتْ خلف أحد الأبـــواب، ولن أعرف عن هذه المرأة غيرَ بضعِ ثوانٍ كنتُ فيها شـــاهداً على آلامها، إن أوجاع الآخرين تَمْثُـــل فينا، ولكن من النادر أن تظهر بمثل هذه الصرخة الهائلة، لم أكن أعرف شـــيئاً عنها، ولا عن وجعها، فعدت للجلوس، تردَّد اســـمي، لقد دعاني أحدهم، فتقدمت نحو الطبيب، وقد أفسح وجـــع المرأة المجهولة المكان لوجعي، وقد وجدت مصوِّر الأشـــعة الذي استقبلني بذات الحركات أمس، كان يبدو جامداً في قالَبٍ، مكـــرراً بـ (الميليمتر) هذا المشـــهد الذي كنت قد عرفته من قبلُ، فقد حصل لي أن راقبت هذه الرتابة الحركية عند الأطباء، وهذه القوة الهادئـــة المتماثِلَة، ولعلَّ هذه طريقتهـــم ليكونوا مُطَمْئنين، يُقال: لا شـــيءَ يمكن أن يحدُث بين يدَيْ رجلٍ لا يخضع لتغيُّرات الأيام، وفي المقابل، كنت قد شـــعرت بخيبة خفيفة حين شاهدت غيـــاب متدرِّبته، وينبغي أن تكون تتدرب في وقت آخر، وهي غير مخلصة لمحنتي، سألني الطبيب:

– هل تشعر بالألم دائماً؟
– نعم، صحيح، لم أنم من الليل.
– في أي وضع كنتَ ترتاح أكثر؟
– واقفاً.
– هل تمشي عادةً.
– نعم، على العكس، إن المشيَ يروِّح عني.
– طيِّب، سنرى كل هذا.

كان ظهري قد أصبح موضوع جميع الأحاديث التي تخصني، ولا يتحـــدَّث المرء إلا عن هذا الجزء من جســـدي، ولعله لم يعد يطيق ألا يتـــم الاهتمام به، ولذا فقد كان يظهر بشـــكلٍ ملتهب،

وكان يصيح بأنه موجــود، لقد كانت هذه ثورته ضدي، وأحياناً، لــم أكن أعرف تماماً بماذا أجيــب، هل كان لا يزال يؤلمني؟ وفي أي وقت؟ وهل كنتُ أشعر بأنني أحسن عندما كنت أمشي؟ وكنت أرجــو ألا أُخْفِق في إجاباتي، أعني: كنت أرجو ألا أضع الطبيب علــى طريق خاطئــة، كنت أعلم أن الوجع هنالك، وبشــكل دائم تقريباً، ولكن لم أتوصل إلى تحديد شدته، ولا إلى تقدير درجته الغريبة، ولا إلى الموازنــة بين ما لفقراتي وما عليها، وقد خلعت ثيابي، وأنا تائهٌ تماماً.

وبينمــا كنــت أرتدي اللبــاس الداخلي الســفلي فقط، جاء الطبيب نحوي، وقال:

– ألم ترتدِ (البيجاما)؟

– أوه.. لا.

– ألم تُعْلِمك أمينة سري؟

– لا، لم تقل شيئاً.

– آ.. إن الفحص يمكن أن يستمر نحو ثلاثين دقيقة.. واللوح بارد، ومن أجل راحة المريض، كنت أقترح ذلك دائماً.

– ......

– فإذا أردتَ، لدينا بضع (بيجامات)، سأدعك تختار منها.

وأشار إلى سلة من الخيزران حيث أجد سعادتي بين الأحياء في مقبرة نسيج، لقد أصبح كل ذلك أمراً سخيفاً إلى حد بعيد، ولــن أجري مع ذلك تصويــراً بالرنين المغناطيســي بـ (بيجاما) مخطّطــة، وإذا ما كان الأمر يتعلّق بثيــابٍ تركها مرضى ميتون بعد مرورهم من هنا؟ ولما شــعرت بنفاد صبر الطبيب، سارعت، فاخترت أخيراً الأقل سوءاً؛ وكانت (بيجاما) زرقاء باهتة، زرقاء

باهتة جــداً حقاً، وربما أيضاً كانت بيضاء، ومن ثم تمدَّدتُ على الطاولــة، لقد قــدّرت فائــدة (البيجاما)، فقــد كان اللوح حقاً بــارداً، لقد حقَّق الطب كثيراً من وجــوه التقدم، ولكن ليس في مجال الراحة، انزلق جســدي ببطء، وعندها كنت موضوعاً في أنبــوب مفتــوح، ومتمدداً على ظهري، منذ زمــن طويل لم أعانِ من إحســاس بالاختناق الشــديد، إن هذا الجهاز يشبه المصعد والطائرة، وأيضاً أمي، قال الطبيب:

- يمكننا أن نبدأ، لا تنسَ أنني أســمعك ويمكنك التكلُّم.. وإنْ لم يحدُث شيءٌ ما..

- إنْ لم يحدُث شيءٌ ما؟

- نعم.. وفي النهاية، أنا هنا..

في كل مرة كان هذا الرجل يفتح فيها فاه، يتكون لديَّ انطباع بأنه يخفي عني شــيئاً ما، ويبدو عليه أنــه كان يملك معلومات لا يريد أن يفشــيَها، عرفت ذلك منذ أمس، عندما ذكر اللَطْخَة، وكنت أسأل نفسي كيف استطعت أن أحتفظ بأملٍ خلال أكثر من نهار، مع أن كل المؤشِّرات كانت حُمَراً، قال الطبيبُ:

- أتسمعني؟

- نعم، نعم.. أعتقد..

الحقُّ يُقال، لم أكن أســمع شــيئاً يذكر، فالجهــاز كان يصدر ضجيجاً مُصِمَّاً للأذن، آخرون كانوا يستســلمون للهدهدة، وربما للنــوم، أما أنا فــلا، لأنني بقيت فــي حالة قلق مطلــق، وإذا ما وصلــت بمعجزة إلــى أن أهدأ وأتنفَّس بشــكل طبيعي، فإن هذا لا يدوم، وأعود إلى الذعر ثانية، كنت كالجبل الروسي، وكان جنوني الــدوري ينهكني، هل كل المرضى يخضعون لتغيُّرات لا تنقطع في

الحالة النفسية؟ أعتقد أن المرضى يشعرون بأنفسهم وحيدين، وسواء أكانوا مرافقين بأشخاص آخرين أم لم تكن، فإنهم أمام آلامهم، ويتلخَّص العالم في أجسادهم، ولقد كنت أفكِّر في هذه الكلمات لـ (ألبير كوهين) Albert Cohen (46): (كل إنسان وحيدٌ، والكل لا يأبه بالكل، وأوجاعنا جزيرة جرداء)، كنت أعرف قليلاً من الأقوال المأثورة، ولكن هذا القول كان يستحوذ عليَّ دائماً، إلى درجة عودته الآن ساطعاً بالحقيقة، وصدىً مؤثِّراً لحالتي، كان الفحص يتقدم، ولم أكن أرى أحداً حولي، كانت (البيجاما) الشرط الأعلى للفاقة، (البيجاما) هي لباس المسجون، والعبد، والإنسان الخالي من الإنسانية، إن كل ما قد بنيته أصبح أمراً تافهاً، كيف كنت أستطيع أن أعيش في مثل هذه الغطرسة؟ بنسيانِ أن الحياة إنما هي رحلة من الغبار إلى الغبار، كنت أعلم أخيراً أنني لم أكن شيئاً، وكنت وحيداً وسط هذا اليقين، قال الطبيب:

- أوه.. لا، هذا غير ممكن.
- ما هو؟
- ......
- هل يمكن أن تقول لي ما يجري؟
- هنالك مشكلة.
- مشكلة؟
- نعم، نعم.. آ.. يبدو أن الأمر سيقع على عاتقي.

لم أكن أستطيع أن أنهض، ولم أكن أعلم ماذا أفعل، حضر

(46) ألبير كوهين: شاعر وكاتب ومسرحي سويسري من أصل يوناني (1895-1981)، كانت آثاره متأثرة بجذوره اليهودية، وكان ناشطاً سياسياً متحمساً للحركة الصهيونية (المترجم).

الطبيب، وهو معصِّب بشــكل ظاهر، لقد غيَّر وجهه المألوف في كل الأيام، قال:

– أنا آسف، هذا لم يحصل من قبل.

– ......

– لدينا عُطَلٌ في النظام، وأخشـــى أن تمر بضع ساعات حتى نعيد تشغيل الآلة.

– آ..

– لا يمكن تمرير الطاولة، هل بإمكانك أن تزحف نحوي؟

– أزحف نحوك؟

– نعــم، لكي تخرج من الأنبوب، أنا حقاً آســف، يا ســيدي، حاول أن تتزلق على الظهر، وأرجو ألا تتألَّم.

لم يكــن ذلك أمراً معقَّــداً، وبهذه الوضعيــة، لن يضايقني ظهري أكثر من هذا، وكنت أشــعر بما يشــبه الدُّوَار، وقد كانت حركة الأنبوب قد أفقدتني إحساســي المكانــيِ - الزماني، ولما خرجت منه، وضعتُ قدمِي على الأرض، فخارتْ تحتي، فتعلَّقتُ بالطبيب كي لا أسقط، قال لي:

– هل تودّ كأسَ ماء؟

– لا، ســيمر الأمر بخير، أشكرك، هل تمكنت من رؤية شيء ما؟

– عفواً؟

– أن ترى ظهري، هل كان لديك الوقت لكي ترى إن كان عندي شيءٌ ما؟

– لا، للأســف، لا، إن اللحظات الأولى للفحص لا تكون عادةً الأكثر دقَّة، ومن ثم، إن فحص الرنين المغناطيسي طويل، لا يمكنني

أن أُصدِر حكماً بشأن جزئية صغيرة لا تخضع للملاحظة.

- آ.. أيضاً ليس هنالك بداية فكرة؟

فقال بعد تردُّدٍ قصير:

- .. أوه.. لا.

- ......

- أنا آسف، لسوف نرجئ موعدنا.

- ......

- ألا ترغب في إجراء التصوير اليوم على الأقل في مشفى آخر؟

- اليوم؟ .. لا أدري، أدع القول لك فيه، وهذا يتعلَّق.. بحالة طارئة.

- قلت ذلك من أجلك، بالنظر إلى تخوُّفك، إن لم تكن ترغب في أن تنتظر لمعرفة المزيد عن الأمر.

- نعم.. ولكن أريد رأيك.

- من وجهة نظر طبية خالصة، يمكن أن ينتظر الأمر إلى غدٍ صباحاً.

- ماذا كنتَ ستفعل، لو كنتَ في مكاني؟

- أنا لستُ في مكانك.

- أعلم، ولكن ماذا ستفعل؟

- يمكنك الانتظار إلى الغد..

وللوهلة الأولى، وجدتُ جوابه مُطَمْئناً، ثم فكَّرتُ: لو أنه كان قد نصحني أن أعمل بسرعة، لأوقعني في ذعْر واضح، وغير بنَّاء، ونصيحته بتأجيل الفحص إلى الغد لا تُصنَّف في فئة الأخبار السيِّئة، وعليَّ أيضاً أن أنتظر قبل أن أتَّخذ قراري، وأعطالُ

النظام هذه لا يمكن أن تحصل إلا معي، كنتُ أشعر بأنني أجتاز فتــرة معقدة، مليئــة بالأفخاخ، وكأن القدر يريــد أن يختبرني، أخذتُ موعداً إلى الغد، ومضيت أتمتم بشأن تشخيصي.

وفي الخارج، اكتشفتُ أن إجاباتي لم تكن صحيحة، لأن المشي يســبب لي الآن آلاماً، وكنتُ أدرك لماذا كانت أفكاري مضطربة، فالوجع -وبخاصة عندما يستمر أياماً- يدفعك إلى حالة قريبة مــن الجنون، كانت المدينة تبدو لــي قبيحة الوجه، تتعرض لعدم تناظُرٍ جديد، وقد كانت الســيارات تمر، وودت لو أســتطيع أن ألقي بنفســي تحت واحدة منها لاختصار وجعي، يبدو أن الموت أحياناً الشــكلَ الوحيد المناســب للراحة، وبقيتُ لدقائق عديدة بلا حَرَاك، ثم اشــتريت زجاجة ماء لأخذ كبســولتين، ومشــيت بضع خُطًاً متعثِّراً، كانت حالتي تتدهوَر، وكنت أســتطيع الذهاب لرؤية طبيب العظام الذي أشار به عليٌّ (إدوار)، ولكن لم أفعل.

وكان لدي شعور بأن مشكلتي لا ترتبط بأي شيء في المنطقة القَطَنِيَّة[47]، ولا بعضلة مرضوضة أو مزحزحة لا أدري، كان هذا الحدس يرتكز على واقعة أن الوجع جاء فجأة، بلا إشارة إنذار، ومن غير تفسير منطقي.

ولحســن الحظ، جعلتني الكبسولتان بخير، ربما هما العلاج البديل الفعال، وهــذه الراحة المؤقتة جعلتني أتخذ قراراً غريباً؛ هو الذهاب إلى العمل.

(47) المنطقة القطنية: تتكون من الفقرات الخمس الأخيرة المتصلة بالحوض من العمود الفقري عند الإنسان، ومن العضلات المحيطة بها (المترجم).

(٢٠)

شدة الوجع: ٧
الحالة المعنوية: قيد الانتظار

(٢١)

فـــي الممرات، كانـــوا يراقبونني وكأني حيـــوان غريب، يبدو أن كل النـــاس كانوا قد علموا بما قد جـــرى خلال الاجتماع مع اليابانيين، وبعد ســـنوات من العلاقات النزيهة مع زملائي، كنت أقرأ في بعض النظرات شيئاً من الشفقة، لربما كان الأمر يتعلق بتعزيتـــي! قد يحصل لكل الناس أن يرتكب أحدهم في يوم ما أو في يوم آخر خطأً مهنياً، يبدو أن بعضهم كان مبتهجاً لأن ًســـوء الحظ ًقد وقـــع عليَّ، إن بعض الناس يختزلـــون، إلى حد بعيد، طموحهم إلى أن يكونوا ســـعداء، في أن تأتي سعادتهم من رؤية الآخرين يتعثَّرون، لا أحد يدري أنني كنت ضحية للخِسَّة، وبسبب هذا التناقض الظاهري يوجد السَّفِلَةُ في المؤسسات؛ ولكن المرء لا يراهـــم، وقد لاحظتُ هنا زملاء كنتُ أُكِنُّ لهم المودة يضحكون مـــع (غايّار) أمام جهاز تحضير القهـــوة، إنهم لا يدركون طبيعته الحقيقيـــة، وأنـــا الوحيد الذي يعلم ما هو قـــادر عليه، وهذا ما زاد فـــي توعُّكي، غير أن هذا لن يفيد في شـــيء، لم يكن هنالك أي دليـــل، كيف يمكننـــي أن أثبت أنه كان قـــد زوَّدني بكثير من المعلومات الخاطئة عن المشروع؟ لم يكن لديَّ خِيَارٌ آخرُ سوى أن أصمت في هذا الوقت.

إن بعض الجلادين لا يفارقون ضحيتهم، فما إن جلســـت في مكتبي حتى ظهر (غايّار) قائلاً:

- أنت بخير؟

- ......
- لقد قلقنا عليك، أنت تعلم.
- ماذا تريد؟
- أريدك أن تتجنب قلبَ خِلْقَتِكَ خلال شهور، ينبغي لما جرى أن يبقى وراءَنا.
- ......
- أنــا أدري أن هذا الأمر ليس ســهلاً، لقد عملتَ بإخلاص، وها أنت مُستبعد من المشروع..
- يمكنك الانصراف، من فضلك!
- نعـم، يمكنني، ولكن ســأعود فــي الحال، لقــد رأيتُ مع (أوديبير).. أن نعهد إليك بمشروعٍ جديد.
- ......
- رأيتَ مع (أوديبير)؟
- نعم، لقد أعدنا تنظيم المكتب قليلاً، وأنت مرتبطٌ بي الآن، سيكون الأمر بسيطاً جداً.
- ......
- طيِّب، أرجو أن تحبَّ هذا المشروع، فأنت لن تعمل شيئاً..
- ......

وختم بالقول، وهو خارج، من غير أن ينتظر الجواب:

- والصحة، هل هي بخير؟

سأكون إذن تحت إمرته، لقد عملتُ هنا طويلاً، ساعات وأنا أعرق على هذه الملفات، عملــتُ كل هذا لأنتهي تحت نيرِ طامحٍ بلا رحمة، لقد كان مبتهجاً بانتصاره، وكان يكلِّمني بصوت جادٍّ، ووجهٍ رصين، ومع ذلك كنتُ أتصوَّر الابتســامة التي كان يخفيها

تحــت قناعه، وكنــت أحس حتى بحركة حاجبيــه، وكنت أعرف كثيراً من الرجال مثله، ممن يفرحون لأدنى سلطة، وقد كنتُ أراه وأنا مُغْمِضٌ عينيَّ.

لقــد كان مقلداً غليظــاً لهؤلاء المهووســين بالثأر من ذوي المراهقة الضعيفة، وسيظل أبداً ذاك الذي نشير إليه بالإصبع، وعندئذٍ، يجب عليه، كي يشــعر بأنه حي، أن يســحق الآخرين، وسيتيح له العنف، مع كثير أو قليل من البصيرة، أن يستُر خوفه الذاتي، ولكن مهنته الجميلة لم تكن لتروي رغبته في الثأر، فهو من أولئك الناس الذين لا يعني النجاحُ لهم النجاحَ، لأنه لا يزال يشعر بأنه دجال. إن الانسجام في تواضعه الشخصي يبقى أمراً أُونطولوجياً[48] ontologique، عندما كان يجلس على رصيف (ترَّاس) terrasse مقهى باريســي، يبدو أنه كان خائفاً دوماً أن يُطْلَب إليــه إخلاء المكان، وكان يعلم أن هــذا يمكن أن يحدث فــي أي وقت، وأن يُبْعَد عن مــكان الرجال، وعندئذ يصيح: مع النســاء أيضاً، ولقد كان يحصل له أن يزعق تحت نوافذ جميلة لا تُطال، وهو يتفاخر بأنه (رومانســي) romantique، وبأنه مجنون، وبأنه شاعر، وفي الأصل، كنت أحسّ بأنه يكره النساء، وبعد بضع ســنوات، توصل إلى الزواج من إحداهن، وقد رأيتُها أحياناً في المكتب، وكنت أجدها حزينة بانتظام، حزينة حقاً، في مطلع زواجهما، يبدو أنها كانت متأثرة بهذا الإنســان بإيماءاته السلسة، والذي كان يستيقظ طموحاً وينام تالفاً، نعم، يبدو أنه

---

(48) نســبة إلى الـ (أُونطولوجيا) ontologie، وهي فرع من فروع الفلســفة يختص بدراســة (الكائن) بما هو كائن من خلال خصائصه العامة وشروطه، وتنقسم (الأنطولوجيا الحديثة) إلى: شكلية، وجدلية، وأساسية، وتحليلية، إلخ (المترجم).

كان يملك ســحر كل هذا الأمل الموضوع في جسد صغير، لقد كان يرغب في أن يتألَّق، وألا يُظهِر سـوى الجوانب المعجِبَة في شــخصيته، عن طريق الحركات المتَكلَّفة والمقاربات المتواصلة، وكان يكفي أن يصل إلى غرفة المعيشــة حتى يخلع هذا القناع، وقد رأته امرأته بسرعة فائقة على حقيقته، وكان، في نظرها، يقرأ كل يــوم مَحْضرَ تفاهته، لقد تحوَّل الأمير إلى ضفدع[49]، وقد زاد ذلك الحاجةَ لديه إلى تلميع نفســه، وكان جندياً طيِّباً في الســنوات الســود، ومعاوناً ممتازاً، ولكنه من عنصر خاص قليــلاً، لم يكن لتعاونه إلا مصدرٌ واحد: إعجابه باليهود، وعلى الرغــم من كل ما رأيــتُ منه، أظل مركِّزاً علــى قطرات العرق التــي كانت تتلألأ على جبينه، وكانت تنتابني أحياناً الرغبة في أن أمســحها له، وكنت أرغب أحياناً في أن أخضع له، في إرادة مجنونة لتهدئــة حقده، وربما كنت أحيانــاً مجنوناً مثله، كيف يمكــن تقبُّلُ أن يبدي المرء مثل هذه الســذاجة؟ إن هذا الرجل صنيعةُ تكاسُلِ طموحي.

كنــتُ أنتظر الملف الذي ســوف يحضره إلــيَّ، وكانت جميع المســتندات المتعلِّقة بالبعثة اليابانية لا تــزال على مكتبي أيضاً؛ فرميــتُ ببــطء كلَّ صفحاته، واحدة تِلْوَ أخــرى، لقد كدَّرتُ بها شــهوري الأخيرة، فكان كل شيء بلا جدوى، وبُعَيْدَ بضع دقائق، ظهــرت أمينة ســري، ولكن هــل ما زالت لي؟ كانــت قلقة على صحتي، فتمتمتُ بأن كل شيء على ما يرام، ثم قالت لي:

(49) هذه إشــارة إلى الحكاية الشعبية الفرنســية (الأمير الجذاب) **le prince charmant**، الذي تحوله ســاحرة إلى ضفدع، ولذا عرفت الحكاية أيضاً باسم (الأمير الضفدع) **le prince crapaud**، ولــم يكــن بالإمــكان أن تتم عودته إلى شــكله الأول إلا إذا عانق أميــرة، وقد كان (المترجم).

- أنا آسفةٌ على كل ما قد جرى، أنت لا تستحقُّه.
- شكراً..

وأضافت وهي ذاهبة قولها:

- أنت إنسان مستقيم.

ربما كانت قد نطقت بهذه الكلمات من باب الشفقة، وعلى أي حال، فقد أثَّرتَ فيَّ بعمق، حتى إنني أوشكتُ أن أمسح دموعي، منذ بضعة أيام، كنتُ أكافح ضد الوجع والمصائب، في حين إن كلمات (ماتيلد) البسيطةَ كانت تمثل فجوة من الحنان، الحق معها، كنت إنساناً مستقيماً، ولم أكن لأستحق ما جرى، ومع ذلك، سوف أقبل الوضع الجديد، لأنني لا أملك القدرة على العِرَاك، إن ما أعيشه الآن يبرهن على أن طبيعتي العميقة كانت تسير مع تيار الأحداث، متجنباً مهما حصل التيارات المعاكسة، لقد كنتُ سمكة(50) أكثر من أي وقت مضى.

إن مكتبي الآن لا يزال بِكراً تقريباً، تناولت الهاتف لدعوة والدَيَّ، كانت أمي، في هذه الساعة، وبلا شك، في المطبخ، تحضِّر وجبة الغداء، ولا بد أن يكون أبي يتفرَّج على التلفزة، وهو يتذمَّر أمام غباء الأشياء المقترحة للتسوق، قائلاً:

- هذا لا يفيد في شيء.

كنت أرى هذا المشهد بسهولة كبيرة، بينما لم يكن هنالك ما هو أصعب من أن أتصوَّر والِدَيَّ شابَّيْن ومتحابَّيْن، يمشيان يداً بيد، وقد قرَّرا أن ينجبا طفلاً؛ هو أنا، إننا ننحدر من خيال علمي، هو حبُّ والدَينا، وشبابهما، وعدمُ مبالاتهما،

(50) أتكلَّم هنا عن الطالع الفلكي، وعن طالعي الذي هو العقرب، فقد كنت ورثت ميلاً قليل الاعتدال للظل على وجه الخصوص (الأصل الفرنسي).

ولـــديَّ انطباعٌ بأنهما قد أمضيا حياتهما في إطارهما الحالي، كممثِّلِيْنَ محكومين بالمشـــهد نفســـه، وممنوعين من أي محاولة ارتجال، لابد أن اتصالي غير العادي، وفي هذه الأحوال، سوف يتغيَّر حتماً:

– نهاركِ ســـعيد ماما، كنت أودّ أن أدعوكما على العشاء هذا المساء في البيت.

– ......

– ماما؟

– هذا المساء؟ تعني اليوم؟

– نعم، وهو كذلك، هذا المساء.

– .. هل لديك شيء تخبرنا به؟

– لا، لا شيء محدَّد، إن حضوركما وحده يسرني.

– اسمع، إن كان هنالك شيء ما، فأفضِّل أن تذكره لنا حالاً.

– لا بالطبع، أقول لكِ ليس هنالك شيء.

– سوف تُطلِّق؟

– طيِّـــب اســـمعي ماما، إنني أدعوكما فقـــط هكذا .. فإن لم ترغبا في المجيء فلكما ذلك.

– لا بالطبع.. إنه ليسرني أن أراك، فقط يجب أن أسأل أباك إن لم يكن ينتظر شيئاً آخر..

– موافق..

تنفَّستُ الصعداء، متظاهراً بأنني قد صدَّقتُ أن أمي يمكن ألا تعلـــم إن كان أبي ينتظر شـــيئاً ما هذا المســـاء، ومتظاهراً بأنني قد صدقت أن أبي يمكن أن ينتظر شـــيئاً ما من غير أن يعلم أمي، فهما ليســـا من النوع الذي يفعل أحدهما شـــيئاً ما

مــن غير الآخر، فهما جزء من هذا الجيل الذي تعني فيه حياة الاثنين حقاً: حياةً لاثنين، إنها دِعايةٌ لشعار (اتحدوا في السرَّاء والضرّاء)، إن المرء ليتخبط في مظهر عاطفي كاذب، لقد راحا يتناقشـــان في دعوتي بصوت منخفض، ووازنا بســـرعة بين ما للدعــوة وما عليها؛ أما أبي فكان مؤكَّداً أن أمره يتعلَّق ببرنامج تلفازي، أظنّ أن دعوتي جاءت في وقتها، فليس هنالك مباراة لـ (رابطة الأبطال)[11] Ligue des champions هذا الأربعاء مســـاء، طال الانتظـــار في الجانب الآخر مـــن الخط، يبدو أن اقتراحي قد أربكهما حقاً.

حـــدث في الماضي أن وجَّهت إلـــيَّ أمي بعض اللوم، فأنا، بحســـب قولها، بارد ولا أتكلم قط عن نفســـي، إنها لم تدرك شيئاً واحداً؛ هو أنني في كل مرة كنتُ أحاول أن أتقرَّب خطوةً نحوها، لـــم تكن تظهر لي أدنى ســـرور، ولا أدنى حنان، لقد كانت تلومني بشكل آليٍّ على الأشياء، وكأنها تتخلَّص من ثقل شـــعورها بذنب خاص، وكذلك بينما أدعوهما على العشـــاء، ويمكـــن أن يكون هذا الأمـــر مفرحاً تقريبـــاً، ولنقل إنه كان مفاجأة لطيفة، كنت أشـــعر بثقل الســـنوات المنصرمة بسبب عدم تفاهمنا، وكدت أتأسف على دعوتهما، ناسياً أن الخوف من الموت كان أصل الدافع إليها، وأعتقد أنني كنتُ آمُل بعض الأشـــياء، من غير أن أدري حقيقةً ما هي، إن الأبناء يبحثون دوماً عن الجانب الناقص من العاطفة، هذا هو الأمر، وبشكل منتظم، كنت أواجه عبثاً واقع جفائهما، ولكني مع ذلك عدت مـــزوَّداً بهذا الأمل الخاص بفاقـــدي الذاكرة. ردت أمي، بعد

(51) رابطة الأبطال: رابطة أوروبية لأندية كرة القدم، تقوم بتنظيم كأس أوروبا (المترجم).

دقيقتين أو ثلاثِ دقائق من التشـــاور، جاعلةً الســـرور الذي ذكَرتْه أقلَّ مصداقية، بقولها:

- بكل سرور.

- آ.. حسناً جداً، إذن، سننتظركما في الساعة الثامنة.

- هل ترغب في أن نحضِر شيئاً ما؟

- لا، كل شـــيء على ما يرام، ســـأنصرف مبكِّـــراً من العمل لتحضير كل المطلوب.

- حقاً، هل يمكنك الانصراف مبكراً؟ هل لديك مشـــاغل في العمل؟

- ماما..

- أنا أســـأل، هذا كل شـــيء، هذا غريب، أليس كذلك؟ هذه هي المرة الأولى التي أسمعك فيها تقول إن بإمكانك أن تنصرف مبكراً..

- بالطبع لا، لقد عملتُ كثيراً في الأوقات الأخيرة هذه، وقد حقَّقتُ تقدُّماً في إنجاز ملفاتي..

قالت وشيء من الشك في صوتها:

- نعم، نعم.. كنت أظنّ.

هذا صحيح؛ إن فكرة أنني أســـتطيع الانصراف مبكراً كانت تبدو قليلة القبول، فقد أمضيتُ ســـنوات وأنـــا أبالِغ في أهمية نشاطي كي لا أراهما في أغلب الأحيان، وقد حدث لي أيضاً أن اخترعت اجتماعات ليلية لإلغاء حفلات عشـــاء في ذكرى الميلاد الســـنوية، وعلى أي حال، فإن شـــيئاً مما كان قد مضى ليس له صلة بمنطقنا، كانت حياتـــي قد أخذت مجرى غير متوقع، وهو بالتأكيد خَطِر جداً، وكنت أصطحب أقربائي في سِكَّتي.

وكما كان (غايّار) أعلن لي، فقد مرَّ بمكتبي ليقدِّم لي مهمتي الجديدة[52]، وكانت تتعلَّق بإنشـــاء موقف للســـيارات في منطقة لا تزال مشـــغولة حديثاً بأنقاض مبنى مهـــدَّم، ولما كانت أرضها هشة، فقد قررت البلدية من باب الاحتياط ألا يبنى عليها سوى موقف للسيارات، وســـيكون هنالك اجتماع للتثبيت مع الشركاء الرئيســـيين قريباً، وقـــد نصحني (غايّار) بـــأن أذهب في جولة ميدانية لاســـتطلاع الموقع، وهذا هو التعبير الذي استعمله، قبل أن يضيف قوله:

– من الســـهل جداً الذهاب إليه، تذهب مباشـــرة في (قطار الأنفاق) RER [53] من محطة الشمال، وبعد ذلك تأخذ الحافلة (الباص).

– ......

– ويجب فقط أن تســـتعلم عن مواعيد الحافلة، إنها تمر في كل الأوقات كما أعتقد، وأطلعْني على الأمر.

وبعـــد أن انصرِف، تصفَّحتُ عناصر الملف، عندي عشـــرون ســـنة من الخبرة لأُعطَى مهمةً يستطيع متدربٌ أن يقوم بها خير قيام، وهذا الملف هو أتفه ملف يمكن أن يوجد في عالم الملفات، أوقفتُ كل شـــيء وانصرفتُ، ويتَّضِح لي أن (غايّار) كان يريد أن يدفعنـــي إلى الحافة، وهذا الأمر من أجـــل التنكيد عليَّ، ولكني لن أتزعزع، فليس لديَّ خيار، فكنت أدفع أقســـاط البيت، وعليَّ

(52) وقـــد دخـــل، بالتأكيد، مـــن غير أن يطرق البـــاب، ولكن لو أردت أن أبـــدأ بتوضيح جميع تصرفاته غير اللبقة، فلن أنتهي منها (الأصل الفرنسي).

(53) RER: هـــي مختصر للكلمات (réseau express régional) وتعني: (الشـــبكة المحلية السريعة)، ويراد بها: شبكة قطارات الأنفاق السريعة بباريس وضواحيها (المترجم).

أن أتحمل تكاليف دراسة الولدَيْن، وأدفع للتقاعد، وإذا كان لديَّ مرض خطير، فمن الأفضل أن أموت موظفاً لا عاطلاً من العمل.

(٢٢)

شدة الوجع: ٧
الحالة المعنوية: أُسَرِيّ

(٢٣)

وفيما بعد الظهر، أرسلت رسالة قصيرة إلى ابنتي لأقترح عليها أن تأتي لتناول العشاء هي أيضاً في البيت، فقبلت، وهي تسأل كسائر الناس إن كان لديَّ شيء ما سأعلنه. انصرفتُ من العمل مبكراً، بعد ما كنتُ قد ابتلعت كبسولتي الثامنة اليومية، كانت هذه الكبسولات تحدث تدريجياً تأثيراً أقلَّ فأقل، وكنت قد بحثت لمدة ساعة عن وضع جيد لأخفِّف من الوجع، قبل أن أجد نفسي أجلس بأَلْيَةٍ على الكرسي وأَلْيَة في الفراغ، وقد داعبتني عدَّةَ مرات، أثناء وخزات الوجع، فكرةُ إلغاء العشاء؛ لقد ارتكبتُ هذا الجنون بأن دعوت والديَّ أثناء وقت استراحتي، هذا يعني أن هذه السهرة سوف تتيح لي بالتأكيد التفكير في شيء آخر، والتوتُّر من مواضيع أخرى، وربما كان هذا منهجاً حسناً، عندما يعاني المرء، فعليه أن ينظِّم شيئاً ما أكثر إزعاجاً، لأن الألم وحده يمكن أن يُلْهِيَ عن الألم، ولكن انتباهي انصرف أخيراً عن ذلك.

وكنت أريد أن أمر بالسوق لأشتري خضراوات وأحضِّر المخلوطة[54]، ولكن هذا كان يتطلَّب مني مزيداً من الجهد، ولن

(54) وهي طبخة تتألف من: الباذنجان والكوسا والبندورة (الطماطم) والبصل مع زيت الزيتون والملح والتوابل (المترجم).

تعود (إيليز) قبل الساعة السابعة، ثم إن هذا العشاء كان فكرتي، وهكــذا عليَّ أنا أن أرتِّبَه، وكنت أظن أن أســهل ما في الأمر أن تطلب شــيئاً ما، هنالك صاحب مطعم لبناني كان قد أغرق، منذ شهور، صندوق رسائلي، بنشـــرات إعلانية وقسائم تخفيضات، وحتــى الآن، كنت أجهل هذه الإعلانات، وكنت أحياناً ثائراً حتى علــى كثرتها، ولكن يجــب أن نؤمن بأن العنــاد يكلِّف، ذلك لأن الخِيار اللبناني ورد على ذاكرتي هذا المساء، لقد مرت سنوات لم أكن أتناول فيها طعاماً لبنانياً، وكنت أخشـــى أن أضل في متاهة الاحتمالات المطبخية، وأنا أريد شيئاً بسيطاً، شيئاً منتظماً، أريد وصفة مفهومة تماماً، اتصلت بالمطعم، فردت عليَّ فتاة:

- ألو؟
- نهاركِ سعيد، أتمنى منكم خدمة هذا المساء.
- هذا المساء؟ هذا غير ممكن.
- حقاً؟ لماذا؟
- لدينا مشكلة.
- حقاً.. مشكلة؟
- هنالك أيضاً صاحب مطعم مغربي في الزاوية..
- آ.. نعم.. لِمَ لا..
- أيمكنُكَ تسجيلُ ملاحظة؟

لقــد نَجحَــتِ الفتاة علــى الهاتف، كعمل باهــر صغير، في أن تكون مهذبة نســبياً في إظهار نفســها، كمــا يبدو، في حالة طــوارئ، ومن المدهــش أنها زودتني أيضـــاً برقم هاتف صاحب المطعم المغربي، وهــو منافِسٌ محتمَل، ولقد قدَّرتُ هذا التكاتف التجــاري، ولكني، في المقابل، لم أفهم جيداً كيف يمكن للمرء أن

يصـــرف طاقة كبيرة في الإعلان، ثم لا يكون مســـتعداً في اليوم الذي يستســـلم فيه الزبون الأقل احتمالاً (وهو أنا) لإعلاناتهم، وبعد بضعة أيام علمت، لا أدري حقيقةً بأي مصادفة، أنهم كانوا ضحية تفتيش صحي فاجعٍ، لقد نجونا بالكاد من تسمُّم غذائي، ربما كان سيســـبِّب مأساةً أُسَرِية، ولكان والدايَ، اللذانً كنتُ قد دعوتهما لأول مرة، سيستنتجان بشدة أنها محاولة تسميم لهما، وفي الحقيقة، لقد تجنَّبتُ الأسوأ.

انتقلـــتُ بطيـــب خاطر إلـــى المغاربة، الذين كنـــتُ أيضاً قد لمحتُ أحياناً نشـــراتهم، ويبدو أنني كنت من قبل أتبسَّم عند ذكر اســـم مطعمهم: (ألو كوســـكوس) [55] Allô Couscous، ولقد قدَّرتُ على وجه الخصوص فكرة أن تكون الطلبية بسيطة جداً، وكان يكفي أن أطلب وجبة (كسكســـي) ملكية لخمسة أشخاص، اتصلت، فردت امرأة شابة على الهاتف قائلة:

- حسناً، يا سيدي.

ثم أضافت قولها:

- هل تســـمح لنا أن نقدم لكم مـــع طلبيتكم بعض الحلويات المغربية الصغيرة..

- أسمح لكِ.. أسمح لكِ..

يا لهذه اللطافة، ويا للبســـاطة، ويا للشمس، إنهم، في رأيي، يســـرعون في الطلبية ليفيدوا من انشـــغال منافسهم الرئيسي، وهـــذا هـــو الوقت المناســـب لكســـب الزبائن، وخلال الشـــعور

(55) سمي المطعم باسم طبخة شعبية تقليدية شائعة في بلاد المغرب معروفة باسم (الكُسْكُس) أو (الكُسْكُســـي) وتتكون من ســـميد القمح القاســـي، ويُنْضَج على البخار، ويتم تناوله مع اللحم والخضراوات وأنواع الحساء، وتعرف في بلاد المشرق باسم (المغربية) (المترجم).

بالاغتبــاط من المهمة المنجَزة، فكرت لحظة بأننا ســوف نقضي ســهرة جميلة، ومــن هنا، يتعيَّن عليَّ أن أســتريح قليلاً، فأنا لم أتوقَّف منذ استيقاظي، من غير أن أحسب أرقي منذ ثلاثة أيام، إنهــا ضربات حقيقية على القفا، وما إن دخلت إلى غرفتي، كان يلزمني دقيقتان تقريباً حتى أغرق في نوم عميق.

يا للســعادة أن أنام أخيراً، بلا أحلام، وبلا شيء، وأن يغيب المــرء عن وعيه، كنت أرغب في أن أنام في ســريري، في مأمن نهائــي من وجعي، ولما كنتُ مقتنعاً بأنني ســوف أســتريح نحو ثلاثــين دقيقة على الأكثر، فإنني لم أبرمــج منبهي، كان هنالك رنين انتزعني من سباتي، رنينٌ كان يبدو أنه يتعلَّق ببدء انطلاقة لحلم، لا أدري حقاً أي حلم، قبل أن يتحقَّق تدريجياً وكأنه جزء من الواقــع، وغفوت أيضاً بضع ثوانٍ قبل أن أدرك أن هناك من يرن الجرس على الباب حقيقة، لربما كانت تلك طلبية (الكُسكُسي)، نزلت مســرعاً لفتح الباب، فوقعت وجهاً لوجه على والدَيَّ، لقد كانا معاً، جنباً إلى جنب، ومتوتِّرَين بشكل لا يُصَدَّق، سأل أبي:

- ما الذي يجري؟ مرَّت خمسُ دقائق ونحن نرنّ الجرس.

- ......

وتمتمتْ أمي:

- كنتَ.. كنتَ نائماً؟

كانت الســاعة الثامنة، لقد نمت نحو ثلاث ســاعات، ألقيت بســرعة نظرة على مرآة المدخل، وكنت أبدو بشــعري الأشــعث إنســاناً قعيدَ نــوم، كان والدايَ مذهولَين في الممــر، ومنبهرَين، واستغرقتُ أيضاً بضع ثوانٍ قبل أن أدعوهما إلى الدخول، جلسا على الأريكة في الصالون، من غير أن يقولا شيئاً، فسألتهما ماذا

يشربان فاتحاً للشهية، بدأ أبي فقال:

- هل لديك من الـ..

فقاطعته أمي قائلة:

- قدِّم لنا ما عندك.. سيكون ذلك جيداً..

تلفَّظتْ بهذه الجملة ناطقة كل مقطع منها نطقاً جيداً، وكأنها تخاطب بها أبلهَ، فقلتُ بقليل من الاطمئنان:

- لسوف أفتح زجاجة نبيذ أحمر.

لأنني غير متأكِّد أن عندي واحدة منه، فقد كنت أتوقع أن أقدِّم وجبة الطعام لا الشراب، ولحسن الحظ، كانت قد بقيت لديَّ زجاجة (ميدوك) médoc [56]، فنزعت سدّادتها، وشعرت بارتياح، وفي هذه اللحظة، استعدتُ وعيي بالحاضر من خلال ملاحظة أمرين؛ أنه كان لدي دائماً وجع في الظهر، وأن (إيليز) لم تعد بعدُ إلى البيت.

لحقتْ بي أمي، أثناء ذلك، إلى المطبخ، وراقبتْ لحظة قبل أن تسأل:

- هل تحتاج إلى مساعدة؟

- لا.. لا، كله تمام، عودي إلى الصالون، سآتي خلال دقيقتين.

- ......

- ......

- طيِّب.. إذا كنتَ قد فقدتَ عملَك، يمكنك أن تقول لنا ذلك حالاً، وبصراحة هذا أمر غير خطير، ويمكن أن يحصل، ومن ثَمَّ، فأنا ووالدك يمكن أن نساعدك إن كنت في حاجة، وقد تكلمتُ

(56) ميدوك: اسم نوع من النبيذ الأحمر الذي يجلب من منطقة (ميدوك) في فرنسا، وسمي باسمها (المترجم).

معه في الأمر، وهو موافق.

- تكلَّمتِ معه في الأمر؟ ولكن متى؟
- للتو، حين وصلنا.
- ولكنني لم أفقد عملي! وعليكما أن تتوقَّفا عن هذا.

رن جـرس الباب، فأتاح لي ذلـك وضع نهاية لهذا الحديث، إنه مُوصِل طلبيات مطعم (ألو كوسكوس)، وهو شابٌّ ذو ابتسامة على شـكل نداء صارخ للإكرامية، يبدو أن كل عناصر السـهرة أصبحت جاهزة، صحيح أنها كانت بشـكل غيـر منتظم قليلاً، ولكن كل شيء مر على ما يرام، عدت إلى المطبخ حاملاً الأطباق، تتبعني أمي دائماً، كانت تبدو مزعزعة، سألتُها:

- أنتِ بخير؟ هل هنالك مشكلة؟
- هل طلبت.. (كسكسي)؟
- نعم.
- ......
- هل هنالك مشكلة؟

قالت وهي تكاد تقطع الأنفاس:

- لا.. لا..

يسـتطيع المرء أن يقرأ على وجه أمي كل شـيء دائماً، يبدو أن (الكسكسـي) أصبح عنصراً مشوِّشـاً جديداً، ولم تسـتطع، بالتأكيد، التعبير عن ذلك، سـبق أن اكتشـفتُ لدى والِدَيَّ ميلاً متقدِّماً إلى عقدة (كراهية الأجانب) xénophobie [57]، وكنتُ

(57) عقدة كراهية الأجانب والغرباء، أو الخوف منهم، أو من كل ما يصدر عنهم، أو يجيء منهم، عقدة نفسـية تتلبَّس بعض الناس في كل المجتمعات، وهي البيئـة الحاضنة عادة لنمو النزعات العرقية أو الشـوفينية المتطرِّفة التي يكون لها امتدادات سياسية أحياناً في بعض فترات التاريخ (المترجم).

أعتقد أن ذلك كان يتعلَّق بالأفراد لا بالأطعمة، هل يمكن أن يكون هنالك (مورِّثةٌ) عرقية تنمو آلياً في الشـــيخوخة؟ من الواضح أن تقبُّل هذا الشـــعور لديهما خارجٌ عن موضـــوع النقاش، وعندئذٍ استدركتْ أمي قائلة:

– إن أباك هو الذي سيكون مسروراً، إنه يعشق السميد.

– حسناً جداً، أتمنى أن تقضيا سهرة طيِّبة.

قالت من غير أن تنجح في إخفاء قلقها المتزايد.

– نعم، نعم.. سنقضي سهرة طيِّبة، هذا أكيد.

(٢٤)

شدة الوجع: ٧

الحالة المعنوية: مغربية

(٢٥)

أصبحت الساعة الثامنةَ والنصفَ تقريباً، ولم تكن (إيليز) قد عـــادت بعدُ، وفي الوقت الذي همَمْتُ فيه أن أتصل بها، لاحظتُ أنهـــا كانت قد تركت لي رســـالة تبلغني فيها عـــن تأخُّرها، فقد كان أحـــد أولياء تلميذٍ ألحَّ على رؤيتها بـــأي ثمن، ولذا اعتذرتْ بأنها لن تتمكن من مساعدتي في تحضير المائدة، وبالكاد سمعتُ الرســـالة حتى ظهرت بصحبة ابنتنا، فقد انضمَّتْ (أليس) إليها في دار الحضانة، وهما على الطريق في الســـيارة معاً، أنا لم أرَ ابنتي منذ أســـبوعين تقريباً، وقد جرت أشـــياء كثيرة مذ ذاك، وكان لـــديَّ انطبـــاعٌ بأن قرناً كان يفصلنا، لقـــد كانت تحلو أكثرَ فأكثر، بذلك الجمال الذي يزيد من حالة هروب البنت من أبيها، وكنـــت أنظر إليهـــا دائماً بإعجابٍ مِطْواعٍ، وكنـــت قادراً على أن

أميِّــز نوعاً من الموهبة في حركاتها الأكثر تفاهة، وعندما رأيتها أعدت النظر في كل الأفكار السوداء التي كانت قد تملَّكتني منذ يوم الأحد الســـابق، هذا الأمر غير ممكن، لا أستطيع أن أموت، ســـيكون ابناي تِرْياقي، وليس موضع نقاش ألا أعلم ما سيكونان عليـــه، ويتعيَّن عليَّ أن أكون معهما لحمايتهما جيداً إلى أبعد من ســـن الرشد، ضممتُ ابنتي بين ذراعيَّ لوقت طويل، وبشدة غيرِ مسبوقٍ إليها، وبقِيَتْ هي مدهوشة، قبل أن تسأل:

- ما الذي حصل لك؟

- حصل لي أني أحبك بقوة، وهذا كل شيء.

نظـــر إليَّ الجميع من غير أن يقولوا شـــيئاً، وعندئذٍ أعلنتُ قائلاً:

- هذا المساء، عندنا (كسكسي).

بعد بضع دقائق، كنا حول المائدة، غارقين من غير أن نفاجأ فـــي حوار فردي مـــن والدي، لقد كان يحب دائمـــاً أن يكون في مركـــز المحادثات، مُقَلِّفــلاً حكاياته ببعـــض التفاصيل التي كان يراهـــا (خطأً) مضحكة، كانـــت صلتي به أكثر مـــن معقَّدة، إنه نوع من الحشـــو بالتأكيد عندما يتحـــدَّث المرء عن والده، أو في نهاية المطاف عن والدَيْهِ، كنتُ أعقِّب بلا انقطاع، إلى حد تدويخ رأيي، بين الأوقات التي أجده فيها رائقاً ومنشرحاً، وفي الأوقات الأخـــرى التي كنت أرى فيها أنه لا يُطاق إلى درجة الاشـــمئزاز، أحياناً، كان شـــخص ثالث يشـــارك في هذا الشعور؛ يمكنني أنا أن أقـــدِّر أبـــي، ولكن حينما كان أحدهم يقـــول خيراً عنه، فإني كنت أســـرد قائمـــة طويلة بعيوبه، وفي المرتبـــة الأولى منها تلك الطريقة التي كان يستعملها في الحط من شأني دوماً، وقد رأيت

طوال سنين شكلاً من الرعونة العاطفية، ولكن ليس بإمكاني، في الوقت الحاضر، أن أشك في نيَّاتِه، لم يكن بإمكانه قط أن يخاطبني بطريقة إيجابية، ولم يكن يُشيد بأي شيء يخصُّني، ومثال ذلك أن ابنيَّ، على الرغم من أنه كان يحبهما، ولم يكن في ذلك أي لَبْس، فإنه كان حينما يذكرهما لي، فإنما يذكرهما بانتظام ليشير إلى بعض الأشياء التي لا تعجبه، كأن يقول:

- أنا لا أفهم كيف تدع (أليس) تلبَس هكذا..

أو يقول:

- هذا أمر لا يُحْتَمَل، إن (بول) يمضي وقته في إرسال رسائل على هاتفه.

ولم أكن أسمعه قطّ يقول:

- ابناك رائعان.

لأن ذلك يعادل قوله لي إنني قد أنجزتُ شيئاً جميلاً في حياتي.

ولكن موضوع اهتمامه الرئيسي يبقى بوضوح حياتي المهنية، فمنذ أن عملت في مكتب الهندسة المعمارية، وقَع في غرام هذا القطاع، وأخيراً، حين أقول هذا القطاع، فإني أتحدَّث على وجه الخصوص عن منافسينا، فأبي كان بالتأكيد الإنسان الوحيد في العالم الذي كان يتابع باهتمام كبير نجاحات المنافس الرئيسي لمؤسستنا، ولو أني كنتُ عضواً في فرقة الـ (بِيتلْز)، لكان أمضى وقته في التحدُّث إليَّ عن فرقة (رولِّنغ ستونز) [58] Rolling Stones، ولم يكن ليفوته قط أن يعلمني قائلاً:

(58) فرقة (رولِّنغ ستونز): فرقة موسيقية غِنائية إنجليزية انطلقت في (لندن) سنة 1962 معاصرة لنشأة فرقة الـ (بيتلز) التي أسسها (لِنُّون)، وكانت شبه منافسة لها (المترجم).

- إنــه لأمر مؤســـف مع ذلـــك آنكـم لم تبرمـــوا عقدَ كلية (جوسيو) [59] Jussieu، إنه مشروع جميل.

- نعم، بالتأكيد.

- لقد نفذوا عملاً جيـــداً لدى مكتب (Xenox and Co)، لقـــد مررت بـ (شــايُّو) [60] Chaillot لأرى أعمال التوســـع في الجنــاح الجديد من المتحف، إنه عمل يوحي بالعظمة، وإنه لأمر مؤسف أنك لا تعمل عندهم..

كانت تلك هي كل مشكلة أبي، ويمكن أن يكوِّن المرء الانطباع بأنه كان يهتــم بمهنتي، وأنه يمتلك طريقة ودية في متابعة حياة ولده، ولكن الحقيقة كانت شيئاً آخر تماماً؛ فهو يقضي وقته في إظهار كل ما نُخْفِق فيه أنا وشركتي، وفي معبد نظامه الماكر، كان هنالك مشـــروع عملتُ عليه ثماني سنوات من قبل، ومن المحتمل أن يكون ذلك هو الوقـــت الأكثر صعوبة في حياتي المهنية (حتى اليوم)، كنت قد أمضيت شـــهوراً في مشروع مثير للاهتمام، كان مكتبنا قد حصل عليه بعد كفاح مرير، وقد تم إعلان كل شـــيء فيـــه بروعة تامة إلى أن جاء يـــومٌ علمنا فيه بأن جزءاً من المبنى كان يعود إلى مالكي البناء، أو بشكل أدق إلى شخص وحيد يقيم في الولايات المتحدة، رجلٍ واسع الثراء رفض اقتراحاتنا، ودخل المشـــروع في طريق مسدود، وكانت الشؤون القانونية في مكتبنا قد ارتكبت خطأ يســـتحيل إصلاحه، شـــهورٌ من العمل تلاشت، لقد كان ذلك مخيباً جداً للآمال ومثيراً للسخرية، وهكذا لم يكن هنالك شـــيء نفعله، وتوقفت الحال، ولم يكن أحد يتكلَّم عن هذا

(59) مجموعة مبان جامعية فخمة بباريس مخصصة لدراسة العلوم (المترجم).

(60) شايُّو: حي يقع جنوب (قوس النصر) في القطاع رقم 16 بباريس (المترجم).

الإخفاق في شـــركتنا، وكان عليَّ أن أكون الوحيد الذي يتفحَّص هذا الملف، بفضل أبي الذي كان يسألني بانتظام:

- هل من أخبار عن مالك البناء؟

- لا.

- إنه لغباءٌ، كان ينبغي لهم أن يتحققوا قبل أن يَنْقَضُّوا هكذا على هذا المشروع..

- نعم، أعلم ذلك، لقد قلتَ لي ذلك من قبل.

- هذا عمل هواة..

وبذلـــك، كان أبـــي مؤرشِـــفاً لإخفاقاتـــي، وهـــو يحدِّثني بلا انقطاع عن الأشياء ذاتها، مردِّداً لوازم أسوأ أوقاتي، وكانت زوجتـــي وابنتي تتبادلان النظرات عندئـــذٍ بتلك الطريقة التي لا تمتلكان فيها اســـتعمال الكلمات للتفاهم، لقد كان المشـــهد نفسه يتكرر دوماً؛ كان بإمكان المرء أن يوفِّر طاقة التفسيرات، وبالتأكيد، كنت أدخل فـــي تواطؤ النظرات، فهل كان بالإمكان أن نضحـــك منها أو لم يكن بالإمـــكان؟ ويبدو أن (إيليز) ضاق صدرهـــا بهذه الرتابة الأُسَـــرِيّة من الشَّـــجْب، نعم، لقد لمحتُ في ذلك المســـاء ما يشبه درجة إضافية في انزعاجها، يتحدَّث الناس غالباً عن قطرة الماء تلك التي تجعل الكأس يَفيض، وإن تلك القطرة يمكن تجســـيدها بتغيير طفيف في النظرة، وفي ذلك المســـاء، كانت بعض الأشياء التافهة قد قلبت تعبيرها عن الجانب الآخر من الكأس، فانتقلت من التواطؤ الرقيق إلى نوع من الاســـتخفاف الحاد، هل هذا ممكن؟ إن شـــيئاً زهيداً كان كفيـــلاً بوضع حدود بين عالمين، وكأن المشـــاعر الأكثر تناقضاً بعضهـــا ينفصل ببســـاطةٍ عن بعض بحدٍّ مَسَـــامِيٍّ، حدٌّ يمكن

عبوره ببساطة شـــديدة، هذه هي المرة الثانية التي أحس فيها بذلك الإحساس، بعد إشارة النافذة.

إن طيش أبي وسوء نيته لم يكونا ليفاجئاني منذ زمن طويل، ولقـــد كنتُ أنتظرهما كما ينتظر مســـافر قطـــاره، وكنت أجلس على رصيف علاقتنا، وأنا متأكِّد تماماً من أنني ســـوف أســـمع جُمَلاً ســـبق لي سماعها ومفعمةً بحيويتها السالبة، والحق يقال، هذا الأمر لم يكن دقيقاً تماماً، لأنني كنتُ إذا ما ســـمعتها، أظلّ دومـــاً متفاجئاً قليلاً، وكان عليَّ من غيـــر إدراك أن آمُلَ، كطفلٍ ســـخيف، بأن الأمر ربما يكون اليومَ مختلفاً، فالمرء يعتقد بغرابةٍ أن الأشـــياء يمكن أن تتغيَّر نظـــراً لأن والِدَيّنا تمثالان عاطفيان، وأمـــي أيضاً لم تكن لتَحِيِّد عن دورها، فهي كالعادة تُحاول تدوير الزوايا، فقالت:

- رائع جداً هذا الكسكسي..

- شكراً، لقد فكرت أنه سيكون عملياً.

فقالت (أليس):

- نعم، حقيقة إنه طيِّب.

قبل أن تضيف إيحاء بقي بلا جواب:

- ينبغي أن تعملوا ذلك كثيراً.

وكما هو غالباً شـــأنُ الأســـر التي قلما تلتقـــي، يحدث أنها تتحدَّث عن أشـــياء عامة وعن السياسة، وهذا ما أحاول تجنبه، ولكن بـــلا فائدة، فأبي أدخلنا في عالم أســـود وبلا مســـتقبل، فقاطعته ابنتي بدعابة، وهذا ما جعله يبتســـم، لقد كان يغفر كل شـــيء لحفيدته، بما في ذلـــك وقاحتها، وقد قاطعته أمي أيضاً، لتحويل مجرى الحديث، فروت لنا مشـــروع رحلـــة كانا يعدانه؛

وهو جولة بحرية في المتوسِّط، فقال أبي:

- نعم، أخيراً، نتردَّد قليلاً الآن.. بسبب الحوادث..

فقالت زوجتي وهي مطمئنة تماماً:

- ومع ذلك، فإن هذا الأمر نادر.

- أولم تَرَيْ ذلك الأبله الذي فَرَّ من سفينته تاركاً الناس يموتون؟[61] إنه بصراحة أمر مقرف!

وهكذا، كان بالإمكان استحضار عجائب جزيرة (كابري) Capri [62]، والشواطئ الكرواتية، والـ (سترومبولي) Stromboli [63]، لكن لا، فقد أبحرنا في حديث منفرد يتعلَّق بالقبطان الجبان لسفينة جانحة قرب الساحل الإيطالي، وكنتُ أسأل نفسي: لِمَ نظَّمتُ هذا العَشاء؟ لقد كنتُ أشعر بألم شديد بعد التصوير بالرنين المغناطيسي، وكنتُ أريد أن أرى والِدَيَّ وولَدَيَّ (كنتُ أفتقد ابني أيضاً إلى حد بعيد)، لقد كنت في أغلب الأحيان أفعل عكس ما كان ينبغي لي

(61) يقصد هنا قبطان السفينة الإيطالية (كوستا كونكورديا) Costa Concordia التي جنحت قرب جزيرة (جيليو) Giglio الإيطالية جنوب أرخبيل (توسكانا) Toscana قبالة الساحل الغربي لإيطاليا، وكانت من أفخم السفن السياحية في العالم، فقد انطلقت يوم الجمعة 2012/1/13 الساعة 7.00م من ميناء (تشيفيتافِكّيا) Civitavecchia الإيطالي نحو الشمال الغربي، وكان عليه بعد ساعتين ونصف الساعة أن يمر في مساره بين رأس بري وجزيرة (جيليو) في الوسط، لكنه انحرف نحو اليسار واقترب من الجزيرة ليحيي صديقاً أو صديقة له هناك، فاحتك جانبها الأيسر في تمام الساعة 9.44م بصخرة وتسربت المياه إلى حجرات المحركات فتوقفت عن العمل، ودارت السفينة الضخمة بعكس اتجاهها وجنحت بجانبها الأيمن كله على الصخر، وكان القبطان أول الفارين منها على قارب نجاة، ويدعى (فرانتشسكو سكيتّينو) F Schettino، كان على متن السفينة ما يزيد على ثلاثة آلاف سائح من مختلف الجنسيات، ونحو ألف من العاملين عليها، وقتل في الحادث نحو 32 شخصاً، وأنقذ الباقون ما بين سليم ومصاب (المترجم).

(62) جزيرة إيطالية سياحية تقع غربي الرأس البري الواقع جنوب مدينة (نابولي) (المترجم).

(63) الـ (سترمبولي): جزيرة بركانية صغيرة تقع في البحر التيراني شمال القسم الشرقي من جزيرة صقلية الإيطالية، وفيها بركان نشط يحمل اسمها أيضاً (المترجم).

أن أفعله، وكنتُ في أغلب الأحيان أيضاً أفتقر إلى الوعي الخاص بالقرارات التي أتخذها، وفي كل مرة، كان ينبغي لي أن أقترف أولاً خطأً كي أتحقَّق بنفسي من حَدْسِيَ المريض، ولكن في هذه المرة، كانت لي أعذاري، فقد كنت أخشى أن أموت، فهل ينبغي لي أن أخبرهم بذلك؟ وهل أشركهم بقلقي؟ إن جفاء والدي كان يمنعني من ذلك، وهكذا كان ذلك أفضل بالتأكيد، ثم إنني لستُ من النوع الذي يُظهر وجعه، ولم أكن أملك حسَّاً دراميا، لقد كنت ببساطة ضحية نَزوَة، وليس خطيراً كثيراً أن تكون النتيجة إخفاقاً، لقد كنا معاً، وأستطيع أن أشعر أحياناً بمتعة جنون الأسرة، كما يعتاد المرء على العقاقير الخفيفة.

وكنت قد انسجمت مع هذا الإطار، لأنه إطار حياتي غير القابل للتغيير، وهكذا لم أذكر شيئاً عن وجعي، حتى لا أزعج الآلية المزَيَّتة لغرقنا.

وعلى الرغم من رغبتي في أن أظهر وجهاً طَلْقاً، فقد جاءت لحظةٌ لم أستطع فيها أن أقاوم ظهور وجعي، فقد اجتاحت وجهي تشنجات عصبية بطريقة فوضوية، أدخلتْ على ملامحي دفقات مفاجئة من التقطيب، وكانت الأحاديث مع والدي، وأسئلته المتواصلة عن المشروع المخفق، قد أسهمت بوضوح في إيقاظ الْحُرَقِ في ظهري، ولما كنت لم أعد أستطيع إخفاء ذلك أكثر، سألتْني أمي:

- أنت بخير؟ إنك شاحبٌ تماماً.

وقالت (أليس) وهي قلقة:

- نعم، هذا صحيح.. ما الذي جرى؟

وسألت (إيليز):

- هذا أيضاً ظهرُك؟

فأومأتُ إليها برأسي، وسألتّني أمي ما الذي عندي في الظهر، ولم أكد آخذ وقتي للجواب حتى أعلن أبي قائلاً:

- أنا أيضاً حصل لي ذلك عندما كنتُ في سنِّكَ.. وأتذكر أوجاعاً رهيبة.. إن الظهر منطقة حساسة حقاً.. أنت تتذوق.. ولكن حسناً، بما أنني لم أكن أتألم من السباحة، فقد كنتُ أنشِّط فقرات ظهري بما يكفي..

وهكذا شرَع يتحدث عن نفسه، وكان أمراً غريباً أن أعلم أنه كان يتألَّم هو أيضاً من ظهره في مثل سنِّي، لأن من النادر جداً العثور على نقاط مشتركة بيننا، وأخيراً، قلَّما يُحْتَمَل أن يكون قد شعر بدقة بالشيء نفسه، ويبدو أن ذلك كان خُزْلَةً في الظهر، ويبدو أنه ترك لي السرطان.

وقد تمدَّدتُ على الأريكة، ترافقني زوجتي، قالت:

- أعتقد أن ذلك سيكون أفضل..

- نعم، نعم، سيكون كذلك.. سيعود الأمر الآن كما كان بالضبط.

- ينبغي لك أن تذهب إلى طبيب عظام ostéo.

- سوف أذهب، لقد نصحني (إدوار) بواحد.

- نعم، يجب أن تفعل ذلك، فأنت تقول أشياء، ولكنك لا تفعلها.

- سوف أذهب.

انضمت إلينا أمي، وقالت:

- أنت بخير؟ لقد قلقت عليك.

فردت (إيليز):

- نعــم، إنه بخير، لقد أجرى صوراً شــعاعية، فلم يكن لديه شيء، ولسوف يذهب إلى طبيب عظام.
- آ.. نعم.. يجب أن تذهب إليه.. لا يبدو أنك على ما يرام..
- سينقضي الأمر، فلدي كبسولات، فلا تقلقي يا أمي.
- طيِّب.. طيِّب.. لسوف أدعكم.. يجب أن تستريح..

لم أُلِــحَّ عليها، فقد كان يؤلمني جداً الاســتمرار في الكلام، ولكنــي ذكرت الحلويات المنتظرة بعد الكسكســي، كان عليهم أن يأكلوها، وقبل أن أصعد إلى غرفتي، ذهبت لمعانقة أبي، وأعتقد أني قرأت في نظرته نوعاً من الازدراء، وكأنه يصدر حكماً قاسياً على النهاية المشوَّشة لهذا العَشاء، وبعد كل شيء، كنت قد قطعت عليه بعض الأحاديث الفردية، وحديثاً طويلاً محتملاً عند تناول الحلويات، ولكن لا، فقد نهض ليقول لي:

- نعم، اذهب لترتاح، يا كبيري، سيكون الأمر أفضل غداً.

لقد نطق بهذه الكلمــات بحنان عظيم، منهياً بذلك إغراقي في الارتباك.

(٢٦)

شدة الوجع: ٨,٥

الحالة المعنوية: على حافة الهاوية

(٢٧)

منــذ يومين، كنت أخفي عن (إيليز) تواصل آلام ظهري، غير أن حضور والِدَيَّ كان قد منعني من الاســتمرار في هذه القصة، وبعــد بضع دقائق من مغادرتهما، انضمــت إليَّ (أليس)، وبقيتْ لحظة من غير أن تقول شيئاً، وكانت تنظر إليَّ بقلق، ثم قالت:

- هل صرت أفضل؟
- نعم.
- أمي تقول إنك تتألَّم منذ عدة أيام.
- أنتِ تعرفين أمك، إنها تبالغ، أنا بخير، ومتمدِّد هنا.
- ......
- أنا آسف بشأن العَشاء.
- ليس الأمر مهماً، لقد كنت منهكة على كل حال، قلت لـ (ميشيل) إنني سأبقى وأنام هنا هذا المساء..
- .. ميشيل.. هل هو بخير؟
- نعم، إنه جيد جداً، شكراً.
- لماذا لم يأتِ هذا المساء؟
- لأنك لم تدعُه.

لقد كانت (أليس) محقَّة، فأنا حتى لم أطرح السؤال بشأن حضوره، عندما فكَّرتُ بابنتي، فكَّرتُ بشخص واحد، إنها تعيش معه، وهما يتشاطران الشقة نفسها، وبقيت جامداً داخل نظرة إلى ماضي ابنتي، ولم أتوصل إلى التقدم نحو حاضرها، قلت:

- نعم، هذا صحيح، كان عليَّ أن أذكر لكِ ذلك..
- أنتَ تقول ذلك في كل مرة.. ولكنك لا تفعل.
- حقاً؟
- لقد قلتَ إنك ستمر لترى شقتنا، ولم تأتِ قطّ.
- نعم، أعلم.. ولكن عندي كثير من العمل في هذه الأوقات الأخيرة.
- ......
- لسوف أمر قريباً، وهذا وعد..

صحيح أنني كنت أقول لها ذلك، وكنت عدة مرات على وشك إنجاز هذا الوعد، ولكن كان الذهاب لرؤية تلك الشقة، التي تعيش فيها ابنتي كامرأة مع هذا الرجل الذي يكبرها، فوق طاقتي. لقد كانت (أليس) من جهة أخرى، كأمها تقريباً، تتكلَّم دوماً بهدوء، ولم تكن تبدي ملامة، ولم يكن ذلك يمنعني من الشعور بمرارتها، لقد كان موقفي يحزنها، فعليَّ أن ألتقي هذا الرجل، وأن أهتم به، وربما أقدره (كل شيء ممكن)، كنتُ قد قابلته مرة وحيدة سريعاً، وكان يحاول أن يبدو ظريفاً؛ وقد فوجئتُ بأن وجدتُني فجأة في ثوبِ حَم، وأنا الذي كنت أعيش منذ زمن طويل في ثوب صِهْر، وفي تلك اللحظات، أخذت الحياة تتسارع، لأن المرء يصبح في مواجهة ما هو كائن عليه، وحتى لو كنتُ حفيداً، فإن أجدادي رحلوا، ومن المؤكَّد أنني سوف أصبح بدوري عما قريب جَدّاً، مرتدياً تلك الحُلَّة التي كنتُ أراها دوماً من الجانب الآخر للمشهد، لقد انعكست الأدوار.

قبَّلتْ (أليس) جبيني، كما يفعل المرء مع ميِّت، وذهبتْ إلى النوم، وقبل أن تغادر الغرفة، التفتت التفاتة قصيرة لتنظر إليَّ لمرة أخيرة، فأفزعتني نظرتها، وهذه الكلمة ليست قوية جداً، لقد أفزعتني نظرتها لأنني رأيتُ فيها للمرة الأولى بداية صَدْع، فهي التي كانت تريد أن تكون حنونة بالكلمات أنهت في هذه اللحظة بحقيقة ما كانت تشعر به، لقد فضحتْ نظرتُها ما كان يفصل بيننا. مع الأصدقاء، بإمكان المرء أن يصلح كثيراً من الأشياء بالكلمات، ولكن الأمر مختلف مع أولادنا، لأن العلاقة أسمى وأمتن، وهي بالتالي الأخطر في العلاقات العاطفية، وكنت أخشى ألا أتمكن من الرجوع عن مثل هذا الصَّدْع، وكنت أخشى

أيضــاً ألا أنجح في إصلاح ما كنتُ قــد حطَّمتُه بضربات رُعْنٍ، لقد كانت نظرتها تقول لي إن حالتنا أخطر بكثير مما تبدو عليه.

وبعد بضع ثوانٍ، ظهرت زوجتي، وهي تقول:

- انتهيتُ من ترتيب البيت.. يا لها من سهرة..

- ......

- يبدو أنك تتحسَّن.

- نعم، نعم.. أنا بخير.. لستُ أدري لماذا كنتُ أتألَّم بشدَّة..

- إنه أبوكَ! أبوكَ هو الذي نكَّد عليك.

- نعــم، لقد اعتدت على ذلك أخيراً، ولن أنتهي إلى هذا في كل مرة..

- أنتَ تضيق ذرعاً به حقاً، وليســت لديك رغبة في أن تتقبَّل سلوكه.. وأنا أيضاً من جهة أخرى.

- أنتِ؟ ولكنه يحبُّكِ.

- أنا أتحدَّث عن ســلوكه معك، فأنا لا أستطيع أن أسمعه دوماً يكرر اللوازم ذاتهــا، لكن ليس أنا من يجب أن يتصرف، بل أنت، ولم تعمل له شــيئاً، أنت لا تفعل شيئاً أبداً، وقد قلت لنفســي إن هذه المرة ستكون الأحســن.. ولكن لا، لقد تركتَ نفسَك تُداس..

- هذا غير صحيح، وهو لا يهمني، هذا كل شيء.

- كيف تستطيع قول ذلك؟ انظر إلى نفسك.

- بالضبط.. ألا ترغبين في أن نتكلَّم عن ذلك فيما بعد؟

- لا، لا أرغب، إننا نؤجِّــل محادثاتنا دوماً إلى ما بعد، ولكنَّ الـ(ما بعد) هذا لا يأتي أبداً.

- طيِّب.. طيِّب..

نادراً مــا كنت أرى (إيليز) على هذه الحالة، إن هذا اليوم إذن يومي؛ فبعد التصوير المخفق بالرنين المغناطيســي، ومَذلَّة الملف، ووالِــدَيَّ، وملامة ابنتي، ها هــي زوجتي تريد الكلام، ولكن الكلام عن ماذا؟ لقد كانت تعلم علاقتي بوالِدَيَّ، ومع أبي خاصــة، حتى إنها كانت خلال مدة طويلة تعُدّ هذا النمط من الانتقاص أمراً غريبــاً، وكانت تحكم على قابليته للتوقع بأنها مثيرة للضحك، يجب أن نقبل إذن بأن الأشــياء المضحكة، في الحيــاة الزوجية، لا تغدو مضحكة في لحظةٍ ما. ومن جانبي، كان لديَّ انطباعٌ باســتمرار حبي لعيــوب زوجتي وتصرفاتها، وقد استأنفتْ قائلة:

- إنني لم أرَك هكذا قطّ.

- كيف؟

- لا أدري، يُقال إنك تفعل كل شــيء لتظهِر لي أقلَّ ما أُحِبّ فيك.

- ......

- لقد كان شــكلك هذا المســاء حقاً شــكلَ ضحية، وقد فاجأتَ أبويك، ولم تقل شــيئاً، وختمتَ العَشاء وأنت مشرف على الموت..

- ومع ذلك ليست غلطتي أن يكون لديَّ ألم في الظهر.

- حسناً، وبحق، لا أدري.

لم أجب بشــيء، يســمع المرء في غالب الأحيان أقاويلَ عن مرضى مســؤولين عن ســرطانهم، وكنتُ أرى ذلك فظيعاً، أفلا يجــب أن يُعــزى الذنب إلى المــرض؟ لم أكن أعلــم إن كان لديَّ ســرطان، ولكــن إن كانت الحال كذلك، فســيكون أمــراً رهيباً

الاعتقـــاد بأنني الأصلُ فيه، إنني لا أرغب في أن أكون متســبِّباً في موتي، إن كل ما نعيشـــه يشـــكِّل كُمُونياً مادةً للتآكُل، والقلق، وإطالـــة الألم، لربما كانت زوجتي على حق، فمن الممكن أن أكون أنا المســؤول عن وجعي، والِدايَ؟ زوجتي؟ عملـــي؟ ولَدَايَ؟.. ما المشكلة؟ ربما كان الجواب أنها حياتي كلها.

وبينما كانت زوجتي تتكلَّم، انتابتني وخزة وجع جعلتني أصدر صرخة حادة، فانفجرت (إيليز) ضاحكة، فقلت:

– لماذا تضحكين؟ هل تجدين هذا مثيراً للضحك؟

– بالطبع لا، إنها ضحكة عصبية، المعذرة، هل تتألم بشدة؟

– أنا بخير.. كان ذلك مجرَّد تشنُّج.

– اعذرني.

فقلت:

– منذ زمن طويل لم أرك تضحكين هكذا.

– حقاً؟

– نعم، منذ أكثر من عام، فأنا أتذكَّر بدقة المرة الأخيرة.

– أكيد؟

– كنا نشـــرب، وكنت تروين لي طرفة كانت قد حدثت في دار الحضانة، كانت هنالك أمينة سر وكيلةٌ فأفاءةٌ..

– فعلاً، هذا يعود إلى زمن بعيد..

– نعم، يعود إلى زمن بعيد، أنتِ لا تضحكين بالمرة، وينبغي أن تكون هذه غلطتي بالتأكيد، لقد فقدتُ إحساسي بالمرح.

– أنت لم تكن قط مثيراً جداً للضحك.

– حقاً؟ كنت أعتقد أنني أجعلك تضحكين.

– نعم، ولكن في أغلب الأحيان رغماً عنكَ.

- آ..

واعترفتْ بصوت خفيض قائلة:

- منذ مغادرة الوَلَدَين، وأنا أشعر بأنني أقل مرحاً.

- ......

- ......

- علينا أن نسافر معاً هذا الصيف..

ردَّت من غير أن تصدِّق في الحقيقة قائلة:

- نعم، لِمَ لا..

السفر نحن الأربعة كالسابق، إن أول علاج لما يُرهقنا هو الغوصُ في الماضي، لقد كانت عطلاتنا تبدو لي فجأة استثنائية، وكنتُ أزيِّنُ شهري يوليو وأغسطس، وفي فترات صيفنا، لم أكن أفكِّر لثانية واحدة بأنها ستكون سريعة الزوال، ولم أكن أفكِّر أن ولَدَيَّ سوف يكبران حقيقة، وكنت أبقى مندهشاً في كل عيدِ ميلادٍ لهما، هذا الأمر حقيقي إذن، ولسوف ينتهي بهما الأمر إلى أن يصبحا راشدين، ولسوف تكون هنالك حياة من غيرهما، هي تلك الحياة التي أبدأ بها الآن، مندهلاً من سرعة التغيُّر، كانت زوجتي قليلة المرح، وتلك كانت حالتي أيضاً، ولم أتوصل جيداً لمعرفة ماذا كنتُ أريد، وما كان عليَّ أن أفعل من أجل استعادة خفة الروح، لقد استعدتُ التفكير مراراً في مشروع الرحلة مع (إدوار) إلى (سان-بطرسبورغ)، وكان ذلك مصدر متعة لي، وربما كان ذلك هو ما يجعلني سعيداً، وبعيداً قليلاً عن الهم اليومي، ويجعلني أعيش واقعياً تلك العبارة التي أحبها كثيراً، وهي (غَيِّرِ الجوَّ)، كانت لدَيَّ رغبةٌ في رؤية الأديرة وأجمل نساء العالم، وكانت

لــدَيَّ رغبةٌ في أن أتناول رُقاقات الــ (بليني) blinis [64] وأن أشرب الـ (فودكا) vodka [65]..

اقترحــتْ علي (إيليــز) قائلة وكأنها تعيدنــي إلى واقع أكثر اتزاناً:

- هل ترغب في شيء من الـ (تيزان) tisane [66]؟
- نعم أرغب فيه.. شكراً.

نَزَلَــتْ إلى المطبخ، لقد فوجئتُ بأنها اختارت وقتاً كنتُ أتألم فيه لمناقشــة علاقتنا، كان لديها حاجة إلـــى الكلام في الحال، لقد كانت هذه الســهرة بعيدة عن هدفهــا الأصلي، كما هو في أغلب الأحيان، شأنُها شــأنُ ما أُقدِم عليه، بسبب الخوف، كنت أريــد أن أجمع أقاربي، وأن أحاول ضمهم حولي، فقاد ذلك إلى التفتُّت. ظهــرت إيليز من جديد، قدمت لي المشــروب صامتةً، وقبل أن أشــرب، نظــرتُ إليها، ما الذي ســنصير إليه؟ وللمرة الأولى، شعرت بما يشبه الخوف بيننا.

(64) البلينــي: نوع من المعجنات الروســية الشــعبية تتكون من الدقيق وخميــرة الخبز والزبدة والبيض والحليب والسكر على شكل رقاقات، ويتناولونها في الأعياد والمناسبات (المترجم).

(65) الفودكا: شــراب غولي (كحولي) شــعبي بولوني الأصل أو روســي يصنع من البطاطس أو القمح وغيرهما، وهو أكثر المشروبات المسكرة استهلاكاً في كثير من البلدان الغربية (المترجم).

(66) التيزان: نوع من الشراب الذي يتكون من مغلي بعض الأعشاب والأوراق والأزهار والجذور النباتية المجففة، يشــبه ما يعرف بالزهورات فــي البلاد العربية، وربما كانت الزوجة تقصد هنا نوعاً من الشمبانيا الخفيفة (المترجم).

(٢٨)

شدة الألم: ٨

الحالة المعنوية: ضبابية

(٢٩)

كانت حياتي تشبه بطل فيلم (هارولد راميس) [67] Harold Ramis (يومٌ بلا نهاية) Un jour sans fin، فأنا نسخة (ألم في الظهر) عن (بِلّ مورِّي) [68] Bill Murray، ففي كل صباح، كنت أعيش المشهد نفسه؛ أذهب إلى المشفى، وكان مصيري يبقى بانتظـــار حكم طبي، وكنتُ دوماً متألِّماً، والتحجُّج بوجعي كان من الصعب العثور عليه أكثر فأكثر، ولم تكن الكبسولات تخفِّف عني الألم، وجرَّبتُ كل الأوضاع في العالم لأصل إلى نتيجة هي أن أياً منها لم يكن فعالاً، وكنت لا أزال أفضِّل أن أظلّ واقفاً، مســـتنداً إلـــى جدار، وكان المرضى الآخرون يتأملوننـــي بريبة كما لو كان ذلـــك بخلاف كل الأصول القاضية بالجلوس في قاعة الانتظار، وعندما نفد صبري تذكَّرتُ أني قد نســـيت إحضار (بيجامتي)، فكدَّرني ذلك؛ وأزعجني ألا أكون مريضاً تنافســـياً، وكان عليَّ أن ألبَس أيضاً تلك (البيجاما) المقلَّمة، ولم أسمع على الفور الطبيب وهو يدعونني، وقد كـــرَّر ذلك ثلاث مرات أو أربعاً ليعيدني إلى الواقع، فقلت:

– المعذرة، لقد كنت أفكِّر في أمر آخر.

– هذه علامة جيدة، وهذا يعني أنك لستَ قلقاً.

---

(67) هارولد راميس: ممثل ومخرج ومنتج وكاتب سيناريو أمريكي (1944-2014)، أخرج الفيلم المذكور، سنة 1993، واسمه بالإنجليزية Groundhog Day (المترجم).

(68) بِلّ مورِّي: ممثل أمريكي عمل بطلاً للفيلم المذكور (المترجم).

- ......

- أنا آسف حقاً ليوم أمس، لن يحدث هذا أبداً، لقد أمضينا ساعتين في إصلاح النظام.

- آ.. ومع ذلك، أقول من أجل أن تظهروا مهتمين.

- أنت تعلم الطريقة، ولســت بحاجة إلى أن أعيد عليك ذكر كل شيء.

- نعم، هذا حسنٌ، شكراً.

- هل لديك (بيجاما)؟

- لقد نسيتها.

- لا مشكلة، سأدعك تختار واحدة..

وأمام سلة الخيزران، فوجئت بأن بيجاما الأمس المقلَّمة غير موجــودة، فاعتقدت أنهم كانوا يغســلونها، إن خِيَارَ هذا الصباح كان محدوداً جداً، فليس هنالك ســوى إمكانيتين؛ إما (بيجاما) صفــراء باهتة، كي لا أقول إنها تســبِّب الاكتئاب، وإما (بيجاما) ذات مربعــات صغيرة، وقد اخترتُ الأخيــرة التي كانت تعطيني مظهر برجوازيّ كبير في مصحٍّ بدايةَ القرن العشــرين، ولبستها بســرعة وتمدَّدتُ على الطاولة، فقد كنت أريد أن ينتهي العذابُ في أسرع وقت ممكن.

ومــن جديد تحركت الطاولة لتصبــح في قلب الأنبوب، وقد بــدا لي ضجيجه أقوى منه في الأمس، كما لو أن إصلاحه أرجع الحيوية إلى الآلة، وكان المرء يحس بأنها تزمجر، وأنها مســتعدة للكشف عن أقل ورم صغير مخفيّ، ويشعر، وهو متمدِّد هنا، بأنه مراقَب كالعادة، وكان جسمنا مقاوِماً مطارَداً من قبل قوى العدو، ويواجه المحارق بوجه طَلْــق، وهيَ تُعْمِينا، وتدفعنا إلى أن نخرج

من الظلّ أيدينا إلى الهواء، والرأس خفيض، محكومين بالأسوأ.
إنهـا حرب كانت تُحاك هنـاك، حربٌ أديرها مـن أجل بقائي، حربٌ خسـرتها ضد الخوف، كان الزمن يتمطّى، وأنا أسمع من بعيـد كلمات الطبيب من غيـر أن أميزها، فقد كنت أكثر فأكثر داخل فقاعـة قطنية المظهر، وكنت أرى ولـدَيَّ وامرأتي يمرون أمامي كملائكة، وقد عبرتْ خيالي أيضاً وجوه أخرى غير لائقة، ومعارف مـن الماضي، وأسـتاذ اللغة الفرنسـية، وبائع الفواكه والخضار قرب المنزل، وكان ذلك يبدو انجرافاً فوضوياً للشاطئ، وقد اختلط كل شـيء في فوضى الوعي الجارف والعجيب معاً، وقد تركت نفسي أذهب إلى الموت بلا مقاومة، غائصاً في أعمق أعماق المحيط، تاركاً الأزرق الصافي إلى ظلمة العدم، وسـمعتُ عندئذ صوتاً قادماً من الواقع يقول:

– لا شيء يبدو غير عادي.

– ......

– إن آلامك لا ترتبط بشيء ما خطير..

فسـألت وأنا مدرك أنني لم أكن تحت القبة، وكان الفحص قد انتهـى، وانزلقت الطاولة نحو مكانهـا الأصلي، من غير أن أتنبَّه إلى ذلك:

– واللَّطْخَة؟

– أي لَطْخَة؟

– اللَطْخَة التي كنت قد رأيتَها خلال فحص صور الأشعة..

– آ.. نعم، لقد كانـت منطقة ظلّ رغبت في أن أتحقَّق منها، ولكنها ليست بشيء..

– لن أموت إذن..

- يمكن دائماً أن يسحقك شيء ما عند الخروج، ولكن فيما يخصّني ليس ذلك متوقعاً..

وقد نطق بهذه الجملة مع ابتسامة كبيرة، وأقِرُّ آخر الأمر بأنني لم أكن أتحمَّل فكاهة العالم الطبي، فنهضت، وقلت له:

- شكراً.

وكأنه كان المسؤول عن المعجزة، وعند تقدمي نحو المكتب لتغيير ملابسي، فكَّرت في أن ذلك غير ممكن، لقد كان حتماً مخدوعاً، إنه لم يكن يرى الألم، وأنا من النوع الذي يملك ورماً خبيثاً، يختبئ بمكر خلف أعضاء محرِّضة، وقمت بنصف استدارة لأرى الطبيب، وقلت:

- هل أنت متأكِّد؟

- نعم، إن صورك الشعاعية نقية.

- هل يحصل ألا يكتشف المرء شيئاً أثناء التصوير بالرنين المغناطيسي بينما يكون هنالك شيء ما؟

- لا، الفحص يستطيع أن يقوم باستقصاءات، ولكنه يكتشف حتماً المهم.

- إذن كيف تفسر أوجاعي؟

- يمكن أن تكون لها أسبابٌ كثيرة، ضغط الحياة خاصة، فعليك أن تروِّح عن نفسِك، وبعد الاطلاع على ردِّ فعلك، أقول لنفسي إنه بالتأكيد السبب..

- ......

- ......

- ولكن ماذا الآن؟ هل يجب أن أرتاح، وأن أبقى في البيت؟

- لا، هذا غير مناسب، كثيرون يرتكبون هذا الخطأ،

إن الراحـــة الطويلة ممنوعة، إنهـــا لا تخفِّف الوجع وهي تحدِث ذوباناً عضلياً متقدماً..

- ......

- طيِّب، أتمنى لك نهاراً ســعيداً، وأدعك لتمرّ بأمانة الســر لبعض الإجراءات.

وابتعـــد نحـــو حـــالات أخرى، وتصويـــرات أخـــرى بالرنين المغناطيســـي، وأَظْهُرٍ أخرى، إنه على حقّ، كنت مضغوط تماماً، وبشـــكل خاص منذ بضعة أيام، والقلـــق كان يجتاحني، ولم أكن أدرك لماذا لم يســـتدعِ الإعلان الذي قدمه للتو ارتياحاً واســعاً، فهـل أنا راغب في أن أكون مريضاً؟ إنـــه لأمر غريب، ولكن في الوقت الذي كنت أتصوَّر فيه نفســـي ميتاً، كنت أعتقد أن حياتي كلها ســـوف تكون بســيطة، فولدَاي ســـوف يعـــودان إلى قربي، وســـوف يدعوني وشـــأني في العمل، وســـيكون والـــدايَ أخيراً ودودَيْنِ، ماذا أعرف أيضاً، وكنت قد توهمت لا شـــعورياً ســـيلاً جارفاً من الشـــفقة سوف يثيره إعلان وفاتي قريب الوقوع، وها أنذا هنا، أعْرَج ومعطَّل، ولكن لست على وشك الاحتضار، وربما لهذا الســـبب أخرج من المشفى مكتئباً، وكنت قد اجتزتُ، والحق يقـــال، مثل هذا الإعصار من الانفعالات منذ الأيام الأخيرة التي لم أكن أعرف فيها سوى الشعور بالألم، لم يكن عندي شيء، هذا هو المهم، ليس عندي شيء، هذا كل شيء، ولو لم يكن لدي فقط ألم شديد في الظهر، لتمكنت من الجري فرحاً.

(٣٠)
شدة الألم: ٦
الحالة المعنوية: مُنْتَشِ
(٣١)

أخذت السعادة تتفشَّى فِيَّ شيئاً فشيئاً، ورحت أتذوق الهواء بفتح فمي على الآخر، على طريقة الأموات المبعوثين أحياء، كنت أعيش الغطرسة العابرة للأخبار السعيدة، من غير أن أشك في أن شيئاً لن يحدث بصورة متوقَّعة.

عندما وصلت إلى المكتب، احتضنت أمينة سري بطريقة شديدة قليلاً، كنت أستحق عليها فوراً قضية إزعاج في الولايات المتحدة، ولحسن الحظ، يمكننا هنا أن نندفع في التعبير عن شعورنا وقت الانفعال العفوي من غير الخوف من المحكمة العليا، قالت أمينة سري:

- إنه ليسرّني أن أراك هكذا.
- شكراً (ماتيلد)، وأنت، هل أنت بخير؟
- أنا؟
- حسناً نعم، أنتِ، هل ترين غيرَك هنا؟
- لا.. لا..
- إذن، أنتِ بخير؟
- حسناً.. نعم، أنا بخير.. أشكرك..
- إن كان لديكِ أي همٍّ، فلا تتردَّدي في المجيء إليَّ، فأنا هنا من أجلك.
- حسناً جداً، هذا لطفٌ منك.
- هذا ليس لطفاً مني، هذا أمر عادي.

- هل أنت متأكِّدٌ أنك بخير؟
- طبعاً، جيد جداً، شكراً..

كانت (ماتيلد) تبدو منزعجة إلى حد بعيد من حفاوتي، فقد كنت ألامس بتعابيري تعابير الناجي من خطر، الذي يحب فجأة الإنسـانية كلها بعد أن نجا، لقد كنت دوماً مهذَّباً معها ومحترِماً لها، ولكن في الأسـاس ماذا كنت أعرف عنها؟ لا شيء، أو قريباً قليلاً من ذلك، ويمكنني أن أفهم تفاجؤها، إنها تشـكِّل جزءاً من حياتـي المهنية، وقد كنا نتبادل الملفات وبعض الابتسـامات، في هذه الحياة الميلِّيمترية التي لا يتخللها شيء من العاطفة، وبمرور السـنين، أصبحتُ أقل قدرة على إقامة علاقات مع أشـخاص جُـدُدٍ، كما لو أن حياتي لم تكن سـوى آلة تفقدني الإحسـاس بالتدريـج، فهل كان يلزمني أن يحضر إليَّ الموتُ لأدرك أن الكون على قيد الحياة لا يكفي ليجعل منا كائنات حية، ولسـوء الحظ، قاطَـعَ هذه الأفـكارَ عودةُ الوجـع، فأوقفتُ مباشـرة تأملاتي العظيمـة في الحياة وآفاقها لأجد نفسـي ثانية في حاضرٍ غيرِ مريـح، كان أمامي ملف جديد، وهو الملف الأقل أهمية في تاريخ الملفات، لقد اسـترجعتُ حياتي مجراهـا الكئيب، فقد كان عليَّ أن أعاين أماكن مهمتي الجديدة، وسـيكون ذلك دوماً أفضل من البقاء هنا، وأنا أجترُّ ورطتي المهنية.

إن العودة إلى البيت لأخذ سيارتي سيضيِّع عليَّ وقتاً طويلاً، وبعد سـاعة، كنت فـي قطار الأنفاق RER، وكنـت أجتاز ريفاً مذهـلاً في قربه مـن العاصمة، لقد كنت أسـكن في الضاحية القريبة، سـعيداً جداً بحديقتـي، من غير أن أفكِّر في أن بضعة كيلومترات فقط كانـت تفصلني عن السـهول الزراعية، وأثناء

الســـير، لمحت أيضاً بقرة أو اثنتين قرب ســـكة الحديد(69)، وقد بقيت مع ذلك مركِّزاً على اســـتعراض المحطات، غيرَ راغب في التيهان المعقد إن فقدت محطتي، وفي تلك الســـاعة، وفي ذلك الاتجاه، كنتُ وحيداً في القطار، إن تنقلي كان يُسَـــوِّغ مظهر هذا الخط نهاراً، لأن من النادر أن يجد المرء نفســـه هكذا، بعيداً عن الآخرين، وكان هذا يُفْضي إلى الرغبة في أن يكون المرء مجنوناً، وأن يصعـــد على الكراســـي، وأن يكون نجـــمَ رُخٍّ زائفٍ في زمنِ اللاشـــيءِ(70)، ولكنني كنتُ أجلس بتعقُّلٍ على مقعدي. واســـتمر السير في تعرُّج غريب، لقد كان يمر عليَّ وقت دوماً وأنا مسافر (في القطار خاصة)، حيث لم أعد أعرف فيه إلى أين أنا ذاهب.

وفي الخارج، تنفســـتُ دفعة واحدة مـــلءَ رئتيَّ هواء الريف، ولاحظت بســـرعة فائقة محطة الباص، ذاهبـــاً إلى المدينة التي يتوجَّـــب عليَّ أن أذهب إليها، وكان البـــاص قد فاتني للتو، إنني لا أفهم لمـــاذا لا يتوافق الخط مع مواعيد قطـــار الأنفاق، وكأن المقصـــود تنفيرُك من اســـتعمال هذا البـــاص وإرغامُك على أن ترتِّب أمرك بشـــكل آخر، ولكنني لم أكن أملـــك إمكانية أخرى، وكان علـــيَّ أن أنتظر هنا، في وســـط أي مـــكان، وقد فكرتُ في الحـــال بأنني لـــم أكن قد أعلمت الســـلطات المحليـــة المختصة بمجيئـــي، فلقد وصلت علـــى حين غِرَّة، وقد كنت فـــي مفتـــرق طريقـــين، تقـــريبـــاً مثـــل (كاري غرانـــت) (71) Cary Grant

(69) وربما كان الأمر بالعكس؟ لأن الأبقار تحب النظر إلينا (الأصل الفرنسي).

(70) يلاحظ القارئ هنا تعابير عبثية ملخبطة تعبِّر عن رغبة الجنون التي ذكرها (المترجم).

(71) كاري غرانت ممثل ولد في بريطانيا ســـنة 1904، انتقل إلى نيويورك سنة 1921، وأصبح مواطناً أمريكياً سنة 1942، وكان قد بدأ العمل ممثلاً في هوليوود سنة 1931، وظهر أول فيلم له ســـنة 1932، ثم أصبح من أشـــهر نجوم هوليوود في القرن العشـــرين، توفي في أمريكا سنة 1986 (المترجم).

في فيلم (الموت في المطاردات) [72] La Mort aux trousses، ولكنني أشـك في أن تكون هنالك طائرة تلاحقني[73]، لقد كانت حياتي تجري داخلَ (ديكور) فيلمِ أحداثٍ (أكشن)، ولكن من غير أن تكون له عقدة.

وأنا جالس على المقعد، شرعت في الابتسام، ثم في الضحك بعصبية، وهذا أمر غريب الشـكل، لماذا قبلت هذا الوضع؟ كان عليَّ أن أحتفظ بوظيفتي، وهذا كل شـيء، لـم يكن لديَّ خِيَار، ولكن لا، لم تكن تلك هي الحقيقة، كان طبعي يظهر طيِّعاً بسبب رُعْب البطالـة، كنتُ قد قبلتُ المهانة بنقـص الفعالية، وبالجبن الخالـص، وماذا كنت أفقد بالاسـتقالة؟ أفقد العمل؟ لقد كنت شبه متأكِّد من أنني أستطيع الحصول عليه، ففي مجالي، كانت كفايات الشـبان قد زادت قيمتها كثيـراً، إذن لماذا لم أكن أملك قـوة الكفاح؟ فإن لم أجد من ثَمَّ وظيفة في الوقت الحاضر، كان بإمكاني أن أبقى مستشـاراً، وعمل أي شـيء يعود عليَّ بما يفي باعتمادنـا، وبخاصة أنه ليس لديَّ كثير مـن المصاريف أتحمَّل عبأها، فـ (إيليز) تكسب عيشـها، وبدأ ولداي يتدبَّران أمرهما، وما كنتُ أقدِّر أنه اضطرار لم يكن حتماً كذلك، لقد اسـتعملتُ الخوف من فقد المال حجَّةً، إن حياتي كلها مؤسَّسـة على الكذب

(72) الموت في المطاردات: فيلم بوليسـي جاسوسـي من إخراج (ألفريد هيتشـكوك Alfred Hitchcock) سـنة 1959، مـن بطولـة (كاري غرانـت)، وعنوانه بالإنجليزيـة (North by Northwest)، وهو متوافر في الـ (يوتيوب) (المترجم).

(73) يشـير هنا إلى مشهد مطاردة بطل الفيلم عن طريق طائرة (من ذوات الجناحين والمروحة) كانت تظنه الشـخص المطلوب فراحت تطلق عليه النار، فدخل في حقل ذرة، لكن الطائرة رشت عليـه مبيداً حشـرياً، فخرج من الحقل، وأشـار إلى صهريج وقود عابر، فلمـا توقف ارتطمت بالصهريج فانفجر محدثاً حريقاً، فتوقفت بعض السـيارات العابرة للفرجة، غير أن البطل سرق سيارة أحد المتفرجين على الحادث، وهرب إلى شيكاغو (المترجم).

الذي كان يدفعني إلى عدم تغيير شيء، يمكن للمرء أن يدوسَني، وأن يسخر مني، وأجد دوماً أسباباً للاستمرار في أن أعيش قدري السيِّئ.

وهكذا شرعتُ، وأنا في انتظار الباص، أفكِّر في حياتي بطريقة مختلفة، وأول شيء خطر ببالي ذلك المشروع الغامض لكتابة رواية مهملة منذ أكثر من عشرين سنة مضت، هل تنتظر الأفكار زمناً طويلاً؟ هذا قليل الاحتمال، فالأفكار تصبر قليلاً، ثم تتعب، وترحل أخيراً بحثاً عن ذي خيال أكثر ترحيباً بها. يبدو أن مسوَّداتي كانت تحتضر إلى حدٍّ ما، ويعلوها الغبار، ولأول مرة فكَّرت في تلك الحرية، وفي ترك كل شيء، والانخراط في الكتابة، كنت أعلم، في قرارة نفسي، أنني عاجز عن اتخاذ مثل هذا القرار، ومع ذلك، داعبتُ هذا الخِيَار وأنا أراقب المنظر. هنا، أنا بعيد عن كل شيء، على طرف العالم، ولن يأتي أحد ليسألني ما الأمر، إن اللاشيء سيجعلني على ما يرام، وفي النهاية، أحببتُ فكرة العمل في مهمة ليس فيها مخاطرة حقيقية، وربما كانت أكثر من مناسبةٍ لشخصيتي، لقد عشتُ سنين كثيرة داخل الضغط من أجل التمتع بعمل بلا ضغط.

مرَّ الوقت، وكان يمضي بشكل أبطأ قليلاً مما في المدن الكبرى، وبعد نحو ثلاثين دقيقة، تقدَّم نحوي شكل، وهو شكل لم يكن سوى نقطة صغيرة منطلقة، رأيت رجلاً يقود دراجة، لقد كان أصلعَ، من مظلة موقف الباص أخذ يخفِّف السرعة، كأنه مفتون، وتوقف أمامي بحزم لحظة:

- ......

- ......

ثــم انطلق متمايلاً برشــاقة، وقد تابعتــه بالنظر أطول مدة ممكنــة، قبل أن أفقــده في اللحظة التي اختفــى بها في الغابة المجاورة.

ظهرت على محمولي رسالةٌ من (إدوار)، وقد أدهشني أن تكون هنا شبكة (لقد أكملتُ نهاري بجملة من الفرحات البسيطة)، كان بإمكان الحداثة أن تؤثِّر فيَّ أيضاً، ونص الرســالة: (عثرتُ على إعلان عن دُفْعة إلى سان-بطرسبورغ، هيِّئ نفسك، سننطلق بعد أربعة أيامٍ، ســأتصل بك هذا المســاء من أجل التأشيرة، سيكون ذلك رائعاً!)، وبصراحة، لقد فوجئت بذلك، إنني أعرف (إدوار) منــذ زمن بعيد بما فيه الكفاية، وأعرف أنه ليس من النوع الذي يتَّخِذ قــراراً بعجلة، أو يُقدِم على أدنى نقلة من غير أن يَزِين ما لها وما عليها مئة مرة، لقد كان مثلي في كل شيء ما عدا طبعَه النزِق، لقد خطَّط لهذا الفِرار بسرعة كبيرة، يبدو أنه كان يبحر فــي (النت) le Net فــي كل مدَّة بين مريضين، ونــادراً ما كان متحمساً بهذا الشــكل، والدليل أنه استعمل كلمة (رائع)، وحتى (رائــع!) مع علامة تعجب، إن هذه الرحلة تدل على الرجوع إلى الوراء، وتُشْــعِر بالعودة إلى ينابيع الشــباب، لقــد كنتُ بالتأكيد أفهم الطيران، والزيارات، والتجوالات غير النهائية على الأقدام، قائلاً لنفسي إن تغيير الهواء قد يفيدني. نعم، كل شيء سيجري على ما يرام هناك، لقد كنتُ مستعجلاً على السفر، إنه سعادتي في آخر المحنة، وبانتظار روســيا الخالدة، كنت دوماً في وســط اللامــكان، وبالمعنى الدقيق للكلمة، كنتُ قد وضعت إصبعي على هذه العبارة: (الكينونة في وســط اللامكان)، إنه هنا، ولا يمكن إلا أن يكــون هنا، لقد كنت أعــرف جميع تفاصيل الأمر الزهيد

التي كانت تثبت تعيين مكان العدم.

وصل الباص، لمحته من بعيد، وقد استغرق بضع دقائق ليبلغني، ومثل راكب الدراجة النارية، يبدو أن السائق قد اندهش بعمق من وجودي هنا، كان باصه فارغاً، وكنت المسافر الوحيد؛ لقد كان النسخة غير المتناسبة لجولة في سيارة (تكسي)، قال لي السائق:

– هل أنت تائه؟

– لا، أنا في مهمة، عليَّ الذهاب لمعاينة مكان يريدون أن يبنوا فيه موقفاً للسيارات.

– موقفاً للسيارات هنا.. ولكن لماذا؟ إن الناس يركنون سياراتهم حيث يشاؤون، ثم ليس هنا من أحد.

– نعم، إني أرى ذلك.

– كل هذا بسبب الوغد (ميكي) [74] Mickey.

– (ميكي)؟..

– نعم، هذا بسبب حديقة.. حديقة (ديزنيلاند) [75] Disneyland، وبصراحة هذا أمر شائن، كل الناس يذهبون

(74) ميكي: ويعرف باسم (ميكي ماوس)، وهو شخصية كرتونية مضحكة على شكل فأر اخترعها (والت ديزني) وشخص آخر سنة 1928، وكان (ميكي ماوس) يظهر مرتدياً بنطالاً أحمر قصيراً، وقفازين أبيضين، وحذاءين أصفرين عريضين، وهو من أشهر الشخصيات الكرتونية في العالم، وقد استُغلّت هذه الشخصية الحيوانية على نطاق واسع في الرسوم المتحركة (أفلام الكرتون) القصيرة، وفي أفلام السينما الطويلة، وفي المسلسلات، وفي عالم اللعَب، وفي ألعاب الفيديو، والمجلات المصورة، واستغلت صورته في الإعلانات، وطبعت على الـ(تي-شورتات) وغيرها، واستغلت كذلك في عالم النقد الاجتماعي وفي السياسة، إلخ (المترجم).

(75) حديقة (ديزنيلاند) أو حديقة (والت ديزني) ومنتجعه -في الأصل- أسستها (شركة والت ديزني) في كاليفورنيا في غرب الولايات المتحدة سنة 1955، وهي مدينة للملاهي والنزهات والألعاب والتسالي وقضاء العطلات والاستجمام، وقد توسعت تدريجياً، وحُدِّثت باستمرار ولا تزال إلى يومنا هذا، وقد بلغ عدد زوارها سنة 2013 وحدها نحو 132 مليون زائر، وبلغ عدد زوارها منذ تأسيسها نحو 650 مليون زائر، وهي تعرف اختصاراً بالاسم المذكور، وقد عُمِل على نمطها حدائق بذات الاسم في بعض الولايات الأخرى، وفي بعض مدن العالم، ومنها باريس وطوكيو وهونغ كونغ (المترجم).

إلى (سين-إي-مارن) Seine-et- Marne [76].. وهنا، لم يعد هناك شيء.. هذا أمر مثير للاشمئزاز، أليس كذلك؟

- نعم، بالتأكيد.

- في (سين-إي-مارن) فضلاً عن ذلك.. لا يوجد مزيد من كعكة الفواكه مثلما في محافظةٍ كالـ (سين-إي-مارن).. ألا ترى ذلك؟

- أوه، ليس لديَّ في الحقيقة رأي..

بصراحة، كنتُ أودّ بذل جهد للاهتمام بأمور الناس، ولكن من هنا إلى تكوين رأي بشأن الـ (سين-إي-مارن)، فلا. وأثناء المسير، كان عليَّ أن أستمع إلى طعون هذا السائق اللاذعة، يبدو أنه كان متوتِّر الأعصاب ضد كل شيء، فقد كان ينتقل من الديك إلى الحمار[77]، لقد أصبحت أذنايَ رهينتين لكلماته، ولم يكن بإمكاني أن أطلب إليه السكوت، إن رجلاً هائجاً مثله قادرٌ على إنزالي من الباص، وككل إنسان يريد أن يصل إلى هدفه حاولت أن أجعله يفهم أنني على اتفاق معه عن طريق بعض التبويزات المعبِّرة، وبعض الهمهمات الصغيرة للتواطؤ، لقد تم دفع بعض المراوغات، وعند الوصول، وجَّه إليَّ ابتسامة عريضة؛ لقد كان يملك أسوأ أسنان ممكنة (كان ينبغي بالأحرى أن يتذمر من طبيب أسنانه)، قال:

- حسناً، إنه لأمر ممتعٌ أن يتمكَّن المرء من الحديث إلى أحد.

---

(76) الـ (سين-إي-مارن): إحدى المحافظات الفرنسية في منطقة (الجزيرة الفرنسية) l'Île-de-France، وهي إقليم يقع في قلب الحوض الباريسي، ويتكون من ثماني محافظات، منها هذه المحافظة (المترجم).

(77) لقد جعلني أفكر في أولئك الناس الذين يتصلون بالإذاعات ليدلوا برأيهم في كل شيء، وليس مهماً كيف، وكان بعضهم يتصل ليدلي برأي في رأي المتصل للتو، إنه عرض بلا نهاية للآراء (الأصل الفرنسي).

- آ..

قال وهو يغلق الباب:

- نهارك سعيد!

ربما حكمتُ عليه حكماً سـيِّئاً، إنه لـم يكن عدوانياً إلا في هذا الأمر، لقد كان بكل بسـاطة سـعيداً لأنه وجد أحداً يصبُّ عليـه جميع الكلمات التي كانت قد بقيت مسـتعصية في حلقه منذ مطلع النهار.

(٣٢)

شدة الألم: ٦

الحالة المعنوية: في وسط اللامكان

(٣٣)

كانت سـاحة البلدية فارغة، إنها تشـبه خشبة سينما مساء بعد تصوير مناظر فيلم، ومن الجانب الآخر، كانت هنالك قطعة أرض صغيرة يلمح فيها المرء أساسـات عمـارة مهدَّمة، لم أكن أرى فائدة من دعوة مكتب هندسةٍ معمارية لبناء موقف سيارات، سيكون طبقة بسيطة من (البيتونً) على التربة مع وضع علامات لأماكن الاصطفاف، وكان أفضل ما في الأمر اللقاء بالمسؤولين، وفي بهو البلدية، كان من الصعب عليَّ أنٍ أعرف إلى من أتوجَّه، فليس هنالك استقبال، ويبدو المكان مقفراً، صعدتُ بضعَ درجات لأجد نفسي أمام باب موارِبٍ، ولمحتُ رجلاً، قال:

- هل من أحد هنا؟

فأجبته وأنا أُدخل المكتب:

- لقد جئت لأرى رئيس البلدية.

- إنه أنا.
- الأمــر يتعلَّق بموقف الســيارات، وأنا المهنــدس المعماري، أخيراً، أنا أعمل للمكتب المفروض فيه أنه يهتمّ بشؤون البناء.
- أنت؟ .. أنت.. تعمل.. لمكتب (ماكس باكون)؟
- نعم، تماماً..
- ولكن.. لكن.. شكراً، ألف شكر لأنك جئت إلينا..
- أرجوك!..
- ألم يَشُقَّ عليك الوصول إلى هنا؟ هل لديك [78] GPS؟
- كلا، لقد جئت بقطار الأنفاق (RER)، ثم بالباص..
- ماذا؟ أنت جئتَ بـ.. لا، هل أنت جاد؟ أتمزح معي؟ أولســتَ تعمل في مكتب..
- مكتب (ماكس باكون).. نعم.

بدا هذا الرجل الأربعينيُّ مرتبكاً تماماً، لقد شــرح لي أنه كان معجباً بعمل مؤسَّســتنا[79]، وبخاصة ما كنا قــد فعلناه في موقف سيارات ساحة (الباستيل) la Bastille، وتحديداً في المستوى 2-، حدَّد ذلك وهو يتلعثم تقريباً من الانفعال، قال:

- في البداية، كان الأمر كمزحة.. يُقال إن أحدهم راح يتصل بكم من أجل ورشتنا الصغيرة.
- ليس هنالك ورشة صغيرة..
- ولهذا جئتَ وحدك.. لن أعود عن ذلك.. إنه رائع..

---

(78) الـ (GPS): مختصر الكلمات (Global Positioning System) بمعنى (نظام التحديد العالمــي للمواقع)، وهو جهاز متصل بالأقمــار الصناعية المختصة التي تزود المرء بخدمة تحديد الأمكنة والأزمنة حيثما كان على سطح الأرض، وتكون بمنزلة الدليل له (المترجم).

(79) علمــتُ، فيما بعد، أن والد هذا الرجل كان مهندســاً معماريــاً معيناً، قبل أن يُموت مبكِّراً (الأصل الفرنسي).

– أرجوك..

– بالضبـط، لقـد حصل ذلك حقاً بشـكل جيد.. سـيصل مستشارِيَّ في البلدية.. فاليوم موعد اجتماعنا الأسبوعي..

وبعد عشر دقائق، دخل رجلان آخران إلى المكتب.. فوجدت نفسـي أمام ثلاثةِ منتخَبِيْنَ يبدو أنهم كانوا مسرورين بوجودي، لقد مضى وقت طويل لم أكن أُرْعَى فيه هكذا بمثل هذه الحفاوة، فشـرحتُ لهم كيف كنتُ أرى الأمور، وكانوا يُرهِفون إليَّ السمع، لقد كنتُ في مملكتي.

وبعـد الاجتمـاع، وتناولِ وجبـة الفطور الخفيفـة احتفالاً بتعاوننـا (وكنتُ قد لاحظتُ حماسـتهم لفكـرة أن يكون هنالك سـبب جيِّد لفتح زجاجة مشروب)، حان الوقت للمغادرة. اقترح عليَّ رئيس البلدية أن يوصلني بسـيارته إلـى (باريس)، فقبلتُ ذلـك بطيب خاطر، لأنني لم أكن أرى أن أعود بالنقليات العامة، كان (باتريك) Patrick (نظراً لأنه كان يقول لي نادني: باتريك!) يبدو سـعيداً بمشـاطرتي تعب هذا الطريق، وقـد اغتنم ذلك ليطرح عليَّ أسئلة عديدة عن عملي، فقد كان يرى في حضوري نوعـاً من المهنية عالية المقام جداً، وقـد برهنت زيارتي إلى أي درجة كانت مؤسستي لا تترك شيئاً للمصادفة، ولم يفكِّر في أن حضوري يمكن أن يكون بسبب مطَبٍّ هوائي قوي في عملي، وقد كنت أشـعر بحالة جيدة أمام أحدٍ يحترمني، هذا على المستوى الأخلاقي، أما على المسـتوى الطبيعـي (الفيزيائي) فكان الأمر عكسـياً، وذلك لأن اهتزازات السـيارة حرَّكت عليَّ وجعي، وقد لاحـظ (باتريك) ذلك وأخذ يقلق فوراً، ولمـا كان لا يعرف ماذا يفعل، فقد اقترح عليَّ أن يسـير ببطء، وألا يأخذ سـوى الطرق

المختصرة، وأن يتوقــف، وأن يفتح النافذة أو يغلقها، وقد أدارت جميع هذه الخِيَارات رأسي، لقد كان يقلقني من حيث يريد بقوة أن يساعدني، لقد أدى تعاطفه الوجداني معي إلى نتيجة بعكس المقصود، كنت أرغب في أن يســير من غير أن ينطق بشيء، كما لو أن الصمت وحده يمكن أن يُهَدِّئ الوجع.

وقــد فكرت مرة أخرى في أن الطبيــب قد لا يكون رأى كل شـــيء، فالعلم لا يمكن أن يكون معصوماً، وينبغي للمرء أن يذعن للأمـــر الظاهر، فأنـــا لم أخرج من القضيـــة، ولقد كنت أخذت موعداً من طبيب العظام الذي أشار به عليَّ (إدوار).

أوصلني (باتريك) إلى أمام عيادته، لأن ســير الأمور أربكه، وبعد لحظة احتفالية، كان السير احتضاراً طويلاً، شكرته بحرارة لحسن استقباله لي، فقال وهو ممتلئ يقيناً:

- أرجو أن يمضي ذلك على خير.

- نعم، ليس هذا بشيء.. إنه فقط ألم في الظهر، وسيمضي..

فقال وهو يحاول أن يضفي شيئاً من المرح:

- يجب عليك أن ترتاح، كان عليك أن تبقى في الســرير بدلاً من المجيء لرؤيتنـــا، وأخيراً، أقول هذا من أجل ظهرك.. وليس لأجلنا!

- آ..

- بالنسبة لنا كان من حسن حظنا أننا التقينا بك.

فوجَّهت إليه إشـــارة ودية برأســـي، قبل أن أبتعد وأنا أتعثَّر، ولو كنت مكانه فلن أعهد بأدنى تعهُّد إلى واحد مثلي، قادرٍ على المجيء في باص وسط الأسبوع إلى جُحْرِه الضائع، ومنتهياً أعرجَ على عتبةِ عيادةِ طبيبِ عظام.

(٣٤)
شدة الوجع: ٨,٥
الحالة المعنوية: جبال روسيا
(٣٥)

ومرة جديدة، أمسيتُ في قاعة انتظار، إن الأمر كذلك إذن، إنني مريض ينتظر، كنت أنتظر، وأنتظر دوماً، ولا أزال، رقصة (الفالس)، في هذه القاعات، هي ذاتها؛ يتفحَّص بعض المرضى بعضاً، ومن ثَمَّ يخفضون رؤوسَهم على الصحف والمجلات القديمة[80]، وكنت دوماً أتصنَّع تقليب صفحاتِ واحدة منها، من أجل أن أتمالك نفسي، ومن غير أن أحسب حساباً لأنني كنت أظهر بمظهر مضحك مع هذا العدد من مجلة (غلامور) [81] Glamour، كنتُ أقلِّب الصفحات، وكان عقلي يسافر لا أدري إلى أين. كان النهار قد بدأ يظهر لي طويلاً، مع هذا التوالي المضني للأحاسيس، لقد مررت بجملة مراحل متناقضة إلى حدّ أنني لم أكن أعرف معرفة جيدة جداً ماذا كنت أصنع هنا، إن فقداني الإدراكَ لم يكن يسمح لي من جانب آخر بأن ألاحظ أن ثلاثة أشخاص آخرين كانوا ينتظرون، كيف.. هل هذا ممكن؟ وكنت أرجو ألا يكون هذا

(80) أوليس من الظلم أن يكون لزاماً على المرضى أن يعانوا من عذاب مزدوج معاً؛ لكونهم مرضى ولانقطاعهم عن آخر الأخبار؟ (الأصل الفرنسي).

(81) مجلة (غلامور) هذه مجلة نسائية بدأت بالصدور في الولايات المتحدة سنة 1939، وكان اسمها الأصلي (غلامور هوليود) Glamour of Hollywood، وهي تصدر في عدد كبير من البلدان بذات الاسم والرسم الإنكليزيين، وبلغات تلك البلدان، ومنها: الولايات المتحدة، بريطانيا، فرنسا، إيطاليا، ألمانيا، إسبانيا، روسيا، مصر، إلخ، وهي تصدر فيها شهرياً في أغلب الأحوال، وتتركز اهتماماتها على مواضيع: الأزياء، والجمال، والتجميل، والصحة، وتغطي أخبار المشاهير في كل أنحاء العالم، وفي كل المجالات (المترجم).

الطبيب من النـوع الذي يطبِّق مبدأ الحجز المسـبَّق (su - booking) علـى طريقة شـركات الطيران، كانت جلسـة المريض الواحد تسـتغرق ثلاثـين دقيقة على الأقل، مع ذلك، وأنا لن أنتظر سـاعتين، وإذا كانت الحالة كذلك فإني أفضل العودة إلى البيت، وأخذ حمَّام ومحاولة النوم.

وكان يلزمنـي بضع دقائق حتـى أدرك أن الأمر يتعلَّق بعيادة جماعيـة، وقد وصل طبيب العظام أخيراً بسـرعة كبيرة، وكان يشـبه، وهو يبتسم ابتسـامة عريضة، محامياً، أو رجلاً مهيَّجاً من عالم المال، أكثر، ولم يكن وجهه ينم مطلقاً عن رجل يستعمل يديه، قال:

- أتيتَ من طرف (إدوار)، أليس كذلك؟

- نعم.

- إنه طبيب أسناني، وهو طبيب أسنان ممتاز.

لقد كنـتُ أجد دوماً أمراً غريباً أن أتصوَّر طبيباً يذهب إلى طبيب آخر، هذا غير مناسـب إلـى حد بعيد؛ طبيب عظام عند طبيب أسـنان، علـى أي حال، من حق طبيـب العظام أيضاً أن تكون لديه مشـكلات في الأسـنان، لقد أبحتُ لنفسي الذهاب إلى استطرادات خطرة لهدف وحيد هو الالتفاف على الجوهر، ولكن ها أنذا أصل إليه، فكان عليَّ أيضاً أن أتحدَّث عن ظهري، ولحسن الحظ، كان اسـتقبال الطبيب الممارس لطيفاً على وجه الخصوص، وكنت أنا الزبون العشرين عنده هذا النهار، ومع ذلك فقد كان يبتسم لي بنضارة ابتسامة الصباح، وهذا يعني أنه كان يحب مهنته بعمق، ويُلاحَظ ذلك في جميع تفاصيل مكتبه، فمثلاً الإطار الذي كان يضع فيه شـهادته، ويشعر المرء أنه كان يبحث

عنــه طويلاً، وأنه لم يأتِ به من عند (إيكيا) Ikea [82]، إنه رجل من النوع الذي أتصوَّره يقول لزوجته بسهولة:

- لا تقلقي، يا عزيزتي، إني أمسك الوضع بيدي.

ويبدو أنه كان يحب النطــق بهذه الكلمات، وبإمكان المرء أن يعتمد عليه بلا جدال، وهي كانت تحضِّر له بالتأكيد في المســاء صلصــة لحم العجل، وهذا يتم على نــار هادئة طول الوقت في مطبخها، وبعد العَشاء، يقول وهو على أريكته:

- ما أطول النهار!..

وحينئــذ تدلِّك له فخذيه وكأن ذلك دعــوة لمطارحة الغرام، لقــد كانت حياتــه كلها تُغيظني، وإنه لمن المهــين تقريباً أن أقف نصــفَ معوَجٍّ تحت نظر هذا الرجل الســعيد والواقف مثل قَرْنٍ un siècle، قال:

- ارو لي كل شيء.

- لديَّ ألم شديد في الظهر، منذ عدة أيام.

- هل ينتابك كثيراً؟

- إن صــح القول أبداً، وعلى أي حــال، هذه هي المرة الأولى للوجع بهذه الشدة.

- هل عانيت من صدمة أو شيء ما من هذا القبيل؟

- لا، لا شــيء، لقــد حدث لــي هذا يوم الأحــد، وقد قمت بالتصوير الشعاعي، والتصوير بالرنين المغناطيسي IRM.. ولم يُفِد ذلك في شيء.

(82) إيكيا: شــركة ســويدية لصنع الأثاث والتجهيزات المكتبية ولوازمها بسعر مخفَّض، أسسها (إنغفــار كامبــارد) Ingvar Kampard ســنة 1943، وافتتحت أول متجر لهــا في الولايات المتحدة سنة 1986، وفي بريطانيا سنة 1988، ولها اليوم نحو 200 متجر في نحو 31 بلداً في أنحاء العالم (المترجم).

- مررت بتصوير IRM؟
- نعم.
- وبعدئذ؟
- يبدو أن كل شيء ذهب..
- هل أنت ذو طبعٍ قَلِق؟
- ليس بالضبط.
- ......
- ألا تجد غريباً أن يجروا لي تصوير IRM؟

قال بنظرة غريبة بعض الشيء:

- لا، مطلقاً..

ثم طلب إليَّ أن أبقى باللباس الداخلي، هذه هي المرة الثانية التي أخلع فيهـا ثيابي هذا النهار، وأيضاً أمام رجل؛ لقد أصبح ذلك أمراً مشـؤوماً، تقدمت نحو طاولة العمل، من غير أن أشعر بأي وجع، ومرة أخرى، كان سـياق الاستشـارة الطبية يؤدي إلى إخفاء كل عَرَض، ولكن في اللحظة نفسها التي لمسني بها، أطلقتُ زفرة، قال الطبيب:

- هل هنا موضع الألم؟
- نعم.
- بالفعل، كان عليك حقيقة أن تَزْفُر.
- هل لمسته؟
- نعم، وهنا، أليس لديك ألم؟
- لا، علـى ما يـرام.. إنه حقيقةً في الموضـع الذي كنتَ قد لمستَه.
- هذا مدهش جداً.

– ما هو؟
– لا، لا شيء.
– ولكن نعم.. لقد قلتَ هذا مدهش.
– يبدو أن هذا الموضع محمِيّ، أنا نادراً ما أرى نقاط توتُّر قوية جداً في هذا الجزء من الظهر، هل أنت متأكِّد أنك لم تقم بحركة خاطئة؟
– لقد كنتُ جالساً حين ظهر الوجع.
– نعم، ولكن في الأيام السابقة؟ ففي بعض الأحيان، يحدث أن يكون الوجع مرتبطاً بأمر داخلي، ويمكن للمرء أن يشعر بالصدمة بعد بضعة أيام.
– أنا متأكد من أنني لم أرفع شيئاً.. ولم ألعب رياضة.. ولم يمرّ بي شيء ذو بال.
– فكِّر جيداً.
– ......
– ......
– لا، حقيقةً، لا أرى شيئاً.
– طيِّب.. طيِّب لسوف نرى كل ذلك..

هذا الرجل غير مُطَمْئِن، بعكس ما كنتُ قد شعرت به وأنا داخل، فهو تقريباً مثل طبيب الأشعة، يشعر المرء بأنه يحاول أن يخفي عني شيئاً ما، فهل أصبحتُ رجُلاً ذُهانياً[83]؟ كلا، فقد كنت أشعر تماماً أنه قد اكتشف شيئاً ما غريباً، إن نتائج تصوير

(83) الذُّهَان أو الذُّهَانية: مرض نفسي يبدو فيه الشخص سليم التفكير والاستدلال، لكنه يستخلص نتائج على أساس مقدمات فاسدة، فيبدو عليه ما يشبه جنون العظمة، ويثير السخرية به، لأنه كان يبدو في حق نفسه مصيباً وعبقرياً (المترجم).

الـ (IRM) لم تكن تعني حتماً أن شـيئاً ما سـوف يحدث لي، والألم الـذي عضَّني لم يكن له منطق لطيـف، وطبيب العظام، الـذي قـدَّرت فيه دماثـة الأخـلاق والقدرة على خلـق حيوية وجدانية قائمة على الحوار، لم يقل شـيئاً، وكان يجُسُّني بشكل غير منتظم، وبحركات فجائية مُشَتَّتَة، على طريقة رجل تائه في غابة يذهب إلى اليمين ثم إلى اليسارٍ قبل أن يعترف بتغلُّب عدم اليقين عليه، قال:

- حاول أن تسترخي.
- ولكني مسترخ!
- لا، إنك متشنِّج.. متشنِّجٌ جداً.

فأجبته حتى يبتسم، ولكن كأنه كان في ظهري، لم أتمكن من ملاحظة رد فعله:

- يبدو أن هذه هي حالتي الطبيعية..

فطلـب إلـي أن أقلب على الجانب الأيمن، ثـم على الظهر، قبـل أن أقلب على البطن، وكنت أنفِّذ بطواعية، لقد اسـتغرقتُ بعض الوقت قبل أن أتقبـل أن الألمٍ، على الرغم من جميع هذه المعالجات اليدوية الواعدة، كان بعيداً عن التلاشـي، بل إنه أخذ يزيد، وحاولت أن آخذ على عاتقي ألا أُظهِر شـيئاً، وكنت أحاول أيضـاً أن أكون مريضاً مثاليـاً، كما لو كانت هنالك خصومة بين المرضى ومن ينبغي له أن يثبت أنه الأفضل في مواجهة الصعوبات، فهنالك حالات كثيرة فـي الحياة نتصرَّف فيها كتلاميذ يبحثون عن درجات جيدة، ولكـن هذا غير ممكن هناك، وليس بإمكاني أن أتصـرَّف مثل ذلك، لقد تحولت الجلسـة إلـى تعذيب، فقد أطلقت صرخة بشكل مفاجئ، قال الطبيب:

- ألستَ بخير؟
- لا، لست بخير، الألم رهيب.

فقال متلعثماً:

- هذا الأمر عادي تماماً، فعندما يجسّ المرء منطقة حساسة، فإنه يوقظها..

يمكـــن أن يكون هذا صحيحـــاً، لقد حدث لي في الماضي أن عانيتُ وأنا أخرج مـــن عند طبيب عظام، ولكن هنا توجد درجة إضافية، وتدرُّج نحو الأســـوأ، ولـــديَّ انطباعٌ بأن هذا الرجل قد فاقم مشكلتي.

أعلنت، وأنا أنـــزل من فوق الطاولة، من غير حتى أن أنتظر جوابه، قائلاً:

- أفضِّل أن نوقف الجلسة.
- هل أنت متأكِّد؟
- نعم.. إن هذا يؤلمني جداً..
- إنه أمر عادي.. فلديك مشكلة مؤثِّرة جداً..
- ......
- وهذا ما أعمل على تخفيفه عنك.

فسألته بجفاء شديد وأنا ألتقط ثيابي:

- متى؟

فلم يردّ، وعاود الوجع بشـــكل عدواني، فهل عليَّ أن أضيف إليه خيبة أمل جديدة؟ عندما وصلتُ، كنت أراهن كثيراً على هذا الرجل، ولكنه خيَّب أملي فيه، ولديَّ شـــعورٍ بأنه تحسَّس ظهري، من غير أن يعرف ماذا يفعل للعثور على حلٍ معجِز، قال:

- بعد ساعة من الآن، ســـوف تشعر بتحسُّن، وعليك حقاً أن

ترتاح وأن تتجنَّب الإزعاجات.

– سيكون ذلك صعباً.

– لديك نقطة توتُّر يصعب جداً حلها.

– نعم، رأيت ذلك.. فماذا عليَّ أن أفعل إذن؟

– عليك أن ترتاح.. وإن استطعت أن تمر بي خلال يومين أو ثلاثة، فسأحاول أن أسكِّن الوجع إن استمر..

لم أكن بصدد أن أعود لرؤية هذا الرجل، إني أتألم بإفراط، وقد انطلقت بعجلة كأنني لصٌّ، ولم أكن أعرف ما أفعل من أجل أن أتحسَّن، لقدٍ كانت آثار الحلول قد تلاشت، ومع ذلك لن أقضي حياتي على هذه الحال، في الخارج، كان الوقت ليلاً، فأخذت سيارة أجرة للعودة إلى البيت، وفتحت النافذة لأتنشق هواء المدينة، كانت السيارة تسير ولم يكن الألم ينقص، وعند كل إشارة مرور حمراء، كنتُ أقول لنفسي:

– يجب أن تتماسك.

فعليَّ أن أصمد حتى أصل إلى البيت، حيث بإمكاني أن آخذ أدويتي وألا أتحرَّك، ولم أكن أعلم بعدُ إن كان ذلك ممكناً.

(٣٦)

شدة الوجع: ٩

الحالة المعنوية: حاقد

(٣٧)

لم ألمح فوراً أن شيئاً ما غير معتاد كان يحدث، حتى لو لاحظتُ سيارة زوجتي في الشارع، فلن يكون أمراً غير عادي أن أجد كل شيء مُطفأ في بيتنا، فهي بالتأكيد خرجت تتسوق

من زاوية الشـــارع، أو تقوم بزيارة لجارة، وضعت مفاتيحي على خزانة المدخل، قبل التقدم نحو السلم، وكانت بضع درجات فقط تفصلني عن سريري وكبسولاتي، وقد وصلت إلى آخر هذا النهار غير المنتهي، كل خطوة محســوبة، وأقل جهـــد كان يأخذ أبعاداً غير محـــدودة، وفي آخر ثلاث درجات، قمت باســـتراحة، وفي هذه اللحظة، تهيَّأ لي أنني سمعت صوتاً آتياً من الصالون، يشبه تأوُّهاً مخنوقاً، ناديت:

– هل هنالك أحد؟

– ......

لم يجبني أحد، لقد كان هنالك شـــيء ما يقلق، وقد اســـتمر الصـــوت، من الواضح أن هنالك أحداً مـــا، وفكرت فوراً بوجود عملية سطو، ولكن كان ذلك يبدو لي فرضية غريبة لأن الصوت يبدو أنه آتٍ من شـــخص لا يتحرك، فسألت ثانية إن كان هنالك أحد، ولكـــن ما من إجابة، وعلى بعد بضعة أمتار من ســـريري، وبعد الاســـتراحة، كان علـــيَّ أن أعود أدراجي لأرى ما الذي كان يحدث، تقدَّمـــتُ ببطء نحو المدخل (طبعاً لا أســـتطيع الانتقال بســـرعة، ولكن الأمر كان يتعلق هنا ببطءِ حَذَرٍ)، وفي الممر، مِلتُ بجِذعـــي نحو الأمام لمحاولة مراقبة الصالـــون من غير أن أُرَى، فلمحت ما يشبه الظل، فقلت:

– (إيليز).. هذا أنتِ؟

– ......

– (إيليز)؟

فردت بهدوء:

– نعم..

كان عليَّ أن أشـــعل النور لكنني تراجعتُ، إذا كانت قد رغبت في البقاء في الظلمة، فهنالك ســـبب مـــا، اقتربت منها، وصار بإمكاني أن أتحقق الآن من الصوت الذي كنت أســمعه من عند السلم؛ لقد كانت تبكي، فقلت:

- ما الذي يجري؟

- ......

- أخبريني ما الأمر؟

-.. أبي..

- ......

- مات.

لطالما كنت أخشى هذه اللحظة، وبخاصة خلال أشهر مرضه الطويلـــة، وقد كنت أعـــرف دوماً أن هذا الحدث سيســـبِّب لها انهياراً، لأنني أعرف حبهـــا غير المحدود لأبيها، كما أعرف إلى أي حـــد لم تكف عن أن تكون البنتَ الصغيرة. وأصبحتُ مرتبكاً تمـــام الارتباك، وحاولت أن أعزِّيهـــا، لكنها بقيت مذهولة، كانت ذراعاها جامدتين، وجســـدها مثل حجر، وقد داعبت شـــعرها، ولـــم أدرِ ماذا أقول، ماذا يقول المرء في مثل هذه الأحوال؟ يجب على المرء أن يكون هنا، لقد كان الخبر قاســـياً تماماً، لأنه أُعلِن في وقت لـــم يكن المرء ينتظره فيه مطلقاً، في زمن الســـرطان، والأشـــهُر الشـــجاعة لوالدها، كانت (إيليز) تتهيَّأ للأســـوأ، لقد كانت تتقبَّل الإمكانية الواقعية لموته، ومن ثَمَّ انقضَتْ تلك الفترة، مفســـحة المكان لخفة روح جديدة، وها هو ذا قد مات فجأة بعد كفاح طويل، وبعد شفاء حكم عليه كلٌّ منا بأنه شفاء رائع، قالت:

- لقد سقط..

- ماذا؟
- لقد انزلق على سُلَّم.. وانكسرت عنقه..

هـــذا غير ممكن، ليس أبوها من يحـــدث له هذا، لقد كانت نهايته هذه تبدو لي أمراً غير معقول كُلِّيةً، إن الرجل لم يكن من النوع الذي يســقط، إنه رجل منتصــب القامة، لقد كان له دوماً مظهرُ رجلٍ واقــف، منتصب القامة حتى وهو مريض وحين كان مشــرفاً على الموت، وإذا بســقطته الأولى تكون شؤماً عليه، إنه لأمر ســخيف، لقد رأيت دوماً هذا الرجل مليئاً بالحياة، مفعماً بالهيبة (الكارزما) charisme، وإذا بكل شيء يتوقف بزلة قدم، همست (إيليز):

- يجب أن نذهب إليه.
- ......
- أمي تنتظرنا..

نطقت بهذه الكلمات، غير أنها كانت تبدو عاجزة عن الحركة، وبقينا على هذه الحال وقتاً طويلاً، في شبه العتمة، في هذه اللحظة اختفى ألم ظهري، إن التطور المأسَاوِيّ للأحداث طرَد الوجع، لقد نسي جسمي نفسَه أمام وجعٍ آخر، لقد نذرتُ نفسي كليةً لزوجتي، والحق يقال: لا، فأنا أســتحيِي من الاعتراف بذلك، ولكن شيئاً ما من الآخر قد تدخَّل في ذهني، شيئاً ما لا يمكن الاعتراف به، كانت زوجتي منهارة وكنت أفكر في الرحلة إلى (سان-بطرسبورغ)، كيف يكون هذا ممكناً؟ إنني شــخص في منتهى الوحشية، سوف يُدْفَن أبوها خلال ثلاثة أيام أو أربعة، وســوف يتوجَّب عليَّ إذن أن ألغي فِــرارِي، لقد كنــت ممتلئاً بمثل هذه الفرحة مــن وجهة نظر هذه المناســبة، ولكن أي أهميــة لذلك؟ لماذا شوشــت متعتي الصغيرةُ

ذهني هكذا؟ كنت أعلم أننا نستطيع تأجيل هذا المشروع، ليس لإلغائه أي أهمية بالنسبة لمأساة الوضع الراهن. نعم، إنني أعلم كل هذا، ومع ذلك لم أكن أفكّر إلا في هذا الأمر، وأنا أداعب (إيليز)، وأساعدها على تَحَمُّل هذا الوجع، لقد أخذ رأسي يُنَمِّل من الحسابات المقزِّزة، قلت لنفسي إذا ما دفنوه سريعاً، فيمكنني حينئذٍ أن أسافر، وهذا أيضاً أمر مخجل، أي رجل يمكن أن يترك زوجتــه وقد دفنت أباها للتو؟ إن رحمة العالم كلَّها لم تكن لتمنعني ألا أفكر إلا في نفسي، وفي مشاريعي الصغيرة.

وأخيراً، نهضتُ (إيليز)، وأشعلت النور، ونظرتُ حينئذٍ مباشرة إلى عينَيَّ، وأستطيع أن أقول ذلك بلا أدنى شك؛ لقد كانت تقرأ أفكاري، وقد لمحت خيبة أملي الفظيعة، تلك الخيبة الخجولة التي لم أتوصل إلى إبعادها عن ذهني، لم أكن أدرك كشف فقدان الشعور هذا، ولكن هكذا كان، ليس بإمكان المرء أن يسيطر على أفكاره، لقد أحببتُ أباها مع ذلك، وتأثرتُ لموته، حقيقةً تأثرتُ، ولكنه كان شعوراً أقل أهميةً ظاهرياً من الشعور بالرحلة المحبَطة.

(٣٨)

شدة الوجع: ٥

الحالة المعنوية: مذنب جداً

(٣٩)

بعد بضع دقائق من التجول في المنزل، بحثاً عن حوائجنا، انطلقنا. سألتُ (إيليز):

– هل أنت متأكِّد من أنك تستطيع القيادة؟

– نعم.

- أولستَ متعباً جداً؟
- لا، أنا بخير، لا تقلقي لذلك.

إن ما نعيشـــه الآن دفعنا خارج فكرة التعب، إذا سرنا جيداً، يمكن أن نصل بعد أربع ســـاعات من الآن، وخلال الطريق تكلمنا قليلاً، وكانت هنالك أحياناً نُتَفٌ من الحديث، ولكنني كنت عاجزاً عن ترديد جملة كاملة، سألتني (إيليز) فجأة بعد ساعة:

- وظهرك، هل هو بخير؟
- نعم، كل شـــيء على ما يرام.. لقد رأيت طبيب العظام منذ قليل..
- آ.. الذي أوصى به (إدوار)؟
- نعم..
- هل هو جيد؟
- نعم.. إنه جيد جيداً.. أشعر بأنني أفضل بكثير..

بقيت (إيليز) تفكر لحظة، قبل أن تقول:

- ربما كان ذلك ظهرَك..
- ماذا؟
- موت أبي..
- ماذا تعنين؟
- إن الجســـم أحياناً يكون سابقاً للذهن، لقد شعر بأن شيئاً ما خطيراً سوف يحدث.. وقد ظهر ذلك في ظهرك..
- ......

لـــم أكن أعـــرف إلا التفكّر، كان لوجعي صلـــة بهذه الصورة من الحدس، كنتُ رســـولاً للمستقبل، ربما أُشْبِه كل أولئك الناس الذين تؤلمهم ركبُهم فقط قبل هطول المطر، ولكن لماذا كنتُ أعيش

ذلك الوجع أنا لا هي؟ وبعد كل شـــيء، لقد شـــعرت، عن طريق أنانية رد فعلي بعد إعلان الوفاة، بأنني لم أكن على صلة حسِّية مع والد زوجتي، لقد كانـــت (إيليز) ترغب في التعلُّق بفرضيات غريبة ترتديها كلباس محسوس، وكانت تكافح بقدر استطاعتها ضد قســوة الحدث، ولقد كنت أود أن أستسلم للاعتقاد، معها، بالكشوف السابقة لأوانها لدى الأجسام.

كان طريق الســيارات مقفراً، فلا أحـــد يذهب إلى مقاطعة (بروتاني) [84] Bretagne في مثل هذه الساعة، ولن نتكلم على محطات الخدمة [85] stations-service أو الاستراحات التي كانـــت مقفرة تماماً من الناس، لقـــد دفعنا الموت إلى عالم فارغ، لا يجـــرؤ أن يقـــوم بالمغامرة فيه أيُّ إنســـان ســـعيد. أوحت إليَّ (إيليز) بالقول:

- ربما يلزمك أن تقوم باستراحة؟
- كما تشائين أنت، أنا بإمكاني متابعة المسير.
- إذن لنسترحْ..

كانت لديَّ رغبة في التوقُّف منذ وقت، ولكن بعد زمن الوهن فـــي الصالون، كنت قد شـــعرتُ أن لدى زوجتي ما يشـــبه حالة طوارئ، فقد كانت تريد أن تلتحق بأمها بأسرع ما يمكن.

في محطة الخدمة التالية، ذهبت أطلب من المحاســـب بعض القطـــع النقدية لماكينة المشـــروبات، فأنجز الطلب من غير كلمة واحـــدة. اتَّكأتْ زوجتي على طاولـــة مثبتة على الأرض (لا يمكن

(84) مقاطعة (بروتاني): شـــبه جزيرة في شـــمال غرب فرنســـا، وتتألف مـــن أربع محافظات (المترجم).

(85) محطات الخدمة: لتعبئة الوقود والصيانة.

الجلوس في مثل هذه الأماكن)، ســـألتها أي نوع من القهوة تريد، فأجابت:

- أي قهوة..

لم يكن هذا وقت سؤالها: هل تريدها كبيرة، طويلة أم قصيرة، مع ســكر، أو بالحليب، وقد تُهْتُ قليلاً أمــام كثرة الاحتمالات، واختـــرت أخيراً فنجانين بلا ســكر، وهذا الاختيار كان يبدو لي الأكثر تقشــفاً في القهوة، وعندما تناولتْ (إيليز) الفنجان قالت لي:

- شكراً..

لقد نطقـــت بهذه الكلمة بلا اكتراث، كما يُشْـــكَر صديق أو معرفة.

كان هنالك في هذه اللحظة شيء ما من الحزن، وكان السياق يقتضي ذلك بالتأكيد، ولكن كان هنالك شـــيء ما آخر لم أتوصَّل إلى تحديده، إن بعض المآســـي توحِّد الناس؛ فكان بعضهم يشد على أيادي بعض، مثلما يحدث في المواعيد الصامتة لحب لا يزال بعدُ أقوى، وكان آخرون يصلون إلى أوقات مجرَّدة من العواطف، فينظر بعضهم إلى بعض، ويتقاسمون بعض الأشياء، فكنا نعيش في شكل من المساكنة في الفراغ، كنا نشرب قهوة تشبه الحَساء، وهذا رمز كافٍ لما كنا عليه؛ كنا عاجِزَيْنِ عن تحديد أنفسنا، حيث يبدو أن زوجتي لم تكن ترى فيَّ رجلاً قادراً على أن يحميَها، لقد كانت تحاول مواجهة الصدمة منفردة، وكنت أرى، في عجزي عن أن أطمئنها، حدودَ ما كنت أعدُّه دوماً وبتفاؤلٍ محبَّتنا.

(٤٠)
شدة الوجع: ٣
الحالة المعنوية: خارج التعب
(٤١)

وصلنـــا في منتصف الليل، كانت والدة (إيليز) تنتظرنا، وهي محاطة بالأقارب، ولقد كانت بالضبط في الحالة نفســها، أعني أنها حقيقةً في الحالة نفسها، ومن المدهش أن يرى المرء في كل تفصيل من وجهيهما التعابير المتشابهة عن الحزن، إنها الطريقة الموحَّدة للبرهنة على الوجع، لقد كانتا تجلســان جنباً إلى جنبٍ على الأريكة، وكل شــخص يحضر كان يتقــدَّم ليراهما، ويوجه إليهمـــا كلمات التعزيـــة، وكانوا يأتون أيضاً نحوي، ويشـــملونني بالتعزيـــة، ومـــن الغريب أنَّ هــذه المظاهر هي التــي أتاحت لي التحقُّق إلى أي درجة كنتُ معنياً بهذه الوفاة، لقد كنتُ في الصف الأول، وقد أوجد ذلك لديَّ أخيراً شــروط الانفعال، وحتى الآن، حاولت أن أتفاعل بشــكل أفضل، وأن أكون هنا من أجل زوجتي، ولكنـــي ألقيت الآن عن كاهلي التوتـــر المتراكم عليَّ، ورحت أفكر في والد زوجتي.

لقـــد كنـــت أعرفه منذ مطلـــع حياتي الزوجيـــة، عادت إلى ذاكرتي بعض الذكريات بطريقة عشوائية تماماً، مع بعض مقاطع من أحاديثنا التي كانت قد شكَّلتْ الكيان المزخرف لعلاقتي معه، إنـــه لأمر خاصٌّ ما يحتفـــظ المرء به من تاريـــخ اثنين، ولم يكن الأمر يتعلَّـــق حتماً بأحاديث مطوَّلـــة، إن ذاكرتنا تنتقي بطريقة تعسفية ما تود أن تحتفظ به، وقد ركَّزتْ ذاكرتي أولاً على طريقة تدخينه في زاوية منعزلة هادئة من الحديقة، خلســـةً من زوجته،

وقد أحببت إلى حد بعيد فكرة هذا الأسـتاذ المهيب الذي تحوَّل طفلاً خجولاً يخفي عيبه، ثم تذكَّرت عنه ولعه بـ (جولة فرنسـا) (تـور دو فرانس)[86] Tour de France، لقد كان مفتوناً بكل الدرَّاجين، وكان بإمكانه أن يقضي فترة ما بعد الظهر كلها واقفاً أمام تلفازه متحمِّسـاً أمـام مراحل الـ (ألب-دويـه) l'Alpe-d'Huez أو مراحل الـ (تورماليه)[87] Tourmalet . وأخيراً، ظهر أمام ناظـريَّ والدموع تفيض من عينيـه تأثراً بالخطوات الأولى لابنتي (أليس)، لقد انطلق تفكيري في كثير من السُّـبُل، حيث تقاطعت صوره التي كانت تهزُّ مشـاعري، وكنت قد محوت لا شعورياً السـنوات الأولى من علاقتنا، وهي السنوات التي لم يصنع فيها شـيئاً لإراحتي، كل واحـد هنا، في هذه الغرفة، كان يركِّب بصمت رؤيته الخاصة للفقيد، لقد كان إذن كلَّ الرجال.

وحول حماتـي، كان هنالـك كثير من الأصدقـاء، وإن المرء ليشـعر إلى أي درجة كان زوجها محبوبـاً، فقد كنت أرى بعض طلابه وزملائه، اجتمعوا جميعاً بصورة عفوية، كمظاهرة صامتة مقابل دورة القدر، كنت أسـتمع إلى أحاديثهم عنه، وكنت متفقاً مـع أغلب الكلام الذي سـمعته. كانت (إيليز) تبكـي وبقيتُ أنا قربها، يدها في يدي، قالت:

- لعلَّكَ قد أُنْهِكْتَ.. فاذهب لترتاح..

كان لديَّ حينئذٍ انطباعٌ بأن وجودي يثقل عليها، وأنها تدفعني إلـى الذهاب للنوم لا رِفقاً بي، وإنما رغبةً في أن تشـاطر أمَّها

(86) تور دو فرانس: مسـابقة دراجات هوائية، على مراحل، أقيمت في فرنسـا سـنة 1903، وهي تتم سـنوياً في شـهر تموز (يوليو)، ويقطع المتسـابقون فيها حالياً مسافة ثلاثة آلاف كيلو متر (المترجم).

(87) الـ (تورماليه): هي أعالي جبال (البيرينيه) الفاصلة بين فرنسا وإسبانيا (المترجم).

هذا الوقت، ومع ذلك، لم تكونا وحيدتين، فمن المحتمل أن عدداً من الزائرين سيقضون الليلة هنا، في سهرة جنائزية مرتجلة، ربما أسأتُ تفسير نغمة كلماتها، ولكن كان يبدو لي أنها تريد إبعادي في هذا الوقت، هل كانت تعتقد أنني لم أكن أحبّ أباها كفاية كي أبقى؟ أم أن الأمر كان يتعلَّق بما لمحت في نظرتي وقتَ أخبرتني بالنبأ؟ لم أتوصل إلى أن أنزع من رأسي فكرة أنها كانت ترى في عيوني (سان-بطرسبورغ)، وقد أجبتها بعد وقت طويل:

- نعم.. هذا صحيح..

قالت والدة (إيليز):

- يمكنك أن تذهب للنوم في المكتب، فهنالك أريكة (سرير)..

- شكراً جزيلاً..

كان (شكري) لها بالتأكيد مشدَّداً جداً، ولكنني كنت متألِّماً لأجلها إلى حدٍّ بعيد، وكان يبدو لي من المستحيل تصوُّر الخوف الذي كان عليها أن تعاني منه، فهي لم تقض يوماً واحداً، منذ أربعين عاماً، من غير زوجها، تماماً مثل والدَيَّ، لقد كانوا ينتمون للجيل الذي كان فيه العيش بصيغة اثنين يؤخذ بعين الاعتبار في الدرجة الأولى، إذ كانت حياة الأول هي حياةَ الآخَر، وحتى حينما كان يسافر إلى (براغ) Prague [88] من أجل بحوثه، كانت ترافقه دوماً مع أن الموضوع لم يكن يستهويها. كيف تبقى على قيد الحياة بعد هذا الموت الذي كان بتراً لها هيٍ نفسها؟ لسوف تتوه وحيدة في حياتهما المشتركة كما لو أن بلداً من البلدان اتَّسع مرتين.

(88) براغ: كانت عاصمة الجمهورية التشيكوسلوفاكية، وبعد انهيار الحكم الشيوعي وانفصال سلوفاكيا، وعاصمتها اليوم (براتيسلافا) Bratislava، أصبحت (براغ) عاصمة الجمهورية التشيكية، وهما عضوان في الاتحاد الأوربي UE (المترجم).

حين غادرتُ الصالون، همستُ لزوجتي بأنني أحبها، وأضفت قائلاً:

- تعالَيْ أيقظيني في أي وقتٍ إن احتجتِ إليَّ..

فلامست يدي ملامسة خفيفة من غير أن تنطق بكلمة واحدة، ومن غير أن تقول لي إنها تحبني أيضاً، صعدتُ إلى الغرفة وأنا مزعزعٌ، وبإمكاني القول: إن الفائدة الوحيدة منذ إعلان المأساة كانت منحي تصريحاً بقيادة السيارة، إنه لأمر فظيع أن يشعر المرء بأنه مبعَدٌ عن وجع الآخَر، في حين إنه يرغب في أن يشاركه فيه، لا ينبغي لي أن أفكِّر في ذلك، وبعد كل شيء، لم يكن لي أي حقٍّ انفعاليٍّ هذا المساء، إن الصدمة التي كانت قد عاشتها أتاحت لها أن تعاني كل المشاعر أياً ما كانت، من غير أن أتمكَّن من تقديرها ولا إدانتها، ولم يتبقَّ لي سوى إمكانية تفسيرها بصمت، وهذا ما قد فعلتُه ضمن ضجيجٍ داخلي.

(٤٢)
شدة الوجع: ٣
الحالة المعنوية: مُشَوَّش
(٤٣)

وبينما كنتُ أفكِّر في أن أرتمي مباشرة حتى من غير بسط الأريكة (السرير)، استرعتِ انتباهي أوراقٌ منشورة على المكتب، وبالطريقة نفسها التي يتكلم بها المرء على جثة لا تزال دافئة، كانت الكلمات المكتوبة على هذه الورقة، كما يبدو، صادرة عن قلم لا يزال في يد رجل، وكانت تلك الكلمات إذن هي آخر ما

كتبه، في كثير من الأحيان، كان يذكر مشروعه بحماسة شديدة، متصوراً أنه يُجري مقابلة، وربما أيضاً أنه يُدرَس في سياق التاريخ، لقد أمضى حياته المهنية بانتظار التقاعد، هذا الوقت الذي يمتلك فيه أخيراً الفراغ من أجل أن يركِّز على دراساته، وبفتح الأدراج، اكتشفتُ مئات من الأوراق التي علَّق عليها، أو خربش، أو اختلطتْ بكل أنواع المستندات وقُصَاصات الصُّحُف. جلستُ على كرسيه، وأنا مذهول من رؤية هذه الكمية من الأعمال التي لم تصل إلى حد النشر، لقد كنتُ أمام أعمالٍ غير مكتملة، وقد بدا لي ذلك حينئذٍ أكثر قسوةً من الموت نفسه.

ومن غير أن أقارن بين قَدَرينا، لَفَتني هذا الاكتشاف إلى إهمالي مشروعَ روايتي، فقد كنت أنشأت عشرات الصفحات التي بقيت هي أيضاً غير كاملة، وهذه هي المرة الثانية اليوم التي كنت فيها أفكر في محاولتي الأدبية القديمة، وأمام هذه الأوراق اليتيمة، وجدتُ نفسي في مواجهة ما لم أكن قد أكملته، لم تكن المسألة مسألةَ معرفةِ إنْ كنتُ أمتلك موهبة أم لا، وإنما كانت المسألة مسألةَ التفكير في هذا المصير الذي يمكن أن يكون مصيري، ربما لم أكن قد اتخذت القرارات الجيدة في حياتي. بقيتُ دقائق عديدة وأنا أقرأ ملاحظات والد زوجتي، وحتى لو لم أكن أفهمها دائماً، فإن السياق كان يجعلها مثيرة للاهتمام في نظري.

وهكذا نمتُ في مكتبه، جالساً إلى مكتبه، وقد وضعت رأسي على ما يكوِّن مخطوطته، وخلال هذه الساعات من النوم، رأيت عدة مرات أحلاماً كانت تمثِّل لباساً للواقع، وعند استيقاظي ذهبت إلى الحمَّام لأغسل وجهي، وألاحظ احمرار عينيَّ، وقد

نزلـــتُ محاولاً أن أحدث أقــل ضجة ممكنة، لم يكن هنالك أحد في الصالـــون، كان هنالك هدوء مدهش يَرِيْـــن في هذا المكان، الذي كان قبل ســـاعات مشـــغولاً بكل صنف من أصناف الناس، وقد فوجئتُ بملاحظة أن كل شـــيء كان مرتبـــاً، لم يكن هنالك أي قَدَح، وحتى الوسائد على الأرائك كانت تبدو مصفَّفَةً وكأنها فـــي متجر، مَنْ فعَل كل ذلك في مثل هذا الظرف؟ إنها بالتأكيد زوجتي، كان بإمكاني أن أتصوَّرها تشـــغل ذهنها بأعمال منزلية، دافعـــةً ما أمكن هـــذا الوقت الذي يتوجَّب عليهـــا فيه أن تتمدَّد في العتمة وأن تحاول النوم، ولدى توجُّهي إلى المطبخ، اكتشـــفت أنها لم تنم دقيقة واحدة، كانت هنالك، على كرســـي، مســـتندة إلـــى الطاولة. لم تُدِر رأســـها عندما دخلتُ إلـــى المكان، وبدت بلا حَرَاك، تماماً كعشـــية أمس، حين اكتشفتها في صالون بيتنا، وللمـــرة الثانية، لاحظت إلى أي درجة كان هذا الموقف قريباً من موقـــف أمها، فقد كانت هي أيضـــاً هنالك، في المطبخ، مذهولة أمام ركـــوة القهوة، ويبدو أنها كانت تنتظـــر أن تغلي القهوة، من غير أن تدرك أنها قد غلت منذ فترة، بقيتُ لحظة أراقبهما قبل أن تلاحظا وجودي، شـــيء غريب، لقد أدارتا رأسيهما نحوي في اللحظة نفسها، ليقولا لي الشيء نفسه:

– هل تشرب قهوة؟

وبعد أن شـــربت فنجاناً، ألححـــتُ عليهما بأن يذهبا للراحة قليـــلاً، وأثناء هذا الوقـــت، كان بإمكاني أن أهتـــم بالإجراءات الإداريـــة الأولى، لقد قبلتا اقتراحي وذهبتـــا للتمدُّد، وعليَّ قبل كل شـــيء أن أُعْلِم المكتب بشـــأن غيابي. أبدت (ماتيلد) تعزيتها الأكيـــدة على الهاتف، وبعد بضع دقائق، تلقيت رســـالة مقتضبة

مــن (غايّار)، نصها: (شــكراً لإحضار شــهادة الوفاة في أقصر مدة)، لم يكن هنالك إذن توقف ممكن لضراوته، إن هذه العلامة الجديدة على عدوانيته لم تكن لتفاجئني، نظراً لأنني كنتُ أعرف طبيعته الحقيقيــة، وكنت أفضل في نهاية الأمر أن يكون الحقد معروضاً في وضَح النور، وانتقلتُ ســريعاً إلى شــيء آخر، فقد ناولتنــي حماتي، قبل أن تصعد إلى غرفتها، ظرفاً سُــجِّل عليه كلمة: (جنازة)، لقد كانوا بالتأكيد قد باشروا بالإجراءات الحزينة زمن الســرطان، وها هــو ذا الظرف يبــدو الآن مليئاً بتفاصيل الدفن، كل شــيء تم الدفع له، وكل شيء تم اختياره، وقد فكرت في أن دوري سيأتي يوماً ما، ليس في الموت، وإنما في أخذ قرار بالذهاب إلى اختيار نعشي.

وبعد ثلاثة أيام، كنا مجتمعين حول الضريح، وكانت ابنتي قد التحقت بنا البارحة، وعلى الرغم من هذا الظرف، فقد أسعدني أن أقضــي معها يومين بلا انقطاع، وكان ابني قد تألَّم كثيراً لأنه لــم يتمكن من المجيء، لأنه كان فــي ذروة فترة الامتحانات، لقد كان يحــسّ بأنه بعيد عنا، ولا يســتطيع أن يشــاطر أياً كان في حزنــه، وكنا نفكِّر فيه، وقد تأثَّــر برؤية الانفعال الحقيقي الذي كان قد انبعث من طقس الوداع. زوجتي وابنتي استندت إحداهما إلى الأخرى، كما لو أنهما تتســاعدان على عدم الســقوط، لقد قُبِــر رجلٌ ميِّتٌ في عز شــبابه، مفعمٌ بالحياة وبالمشــاريع، وقد حاول أحد أصدقائه أن يتحدَّث عنه، وقد تمكن من جعلنا نتبسَّم وهــو يذكر لنا طرفةً أو اثنتين، وقال بعضهم: (لقد كان يحبّ أن يتحدَّث عنه المرء هكذا)، من الصعب دوماً أن نعرف ما كان الميِّت يحب أو يكره، وعلى أي حال، لقد كان رجلاً يحب المرح، ويمكنني

أن أؤكِّـد ذلك. في بداية الأمـر كان يجدني عديم البهجة، وقد كنتُ ببساطةٍ أخاف منه، وعلى كل حال -وهو في ذلك كان يشبه أبـي- لم يكن يدع مجالاً للآخرين، وكان يبدو أنه مركز المجتمع، وهذا صحيح، ولسوف يكون بالتأكيد سعيداً اليوم.

منـذ عدة أيام، كنتُ أتألَّم مـن ظهري، ولم أكن أفكِّر إلا في هذا، ولم يكن لشـيءٍ آخر أهمية، وكان لدي أسباب للقلق، ولكن ألم أكن مبالغاً قليلاً في ذلك؟ إنه وجعي، ولا شـيء سوى وجعي الصغير، وهكذا كان الأمر دوماً؛ يكفي أن أواجه مآسـي الحياة حتى أشـعر بأن من المضحك أن أصنع جبلاً من شيء تافه، من تفاهاتنا، وأمام مآسـي الآخرين، يتخـذ المرء في أغلب الأحيان قرارات حسـنة، ويقول لنفسـه إن كلَّ شـيء يهون الآن، غير أن هذا لا يدوم وقتاً طويلاً، ويشرع المرء مرة ثانية في الجزع لبعض الترَّهـات، وتتوتَّر أعصابه لهبوب الريح، وفي هذه اللحظة، يبدو أني أقول لنفسي إن كل شيء يجري على ما يرام، لقد كنت دوماً هنا، واقفاً فـي الحياة، فالتصوير بالرنين المغناطيسـي IRM لم يكتشـف شـيئاً، ولم يكن لديَّ مشـكلات كبيرة، وولدايَ في صحة جيدة، والحاصل أنني أُسَهِم في إيداعِ رجل تحت التراب، سيختلط بعد قليل بالغبار، كما سنفعل جميعاً، وللمرة الأولى منذ زمن طويل، أخذ نوعٌ من الابتسام طريقه إلى وجهي.

القسم الثاني
(1)

راجعتُ خريطة المدينة عدة مرات، لم أكن أسـمع أحداً يذكر هذا الشـارع، وأنا لم أكن أعـرف الحيَّ أيضاً، ولقد كنت أخاف أن أتأخَّر؛ وهذا ما يثبت أن علاقتنا بالعالم الطبي من العلاقات منقطعة النظيـر؛ الأطباء يملكون قاعات انتظار، ويملكون الحق في جعلنا ننتظر، ولكن يتم الامتعاض دوماً إذا ما سـمح مريض لنفسـه أن يتأخر دقيقتين، من غيـر اعتبار لهذه اللعنة الغريبة؛ في كل مرة نصل فيها في الساعة المحددة، يجب علينا الانتظار، ولكن يصبح الطبيب بأعجوبة دقيق المواعيد إذا ما تأخرنا تأخراً طفيفاً.

كنـتُ قد حصلتُ على معلومات عن منوِّمة مغناطيسـياً من (ألِكْسِـيا) Alexia، أخـت (إيليز)، فلقد جـاءت تكلِّمني خلال تناول وجبة الفطور الخفيفة التي تلت الدفن، قائلة:

- يبدو أن لديك ألماً في الظهر.

فأجبتها منزعجاً من السياق:

- أوه.. نعم..

- أعرف منوِّمة مغناطيسياً جيدة جداً، يجب عليك أن تراها، ولسوف تفتح لك (شَكْراتِك) [89] chakras، فتتحسَّن..
- آ.. موافق..
- حقاً، ثق بي.. اذهب إليها..

كانـــت لديَّ رغبة في أن أتَّبِـــع نصيحتها، ولذلك، كان عليَّ أن أنسى انتقادات (إيليز) التي لا تنقطع بحقها، فقد كانت تقول لي:

- إن أختي مختلة العقل تماماً!.. ألا تعرف آخر أخبارها؟
- كلا، لم أكن أعرف.

فقد كان لها دائماً تحوُّلٌ أخير مفاجئ يَفُوق سابقه، ومن أخبارها الأخيرة أنها كانت مقتنعة بأنها ابنة عم (رمسيس) Ramsès، ولذلك كانت ترغب في السـفر إلى مصر، فأضحكتـــي، وما ذكرته زوجتي عن اختلال العقل كان يبدو لي تصرفات غريبة ســارة نوعاً ما، كنتُ، على مر الســنين، قد نمَّيتُ نظريةً تخصّ علاقاتهم، لقد كانت (إيليز) أثيرة أبيهما، وكانت أختها الصغرى تحاول قدر اســتطاعتها أن تلفت الانتباه إليها، ويبدو أنني لم أكن مخطئاً تماماً، لأن موت أبيهما انتزع منهمـــا الأرض المتنازَع عليها، فأصبحت (ألكســيا) الآن أكثر هدوءاً، ولمـــا حرمت مـــن جمهورها المفضل تقلَّص شـــعورها بأن لا وجود لها بوضـــوح، وكان لذلك نتيجة حزينة: التباعـــد التدريجي بين الأختين، ولم تتكيَّف علاقتهما المضطربة سابقاً مع الوضع الجديد، وهو غياب الوالد. إن هيبة (كارزما) رجلٍ ما يمكن أن تؤدي إلى تفتيت العلاقات بـــين المواطنين في مملكته، لـــم أكن لأفهم قط موقـــف (إيليز) تجاه

(89) الــ (شَــكْرَة) chakra: كلمة قديمة هنديــة الأصل تتعلَّق بالتصــوف واليوغا وعلم طاقة الجسم، وجمعها (شَكْرات)، وهي في أجسادنا سبعة مراكز تنساب الطاقة عبرها، فإذا ما توقف انسيابها فيها، أو في بعضها، كان ذلك تمهيداً لظهور الأمراض (المترجم).

أختها، إن زوجتي التي كانت نوعاً ما من طبيعة منفتحة ونبيلة، تنغلق عنــد ذكر (ألكســيا)، وكنت أجدها في معظم الأحيــان ظالمة، وغير مدركة لتجاوزاتها ونزقها، ولقد انتهيتُ إلى قبول أن المرء لا يســتطيع في الحقيقة أن يفهم الألفة ضمن أســرة ما، فنحن، الأصهارَ وأزواجَ البنات، يسموننا قِطَعاً إضافية، ونبقى دائماً هذه القطع غير المندمجة في هذه التُّرُوس الغريبة، حتى إن صفة (إضافية) نفســها تشهد على القيمة التحقيرية للطابع غير الطبيعي لهذا الاتحاد.

كنت أشــعر بمودة كبيرة لـ (ألكســيا)، وقد شكرت لها نصيحتها، وكنتُ متأثراً بحديثها عن ظهري، وربما كنت متفاجئاً أيضاً، إذن كانت (إيليز) و(ألكســيا) تتشاطران بعض الأشــياء، وحتى المناقشات عني، وفي وقت الدفن، ومنذ إعلان وفاة أبيهما، أصرَّ ظهري بالضبط على عدم الظهور، ويبدو أن الوجع هو أيضاً كان يحترم شــكلاً من الهدنة المرتبطة بالحِداد، وعند العودة إلى باريس بالسيارة، وبصمت، تذكَّرني، فكانت الكيلومترات الأخيرة شــاقَّة، لأنني كنتُ، زيادة على ذلك أيضاً، أحــاول إخفاء عذابي، ولم أكــن أرغب في أن أفرض انحراف مزاجي على زوجتي، التي كان غيرُ المنتظر قد اجتاحها من قبل.

(٢)
شدة الوجع: ٧
الحالة المعنوية: يغريني الخارق
(٣)

وبعد يومين، وصلت متأخراً عند هذه المرأة من غير أن أدري ماذا سأســمع من (منوِّمة مغناطيسياً) magnétiteuse، وفي ذهنــي أنها مرادفة لـ (الطبيبة الدجالــة) guériseuse، وكنتُ

أتخيَّل أنها سوف تضع يديها عليَّ وتحاول أن تنتزع الألم بمساعدة أدعية سِرِّية وسوائل خارقة، كنت قد عقدتُ على هذه الجلسة الضبابية أملاً منقطع النظير، كاليائسين الذين يدخلون في أول طائفة قادمة. كان الوجع قد دفعني إلى حالة كنتُ مستعداً فيها أن أُصدِّق أي شيء كان، وأي شخص كان إن كان بإمكانه أن يجلب لي قليلاً من الراحة، لم تكن الصور الشعاعية قد أفلحتْ في شيء، وكذلك التصوير بالرنين المغناطيسي، وفاقم طبيب العظام من آلامي، إذن لماذا لا أجرِّب الغرائب الممكنة لهذه المرأة؟ وفي الطريق، طرحت على نفسي الأسئلة التالية: كيف يصبح المرء مُنوِّماً مغناطيسياً؟ هل يكشف يوماً ما عن موهبته؟ وهل يمكن أن يتم تعليم ذلك؟ وهل يمكن أن توجد مدرسة مثل مدرسة السَّحَرة في رواية (هارِّي بوتَّر) [90] Harry Potter؟ ويبدو أن من غير المعقول أن يكون المرء منوِّماً مغناطيسياً، ولا بد أن يكون ذلك أيضاً سلطة سحرية، وهذه الموهبة ربما كانت تسمح بوجود ساحات مواقف من أجل أن تركن فيها بباريس، وقد تركتُ

(90) رواية (هارِّي بوتَّر): رواية خيالية من سبعة أجزاء، ألفتها الكاتبة البريطانية (جوان راولينغ) Joanne Rowling، من مواليد 1965، وكانت قد كتبت الجزء الأول سنة 1990 بعنوان (هارِّي بوتَّر في مدرسة السَّحَرَة)، ولم يتح له النشر إلا سنة 1997. وهي تروي مغامرات متدرِّب على السحر اسمه (هارِّي بوتَّر) مع صديقيه في تلك المدرسة، وهما: (ويسلي) Weasley و(غرانجر) Granger، وكانت العقدة الأساسية في السلسلة كلها تكمن في قتال الشاب (هاري) ضد ساحر أسود ذائع الصيت بأنه لا يُقهَر هو (لورد فولدمورت) Voldemort، كان قد قتل من قبل والديه، وكان يحاول منذ عقود من الزمان أن يهيمن على عالم السَّحَرَة، وقد مُثِّلت السلسلة في ثمانية أفلام لقيت نجاحاً واسعاً، واستُغلَّتْ في ألعاب فيديو ومنتجات أخرى، وقد لقيت أجزاء الرواية، منذ صدور الجزء الأول إلى صدور الجزء الأخير سنة 2007، شعبية كبيرة، وهي تمثل نجاحاً تجارياً حقيقياً، فقد بيع من الرواية حتى سنة 2011 أكثر من أربعمئة وخمسين مليون نسخة، وترجمت إلى نحو سبعين لغة، وقد جنت الكاتبة منها نحو 560 مليون جنيه إسترليني حتى سنة 2008 فقط، وترجمها إلى الفرنسية بعد صدور أجزائها مباشرة (جان-فرانسوا مينار) Jean-François Ménard (المترجم).

نفســـي تذهب إلى كل نوع من الخواطـــر على أمل صرف الألم، ومن الأفضل أن أعترف بذلك؛ لقد كنتُ أوجِس خِيْفَةً من الموعد الذي كان سيُعلَن.

كانـــت قاعـــة الانتظـــار فارغة، فهـــل هذه علامـــة جيدة أو ســـيئة؟ وبعد بضع دقائق، خرجت امرأة من مكتب الاستشـــارة، واجتـــازت القاعة ببطء مـــن غير أن تنظر إلـــيَّ. ففي فيلم من الأفـــلام، ربما أمكن أن يكون ذلك مشـــهداً بطيئاً، ولكننا لم نكن في فيلم، شـــيء ما أعجبني في مشية هذه المجهولة، من غير أن أتوصَّـــل إلى تحديده، ربما كان ركبتيها؟ نعم، إنه ركبتاها، لطافة غريبة انكشفت من ظهورها المفاجئ، كم يمكن أن يكون عمرها؟ مـــن الصعب معرفة ذلك، كان عمرهـــا يتوه بين الثانية والثلاثين والسابعة والأربعين، وبينما كنت أعتقد بأنها لم تلاحظني، قالت لي بالضبط قبل خروجها:

– لسوف ترى، إنها رائعة.

– أنتِ هي الرائعة.

– عفواً؟

– أوه.. لا، لا شيء..

رســـمت على وجهها ابتســـامة، ثم غادرت القاعة، يبدو أنها حسبتني أُغْوِيها في قاعة انتظار، وأنا لستُ كذلك إلى حدٍّ بعيد، في كثير من المرات، كنتُ أجد نفســـي عاجزاً عن العثور على رد، وفي كثير من المرات، كانت تصدر من فمي ثلاثة حروف صغيرة، وعندهـــا كانت تتدفق كلمات بصـــورة غريبة، من غير أن يصدِّق عليها وعيي، إنها ظاهرة محضة لتمرُّد الجسد على العقل، وقد كان لذلك حتماً ســـببٌ، يبدو أن قاعـــة الانتظار كانت ممغنطةً،

ونحن هنا أناسٌ آخرون، إننا النسخة المحرَّرة منا، ولستُ أرى سوى هذا التفسير لردي السريع: (أنتِ هي الرائعة)، وفي هذه اللحظة، ظهرتْ المنوِّمة مغناطيسياً.

وقد شرحتُ مرة جديدة، مثل مغنٍّ ليس له سوى أغنية واحدة، ما كنتُ أعاني منه، وكرَّرتُ القول إنني لم أر أي أصل محدَّد لآلامي، ومنذ أكثر من أسبوع، كنتُ كأنني VRP [91]، أي: (مندوبُ مبيعاتٍ) لوجعي، وكنتُ أتنزَّه من موعد طبي إلى موعد طبي آخر، محاولاً إطلاعها على هؤلاء المفترض فيهم تخفيف آلامي، وكانت المنوِّمة مغناطيسياً تصغي إليَّ بانتباه، مسجِّلَةً ملاحظات على دفتر صغير، وكانت تبدو عادية تماماً، وكنت أتصوَّرها ترتدي بطريقة شاذة، وتلبس ثياباً من جلود الحيوانات، ومزيَّنَة بعقود من القشريات، وكان في ذهني أنها يمكن أن تكون (هِبِّيَّة) hippie [92] متأخرة، وتستقبلني في عتمة مشبَّعةٍ ببَخُور البابونج، ولكن لم أجد شيئاً من كل ذلك، كان المكان محايداً، وكانت المنوِّمة مغناطيسياً تشبه أكثرَ مسؤولةَ توجيهٍ لطلاب ثانوية في مأزق.

وأخيراً، كان ذلك هو انطباعي الأولي، وبسرعة بدأتُ أجدها غريبة، فبعد عباراتي التمهيدية، شرعتْ في النظر إليَّ بصمت،

(91) وهي مختصر الكلمات (voyageur représentant placier) والمعنى الحرفي: المسافر الذي يعرض البضائع [للبيع] (المترجم).

(92) الهيبة: حركة شبابية ظهرت في ستينيات القرن العشرين في الولايات المتحدة، وانتقلت إلى أوروبا في سبعينياته، وكانت متمردة على القيم الاجتماعية، ونمط عيش الآباء، والمجتمع الاستهلاكي، والأخلاق، والعنف، وكان أفرادها يعيشون هائمين على وجوههم، شعثاً غبراً فوضويين، وهم خليط معاً من الجنسين، ويتميزون بألبستهم وشعورهم، وكان لهم تأثير في الحياة الموسيقية، غير أن الحركة اضمحلت شيئاً فشيئاً بدخول عقد الثمانينيات من ذلك القرن، نظراً للأسس الواهية التي كانت تقوم عليها (المترجم).

ودام ذلك وقتاً لا بأس به، لماذا كانت تمعن النظر فيَّ هكذا؟ هل كانت هــذه طريقتها في التركيز؟ لقد رأيــت الأمر مُزعِزعاً لي بشــكل خاص حين أكون أمام شخص ينظر إليَّ من غير أن يقول شــيئاً، وقد تملَّكني الشــعور بأنني مذنب في أمر ما، وبعد مدة، حاولتُ القول:

- ربما كنتِ تودِّين أن أتمدَّد؟
- لا .. لا تتحرَّك.

إذن الأمر هكذا، إنها منوِّمة مغناطيســياً، تنظر إلى المريض، تُنهِكــه من خلال قزحية العين، إنهــا طريقة غريبة أوقعتني في حالــة من عــدم الارتياح، ولم تــؤدِّ إلى اســترخائي، ربما كانت طريقة متداولة، لقد كانت تريد أن تستدعي انحراف مزاج يدفع جســمي إلى ردة فعل، وفــي النهاية، إن هــذا الأمر نظريَّة بين نظريــات أخرى، لأنني، وبنزاهة تامة، لم تكن لدي أي فكرة عما هي بصدد فعله، وعندئذٍ اتجهتْ نحوي ببطء، بل ببطء شــديد، وقالت:

- عَرِّ جِذْعَك، وتمدَّدْ..

أجبتها بكل طواعية:

- حاضر..

ومــع ذلك، بدأت تخيفني، إن كل هذا التمثيل لم ينطلِ عليَّ، فميلــي إلى الخوارق كان محصوراً فــي القراءة الدورية للأبراج في الصحف، أخــذتْ تمرِّر يدها، وهي مغمضــة العينين، على جسمي، كانت هيئتها هيئةَ مَنْ يتضرَّع إلى الله للشفاء، وفي هذه اللحظة لم يعد لديَّ ألم، فقد ركَّز ذهني كليةً على جنون الحالة، ما الذي ستفعله بي؟ لقد أحسست بشيء ما، ولكن لم أكن أدري

ما هو، لقد بدا لي هذا الوقت، باختصار في الواقع، أشبه برواية روسية.

وحينئذٍ قامت المنوِّمةُ مغناطيسياً بخطوتين إلى الوراء، وأخذت تنظر إليَّ ثانية من غير أن تقول شيئاً، قبل أن تنطق فجأة بالحكم:

- إن آلامك من النوع النفسي.

- ......

واستنبطت وهي تتركني قائلة:

- وهذا ما لا علاقة له بالطب.

وعندئذٍ، أعرضتْ عني، مثلما يكون القطع في المأساة (التراجيديا)، وقد وجدتُ نفسي وحيداً وممدَّداً.

فسألتُ من طرف شفتيَّ وأنا أتجلَّس:

- يعني؟

- ليس عندي شيء ذو بال أكثر أقوله لك، إن ما هو عندك لا يلاحظه الطب.

- ......

- هنالك مشكلات في حياتك، وهنالك أشياءُ تحتاج إلى تنظيم.

- ......

- والأجدر أن تذهب لرؤية طبيبٍ نفساني psy [93].

- ......

(93) وكلمة (psy) مختصرة من كلمة (psychologue) التي تعني (طبيباً نفسانياً)، وكنا قد لاحظنا أشباه هذه المختصرات من قبل: منها (osté) أي (طبيب عظام) من (ostéopathe)، و(chimio) (العلاج الكيماوي)، إلخ، وهذا نوع من الاقتصاد اللغوي الذي تميل إليه اللغات ويعدّ أحد القوانين التي تؤثر فيها (المترجم).

ثم قالت باختصار:

– أنت مَدينٌ لي بمئة وخمسين يورو.

بقيتُ بلا صوت، وقد شعرت بأنها انتقلت إلى موضوع آخر، لم تكن تريد أن تستنفِد سائلها مع زبون مثلي، ولم يكن لديَّ ما أفعله هنالك، ولم أُحِبَّ موقفها، ومع ذلك لم تكن هذه غلطتي إن لم تستطع قدراتها أن تلاحظ مشكلتي، لقد كانت تنظر إليَّ كما لو أنني قد أهدرتُ وقتها، وأما هذا الأجر فهو أكثر من ظالم، وفي الوقت الذي أخرجت فيه دفتر شيكاتي، اصطنعتْ تبويزةً كانت تعني: (وفوق كل هذا، تريد أن تدفع لي بالشيك؟)، ولحسن الحظ كان لديَّ سيولة نقدية، وها هو أخيراً سائل ينتقل بسهولة بيننا.

(٤)

شدة الوجع: ٤

الحالة المعنوية: نصف حيران ونصف مشوَّش

(٥)

وبعد دقيقتين، صرت في الشارع، مذهولاً من سير الأحداث، ومشيت بضعة أمتار، من غير هدف محدَّد، كان الجو جميلاً هذا الصباح، لقد كان بالأحرى مدهشاً، فالمرء يرى الشمس لأول مرة منذ زمن طويل، مررت من أمام مقهى، حيث كان بضعة أشخاص يستغلون الإشعاعات الأولى في السنة.

سألتني امرأة:

– الآن؟

– ......

استغرقت عدة ثوانٍ لمعرفة تلك التي كنتُ قد التقيتها في قاعة الانتظار، فقلتُ:

- أوه.. نعم.. نعم..

- ......

- ......

واقترحتْ لإنقاذنا من حرَج أكيد قائلة:

- هل لديك وقتٌ لنأخذ القهوة؟

- نعم..

وهكذا جلستُ قبالتَها، وظهري إلى الشمس، وكنتُ أرجو أن تعرف كيف تدير الحديث، لأنني كنت أشعر بأنني غير قادر على أن أكون شريكاً جيداً على الرصيف (الترَّاس)، طلبتُ قهوة برفع ذراعي بشكل ظاهر، بقصد الإشارة، لأتمالك نفسي، فأنا لم أكن معتاداً أن أشرب شيئاً مع مجهولة كهذه بمحض المصادفة، تجرأت بالكاد فنظرت إليها، وكنت لا أزال محرجاً من ردي الأول، لقد كان رداً سخيفاً إلى حدٍّ ما، لأنها إذا كانت قد اقترحتْ عليَّ الانضمام إليها، فالفضل بالتأكيد لذلك الرد في قاعة الانتظار، فالنساء كما يبدو يحبِبْنَ أن يسمعن أنهن رائعات، ولقد قمت بهذا الاكتشاف العظيم بعد أكثر من أربعين سنة مضت وأنا أُخطِئ بسوء فهم المرأة[94].

سألتني ثانية لماذا كانت جلستي قصيرة جداً، استدعى تفسيري ضحكة لديها، لم أكن أفكِّر حتى في أن كل هذا المشهد يمكن أن يتَّخِذ طابعاً مضحكاً، لقد كنتُ في أغلب الأحيان أتأخَّر في فهم ما كنتُ أعيشه، وتابعتْ تقول:

(94) ومن البدهي أنني كنت أعُدُّ زوجتي استثناء في عالم النساء (الأصل الفرنسي).

- وبعدئذ؟ هل ستتَّبِع نصائحَها؟
- لم أفكِّر في الأمر بعدُ..
- يجب أن تتَّبِعها، فهي نادراً ما تخطئ..

ولما كنت متفاجئاً إلى حدٍّ بعيد بالشكل، لم يكن لديَّ الوقت لأتساءل عن المضمون، بِمَ كان عليَّ أن أفكر؟ كانت لديَّ رغبة في أن أصدِّق أن آلامي ذات أصل نفسي، فبعد كل شيء، هذا الخيار مطمئنٌّ جداً؛ ولن أموت بسببه، فلم يكن هنالك بعدُ أورامٌ، أو عقدة (أوديب) [95]، أو سرطاناتُ تحوُّلٍ غراميّ. إن وجعي، بحسب المنوِّمة مغناطيسياً، يمكن أن يستمر ما دمتُ لا أفهم مشكلتي، لقد أصبح جسمي لغزاً لا يمكن أن يحله سوى ذهني، وعليَّ أن أتحرَّى في أعماق أعماقي عن أفكاري، وقد لمستُ، في الأيام الأخيرة، وفي عدة مناسبات، هذه الإمكانية، لقد اضطربتُ في البداية لفكرة إمكانية أن يكون المرء سبب مرضه الخاص، ثم طرحتْ زوجتي فرضية العلاقة بين أوجاعي وقلقي المهني، وهذا ممكن، ولكن ليس هذا هو المجال الوحيد للصعوبات في حياتي، فأين تكمن إذن

(95) عقدة أوديب: استخلصها وسماها بهذا الاسم مؤسس علم التحليل النفسي (سيغموند فرويد) (1856-1939) Sigmund Freud النمساوي، مستخلصاً إياها من مسرحية اليوناني (سوفوكليس) Sophocle (أوديب ملكاً)، وخلاصتها أن الملك (لايوس) والد (أوديب) يحلم أن ابنه هذا سيقتله ويتزوج من أمه، فيرسله وهو رضيع مع رجل من حاشيته ليقتله في البرية، لكن الرجل يشفق عليه ويسلمه لراع ليربيه، ثم يتبناه رجل وامرأة، وعندما يشب، وبالمصادفة المحضة، يزاحمه أبوه لايوس وهو لا يعرفه، في الطريق فيقتله، ويتزوج من زوجته التي هي أمه وهو لا يعرفها ولا تعرفه، وتدور الأحداث فإذا الشهود يشهدون على هذه الحقيقة، فتشنق أمه نفسها، وهو يسمل عينيه ويهيم في البراري. وقد بنى (فرويد) على هذه الأحداث --وهو غير محق- ما أسماه عقدة أوديب، واستنبط أن طبيعة أطفال البشر أنهم يعشقون أمهاتهم في سن الطفولة ويكرهون آباءهم، وهذا تعميم لا أساس له من الصحة في رأينا ورأي كثيرين من علماء النفس، حتى من تلاميذ (فرويد) نفسه (المترجم).

المشكلة الحقيقية؟ ينبغي أن يكون لها حلٌّ ما، هنالك حتماً حلٌّ لهـا، إذن بالتمدُّد على أريكـة، لا على طاولة الفحص الطبي، سـوف أجد الدواء، كان كل شيء يبدو متفقاً مع منطق غريب، هو منطق جسم خاضعٍ لا لمصادفة الصحة، ولكنه خاضع أكثَرَ لقرارات الوعيً.

لقـد كان للمجهولة حسـن التفـات بعـدم مقاطعة حواري الداخلي، فقد كنتُ غصتُ في أفكاري، ناسياً تماماً حديثنا، لقد كنتُ، بالفعل، عديم الخبرة في العلاقات الإنسـانية، إنها تتكلَّم إلـيَّ، ولكن ماذا أقول؟ ولماذا كانت تخـاف مني كثيراً؟ هذا أمر منافٍ للعقل، كان لهذا الوقت شـيء ما بسيط، ومن الواضح أن المرءً لا يحكم على نفسه، وكانت هنالك سعادة في عدم التعارف، وفي كون اثنين مجهولَيْن يتكاشـفان من غير تخوُّف، في المجَّانية الكاملة للَّحْظة، سألتُها:

– وأنتِ، لماذا ذهبت لرؤيتها؟

– لقد عضني كلب عندما كنتُ طفلة.. و..

– ......

– وأخيـراً، لم يكن هنالك أي سـببٍ طبي للألـم الذي كان لا يزال يلازمني.. فقد كان ذلك كما لو أنً العضة ظلت مستمرة على الرغم من مرور السنين..

– فهمتُ.

– لقد حسَّنتِ الجلساتُ من حالتي، وأصبح لديَّ انطباعٌ بأنني على وشـك الوصول أخيراً إلى نهاية هـذا الوجع الذي لم يكن منطقياً..

وهكذا فصَّلتْ ظروف اعتداء الكلب عليها، كان عمرها ثماني

سنوات، ولولا تدخُّل أحد المارَّة، لكان يمكن أن تجرح جرحاً أخطر أيضاً، ومن غير إبداع سألتُها:

- هل تخافين الآن من الكلاب؟

- لا، إنني أعشــقها، ولديَّ أيضاً واحد منها، إن الكلب الذي عضني لا يمثِّل الكلاب في ذهني.

فقلتُ بطريقة تهرُّبيةٍ قليلاً، لأنني لم أكن متأكِّداً من استيعاب كل شيء:

- فهمتُ..

كان بإمكانهـــا أن تحدِّثني عن الكلاب (وهي بالتأكيد أقل ما كان يهمني في العالم) خلال ساعات. كنتُ بخير معها، لقد كنتُ أقدِّر هذه المرأة حين رأيتها واقفة (بركبتيها الجميلتين) في قاعة الانتظار، وها أنذا أعاني من الإحســـاس ذاته الآن وهي جالسة (تغطي الطاولـــة على ركبتيها)، إن انفعالي إذن ليس مشـــروطاً بوضعها، وقد أحببتُ وجهها، لقد كان يسافر على مساحة واسعة من التعابير، فيمكن أن تجده محتشـــماً، محتشـــماً إلى حد غير معقول، كأنه وجه فتاة شابة مطيعة في نُزُلٍ (بانسيون) سويسري، ثم فجأة يتوقع المرء وميضاً من الطيش في نظرتها، ومن الدعابة حتى، وهكذا تكون عندئذ امرأة روســـية. لقد تحدثنا عن أشياء وأشـــياء، ومر الوقت علينا بأقصى ســـرعة، ومع ذلك، كان لديَّ انطباعٌ بأننا لم نقل شيئاً، وربما كان الأمر كذلك، لأن المرء يشعر بالســـعادة مع الشـــخص الآخر، ولم يكن ذلك خاضعاً لمردود أياً كان، ولا لشـــعور بأن أحدهما قال للآخر حقيقةً شـــيئاً ما، لقد تبادلنـــا كلمات المديح، ونُتَفاً من الأفكار، وقد كوَّن كل ذلك أجمل الساعات الخالية من الألم.

وفـــي نهاية الوقت، تفرَّقْنا من غير تبـــادل عناويننا، ولا حتى أسمائنا، ولن يكون لهذا اللقاء ثانٍ، ولن يرى أحدنا الآخر من بَعْدُ.

(٦)

شدة الوجع: ٢

الحالة المعنوية: نصف سويسري، نصف روسي

(٧)

منـــذ عدة أيـــام، كان لديَّ انطبـــاع بأنني أعيش حياتي ســـاعة بســـاعة، وأنا الذي كنتُ دوماً أخطِّط لكل شيء، أخضعتُ مواعيدي بحسب حالتي ومزاجي، وبانقضاء الارتياح العذب للوقت الجميل مع المجهولة، عاد الوجع، وكان عليَّ أن أجد معالجاً نفسانياً، كان يحدث لي من قبل أن أتطلع إلى علاج، مثل كثير من الناس، من غير أن أدري حقيقةً لماذا، وكنتُ ببساطة خاضعاً لفكرةٍ منتشرةٍ في الوسط نصف البورجـــوازي، وهي أن على كل الناس فـــي يوم أو يوم آخر أن يجروا تحليـــلاً، وفي نهايـــة الأمر، كنتُ دوماً أتخلَّى عن ذلك، ربما بســـبب الخوف. إن الأطباء النفســـانيين يقلقوننـــي، ومن جهة ثانية، لا أحد يتلفَّظ باســـمهم، فلا يقول الناس إنهم استشـــاروهم، ويقرون بأنهم رأوا شـــخصاً ما، وفي مفرداتنا، (شخص ما) هذه تشير إلى الطبيب النفساني، وعلى هذا، لم أرَ بعد شخصاً ما يقول لي من أكون.

ولمـــا كنتُ وفياً لـ (الجبل الروســـي) la montagne [96] russe الـــذي كان قد أصبح حياتي العاطفيـــة، غصت ثانية

(96) الجبل الروسي (ويستعمل بالجمع أيضاً): تعبير بالفرنسية عما يُعرَف في العربية بـ (قطار الرعب) الذي هو أحد تســـالي مدن الملاهي الشـــعبية في العالم، حيث يُشَـــدّ رُكّاب هذا القطار الكهربائي بثبات إلى مقاعدهم، وينطلق بهم على سكة ترتفع بهم وتنخفض وتتلوى وتدور بسرعة كبيرة، وسط صراخ ركّابه وعويل بعضهم من شدة الخوف (المترجم).

في القلق، لقد كانت بعض وسائل الشفاء تبتعد إثر بعض، ولضرورة التعلّق بشيء ما محسوسٍ كي لا أحيد عن الطريق، أعدتُ التفكير في ملفي الحالي؛ لقد تعلَّقتُ بملف موقف السيارات هذا، وكأنه طوْفُ (ميدوز) Méduse [97]، ومع ذلك، لم يكن هنالك أي ضرورة عاجلة للتقدم في هذا المشروع، ومن ثَمَّ لم يكن يهمّ أحداً في الوكالة لمعرفة تطورات مهمتي، لقد ركنوني على ما يسمونه الرف، إن بعض الصور تكون مناسبة، إن كانت نقية جداً، لقد وضعوني فيما يسمى الخزانة، لسوف أنتظر أن يتكرموا بإطلاقي لمتابعة حياتي المهنية بجدارة قدر الإمكان.

كنتُ قد وصلت إلى المكتب، بصمتٍ واجم، لم يوجِّه زملائي القدماء كلاماً إليَّ، كما لو أنني كنت أحمل نحساً، وكأن السقوط الاجتماعي يمكن أن يكون مرضاً معدياً، وبالنسبة لظهري، كان (غايّار) بالتأكيد قد واصل تلطيخ سمعتي بصورة ممنهجة، وكان يظن أنه لا يزال قادراً على مفاقمة درجة تحقيري، لقد ارتقى منذ الاجتماع الشهير، وصاروا يهابونه، والوحيدة التي ظلت دوماً ثابتة المزاج معي كانت (ماتيلد)، ولما كانت مجردة من الطموح، فقد منحت نفسها الحق في أن تواصل العيش في وضوح، وقد أتت، كما في السابق، لتسلِّم عليَّ منذ وصولي، قائلة:

- هل أنت بخير؟

(97) طوف ميدوز: لوحة زيتية على القماش، رسمها بين عامي 1818 و1819 المصور الفرنسي الرومانسي (ثيودور جيريكو) (1791-1824) Théodore Géricault، وهي لوحة عملاقة ارتفاعها 491سم، وعرضها 716سم، ومحفوظة في متحف اللوفر بباريس، وتمثل مشهداً مأساوياً في تاريخ البحرية الفرنسية إثر غرق الفرقاطة (ميدوز)، حيث عمد عدد من ركابها إلى صنع طوف من خشب وصل بهم إلى بر الأمان على آخر رمق (المترجم).

- نعم، بخير، شكراً يا (ماتيلد).
- وزوجتك.. هل تماسكتْ؟
- زوجتي؟
- حسناً.. نعم.. زوجتك..
- ......
- ......
- لم أقل لها شيئاً..
- آ.. طيِّب.. ولكن.. كيف يمكن ذلك؟ أخيراً..
- لم أُرِد أن أُفزِعها..
- ولكن.. هل أنتَ.. متأكِّد؟

كانت (ماتيلد) تبدو مضطربة، وأنا لم أكن أرى أي شيء خطير جداً لم أذكره لـ (إيليز)، ولا سيما أن الحالة لم تكن حقيقةً لمصلحتي، فقد طُعِنَتْ كرامتي من قِبَل زميلٍ لي، وانتهت أمينة سري إلى كشف الالتباس، قائلة:

- ولكنه.. مع ذلك.. أبو.. ها!..
- ......
- ......
- آ.. أنتِ تتحدَّثين عن الدفن، أوه.. عفواً، لقد التبس الأمر، بالتأكيد لقد كانت على علم بالأمر.. كنتُ أعتقد.. أنكِ كنتِ تسألين عن زوجتي.. بشأن.. أوه.. حقيقةً.. أنا آسف، يا (ماتيلد)..
- ......
- نعم.. إنها بخير، لقد تماسكتْ، وفي النهاية، إنه لأمر قاسٍ، بالتأكيد، لقد كانت تُجِلّ أباها.. غير أنها قوية..

- طيِّــب.. أدعك تعمــل.. إذا احتجتَ إلــيَّ.. فأنت تعلم أين تجدني..
- نعم، شكراً ثانية، يا (ماتيلد)، لاهتمامك.
- ......

خرجتْ بتبويزة غريبة، فهي التي كانت تدعمني ضد الجميع بدأت تقول لنفسها:

- ليس الأمر على ما يرام حتى في بيته..

ليســت هذه غلطتي، فلديَّ أشياء كثيرة لمواجهتها، إلى درجة أننــي عند وصولي إلى المكتب، كنت كأنني قد نســيتُ وفاة والد زوجتي، وانتهى الأمر إلى أن أبتسم وأنا أعيد التفكير في حوارنا، لقد كان الأمر في نهاية المطاف مضحكاً، وبخاصة حين قلت:

- لم أقل لها شيئاً.

لقــد رأيتُ وجه (ماتيلد) التي كانت قــد صدَّقت أنني قادر على أن أخفي عن زوجتي وفاة أبيها.

وبعــد بضع دقائق، عــدت إلى الحالة الحزينــة لانزعاجي، فتحت حاســوبي للاطلاع علــى بريدي الإلكترونــي، ولتحريك الســكين جيداً في الجرح، كنت أنسخ دوماً كل المبادلات الخاصة باليابان، وكنتُ أقرأ تفاصيل ســفر قريب إلى (طوكيو)، فألقيتُ نظــرةً علــى الحياة التي لم أكن عِشْــتُها، وعلــيَّ الاعتراف بأن ذلــك لم يكن يزعجني أكثر من هــذا، وغياب هذا الغيظ جعلني أفكِّر فــي طبيعتي العميقة، فإذا كنت أعانــي من كراهية أكيدة لــ (غايّار)، فإنني لســت من النوع الذي يجتــر خيبته، وهل أنا ذو وداعة مرموقة؟ كنتُ أقول لنفســي ببســاطة إنني ســأفتقد الأمســيات بين الزملاء في حفلات مليئة باليابانيات المتبرجات

بمهـــارة، وقـــد كنتُ أحلم بيابانية[98] ترتـــدي الـ (كيمونو) [99] kimono من نســيج (الساتان) [100] satin وأسكر معها من الـ (ســاكي) [101] sake، لقد فَضَحَتْ أفـــكاري هكذا ميلي المفرطَ إلى الصور الســلبية، وبقيتُ لبرهة أيضاً مقيماً في هذه الرحلة الثابتة، قبل أن يستردَّني الواقع القاسي.

دخل (غايّار) إلى مكتبي من غير أن يطرق الباب، وقال:

– والآن، أين شهادة الوفاة؟

– سوف تتسلّمها، لا تقلق.

– لا، لأننـــي أعرف الأشـــخاص من نوعـــك الذين يخترعون وفياتٍ حتى لا يعملوا شيئاً..

لـــم أجبه، ولم تكن عدوانيتـــه لتؤثّر فيَّ، ومع ذلك، ذهب بها بعيداً جداً، كنتُ أفكّر في دموع زوجتي، وفي آلامي، شيء ما كان يرتقي فيَّ، شـــيء ما نادر، وربما أيضاً لم يســـبق له مثيل، لأول مرة، شـــرعتُ في التفكير بأنني لم أكـــن حتماً جباناً، وإنما كنتُ ببساطة أكظم غيظي، هذا الغيظ الذي كان قد واصل نموه، مثل موجة لم تكف عن الاتســـاع، لقد بقيتُ صامتاً، على كرسيِّي، مع ابتسامة صغيرة تخفي مولد العنف.

ذهب (غايّار) من غير أن يقول شيئاً أكثر، ومن الواضح أن أمله خاب لأنه لـــم يجد خصماً، وهذا ما ســـوف يزعجه بالتأكيد حين يلعب معي، وعليه بســـرعة أن يبحث عن عَظْمَة أخرى «ليقَرْقِطها»،

(98) اســـتعمل الكاتب هنا كلمة يابانية -فيما يبدو- هي (geisha) (جيشـــا)، وتعني المرأة التي تستقبل الرجال وتسليهم في الحفل (المترجم).

(99) الـــ (كيمونو): نوع من اللباس التقليدي الذي ترتديه المرأة اليابانية يكون طويلاً، وذا أكمام واسعة جداً، مع حزام عريض في الوسط (المترجم).

(100) الساتان: نسيج يعرف باسم (الأطلس) أو (الطّلَس) من الحرير والقطن (المترجم).

(101) الساكي: مشروب ياباني يتخذ من الرز (المترجم).

وعـــن زميل آخر ليُعَصِّب عليه، ومع ذلـــك لم ينته حديثنا، فعليَّ أن أكلمه عن ملفي، لأن المفترض فيه أنه يشـــرف على عملي، فصحتُ باســـمه، وقمت، وركضت وراءه، ولكن لا، فالأمور جرت على النحو التالي: ناديته باسمه، فرجع إلى مكتبي، مذهولاً من جرأتي، ولكنه، في أعماقه، كان يبدو متهلِّلاً للجولة الثانية التي أُعْلِنَتْ، قال:

– أهو أنا من تناديه هكذا؟

– نعم.

– إن أردت أن تراني، فاتصل بأمينة ســـري، في المرة القادمة التي تناديني فيها باسمي هكذا، سأباشر بإجراءٍ تأديبي ضدك.

– جيد جيداً، يا رَيِّس[102].

– والآن ماذا تريد مني؟

– أحتاج إلى أن أكلِّمك، بخصوص موقف السيارات.

– أي موقف سيارات؟

– حسناً.. موقف السيارات.. في (فال–دواز) Val–d'Oise، لقد ذهبتُ لمعاينة الأمكنة..

– أنت؟.. لا، أنت تسخر مني؟ أنت حقاً ذهبت إلى هنالك؟

– طبعاً..

– آ..، إنها حســـنة جداً تلـــك.. هنالك، يا لك من غبيّ، ولكن أي غبيّ!

واستغرق في ضحك جنوني، وأصبح وجهه أحمر كما لو كان يختنق، وقال:

– ولكني قلت لك ذلك مُزاحاً!

(102) كلمة أطلقها استهزاءً بـ (غايّار) واستصغاراً له، وتقابل كلمة (شيف chef) التي استعملها بمعنى (يا معلم) أو (يا ريِّس) ولكن بغير موضعها في اللهجة المصرية (المترجم).

- ......

- لقد تلقينا رســالتهم.. وكان حلمهم أن يشتغلوا معنا.. وقد سَــرَّبتُ إليك هذا للضحك.. وكنتُ أعتقد حقاً أنك لن تذهب.. لا، ولكن بصراحة، أنت تحيِّرني أكثر فأكثر..

- ......

- هل تعتقد حقاً أن مدينة صغيرة من الزبالة مثل تلك لديها ميزانية لتدفع لنا؟ آ.. يبدو أنهم غرقوا في الأوهام لرؤيتهم إياك تصل إليهم هنالك.

- ......

- كنتُ أشكّ في أنك غبي، ولكن إلى هذا الحد!.. لقد فعلتُ حسناً حين خدعتُك مع اليابانيين..

وغادر مكتبي، وهو يضحك باســتمرار، وكنتُ أسمع خطواته تبتعد، غير أن ضحكه ظلَّ عالقاً في أذنيَّ، وناشباً في طبلتيهما، وإن لم أتصرَّف الآن، كنتُ أخشى أن يصبح لزاماً عليَّ أن أعيش إلى الأبد مع هذه الضحكة، كشــعارٍ دائــم على ضعفي، وفجأة، كَفَّ تفكيري عن التشــويش على اندفاعات جســدي، إن الغيظ الذي كان في نفســي، والذي كَبَتَه حُسْنُ المعشَر، تمكَّن أخيراً من الاستيقاظ، كان (غايّار) بعيداً جداً، فقمت بهدوء، ومشيت بضع خطوات فــي غاية الطمأنينة قبل أن أســرع فجأة، وبعد بضعة أمتار، وجدت نفسي في مواجهته، فأمسكتُ به من عنقه، فانقلب على قفاه، وسقط دفعة واحدة على الأرض، فأدار رأسه وصاح:

- هذا لا يجوز!

ولم يكن لديه الوقت ليقول شيئاً آخر، لأنني وجَّهتُ إلى فكَّيْهِ ضربــة من قدمي بكل قوتي، وأعتقد أنني ســمعت صوت ســن

تتكســـر، ولكنني لســـتُ متأكِّداً، لقد أرهقتْه هذه الضربة الأولى تمامـــاً، وكان بإمكاني أن أتوقف عند هذا الحد، غير أن انفجار غيظـــي لم يهدأ، لقد كان الموقف أقـــوى مني، جثوتُ على ركبتيَّ وأمسكت به لأجلسه، فدفعني بعنف، وهذا دليل على أنه لم يفقد وعيه، وحينئذ انطلقت قبضتي باتجاه أنفه وأســـنانه، وأشك أن تكون إحداها قد انكســـرت، وعندها تأكدت من أنني قد كسرتُ أنفه، فأخذ يعوي من الوجع، ورأيت الدم يسيل على طول وجهه، ويقطُر على عنقه، وكنت أريد أن أتابع تهشـــيمه، ولكن اثنين من الزمـــلاء اندفعا لمنعي من ذلك، وأمســـكا ذراعيَّ، وشـــدَّاني إلى الـــوراء. كان (غايّـــار) راقداً علـــى الأرض، ملطَّخـــاً بالدم، وقد اقتـــرب منه عدد آخر من الموظفين، ويبدو أنهم كانوا يحملون له إسعافات، غير أنهم ظلوا جامدين ومذهولين.

(٨)

شدة الوجع: ١
الحالة المعنوية: مرتاح

(٩)

مشـــيتُ ببطء نحو مكتبي، مســـتعيداً وعيي تدريجياً، وأثناء الاعتداء، كنتُ قد تركت شخصاً آخر يتكلَّم مكاني، وكان قد أدرج في دفتر الحسابات مجموع الاستفزازات التي كنت أعاني منها، وأغلقت الباب خلفي، وجلســـت على كرسيِّي، وقد لاحظتُ فوراً شـــيئاً ما؛ هو أنه لم يعد لديَّ ألم في الظهر، وللمرة الأولى، منذ عشـــرة أيام، يختفي الوجع تماماً، وكأن معجزة قد وقعت، وكان، خلال إقامتي في (بروتاني)، قد خفَّ بوضوح، واضعاً نفسه بين

قوسـين، ولكن الآن لم أعد أشـعر به مطلقاً، يا للمتعة، إن عدم المعاناة من أي وجع هو أكبر سعادة ممكنة، وفجأة، أصبحت لديَّ رغبة في العيش والحب، وقد جعلني هذا الإحساس أنسى لبضع ثوان ما كنت قد فعلتـه للتو، لقد ارتبط الحدثان حتماً أحدهما بالآخر، لقد كان (غايّار) المسؤول عن ألم ظهري، وقد أنهيتُ كل شيء بالثورة عليه، وفي الأساس، كان كل الإعداد لذلك الاجتماع المشؤوم قد جرى في جو متوتّر، ولم أكن أرغب في أن أعترف في وقت مبكّر بالتصرُّف المشكوك فيه لـ (غايّار). لقد لاحظ جسدي قبلي مؤشّـرات خيانته، وقد أجريتُ تصويراً شعاعياً، وتصويراً بالرنين المغناطيسـي، باحثاً بيأسٍ عن سـبب آلامي، بينما كنتُ أعيش يومياً مع المسـؤول عنها، عندما يتألَّم المرء، يكفيه أحياناً أن يفتح عينيه، وأن ينظر حوله.

لسـت أدري كم بقيتُ مـن الوقت هكذا قبـل أن يأتي أحد لرؤيتي؛ عشـرَ دقائق، عشـرين دقيقة، ساعة؟ إن سكون وجعي كان قـد أغرقني في زمـن غير محدود تسترسـل فيه الدقائق بطريقـة فوضوية، لقد لاحظتُ دمدماتٍ في الممر، وذهاباً وإياباً لا ينقطعـان، وكأنها تردُّدات أمام بابي، وبـدأت أتقبَّل أنني قد ارتكبتُ شيئاً خطيراً. وأخيراً، طُرِق الباب، فقلتُ:

- ادخُلْ..

فشَـخَص (أوديبير) أمامـي، وكان مصدوماً وهو ينظر إليَّ، وقال:

- ها أنت ذا.. تبتسم..

- لا.. أخيـراً، لن أعود لرؤيـة ذلك، والصحيح أنه ليس لديَّ ألم في الظهر..

- هل تدرك خطر ما أقدمت على فعله؟
- نعم، يا سيدي.
- هل أنت آسف؟ ولديك تأنيب ضمير؟
- ......
- الأحرى أن أقول لك حالاً إن أسباب فعلك لن تغيِّر شيئاً في حل العقدة، ولسوف تُصْرَف من العمل.
- إني أتفهَّم.
- وهذا لا يهمُّك في شيء؟
- بلى.. بالتأكيد يهمني..
- ......
- ......
- لقد ساءني جداً كلُّ ما جرى للتو، أنت في مؤسستنا منذ أكثر من عشر سنوات، وقد كنتُ أقدِّر لك حزمك، وجِدِّيتك، ولم أكن قطُّ أتصوَّر أن تُقدِم على شيء كهذا.
- ولا أنا.
- فلماذا إذن فعلتَ ذلك؟
- أنا.. أنا لا أدري..
- طيب، أنت لا تود أن تقول شيئاً، ويمكن أن أتفهَّم ذلك، وعليَّ أن أوضح لك أنك سوف تُسَرَّح من العمل لهذه الغلطة الخطيرة، وبلا تعويض.
- ......
- ولكن قبل ذلك، هنالك إجراء ينبغي احترامه، ولن أقول إنه سيغيِّر شروط مغادرتك، لكنه أمرٌ يتِمّ في هذا النوع من الحالات.

- وما هذا الإجراء؟
- عليك أن تذهب لرؤية طبيب نفساني.
- طبيب نفساني؟
- نعم.. طبيب نفساني.

(١٠)

شدة الوجع: ٠

الحالة المعنوية: قلق على المستقبل ولكني دوماً مرتاح

(١١)

وبعد محادثتي مع (أودييير)، جمعتُ حوائجي (التي لم تكد تملأ علبة كرتون)، لم تكن حياتي هنا تورث سوى قليل جداً من الذكريات، وكان بإمكاني أن أرتب في أقل من ساعة أكثر من عشر سنوات، لقد أمضيت حياتي المهنية في عدم خلق شُبُهات، وفي تفضيل العمل الجوهري على التباهي، وها هو كل شيء ينتهي بقسوة، كان انفجار غضبي إعراباً عن كراهية إزاء رجل كان قد دفعني إلى حافّة شكل من الانتحار الوظيفي، لقد خرَّبتُ للتو كل شيء، وهذه هي الطريقة الأخرى لفهم تصرفي، والآن ليس لديَّ خِيَار، وعليَّ الذهاب للبحث عن سبيل جديد، وأنا أشعر فيه بالشجاعة، ولقد أفسد هذه الفكرة الإيجابية فوراً، لسوء الحظ، خبرٌ رهيب، لم أكد أملك الوقت للاستقرار على أمل الراحة النهائية حتى عاودني الوجع، لقد أخطأتُ في الاعتقاد بأن العنف قد خلَّصني منه، لقد ذكَّرني ظهري على شكل متطفل كنت قد اعتقدت أنني تخلَّصتُ منه، وعاد يستهزئ بي من غير ملل. إنني لم أتحسَّن، والأسوأ في الأمر أن الوجع، بعد فترة

الهـــدوء هذه، كان يبدو أقوى، وكان يبدو كما لو أن هنالك درجة إضافية، لأن عودة الألم كان يصحبها شـــعور رهيب؛ هو الشعور بأنني لن أخرج منه أبداً.

غـــادرت مكتبـــي تحت النظـــرة الغارقة فـــي الأوهام لبعض الزمـــلاء (على الأقل كانوا ينظرون إلـــيَّ)، يبدو أن الذين رأوني محطَّماً ومحدودباً كانوا يظنون أنني انحنيتُ تحت وطأة الشعور بالذنـــب، لكن لا، لقد كنت أود، في هذه اللحظة، أن أموت لعدم معرفتي كيف أرتاح من ألمي الذي لا ينتهي، كنتُ أسير في طريق مســـدود، وكان لديَّ أملٌ ضعيف في أن يتمكَّن التحليل النفساني من إنقـــاذي، فضلاً عن أنني لم أكن أتحمَّـــل وضع التمدُّد على طاولة الفحص، والديوان لن يحسِّـــن حالتي، وعندما اجتزتُ بهو الاســـتقبال، تركتُ لدى الحارس بطاقة الدخول، فقد انتهى ذلك إلى الأبد، وكان الجو في الخارج لا يزال جميلاً، وكانت الشمس تحاول أن تبهَر عينيَّ، وبعد قليل، اختفت وراء السحب، فأشبهت طفلاً معاقباً.

في الزمن العادي، كنتُ أستدعي زوجتي لأروي لها كل شيء، ولكـــن، نظراً للظروف، فضَّلتُ التريُّثَ في رؤيتها، ومن نحو آخر، لم أكن متأكِّداً حتى من الكلام معها، وكان عليَّ أن أحترم حدادها، وكانت راحتها تبقى الأمر الجوهري، وكنتُ أرجو ألا تعاني كثيراً هـــذا اليوم في عملهـــا، وقد بعثت إليها رســـائل مرتين أو ثلاث مرات خلال اليوم، لكنها بقيت بلا رد، وكنتُ أتفهَّم صمتها، ومن ثَمَّ فإن كلمات المواساة لم تكن تستدعي رداً بشكل خاص. ذكرتُ لها أنني أفكِّر فيها، وأنني مســـتعجل لرؤيتها هذا المساء، أرسلتُ هذه الرســـائل بصورة آلية، من غير أن أكون متأكِّداً مع ذلك من

الإحساس بكل كلمة فيها، وبمرور الوقت، يحدث أن تصبح المودَّة أيضـــاً أمراً رتيباً، فهل كنتُ حقاً أفكِّر فيها؟ وهل كنتُ راغباً إلى هذا الحد في رؤيتها هذا المســـاء لألاطفها وأسرِّيَ عنها؟ وكنتُ مع ذلك قد نسيتُ موت أبيها عندما كلَّمتني أمينة سري عنه.

عدتُ إلى البيت، وقد أرهقتني أحداث الأيام الأخيرة، فغفوتُ على أريكة في الصالون، واستيقظتُ قبل أن تعود (إيليز)، قضيتُ وقتـــاً طويلاً أمام مكتبتنا، أقلِّـــب صفحات بعض الكتب من هنا، ومن هناك، لقد ظننتُ أنني ســـوف أمتلك الوقت أخيراً للقراءة، وربما لاســـتعادة مشـــروع روايتي كذلك، وكان الأفق الذي حضر قـــد بدأ برحلة في الماضي، فقد أعـــدت التفكير في كل ما كنتُ قد أحببته في شبابي، وفي عواطفي، وفي كل ما كنت قد تخليت عنه تدريجياً بمرور الســـنين وصولاً إلى ســـن الرشد المسؤولة، وقد كانت لديَّ رغبة في أن أســـتمع إلى أســـطواناتي القديمة، وفي تدخين الســـجائر الملفوفة، وكنت أجمِّل مراهقتي برســـمها كما لو كانت فضاء مجنوناً من الحرية، بينما كانت الحقيقة شيئاً آخـــر، وفيما عدا بضع زيارات مع (ســـيلفي) إلى بعض صالات الفن، لم أخرج قط عن الطرق المألوفة للشبيبة. كان باستطاعتي دوماً أن أعيد كتابـــة تاريخي، ولا أحد لم يكن مغفلاً، والحقيقة الوحيـــدة الباقية هي ميلي إلى الكلمات، وهو الميل الذي كنت قد نحيتُه جانباً وعاد إليَّ، الآن، حراً، فيما بعد الظهر فجأة، وبقيتُ زمنـــاً وأنا أتنقَّل بين فترات حياتي، كما لو كان ذلك فضاء زمنياً يحميني من القلق، ولم أكن أفكِّر في كل المشـــكلات العملية التي كانت في انتظاري؛ مشكلات التسليف، والإيجار، والفواتير، لقد كنت بعيداً عن كل ذلك، ولم تكن الحقيقة تهمني.

(١٢)
شدة الوجع: ٨
الحالة المعنوية: حنينيّ
(١٣)

أخيــراً، عادت زوجتي، وقد وضعتْ حقيبتها قبل أن تلاحظ وجودي في الصالون، تقدمتُ نحوها، وقلتُ:

- كيف الحال؟

- ......

- هل كان هذا اليوم قاسياً عليك؟

اســـتدارت نحوي، ومن غير كلام، كما لو أنها كانت في حالة عجز عن إصدار أقل صوت، وقد رأيت في عينيها أنها كانت قد بكتْ كثيراً، وبعد هنيهة قالت:

- أريد أن تطلِّقَني.

- عفواً؟ ماذا قلتِ؟

- أريد أن أتطلَّق.

بقيتُ بُرهةً مندهشاً بتأثير الصدمة، ثم قلت:

- اســـمعي.. ألا تؤجِّلين الحديث عن هـــذا الأمر إلى صباح الغد؟

- كلا.. ليس هنالك شيء ذو بال يمكن أن يُقال..

- ......

- وأودّ أن تذهب للنـــوم في مكان آخر هذه الليلة، أرغب في أن أكون وحدي، لو سمحت.

- ......

- لو سمحت.

- هذا أمر عــادي، مع ما كان قد حصل، إنك.. أخيراً.. لكن ألا تعتقدين أن..

- ......

صعــدتْ إلى غرفتنا، مــن غير أن تصغي إلــيَّ، ولكن في الأساس ماذا لديَّ لأقوله؟ إنني أعرف (إيليز) منذ سنين طويلة، وأعلم أنها لم تكن من النوع الذي يتلفَّظ بمثل هذه الكلمات من غيــر أن تكون قد فكَّرت فيها ملِيّاً، كان هذا الأمر يبدو متهوِّراً، ولكنني علــى وجه الإجمال حملتُ كلماتهــا على محمل الجد، وكنــت أعلم مــن ناحية أخرى أن من الأفضــل أن أصغي إليها وأن أرحل هذا المســاء، وسيكون لديَّ الوقت لمناقشة الأمر فيما بعــد، ومن الواضــح أنها كانت تريد أن تبقــى وحدها في هذا الوقت، وهذا أحد الأشــياء التي أحترمهــا كثيراً؛ وهو الحاجة إلــى الوحدة، وعندئذٍ انطلقت هكذا، من غير أن أحمل شــيئاً، كسارق لحياتي.

توجَّهتُ نحو ســيارتي، وجلســت خلف المقــود، وتردَّدتُ في تشــغيل المذياع، لأنه تصرف ســخيف، إن بعــض الأوقات ليس بالإمــكان أن يُشَــغَّل فيها شــريطٌ صوتي ســوى الصمت، ماذا أستطيع أن أفعل؟ وخلال برهة، نظرت إلى المقعد الخلفي، ربما كان بإمكاني أن أنام هنا، ولكن هذا ذكَّرني بتحقيق كنت قد رأيته قبل زمن قريب، وهو يتناول رجالاً ونساء فقدوا كل شيء وانتهى بهم الأمر إلى أن يناموا في سياراتهم، حتى إن بعضهم كان لديه عمل، ولكــن الإيجارات أصبحت مرتفعة جــداً، يبدو أن البؤس أصبــح في متناول اليد أكثر من أي زمــن مضى، فالحياة يمكن أن تنقلب في بضعة أيام رأســاً على عقِب، وعندما يصادف المرء

المتشرِّدين SDF [103] في الشارع، فإنه لا يتساءل حتى عما كانوا قد فعلوا حتى يصلوا إلى هذا المصير. إن السقوط يشكل جزءاً منا، والمرء يمشي دائماً على حافة الهاوية، وتكفيه دفعة صغيرة ليسقط فيها.

كان بإمكاني أن أذهب إلى فندق، وإلى نوع مجهول من المكان في محيط باريس، ويمكنني أن أتعشى مع مندوبي المبيعات (VRP) ذوي القمصان القصيرة، وكلٌّ من جانبه يتناول قائمة طعامه المشتملة على كل شيء، ولن يطرح أحد عليَّ أسئلة، ولكن لم أكن أرغب في ذلك، وكنت أريد أن أكون مع أصدقاء، لقد كان النهار جِدَّ معقَّدٍ كيما ينتهي هكذا، في فضيحة منفردة.

بدأتُ أسوق السيارة ببطء في الليل، وكنت أخشى أن يحصل معي حادث، منذ أيام كنتُ أنتظر أن أنام في السرير، لأشعر بأني آخرَ المطاف في أمان، ونظراً لأنني لم أكن فيه، أصبح لديَّ انطباعٌ بأن سلسلةً من الكوارث يمكن أيضاً أن تقع فوق رأسي. أخذت أنتبه جيداً عند كل تقاطع، وكنت أسوق السيارة مثل مبتدئ، وبطريقة كانت تبدو لي رمزية تماماً، ووسط دهشتي العظيمة، عثرتُ سريعاً على مكان لركن السيارة، وكنت أعتقد أنني، وبأيِّ منطق لهذا النهار، سأعود في غضون ساعات، وأمام باب الشقة، بقيتُ برهة قبل أن أرن الجرس، ولم أكن أفكِّر حتى في الإخطار المسبَّق، ما الذي سأقوله؟ ربما جئتُ في وقت غير مناسب؟

(103) SDF: مختصر الكلمات (sans domicile fixe) وتعني (بلا منزل ثابت)، وعندما ندخل عليها أداة التعريف يصبح المعنى (مَنْ ليس لهم منزل ثابت) وهم المتشرِّدون (المترجم).

طرقت الباب، ففتح (إدوار) بعد بضع ثوانٍ، ولم يبدُ عليه أنه متفاجئ، ويُقال إنه كان ينتظر هذا المشهد دوماً، سأل:

- ماذا تفعل هنا؟
- ليس الأمر عظيماً.
- حقاً؟ لا شيء خطير؟ أرجو ذلك..
- لا.. لا.. إنني فقدت عملي فقط.. و(إيليز) تطلب الطلاق.. وأعاني دوماً من العذاب مع ظهري..
- ......
- هل بإمكاني أن أنام عندكم هذه الليلة؟

(١٤)

شدة الوجع: ٨
الحالة المعنوية: عاجز عن العثور على وصف لحالتي المعنوية

(١٥)

أعلمتهم أشـــياء كثيرة كي أبقى هنا، وكان (إدوار) و(سيلفي) يريدان دفعي إلى الكلام، وكنا نحن الثلاثة جالســين جميعاً في الصالون، من غير أن ندري بأي شــيء نبتدئ، ما الأكثر أهمية: الحـــب، أم العمل، أو الصحة؟ وهذه هي المواضيع الكبرى لأبراج الطالع الفلكي، كان (إدوار) منذ البداية يتابع مشــكلات ظهري، ويبدو قلقاً لأن حالتي لم تتحسَّــن، وقــد امتدحتُ مزايا طبيب العظام (بمحبَّة كالعادة، ونادراً ما يكون بالإمكان قول الحقيقة)، ولكني مرَّرتُ فكرة أن مشكلتي لا يمكن أن تسوِّيها معالجةٌ باليد أياً مــا كانت، ولو كانت بارعة، وعندما رويت المشــاهد الأخيرة

لمســـاعِيَّ، تمتمتُ بأن المرحلة القادمة ستكون من النوع النفسي، غير أن ظهري لم يكن يُهِمّ (سيلفي)، وفضَّلت أن تسألني:

- و(إيليز)؟ ما الذي حصل؟
- إنها فترة معقَّدة، لقد زعزعها بعمق موتُ أبيها..
- أتفهَّم ذلك تماماً.. ولكن كيف علاقتها معك؟

فقلت بلا أدنى قناعة:

- لقد أعادت وضعَ كلِّ شـــيء موضعَ نقاش، بدا لي ذلك أمراً عادياً، سوف تتحسن حالتنا في غضون بضعة أيام.

الحقُّ يُقال، لم أكن أسعى إلى أن أستعرض نفسي، فـ (الغدُ يــومٌ آخر) كما يقول المثَل، وإذا نظرنا إليه من جهة النهار الذي كنتُ قد قضيته، فإني أودّ تماماً أن أصدِّقه، فقد كان الغد يبدو لي عالماً آخــر، وكنت أودّ أيضاً إغماضَ عينيَّ على الســاعات التــي انصرمت، ولســوف يُقال إن المصيــر كان يقترح عليَّ أن أستعيد جميع هذه السنوات الخاملة التي عشتُها في مأمن من التحولات البشرية المفاجئة، وكان عليَّ أن أملأ بالأحداث دفعة واحــدة ووحيدة حياةً كانت عديمــة التأثير جداً، وقد أصبحت مخلوقاً خاضعاً لسـيل من الارتدادات، وفي وقت عدم القدرة على رد فعلٍ ما بشــكل اعتيادي، كانوا يُخبرونني بأي شيء كان في هذا المســاء الذي بقيت فيه بارد الأعصاب. إن الصدمات المتراكمةَ طبقــاتٍ متواليةً منحتني جِلْداً قاسـياً كجِلْد فاقدي الإحساس، كنت أريد النوم وهذا كلّ شيء، اصطحبني صديقايَ إلى غرفتي، ابتلعت كبسولتين ضد الوجع، وقد بادرتْ (سيلفي) بــأن أضافت إليهما منوِّماً، وغرقت حينئذ في النوم، وكان ذلك حسناً جداً.

استيقظت في جوف الليل، وكان يلزمني بضع ثوانٍ كي أتذكَّر المكان الذي أنا فيه، أشـعلت النـور وتفحَّصتُ الغرفةَ، كان فيها كل ما في غرفة أصدقـاء، وهو هذا الخليط الغريب الموضوعي والمضيـاف، وكان هنالك تفصيـل وحيد يدلّ علـى انتماء هذا المـكان إلى مُضيفَيَّ؛ وهو مكتبة صغيرة تحتوي على كتب عديدة عن الطب، وبشـكل أخص عن طب الأسـنان، وفاجأني أن أرى ملخَّصات كثيرة عن الأسـنان، وأخيراً، كانت هنالك مفاجأة أقل هي معرفة شخص ما قادرٍ على قراءتها، وقد تردَّدتُ، خلال بضع لحظـات، في القيام لتصفُّح أحـد المؤلَّفات، وكنت أرغب في أن أضـع ذهني على أي موضوع كان، ومن اهتمام أبعد ما يكون عن حياتي، وبقيت، في آخر الأمر، مسـتلقياً، ومسلِّماً للمرة الأولى بأنني كنتُ مطواعاً جـداً مع (إيليز)، وكنت أودّ أن أحترم طلبها وارتباكها الذي أرجو أن يكـون آنياً، ولكن لماذا رحلتُ في الحال من غير أن أقول شيئاً؟ ألم تكن تفضِّل أن أعترض على إرادتها؟ كان بإمكاني أن أقول لها إن طلاقنا ليس موضع نقاش، كما أنني كنـت أحبها بطريقةٍ لا يجوز مسُّـها وغيـرِ خاضعة للانفصال، كان لدي كثير مـن الكلمات غير المألوفة، وكل هذه الكلمات عن المحبـة، وقد اختـرتُ الخضوع لقرارها، مسـتنداً إلى مفهومي عـن احترام الآخـر، لكن أدركت الأمر الآن؛ هـذا الاحترام هنا هو نسـخة لطيفة من الجبن، وقد رحلتُ لأنني لم أعد أستطيع تحمُّـل أي نقاش، كنتُ أرغب فـي أن أُحاط بمظاهر المحبة في صمت، وكنت أودّ أن أُحَبّ بلا غياب، وقد كنت أواجه كل شـيء في العزلة، ولدايَ ليسـا هنا، لقـد كنت في أغلب الأحيان أحلم بضمهما بين ذراعيَّ، لأن جسـد الأطفال هـو العلامة الوحيدة

على فقدان الذاكرة الممكن، ويصبح، عند الضيق، الدرع الفريدة للحقيقة، لقد كنت أفكِّر في كل هذا، وفيمن كنت أحبّهم، بفيضٍ عاطفي يهز المشاعر، وبدا لي الليل أيضاً طويلاً.

وفي الصباح الباكر، جاءت (سيلفي) مبتسمةً لرؤيتي كي تنتهي من استنفاد الأسئلة مني، مثل: هل نمتَ جيداً؟ وظهرك هل تحسَّن؟ هل تفضِّل الشاي أم القهوة على الفطور؟ ماذا ستفعل اليوم؟ أليس عليك أن تذهب لرؤية (إيليز)؟ أرجو ألا تسمعني هذه الليلة؟ لقد نهضت من أجل أن أرسم، هل تودّ أن ترى لوحاتي الأخيرة؟ وهكذا دواليك، ويبدو أنها كانت تعتقد أنها مسؤولة عن تزيين الحديث مع كل شخص لا يكون بخير. يجب على المرء أن يتجنب بأي ثمن التفكير من ذاته في خطر الاستسلام للأفكار السود، وقد حاولت، بنجاح تقريبي، أن أجيب عن أسئلتها، ومع ذلك، استدعي تواردها السريع جداً بعض التشابكات، وأعتقد أنني أجبتها قائلاً:

- قهوة.. مع قليل من الحليب.

عندما سألتني إن كنتُ سأذهب لرؤية زوجتي اليوم.

وكنت قد فوجئت، في الوقت الحاضر، مفاجأة لطيفة، بشيء؛ هو أن ظهري لم يكن يؤلمني كثيراً كالعادة، بالتأكيد كان هنالك وجعٌ، ولكن بشكله الأكثر تساهلاً. اعتقدت أن في السرير شيئاً ما، وفي هذه اللحظة، حضر (إدوار)، فقلتُ له:

- كان سريرك مريحاً؟

- آ.. إنك تدهشني، إنه فِراشٌ سويدي.

- ربما كان هذا ما يلزمني في بيتي.

- نعم، هذا مؤكَّد، إنه محشو بريش البجع حشواً مضاعفاً، ومضغوطٌ بألياف الخيزران..

ثــم ذكر بضع جمل عن فراشـــه بفخر واضـــح، لم يكن لدى (إدوار) و(ســيلفي) أطفال، وكانا يستفيضان أحياناً في مواضيع بـــلا فائدة بذات الشـــدة كما لو أن الأمر يتعلَّــق بعمل باهر من صغيرهما الأخير. وعندما اســتيقظت، في صباح اليوم التالي، مع وجع شديد، لسوء الحظ، فهمت أن الفراش العجيب لا وجود لـــه، غير أني لم أذكر شـــيئاً عن ذلك لـ (إدوار) حتى لا أفسِـــد عليه ســعادته المادية، لقد كانت محـــاولات الزوجين الصديقين، لمســاعدتي على تجاوز هـــذه الأوقات العصيبـــة، تؤثِّر فيَّ، لقد كانا ســعيدين برؤيتـــي قريباً منهما، كما لـــو أن ذلك جلب لهما الخير بتوحدهما بهذا الشـــكل للصالح العام، وكنت أشعر أنهما ملتحمان، هذا الصباح، وهو أمر نادر، ولم أكن بعيداً عن التفكير في أنّ لا شـــيء يعادل صديقـــاً مَهيضَ الجناح مـــن أجل تقوية الروابط الزوجية.

لقـــد فضح موقفهما أيضاً قلقهما، وهما، أساســـاً، لم يكونا مخطئين، فقد كنتُ وصفـــت حالتي، وكان لها مظهرُ كارثة، غير أن هذا لم يكن ما كنت أشعر به، لأنني كنت أشعر بأنني مستعدٌّ لمواجهـــة الأيام القادمة مـــن غير خوف حقيقي، وهذا الشـــكل الجديد من الطمأنينة كان مرتبطاً بما كنت قد فعلته بـ (غايّار)، لقـــد حرَّرني هذا الطيش العابـــر من عبء ثقيل. كنت أحلم، في كثير من المرات، في أن أَسْـــخَر من كل شـــيء، من غير أن أبوح بذلك، وأخيراً فعلتُه، فإن كنت جديراً بتلك القوة، فلا شيء يمكن أن يحدث لي، وبالتأكيد، لم يكن هذا سوى وهم.

(١٦)

شدة الوجع: ٥

الحالة المعنوية: مُتَبَنَّى

(١٧)

وبعد بضع ساعات، وجدت نفسي أمام طبيب نفساني، وكان علـيَّ أن أتحدَّث معه بادئ الأمر عن فصلـي من العمل، وهكذا أصبحـت موضوع مسـاءلة من قبل الآخرين، لقـد أدركتُ الآن المتعة التي يحس به المرضى النفسـيون حين يتم فحصهم هكذا، وعن سؤاله:

- هل كان لديك ندم بخصوص تصرفك أمس؟

فأجبتُ مباشرة:

- لا.

حـدَّق فيَّ هذا الرجـل، الذي يبدو أنه فـي الأربعينات من العمر، من غير أن يتمكَّن من إخفاء دهشـته، كان عليَّ، حسـب الأصول، أن أقدم [لـ (أوديبير)] جملة تأسفات مزيفة - صادقة على أملٍ بسـيط في قبض تعويضات، وبطريقة ودية تماماً عليَّ أن أقـول، كي أتجنَّب الغـرق كلية، لقد حـاول أن يعيد صياغة سؤاله قائلاً:

- هل كنت ترى نفسك في حالة طبيعية أمس؟
- نعم.
- هل كنت صافي الذهن في وقت الاعتداء؟
- أكثر من أي وقت.

- سـيِّدي العزيز، أودّ أن أكون واضحـاً معك، إن ربَّ عملك يبدو أنه يُكِنّ لك تقديراً أكيداً، ويبدو لي أنه يسـعى لأن ينسـب

إليك ظروفاً مخفَّفة في سبيل أن يساعدك للإفادة من بعض الأتعاب في مقابل فصلك بسبب الغلطة الخطيرة.

- هذا لطف منه.
- هل أنت صاحبُ دَخْل؟
- عفواً؟
- ألا يشكِّل لك المالُ هماً؟
- بلى، بالتأكيد بلى.
- إذن لماذا لم تبذل جهداً؟
- أي جهد؟ أنت تطرح عليَّ أسئلة، وأنا أسعى ببساطة إلى قول الحقيقة، كل شيء لديَّ هو كما عبَّرتُ عنه وأنا أضرب زميلي.
- وبماذا تشعر؟
- بارتياح، وبشكل من التحرُّر، وبتهدئةٍ لآلام ظهري خلال بضع دقائق.
- لديك آلامٌ في الظهر؟
- نعم.. كنتُ أودّ بالضبط أن أتحدَّث عنه، فهل تعتقد أن بالإمكان أن يُنْظَر إليَّ في إطارِ آخرَ غيرِ هذا؟

ناولني الطبيب النفساني، الذي زعزعه قليلاً مجرى حديثنا، بطاقته، واتفقنا على موعد يوم غد، كان يبدو مشغول البال من موقفي، بينما لم أكن أنا قط جاداً وطبيعياً جداً، ولما كان الحديث قد اتخذ مكانه في أحضان المؤسسة، قرَّرتُ أن أقوم بزيارةٍ إلى ربّ عملي (ولم أكن أخشى من أن أصادف غايّار، المتوقِّفَ عن العمل لعدة أسابيع)، وقد سمحت لي أمينة سره بالدخول من غير أن تقول شيئاً، لكنها كانت خائفة قليلاً، كما لو كنت قد أصبحت

حيواناً دموياً، وعند دخولي، رفع (أوديبير) رأسه، فبدأت بالقول:

- اعذرني على إزعاجك.

- .. تفضَّل.

- أودّ، إن استطعتُ أن أسمح لنفسي، أن أقول لك شيئين.

- نعم..

- الأمر الأول هو أنني أتيت لأقدم لك اعتذاري، فأنا آسِـفٌ لتصرُّفي هكذا داخل مؤسسـتك، وليـس بإمكانك أن تعرف كم أحترمك، وآسَفُ لإسـاءة التصرُّف.. ولكن هذا ما حصل.. ولم أكن أستطيع التصرُّف بخلاف ذلك.

- والأمر الثاني؟

- كنتُ أودّ أن أشـكر لك سـعيك لتحصِّل لي تعويضات، وأنا متأثِّر جداً لموقفك.

- لا عليك، أنت تعلم، أنني بلا شك عجوز أحمق على زلاجة، ولكنني أعلم تمـامَ العلم ما يجري هنا، ولم يكن لك أن تتصرف هكذا، وكان عليك أن تتحَّدث عن ذلك، ولكن حسناً، إن ما جرى قد جرى، وعليَّ أن أطردك.

- نعم، بالتأكيد.

- أمسِ مسـاء، دُسَّتْ لي رسالة من تحت باب مكتبي، رسالة مغفلةٌ منَ التوقيع تذكِّر بشـخصية (غايّار)، وقد كانت، في نهاية الأمر، نوعاً من الشهادة لصالحك، إذن، لنكن واضحين: هل كنتَ ضحية مضايقة؟

- ......

- ألا تـودّ أن تقول شـيئاً؟ أنت تعلم أننـي أعرفك منذ زمن طويل، وأنا أعلم أنك رجلٌ غيرُ عنيف، حتى لو كان العنف تافهاً..

وأخيراً.. وحينذاك، كان بإمكانك أن تكلمني..

- لقد أصبح كل ذلك ورائي، وأنا أنتظر رسالة صرفي من العمل.

- حسناً جداً..

وعندئذ انطلقتُ نحو الباب، ولكنني عدت، في اللحظة الأخيرة، لاستئناف الكلام، قائلاً:

- هل يمكنني أن أطلب إليك أيضاً شيئاً صغيراً؟

- بل يمكنك أن تقول لي شيئين.

- وثالثاً أيضاً.

- موافق، أنا أصغي إليك.

- فقط قبل تصرُّفي، كنتُ على وشكِ أن أعمل على ملفٍّ.. وهو بشأن موقف سيارات صغير ننشئه في الـ (فال-دواز) Val-d'Oise.

- لم يُذكَر لي شيءٌ عن هذا..

- هذا أمر طبيعي، فنحن لم نوقِّع على أي شيء، وهذا الملف ليس له أيُّ فائدة لنا، ولكني كنت أودّ أن تهتمّ به، وتبعث أي شخص، وسيأخذ يومين من العمل فقط، ومن فضلك، هذا آخر شيء أطلبه إليك.

فقال مع ابتسامة:

- طيِّب.. طيِّب.. على كل حال، ربما كنتَ طائشاً قليلاً..

كانت هذه نهاية مدهشة، خلال عشر سنوات، لم أتكلَّم قطّ معه هكذا، قلتُ لنفسي إن كلَّ حياتي يمكن أن تختلف، إن كنت أستطيع المجيء إلى هنا لأكلِّمه هكذا أولاً، فينبغي للمرء أن يعيش حياته بالعكس لئلا يُخْفِق فيها.

وبعد بضعة أيام من هذا الحديث العابر، توصَّل (أوديبير) إلى إقناع (غايّار) بألا يرفع شكوى ضدي، وقد طلب ذلك إليه بصفة خدمة له، لئلا ينتشر الأمر، فيلحق ضرراً بصورة المؤسسة، لم يفهم (غايّار) أن ذلك كان طريقة مخادعة للتنصُّل منه، ولإبلاغه على الأرجح أنه كان يستحقّ ما كنتُ قد فعلتُه به، وهذا ما اعتقدتْه أغلبيةُ الموظفين في المؤسسة، لقد كان يريد أن يفرض نفسه ضحيةً، ولكن كل شخص في الشركة كان يعلم أنني كنتُ مسالماً خلال العَقْد الذي قضيتُه فيها، والحكمة تقول (ليس هنالك دخان بلا نار)، وصار (غايّار) مشكوكاً فيه بأنه كان هو المسؤول عن اعتدائي عليه، وقد ورّطتْه تدريجياً بعضُ تصرفاته السيِّئة، وانتهى به الأمر إلى تجميد ترقيته، وكان بإمكان هذه العدالة أن تدخل في نفسي السرور، ولكن لم أفعل، لأن حياة هذا الإنسان لم تعد تهمني.

(١٨)

شدة الوجع: ٣

الحالة المعنوية: متحرِّر

(١٩)

لم أكن أعلم إن كنت سأقبض تعويضات، ولا كيف سأعيش خلال الأشهر القادمة، ولا كيف أسدِّد قروضي، ولم تكن لديَّ أي رغبة في الذهاب للاصطفاف بالدور في (مكتب العمل)[104] Pôle employ. وفي الحقيقة، لم أكن أرغب في أن أفعل شيئاً

(104) مكتب العمل: مكتب أوجد في فرنسا سنة 2008 لاستقبال طلبات الراغبين في العمل والوظيفة في الدولة وسائر القطاعات، بغية تنظيم المسألة، والحد من البطالة (المترجم).

في الوقت الحاضر، سوى أن أعيش ببساطة، والتمتع بالحياة غير الوظيفية. لم تكد فترة ما بعد الظهر تبدأ، لكنني كنتُ أشعر بأنني عشتُ اليوم قرناً من الزمان، فالزمن يتمطّى كما تفعل الهرة حين تستيقظ، ولما كنتُ متحرِّراً من عملي، فقد أصبح بإمكاني أن أرتب مشكلاتي، وكنت أرجو أيضاً أن يستفيد ظهري من تخفيف الحمولة في هذا الجانب من حياتي.

أرسلتُ رسالة إلى زوجتي، فردت عليها فوراً، لقد كان أمراً غريباً، بعد سنين كثيرة، أن أكتب إليها وأنا أفكر في كل كلمة، كما لو كان حبنا أصبح يمشي على بيض، وقد اتفقنا على موعد في المساء نفسه في مطعم: فماذا سنقول؟ وهل سنتحدَّث عن الماضي أم عن المستقبل؟ ليس لديَّ فكرة عن ذلك، لسوف نلتقي في مفترق الطرق هذا الذي يتحدث كل الناس عنه؛ مفترقِ طرقِ المُمْكنات، وبعد هذا العَشاء، يمكن أن نقرِّر ألا يرى أحدنا الآخر أو ألا يترك أحدنا الآخر، كان كل شيء قابلاً للنظر، وفي الأصل، لم نكن نعلم شيئاً ذا بال عما كنا نريد، لقد كنا في هذا العمر بين الأجيال عاجِزَيْنِ عن أن نعرف إن كنا شابين أم عجوزين، سعيدين أم تعيسين، وهكذا كنا ننتظر كل شيء من هذا العَشاء، أو كنتُ أنا، على الأقل، أنتظر كلَّ شيء.

عدتُ إلى بيت صديقَيَّ، كانت (سيلفي) تعمل في غرفة كبيرة من الشقة، وقد كان (إدوار) يحبها ويُعجَب بها إلى درجة أنه يعمل كل شيء حتى يوفِّر لها أفضل ظروف لعملها، وكان قد أمضى حياته على حد قول زوجته نصيراً للآداب والفنون والعلوم، وعند وصولي، سألتُ (سيلفي) إن كان وجودي يزعجها، لأنني لا أريد لها ذلك مني، فقالت:

- أوه.. لا، العكس هو الصحيح، وإنه ليسعدني أن تكون هنا..
فرددْتُ وأنا أشعر بالفخر:
- آ..

لأن (سـيلفي)، ككلِّ الفنانين الذين لا يعرضون لوحاتهم، كانت تحبّ أن تجد عيوناً تنظر في أعمالها، لقد كانت سعيدة بحضوري، لأن ذلك يتيــح لها القيام بمراجعةٍ لكل ما صنعته منذ شــهور، ولم أكن قد رأيتها بعدُ، وكنت، في بداية كل لقاء بيننا، أبدي إعجابي العميق بها، حتى إنني، كما قلت من قبلُ، كنــتُ مغرماً بها، فقد كانت تمثِّل في نظري ما كان يوجد في الأكثــر إثارة للمشــاعر: وهو النفوذ الفني. كان تسـكّعنا في الصــالات الفنية في الماضي قد أصبح بعيداً جداً، ولكننا كنا نتحــدَّث عنه بعاطفة طازجة، إن بعــض الذكريات لا تخضع لتعــب الذاكرة، لقد كنا دوماً متقاربَيْن جــداً، غير أن الحياة فَصَلَتْ بيننا بســبب الأطفــال، وهذا ما دفعنــا إلى حياتين متميزتين نسبياً، وبمرور ســنوات بعد سنوات، تبدَّد تقاربنا، ولــم يكن ذلك في نظري أمراً ســلبياً، فإذا مــا تغيَّرنا، فإننا سنظل مرتبطَيْن بالماضي.

رويتُ لها محادثتي مع (أوديبير)، وانتهاء عملي في المؤسسة، فبدت قلقة وقالت:

- ماذا ستفعل الآن؟
- لا أدري.
- عليك أن تَشْرَع في الكتابة.
- ماذا؟
- في الكتابة، ألا تتذكَّر أنك كنت تكتب؟

- نعم.. نعـــم.. ولكنني فوجئت بأنك تتذكَّرين ذلك أنتِ، وقد كنتِ نصحتِني بالتوقُّف عنها..

- كلا.. لقــد نبَّهتُك فقط على متاعب مثل هذه الحياة، وأنت الذي أوَّلَ كلامي هكذا.

- ......

- بنزاهـــة تامة، لم يكن يلزمك دفعـــة كبيرة حتى تتخلَّى عن الكتابة، فلقد كنت خائفاً جداً.

- لماذا تقولين لي كلَّ هذا الآن؟

- لأوضِـــح لك ماذا كنـــتَ عليه حقاً، لقد كنتَ هذا الشـــاب العاقل الذي كنتُ أهيم به..

- آ.. نعم، وأنا أيضاً كنتُ أهيم بكِ..

- أعلـــم ذلك! طيِّـــب، كفى حديثاً عنـــكَ.. لننتقل إلى الأمور الجادة! لسوف أريكَ لوحاتي!

كانت (سيلفي) تســـتعمل جيداً هذه الدرجة الثانية التي تسمح بإخفـــاء الحقيقة قليـــلاً؛ لقد كانت تحـــب أن تكون مركـــز العالم، وكنـــت أعتقد دوماً أنه يلزمها جُرْعةٌ مقدَّســـة من (مركزية الذات) égocentrisme [105] حتـــى تبدع هكذا خلال ســـنوات، مع يقين لا يتزحزح بموهبتها، وقد أرتني أعمالها الأخيرة، وكنت أشـــعر فيها باعتقاد يتعدَّى الإدراك، عند الاســـتماع إليها، يقول المرء عنها إنها فنانة بصدد التردُّد بشـــأن اللوحات التي ستعرضها خلال معرضها القـــادم في (بوبورغ) [106] Beaubourg، ويبدو أنها نســـيت تماماً

---

(105) نزعة عند الفرد إلى إرجاع كل شيء إلى ذاته والاهتمام المفرط بنفسه (المترجم).

(106) بوبـــورغ: منطقـــة في باريس ضمـــن الدائرة الرابعة، فيها صالـــة أو معرض دائم للفنون التشكيلية (المترجم).

أنني في صالونها، وأنها كانت تعيش مع زوج طبيبٍ للأسنان، وكانت تسكن في عالم رائع، هو عالم التعاون من غيرِ كلام، ولم تكن فنانة فريسةً لحكم الآخرين، ولم تكن تعرف الخطر، وكانت تتنزَّه بين أعمالها مثل إنسان في حديقة حيوان، في بيئة مضاءة بأكملها، منذ عشرين سنة، وكل الناس كانوا يقولون لها إنها تملك موهبة رائعة، ولكن من كان يقول ذلك؟ إنه زوجها، وأصدقاؤها، وأسرته، وجيرانه. وطوال خمس سنوات، أقامت معرضاً واحداً في صالة باريسية راقية، وفي كل مرة، وأنا أقرأ دعوتها ونبذة عن حياتها، يكُون لديَّ انطباعٌ بأن (سيلفي) قد أحدثَتْ ثورةً في فن الـ (غواش)[107] la gouache، أو أنَّ (جِفّ كُونس)[108] Jeff Koons يَدِين لها بكل شيء. وكنا، أثناء معارضها، نشتري لوحاتها (ولديَّ نحو عشر منها في البيت)، وكان الضغط المتحمِّس لزوجها يشترط علينا ذلك، لئلا نقول إنه كان يُجبرنا عليه، وأنا أعرف أن (إدوار) قادر على استعمال التعذيب، ومن السهل أن تجعل أي شخص يشتري لوحةً وهو فاتح فمه تحت تهديد هذه الآلة البغيضة التي تسمَّى ظلماً (الفريزة)[109] la fraise. وفي أمسيات افتتاح معرض اللوحات الفنية، كانت تنهار من كثرة التهاني، ولا أحد كان يجرؤ على التعبير عن أي حطٍّ منها، ولم يكن أحد يستطيع أن يمسَّ ولو شيئاً يسيراً من الحقيقة، وكان ذلك يريحها ويزيدها يقيناً بعبقريتها.

---

(107) فن الـ (غواش): هو الرسم المائي بألوان كثيفة (المترجم).

(108) جف كونس: واسمه الأول اختصار لـ (جفري) Jeffrey، وهو فنان أمريكي يقيم في مدينة نيويورك، وفي مسقط رأسه (يورك) في ولاية (بنسلفانيا) Pennsylvania، وهو من مواليد 1955، وقد اشتهر بصنع تماثيل ضخمة للحيوانات على شكل بالونات من معدن الـ (ستانلس ستيل) الملبَّس بالمرايا، وهي معروضة في الساحات والحدائق العامة، وقد بيع تمثاله (كلب البالون) Balloon Dog بما يزيد على أربعة وخمسين مليون دولار (المترجم).

(109) الفريزة: هي مِثقب طبيب الأسنان الذي يحفر به السن لنزع العصب وحشوه (المترجم).

لماذا أنا قاسٍ جداً معها؟ إنني لم أكن أحب ما كانت ترسمه، فهو خليط من القبح، ولكن لم أكن لأحكم على حياتها بمثل ذلك، كنت أراها تمشي بين لوحاتها، وإن تكن قد أنهكتني بالتفسيرات، فإنها لم تكن تظلّ أقل هياماً بالأمل فيها، وكان عليَّ أن أمتدح طبيعتها، بدلاً من ألقيها في هاوية، فمن أنا حتى أكون مستخفّاً جداً، أنا الذي أمضى حياته مثل خادم؟ وبعد كل شيء، هجرتُ بجبنٍ فكرة الكتابة، هل هجرتها نتيجة ضعف أم وعي أو تواضع؟ الشيء الوحيد الذي كان يميِّز بيننا هو الحياء، لقد كنتُ متأكّداً أنّني عاجز عن أن أُطلع أي شخص كان على عملي، وأنا أقل جرأة على إزعاج الناس، ودفعهم إلى المجيء إلى صالة، وجلوسي إلى جانبهم بانتظار آرائهم، ولم أكن قد أطلعت قطّ أيٍ شخص كان على سطر واحد مما كتبتُه. وكنت بكل بساطة عاجزاً من مواجهة حكم الآخرين، وكنت أخشى جداً أن يكون عملي رديئاً، ومن نحو آخر، ماذا كنتُ قد كتبتُ؟ إن ما كتبتُه إنما هو مُسَوَّدة واسعة لرواية، منتفخة بالصفحات وبصفحات الملاحظات، فإذا أعدتُ الشروعَ في الكتابة، فسأكون خاضعاً ثانيةً لخطر عدم الإكمال، وعليَّ أن أتقبَّل فكرة أن أسلك طريقاً ربما كان مسدوداً، غير أن الكلمات لم تكن تنقصني، فأنا أملك رصيداً منها الآن أكثر من أي وقت مضى، ولم أكن أعلم كيف أصنع للعيش في مأمنٍ من هواي، لقد ابتعدتُ عن الجوهري، وأقمتُ في أبعد مكانٍ ممكن عن المنبع، لقد كان جفائي يأتي من هنا، وأنا متأكد من ذلك، جفائي وأوجاعي، ولكي أتحسَّن، يجب أن أنقل حياتي إلى حيث يجب أن تكون، لقد كانت حياتي الحقيقية تنتظرني منذ عشرين سنة.

وبعد ساعة، كان ذهني خلالها يَشْرُد غالباً في مكان آخر، أرتني (سيلفي) أحدث لوحاتها، ولم أكن أرى في أي شيء كانت

تختلف عن الأخريات، ولكنها اســتحضرت في موضوعها تحوُّلاً حقيقيــاً في عملها، كنتُ أودّ تصديقهــا اختصاراً للوقت. كانت تبدو ســعيدة للغاية بوجودي، وكانت طاقتها تثير ابتسامي، وفي نهاية جولتنا، جلستْ أمامي وسألتني بعد نفثة كبيرة:

- والآن، ما رأيك بها؟
- في أي شيء؟
- حسناً، في اللوحات.. في كل ما رأيتَ.
- ما رأيي بها؟
- نعم، ما رأيك بها؟
- بصراحة؟
- نعم.. بصراحة..
- بصراحة، إنني أهيم..
- هذا صحيح؟
- بالتأكيد هذا صحيح، لقد وجدت هذا رائعاً.

(٢٠)
مستوى شدة الوجع: ٢
الحالة المعنوية: في بلبلة من المشاعر
(٢١)

ذهبتُ للعَشاء مع (إيليز) كما لو كان الأمر يتعلَّق بأول موعد، إن هذه المرأة التي كنت أعرفها تمام المعرفة، هذه المرأة التي كنت أعرفها عن ظهر قلب[110]، كانت تبدو لي بتصرُّفاتِ امرأةٍ غريبة، لا أدري فــي أي كتاب قرأت هذا الخبــر: زوجان أفاقا ذات يوم

(110) بالمعنى الحقيقي (الأصل الفرنسي).

بعد سنين من عيشهما معاً، ونظر أحدهما إلى الآخر وكأنهما غريبان. إن رمزية الخبر واضحة؛ الحياة اليومية آلة مخيفة تحول دون ملاحظة الآخر، إنني وزوجتي كنا نعيش قبلُ منذ بعض الوقت كآلات ذاتية الحركة من المحبة، وقد كنت أخاف أن يُفضِي النقاش إلى إثبات حالة رهيبة، وعليَّ أن أعترف بذلك: فأنا لم أكن أدري ما كنتُ أريد أيضاً، كان يتملَّكني شعور بحبها، ومع ذلك كنت قادراً على التفكير في رحلة عندما أعلنتْ لي الخبر السيِّئ لها، ثم إنني لم أقاوم مباشرة عندما نطقتْ بكلمة (طلاق)، وعندما ذهبتُ في ذلك المساء إلى منزل صديقَيَّ، كنتُ قد تركت نفسي تذهب إلى تصوُّر حياةٍ من غيرها، ولم يكن ذلك يفزعني، ومن المؤكَّد أنني لم أنقطع عنٍ تغيير آرائي، وكان ذلك دوماً من القلب. وبعد دقيقتين، كنت متأكِّداً من أنني و(إيليز) كنا مخلوقين لكي نمضي حياتنا معاً، لقد كان خارج نطاق البحث أن تنتهي قصتنا، وعلى الأقل داخل الديكور القبيح لمطعم الـ (بيتزا) الذي كانت تنتظرني فيه منذ عشر دقائق حين وصلتُ.

لقد وجدتها على وجه الخصوص جميلة، لا أدري لماذا، ولكنني فكَّرت في أنه (ربما كان لها عشيق)، ففي هذه المرحلة من قصتنا، كان كل شيءٍ ممكناً، وحين جلستُ واصلتُ النظر إليها. نعم، لقد فاجأني جمالها تقريباً، وأمسكني من قفا عنقي، وكنت صافي الذهن في نقطة واحدة؛ هي أن نظرتي هي التي تغيَّرت، لقد كنت الممثِّل المثير للشفقة لمقولة تقول: يجب أن نفتقد الناس لكي نراهم أخيراً. عندما وصلتُ، وجَّهَتْ إليَّ ابتسامة، فردَدتُ عليها بابتسامة، وكان يبدو أنْ لا شيء تغيَّر بيننا، باستثناء تفصيل كبير؛ هو أنني لم أعانقها حين وصلتُ، لأنني لم أكن أدري أين

أضـــع قبلتي، ولم أكن أتحمَّل فكرة أن تدير رأســـها عند محاولة تقبيلها على فمها، أما ما يتعلَّق بالخدّ فلا، لم يكن باســـتطاعتي أن أقبل خد زوجتي، فقد كان جزءاً من جســـدها لم أكن أعرفه، وهو محفوظ للآخرين، وربما أصبح لي بعد قليل، ربما سأعيش في الحالة نفســـها مثل جميع الآخرين، وأنضم إلى نادي أولئك الذين يقبِّلون زوجتي على الخد.

في البداية، بحثنا عن كلماتنا، وتحدَّثنا عن أشـــياء لا أهمية لها، متراجِعَيْن أمام العقبة، ولكن مخزوننا من المواضيع السطحية نفد ســـريعاً، وتمكَّنتُ من أن أعلن لهـــا فصلي من العمل، وكنت متأكِّداً من أن ذلك سيكون تحويلاً جيداً لمجرى الحديث، ولكنني كنت أود أولاً أن نتحدَّث عن أنفسنا، وأن تذكر لي ما كانت تشعر به، وما فعلته أنها قالت:

- سوف آخذ (أفوكا) [111] avocet.

- ......

أنا أعلم أن الأمر ســـيبدو ســـخيفاً، ولكن هذه هي الحقيقة؛ فللوهلة الأولى، كنت أعتقد أنها كانت تتحدث عن قائمة الطعام، وكنت أظن أنها قد اختـــارت أن تأكل الـ (أفوكا) مُقبِّلاً، فنظرت خلسَـــةً في لائحة المقبِّلات، قبل أن أدرك فجـــأةً معنى جملتها، فقلت:

- تريدين (محامياً)؟

(111) كانت عبارة الزوجة هذه ملبسة، وذاتُ وجهين: فظاهرها الذي فهمه الزوج للوهلة الأولى كان مـــن لـــوازم اللقاء والجلوس في مطعم، لكنه أدرك المراد الحقيقي الجاد بعد ذلك مباشـــرة، والعبارة بالفرنســـية هـــي: (Je veux prendre un avocat)، لأن كلمة (أفوكا) هنا -أو كما نسميها (أفوكاتو)- تعني نوعاً من الثمار، وتعني رجل القانون المدافع عن موكليه، وهذا ما يسمى (التورية) في البلاغة العربية، وهي ذكر لفظ له معنيان: أحدهما قريب غير مقصود، وآخر بعيد يكون هو المقصود (المترجم).

- نعــم، أرغب في أن تُرَتَّب الأمور بشــكل صحيح، ويجب أن تأخذ أنت أيضاً محامياً، أو إن اتفقنا على كل شيء فيمكن أخذ المحامي نفسه.

- ......

هــل كانت زوجتــي هي التــي تتكلَّم؟ كيف تمكَّــن مثلُ هذا الوحــش الذرائعــي من أن يدخل في جســدها هكــذا؟ عندما نطقتْ بكلمة (طلاق) أمس مساء، كنتُ أعتقد أنها كانت تتحدَّث عــن (انفصال)، وحتى عن (انفصــالٍ مؤقت)، وإذا كان علينا أن ننفصــل، فيبدو لي أن ذلك يجب أن يتم على مراحل ضمن فكرة عدم العيش معاً كل حياتنا، كنتُ أريد شــيئاً من التدرُّج، لأن هذا هو الحل الــذي كان يبدو لي الأقل إيلاماً، ولكنها كانت تريد أن تبتر، وأن تقطع بضربة واحدة جافة حياتنا شــطرين، ويبدو أنها كانت تعتقد أن هذا سيســبب ألماً أقل، لقــد كنا متعارضين في استراتيجية التفريق، وبالطريقة نفسها، هنالك مدرستان في قلع الضمادة؛ مدرســة القلع بنترة واحدة، ومدرسة القلع برقة تامة، وهكذا ينبغي للنســاء أن يكُنَّ. إنهن متقدمات على الرجال، إنهن يدخلن دائماً أولاً في عصر الماديات، قلت:

- ألا تعتقدين أن الأمور تجري بسرعة مفرطة؟
- بالضبط، إنني بحاجة إلى التقدم بسرعة.
- وهذا الظرف..
- لا .. أخيراً، نعــم.. بالتأكيد .. إن موت أبي قد لعب.. ولكنّ هنالك شيء ما أُحِسّ به منذ زمن طويل.. وأنت أيضاً تُحِسّ به.. لا تتظاهر بعدم الانتباه..
- ولكننا لسنا تعساء..

- الموضوع ليس موضوع سعادة، اسمع، نحن نحب بعضنا، ونتشارك بأشياء كثيرة، ولكن هذه آلية بيننا..

- والآن؟.. يمكن تغيير الأشياء..

- يمكن، نعم، ولكنني لا أرغب في ذلك، وأنتَ أيضاً، أعتقد أننا قد تجاوزنا مرحلة بذل الجهود..

- ولكنكِ كنتِ محبة جداً.. من قليل..

- نعم، أعتقد أنني كنتُ أحبك إلى بضعة أيام أيضاً.. وقد توقَّف ذلك هكذا، في الوقت الذي عبَّرتُ فيه عن الأشياء.. ولكن ذلك قد انتهى منذ زمن طويل..

- ......

- أنت لستَ سعيداً أيضاً، وإذا ما كنتُ أبدو قاسية معك، فلأنني أعرفك عن ظهر قلب.. أنت لستَ منفتحاً، وهذا ما يُرَى تماماً، وأصبح أسوأ منذ رحيل ولدَيْنا.

- ......

واصلت (إيليز) كلامها وحدها، ويبدو أنها كانت قد حضَّرت حوارها الداخلي المنفرد منذ زمن بعيد، وسمعتها تتحدَّث إليَّ عنا، وكان لديَّ الانطباع أحياناً أن الأمر كان يتعلَّق برواية، فذكرت ولدَيْنا، قائلة:

- إن زواجنا كان يعمل بقدر ما كان مرتبطاً في أسرة.

هذا ما قالته، أو شيء ما مثله، لم ننجح في العثور على معالمنا، وفي رأيي، كان يلزمنا فقط بعض الانتظار، وكنت أفكِّر في أن السعادة لا تزال تنتظرنا بعدُ، من غير أن أكون أكثر تأكُّداً من شيء، ربما كانت (إيليز) محقَّة؟ لقد كنتُ أحبها، ولكن حبي كان يفتقر إلى الحياة، وكان خاملاً، تماماً مثل ردة فعلي، كان

عليَّ أن أبكي، وأن أكون يائساً، ولكن لا، كنتُ أشعر بالألم، ولكن لم يكن هنالك شــيء مأســاوي، وبطريقة لا يمكن تصوُّرها، كان عدم شــعوري بوجعٍ ما أكبرَ في هذه اللحظة، هو ما كان يجعلني حزيناً.

كنــا عاجِزَيْنِ عن تناول الطعام، بقيــت أطباقنا على حالها، وقال لنا النادل بالمعنى الكبير لعلم النفس الرومانسي:

- يبدو أنكما حقاً عاشقان.

وحينئذٍ انطلقنا في نوبة ضحك متواصل، وبعد الهدوء، قلت في نفســي إنه لم يكن مخطئــاً، كان أحدنا ينظر إلى الآخر من غير كلام، وكنا عاجِزَيْنِ عن تناول الطعام، وبعد بضع دقائق من الصمت، ذكرت قولي عن السعادة: (لكننا لسنا تعساء) وجوابها: (الموضوع ليس موضوع ســعادة)، لا أدري لمــاذا ركَّزتُ أكثر على هاتين العبارتين، كان يبدو لي أنهما كانتا في مركز كل شيء، إنه لمــن الصعب جداً أن نُثبِت الافتقار إلى الســعادة عندما لا يكون المرء منغمســاً في التعاسة، ربما كان جسمي قد تكلَّم لأن ذهني لم يكن يتفاعل، كان ظهري، وهو يعبِّر، يشــير إلى حزن أكيد في ســعادتي، وفيما يتعلَّق بـ (إيليز)، فقد أثَّــرت فيها اندفاعة إلى الحياة، ربما ظهرت بعد موت أبيها، قلت لها:

- إنه أمر محزن.

- نعم، إنه أمر محزن.

- أريد أن أقول لك شيئاً..

- ما هو؟

- أخيراً، من المهم أن أتحدَّث عنه الآن.

- قل لي.

- لقـــد فقدتُ وظيفتي، وهكذا يجـــب أن نتحدَّث عن ذلك.. غير أن هذا الأمر أقل تعقيداً للمنزل..

- بالضبط، وأنا أريد أن أقول لك أيضاً شــيئاً، لقد قام أبي بتحويلٍ ماليّ لي منذ سنة، عندما كان مريضاً.

- ......

- وأنـــا لم أرغب في أن أمَـــسّ هذا المال، ولكن الأمر مختلف الآن، ويمكنك أن تســـدِّد القرض كلية، ولسوف أساعدك إن كنتَ في حاجة.. فلا تقلق..

- ......

لقد كنت متفاجئاً جداً لأن (إيليز) لم تطرح عليَّ أســـئلة عن الطريقة التي فقدت بها عملي، ربما لم يكن الوقت مناسباً لذلك. مشـــكلة أخرى في ذات الوقت، ومن الغريب أن كل شـــيء قد تم ترتيبه هكذا، فأبوها ســـيدفع عنا ديوننا، وقد حرَّر، بشـــكل ما، ابنته مني بماله، ولم أكن أريد تعقيد الأمور، وسيكون بإمكاني أن أُلِحّ من أجل دفع ثمن نصف البيت، ولكن بعد كل هذا، فإنها هي التي ســـتعيش فيه، ومن ثم، يكون علينا أن نتناول مسألة أخرى أكثر أهمية، قلت:

- وولدانا؟

- لقد كبرا، وسيتفهمان، والجوهري لديهما أن يريا والديهما بخير.

- وهل تعتقدين أننا سنكون بخير؟

قالت (إيليز) بهدوء:

- لا أدري، لكننا سنحاول أن نكون أفضل.

- ......

- ......
- نعم..
- وظهرك، كيف حاله؟
- أفضل، شكراً.
- أنا متأكِّدة من ذلك، فأنا مشكلتُك، وانفصالنا سيحلها لك؟
- لا تقولي هذا أبداً.
- هذه مزحة، هل يمكننا بعدُ أن نضحك؟

نعم، يمكنني، ويمكنني أن أكون أيضاً محباً، وفي الخارج بقينا ذراع أحدنا في ذراع الآخر مدة طويلة، وقد أسعدني ذلك من جهة، وآلمني من جهة. ومن ثم، رحلتْ (إيليز)، وبقيتُ بلا حَرَاكٍ أنظر إليها وهي تبتعد، إلى أن أصبحتْ نقطة داخل الظلام، وفي أقل من نهار، انقلب كل شيء؛ لم يعد لي زوجة، ولم يعد لي وظيفة، وعندي دوماً آلام في الظهر.

القسم الثالث

(١)

عندما استيقظت، تأمَّلتُ حياتي الجديدة بفزعٍ، لم أكن أدرك لماذا كانت المناقشات مع (إيليز) هادئة جداً، ومجرَّدة من العاطفة! لقد كنا، في أكثر ألوان التقدُّم محافظة، ضحيةَ خدَر عاطفي، عاد مستقبلي مجالاً أكثر واقعية، يشوِّشه عدم اليقين، ويزعزعه غيرُ المتوقع، وكان يبدو لي، فيما بعد، أن أوجاعي الظهرية كانت قد لعبت دوراً مهماً في خمولي الارتدادي، لا يمكن أن يكون للمرء رد فعل اعتيادي عندما يتألم الجسم دوماً كي يدل على وجوده. وبحسب نصيحة المنوِّمة مغناطيسياً، كان لي موعد هذا الصباح مع طبيب نفساني، وهو نفسه الذي درس ملفي على أنني حيوان دموي، ولم أكن متأكِّداً من أن هذا سيكون جاداً جداً في إجراء تحليل مع هذه الصورة الملتصقة بالجلد، ولكن حسناً، سأحاول الإيمان بهذا الخيَار، أليس ممكناً أن تكون إرشادات شفائي تكمن فيَّ أصلاً، فإذا كانت الحالة كذلك، فإني أرجو على الأقل أن تكون مكتوبة بالفرنسية.

عند دخولي إلى عيادته، ابتسم لي ابتسامة عريضة، لم يبدُ أن تنفيسي ضد (غايّار) كان يعكِّر مزاجه، ويبدو أنه لم يكن يرى في تصرفي كراهية، وإنما رد فعل إنساني على حالةٍ أصبحت

غير قابلة للتسامح[112]، وقد بدأ بالقول:

– لقد فاجأَتْني قليلاً رغبتُك في رؤيتي.

– حقاً؟

– نعــم، فالموظفون الذين أقابلهم بشـــأن فصلهم من العمل، عادة، لم تكن لديهم رغبة وبخاصة في الإطالة.

– أنا لم أطرح على نفســي هذا الســؤال، لقد أشـــاروا عليَّ برؤية طبيب نفساني، فكنتَ أنت الحاضر هذا الوقتَ في حياتي.

– أشاروا عليك؟ من هم؟

– منوِّمةٌ مغناطيسياً.

– آ.. ولماذا؟

– لأن في ظهريّ ألماً.

– ......

– ......

قال بطريقة وقورة جاهداً أن يخفي تفاجؤَه:

– ربما كان الأفضل أن تتمدَّد..

لقد عزمتُ على عكس ما كنتُ دائماً أتصوَّره، ولم أكن خائفاً،

---

(112) زين الدين زيدان Zinédine Zidane في نهائيات كأس العالم بكرة القدم ســنة 2006 (الأصل الفرنســي) [يبدو أن بطل الرواية يشــير هنا إلى الحادثة الشــهيرة في تلك النهائيات عندما وجه اللاعب الإيطالي (ماركو ماتيراتســي) Marco Materazzi، أثناء مباراة منتخب إيطاليا مع منتخب فرنســا، يوم 2006/7/9، إلى زين الدين، كلمات اختلفت الإشــاعات حول كونها شــتيمة لأمه أو أخته، أو كونها شــتيمة عنصرية واتهامه بأنــه (إرهابي)، مما أثار غضب زين الدين فسدَّد إلى صدر (ماتيراتسي) ضربة عنيفة إلى صدره، كردة فعل فورية وسريعة على الإهانــة، وقد طُرد زين الدين من المباراة برفع البطاقة الحمراء، وقد أثارت هذه الضربة ضجة في الإعلام الرياضي والاجتماعي والسياســي، وقد تكتم زيــدان على تلك الكلمات المهينة فيما بعد، فأثار ذلك فضول الناس لمعرفتها، حتى إن مجلة (باري ماتش) Paris Match استشــارت بعض قارئي الشــفاه لمعرفة عبارات (ماتيراتسي)، وقد عاقبت الـ (فيفا) FIFA وقتها اللاعبين بالحرمان لعدد من المباريات، ودفع غرامات، وقد خلَّد المثَّال الجزائري (عادل عبد الصمد) تلك النطحة بتمثال معروض اليوم على كورنيش الدوحة في قطر (المترجم)].

بل إنني كنتُ أشعر بإثارة، كان الوضع يسليني، وأخيراً لا، ليست هذه هي الكلمة، لنقل بالأحرى إن هذا الأمر كان يمتعني. يشعر المرء حتماً بذلك في المرة الأولى التي يتمدَّد فيها عند طبيب نفساني، لقد كنتُ شِبْهَ مسرور لأن عندي مشكلات، فبعد أن تتعقَّد الأمور، يغوص المرء في عُصَاباته.

فتح الطبيبُ دُرْجاً، وأدرت رأسي في الوقت نفسه لأراه يتناول دفتراً صغيراً، وكنتُ أظنّ أن هذا التصرف غير مهم، كان بإمكانه أن يبقيه على مكتبه، ولكن لا، فهنالك في وقت فتح الدُّرْج ما يشبه طقس الوصول إلى الوعي، لقد كنتُ بالتأكيد أفكِّر كثيراً، ولكن أثناء هذه الجلسة، لم أكُفَّ عن ملاحظة تفاصيل الإخراج المفترض فيه أن يسيِّرني وفق ظروف إدراكي، كان لكل رمزٍ أهميته، فمثلاً كنتُ قرأتُ في مكانٍ ما أن (فرويد) كان يوصي بأن يتم الدفع له نقداً، ليتم تجسيد المال جيداً، وكنت أتوقع قطعاً نقدية صغيرة، معتقداً أن من الأفضل أن أحمل شيكات، كان بالإمكان بدء العمل، وكنت قد استقررت براحة، ولم يعد لديّ ألم في الظهر دفعة واحدة في هذا الوضع، وربما كان هذا ما أوصت به المنوِّمة مغناطيسياً؛ لا بجلسة عند الطبيب النفساني، ولكن باستعمال أريكته المريحة جداً.

إنه رجل لم أكن أراه سيصغي إليّ، وقد سألت نفسي لماذا كان التحليل النفساني قد أُسِّس على غياب تبادل النظرات هذا، إن العيون تمنع بالتأكيد الاعتراف، وهذا صحيح أيضاً لدى الكاثوليك، حيث لا يمكن أن يدع المرء نفسه تحت نظر الآخر، إن هنالك فائدة في كل ذلك؛ لقد كان بإمكانه أن يفعل شيئاً آخر وأنا أتكلَّم، يمكنه أن ينام، وأن يرسل رسائل على هاتفه الجوال،

مــن يدري؟ فليس لديَّ أيُّ فكرة عــن جِدِّه، ولا حتى عن أهليته، وإن وُجِدَتْ، فإن أطباء النفس في المؤسسات لم يكونوا الأفضل، فأنا لم أكــن أتصوَّر أن يقدِّر (لاكان) Lacan درجة مســؤولية موظف من أجل فصله. بدأ الطبيب النفساني بالقول:

- عن أي شيء ترغب في الحديث؟
- لست أدري، عليك أنت أن تقول لي.
- لا، بل عليك، لماذا أنت هنا؟
- مــن أجل ظهري، فظهري يؤلمني، ولم أســتطع أن أعمل له شيئاً.
- أتفهَّم، هذا يؤلم.. الظهر.

لــم أعرف الرد، لأني كنت مندهشــاً منه، ولحســن الحظ، واصل القول:

- منذ متى لديك ألم؟
- منذ عشرة أيام تقريباً.
- هل يأتيك في أغلب الأحيان؟
- لا، هذه هي المرة الأولى.
- هل هنالك عنصرٌ ما مسبِّب؟
- لا، لقد ســئلتُ هذا السؤال من قبل، وفكَّرت فيه، فلم يكن هنالك شيء، ولم أرَ شيئاً، لقد حدَث هكذا، بلا سبب.
- ســنرى ذلك، حتماً هنالك سبب، ليســت هذه المرةَ الأولى التي يأتي فيها أحد ليراجعني بشأن مشكلة طبيعية (فيزيائية)، فهنالك عدد لا بأس به من الآلام الطبيعية لها أصل نفسي..
- ......
- بكل بساطة، يمكننا أن نبدأ بتسجيل قائمة لكل ما يضايقك.

- ما يُضايقني؟.. لا أرى..

- اسمَع، يا سيِّدي.. لقد ضربتَ ضرباً خطيراً واحداً من زملائك.. بينما جميع الناس يقولون إنك كنتَ الهدوءَ مجسَّداً.. إذن، لا تقل لي إن شيئاً ما لم يكن يضايقك..

- ......

- فكِّر بهدوء في كل ما لم يكن على ما يُرام، هذه هي الطريقة الوحيدة لحل الأمور..

- ......

- لأن هذه هي مشكلتك، ويجب حلُّها.

- في الحقيقة لا.. أنا لا أرى.. ما عدا.. نعم، هذا صحيح.. في عملي، لديَّ بعض الهموم.. وأخيراً هو رجل.. نوع من المتوحشين.. طاغية.. منحرف.. وهذا يفضي بي إلى تصوُّر طفولته.. وأخيراً أريد أن أقول.. لا يمكن للمرء أن يصبح وغداً كهذا.. إنه حقاً قُمامة.. فقد عملتُ طيلة شهور على مشروع.. وخدعني.. ولم أعش شيئاً أشد إذلالاً قطّ.. وحتى الآن، كانت لي دوماً علاقات ودية مع زملائي.. وقد أصبح بعضهم أصدقاء لي.. وهذا ليس أمراً غريباً.. ولكن كان لي دوماً طموح مقبول.. وهناك، هذا.. أخيراً، إنه لا يستحقّ اسماً.. منذ أن كان هنالك.. ولم يكن هنالك شيء يمكن حله بصراحة.. وقد فعلته أنا بتهشيم وجهه.. وأشعر بأنني تحسَّنت جداً.. وتحرَّرتُ من كل ما كنتُ أكظمه.. وأنا سعيد لعدم عملي.. وكان لدي تخوُّف بسبب المال.. نعم، المال كان يضايقني.. ولكن حسناً، لقد قالت لي زوجتي إنها تملك شيئاً من الإرث.. وعندئذ أصبحنا مطمئنَّيْن قليلاً.. أخيراً قلت (زوجتي).. ولكن عليَّ عما قليل أن أقول (زوجتي السابقة)..

لأنني لن أقولها لك من بعد، فنحن سنتطلَّق.. وأخيراً، بالتأكيد.. ولست في الحقيقة متأكِّداً اليوم.. ولكنها، هي تبدو لي مصممة.. مشكلتي، عليَّ أن أذكرها لك.. وهي أنني لم أتوصَّل إلى معرفة ما أفكِّر فيه.. هل سيسبِّب انفصالنا ألماً لي أم أنه سيريحني؟.. وهل سيحصل ذلك في أغلب الأحيان؟ وهو عدم معرفة ما أشعر به.. إنني أتردَّد.. وإنني موزَّع.. فهنالك شطر مني، لا أستطيع أن أنكره، وهو سعيد بكل ذلك.. كان الزواج يخنقني.. الحياة في اثنين.. ومع ذلك، كنت سعيداً.. وباختصار، لا أدري.. يجب حل الأشياء، وأقول لك.. لا أدري إن كان الانفصال عقدة جديدة في حياتي، أو إن كنتُ بالعكس سوف أشعر بتحسُّن.. لا أدري.. والحاصل أني أعلم بالضبط أن الزواج ينطوي على مسؤوليات.. وبخاصة مع وجود أطفال.. وهذا ضغط دائمٌ.. وضرورة أن يكون المرء أهلاً لها، حتى ينهض بأعبائها.. ويجب جني المال، والتشبُّث بالعمل.. إن كل هذه الحياة ثقيلة بشكل ما.. وأبيِّن ذلك الآن.. وهذا أمر رهيب، ولكني أقول لنفسي إنه لم تكن هنالك أوقات سعيدة إلا تلك.. لقد كانت حياتنا الأسرية جميلة، غير أنها إنْ كانت في أغلب الأحيان مسحوقة بالهم اليومي.. والإداري.. لكنها كانت مرتبة جداً.. ومن ثمَّ تمت تلك الحياة بسرعة فائقة.. وبسرعة مفرطة بالتأكيد.. ولم يكن لدي الوقت للاعتياد على فكرة أنني راشد، كما أعتقد.. وعندي ولدان في عز الشباب.. وكنت قد بدأت أعمل.. وكنت قد تخليت عن بعض أحلامي.. وكنتُ أكتب.. وفي نهاية الأمر، لم أفكِّر في أنني قد أتمكن من الكتابة في الحياة.. لقد كان الأمر هكذا بالضبط.. ولكنني دُفِعتُ مباشرة داخل الواقع، وداخل الحياة العادية.. وهذا ما

أعيشه الآن، وهذا ما يخيفني بالتأكيد.. ولكن في الوقت نفسه، أبيِّن أنني دوماً كنت أريده.. وأفقدني ذلك معرفة تذوق المشكوك فيــه.. وتذوق التشــرُّد.. والعيش يوماً بيوم، كمــا يُقال.. لاحظ أن هذا هو ما أعيشــه الآن.. ومن المؤســف أن تلك الفترة كلها التي كان بالإمكان أن تكون ممتعة قد تم التشــويش عليها.. وقد أفســدها الألم الذي يضنيني.. ويســتهلكني.. وهذا الذي فعلته في العمل، كان في قســمه الكبير بســبب ظهــري.. ومثل هذا الألم جعلني طائشاً.. وقد دفعني ذلك إلى حيث لم أذهب قطّ.. فاعتقــدت أنني قد أصبحــتُ أهبلَ.. ولم أدرِ مــا عندي.. كان هنالك حتماً ســببٌ.. ولم يكن هــذا الأمر ممكناً بخلاف ذلك.. هنالك حتماً تشــخيص أمراض ينتظرني فــي مكان ما.. إن كل طِباعي تغيَّرت تبعاً لذلك.. واليوم هي بخير.. وفي اللحظة التي أكلِّمك فيها، لديَّ ألم أقل في الظهر.. ويمكن القول إنني لا أشعر بألــم تقريباً.. وباختصار، لم يكن ينبغي لي أن أذكر ذلك.. لأنني في كل مرة أبتهج فيها، وأعتقد أن الوجع قد تلاشــى، فإنه كان يعود.. كان يعود بشــكل أجمــل.. وأخيراً، لنقل إنني بخير.. لقد توقَّف الألــم.. ربما لأنني أكلِّمك، ولأن الــكلام ينفعني.. وليس لــديَّ رغبةٌ في أن أتوقَّــف.. ولديَّ الانطباعُ بــأن عليَّ أن ألقي كل الكلمــات التــي أمتلكها.. كي أتعافى.. وعلــيَّ أن أنحني كي أعيش.. صحيح أن التكلم والتحرُّر يجلب الخير.. ولقد أحسنتَ صنعــاً فيما فعلتَ أخيراً.. إنك هنا، مع دفترك الصغير.. تصنع خيــراً للناس من غير أن تفعل شــيئاً.. وهذا أمر عظيم.. يجب أن تكون لك مجرَّدُ أذنين.. وباختصار.. أشكُّ في أن يكون الأمر أكثر تعقيداً من ذلك.. يلزم المرءَ عدةُ ســنوات من الدراســة كي

يتعلَّم الإصغاء.. ومن ثَمَّ تكــون هذه المهنة محترمة.. وهذا بحد ذاته يَخْلِــب اللبَّ.. وعلى الأقل، ليس لأبيك -مع هذا الأمر- أن يضايقــك.. أما أبي، فلم أذكر لك.. إنــه دوماً فوق ظهري.. آ.. اسمع.. هل هذه زلة لسان؟ يجب أن تسجِّل هذا! وفي النهاية لا، تلك ليست زلة لسان.. ولكن عليك أن تجد كلمة للدلالة عليها..

- لا تشغل نفسك بالنظرية، تابع!..

- موافــق.. أخيراً، عليك أن تجــد كلمة لوصف الواقعة التي يشــير بها ذهننا إلى شــيء ما.. ولكن حســناً، لم يكن ذلك هو المجــال الأصعب للتوضيح معــي.. أبي، لا يمكنك أن تتصوَّر إلى أي حدٍّ يشــكِّل عبئــاً عليَّ.. وأقول إنني لا أبالــي.. فقد تعوَّدتُ على طريقته الدائمة في الحطِّ من شــأني.. لكن لا، لا يمكن أن يتعلَّق الأمر بكل ذلك، بكل الحــب الذي كنتُ أفتقده.. لقد كنتُ أَجْــري دوماً وراء.. وكان يحاول عبثاً أن يُظْهِر في بعض الأحيان فائدة، وأن يلعــب لمدة دقيقتين دور الأب العطوف.. لكن هذا لم يكن يجدي.. لقد مضت عقود وهو متمسِّــك بالجفاء.. نعم، أنا أعرف ما ســتقول.. وأعرف أسس نظرياتكم.. لسوف تقول إنه يستنســخ ما تلقَّــى.. صحيح أنه لم يعرف فيضــاً من العواطف نحوه في شبابه.. ولكن هل يشكِّل هذا سبباً؟ أنا أرى تماماً كيف أكــون مع ولدَيَّ.. إنني أقضي وقتــي في معانقتهما، وأقول لهما إنهما رائعان، وإنني أحبهمــا.. فهل مثل هذا صعب جداً؟ وهذا شيء يسيرٌ في الحقيقة من حب الأطفال، صحيح؟ حب الأطفال الذي لا حد له، ولست أدري ما يفعله ذلك، هل يفعل عدم الشعور بــه، أعني الحب؟.. وكنت أحيانــاً أرغب في أن أصيح في أبي.. وفي نهاية الأمر في والِدَيَّ.. لأن عاطفتهما، بكل بســاطة، كانت

مهذَّبــة.. وهذا لا يكفي.. إن كل ما لم يُذكَر يشــكِّل عبئاً عليَّ.. يبدو أن حبّ الوالدين هذا مُفسِــد.. ليس خانقاً، وإنما مُفسِد.. هذا ما أشعر به.. وهذا ما فاض بي.. وفي بعض الأحيان يفيض قليــلاً.. وقد أوجد ذلك فــيَّ أنواعاً من القلــق.. وعندما أفكِّر فــي ابني الذي يعيش الآن في نيويورك، فإنني، بالتأكيد، أفتخر به.. ولكن تكون لديَّ اختلاجات في كل جســمي.. وأقضي وقتي بالتمني ألا يحدث له شــيء.. ولا أعتقد أنني أب شديد الوطأة، بعيــداً عن ذلــك.. ولكنني أحبه.. هذا الحــب الذي يجعل المرء قلقــاً.. إذن نعم، يجب أن يتــم الحلّ.. وربما يأتي هذا أيضاً من هنا، لست أدري.. فمنذ أن رحل عنا.. وأنا أشعر برفع اليد.. لقد حصل ذلك بســرعة كبيرة.. فالجسم يتقبَّل التحوُّلات المتدرِّجة، لا القرارات المســتعجِلة.. وربما كان هذا ســبب ألم ظهري؛ ردة فعل مفاجئة على رحيله.. ولولدَيَّ بالتأكيد حياتهما.. ولكن ليس جيِّداً أن نضع محيطاً بيننا.. لأنني إن أردت أن أراه لا أستطيع.. ولديَّ انطباعٌ بأنني أمس كنت لا أزال أبحث عنه في المدرســة.. وأمس كان يتســلَّق على كتفَــيَّ.. ولم أكــن أدري أن نصيبي أن أعيــش هذه الأوقات الراهنة.. وكل هــذا يُفْزِعني.. نعم، أدري، إنه لأمر تافه.. ولكن أليس لي الحق أن أتألَّم من الأشــياء الأكثر تفاهــة؟ ثم هنالك ابنتــي.. والأمر مختلف.. ولكــن المؤكَّد أنني متألِّــم لقبولي الوضع.. فمــن ناحية، هي تلومنــي عليه.. وأنا لا أمــر عليها في بيتهــا دائماً.. ولا أعــرف الرجل الذي تعيش معــه.. ولا أدري لماذا أتألَّم كثيراً عند مواجهة الأمور الجديدة.. أو لا يبدو عليَّ بالتأكيد أنني أفتقر إلى الحب؟

- ......

- ألا تقول شيئاً؟
- طيِّب.. طيِّب، جيِّد جداً، لقد وصلنا إلى نهاية جلستنا.
- الآن؟
- نعم.
- وماذا تعتقد في ذلك؟
- هذه نهاية الجلسة.
- آ.. آ.. يمكنني أن أنهض إذن؟
- نعم، يمكنك.
- على كل حال.. شـكراً، يا دكتور، شكراً على كل شيء.. إن كلامي على كل ذلك جعلني أهوجَ حقيقياً..
- ......
- أنت رائع.

بـدا متفاجئاً بجملتي الأخيـرة، لا يبدو أن أحـداً يقدِّم له التهاني، كان يودّ أن نحدِّد موعداً جديداً، ولكني قلت إن مفكِّرتي لم تكن معي، وقد تظاهر بتصديق هذه الحجة السخيفة، لم تكن لديَّ بكل بسـاطة رغبةٌ في أن أحدِّد موعداً فوراً، لقد تخلَّصتُ فجأة من شـهور مـن العبارات المتحفِّظة، لقـد كان هذا يكفي، ثم إنـه قال الأمر الجوهـري، ينبغي حل ذلك، وعلـيَّ أن أرتب مشـكلات حياتي لكي أتعافَى، وبلا أدنى تردُّد، عرفت أنه يجب البدء بالأمر الجوهري: والِدَيَّ.

(٢)

شدة الوجع: ١

الحالة المعنوية: ميَّال إلى القتال

(٣)

كان عشـــاء (الكسكســـي) في المرة الأخيرة كمقدمة، عندما رآنـــي والدايَ أصِل إليهما فجأة من غير إخطار، لم يتفاجأ أحد منهمـــا، ويبدو أنهما شـــكَّا في أن الغرابة الجديدة في ســـلوكي لها تبعـــات، وقد تمكَّنتُ من رؤية أبي يلقي نظرة نحو أمي، التي كان يبدو أنها تقـــول: (أنت ترى، لقد قلتُ لك ذلك)، لأن (وصل فجأة) في ميثولوجيا الأسرة تستحق تقريباً عقوبة مؤبَّدة، وهذه لم تكن تُنَفَّذ، فمن أجل لقائنا، كان يجب القيام بإخطار إلزامي، والمفضَّل أن يكون قبل عدة أيام، فالعاطفة تتوافق مع التخطيط.

كنت أضع، في العادة، ربطة عنق، أما هذه المرة، فقد حضرت في بحر الأســـبوع، وفي وسط النهار، بلا أي بدلة، ومن غير أي تفصيلة من حياتي السابقة، قالت أمي:

- آ.. هذا أنت..

- نعم، هذا أنا.

وسأل أبي فوراً:

- هل تحسَّن ظهرك؟

لقد فاجأني هـــذا الدخول في الموضوع، فأبي إذن يحتفظ في ذاكرته بشـــيء ما يخصني، وبالطبع، إنـــه يتذكَّر خصوصاً أوقاتـــاً كنتُ فيها ضعيفاً، لقـــد كان دوماً قوياً كي يريكني، وكي يســـألني عن أخبـــاري عندما لم تكن لديَّ رغبة في أن أســـأله عن أخباره، لقد كان يملك حسّـــاً رائعاً جداً للتوقيت الانفعالي،

إنه من نوعِ الأشخاص الذين لا تستطيع أن تجافيهم، ويحصل أحياناً، في الحياة العاطفية، أن تكون هذه الأعباء قادرة على الموازنة مع عدم تحمُّلها insupportabilité (113)، ويبلغ بها الأمر ألا تجتاز حدود التسامح، كان أبي يتقن فن نزع فتيل عدوانيتي في الوقت المناسب، وكانٍ ذلك يحول دون أي مواجهة، وبعبارة أخرى، لم يدَعْ لي والدي قطٌّ فرصةً للحل، قلتُ رداً على سؤاله:

– نعم.. نعم، إنه أفضل، شكراً.

– آ.. حسناً جداً.

– لقد ضربتُ حتى الموت واحداً من زملائي، ومنذئذٍ في الحقيقة وأنا أفضل.

– ......

– ولكن على الفور طُردتُ من عملي.

سَقطَتْ أمي على كرسيٍّ، كان لحسن الحظ، ينتظر خلفها هذا السقوط.

عَصَّب أبي وقال:

– لا يجوز أن تُمَرِّر الأشياء لأمِّك هكذا! انظر في أي حالة وضعتَها!

– آ.. يَهمُّك ما يشعر به الناس؟ هذا أمر جديد.

– لِمَ تقول هذا؟

– لأنك لا تفكِّر إلا في نفسِك، ولا تبالي بالآخرين، لا تبالي

(113) نعم، أنا أعلم، هذه الكلمة غير موجودة، ولكنها الكلمة التي حضرتني (الأصل الفرنسي) [يريد أن كلمة (insupportabilité) هذه، وهي اسم، غير موجودة في اللغة الفرنسية، إلا أنه ركبها بهذه الطريقة على القياس، آخذاً إياها من الصفة (insupportable) الموجودة التي تعني (لا يُحْتَمل) أو (لا يُطاق) (المترجم)].

بما يفكرون فيه، ولا بما يعانون منه، والمهم في حياتك الصغيرة.. هو أنتَ، أنتَ، أنتَ!

فناشدتني أمي قائلة:

- توقَّف!

نظر إليَّ أبي بعينيه مباشرة من غير أن يقول شيئاً، ولم أتوصَّل إلى معرفة إن كان قد صُدِم بعمقٍ أو كان يقدِّر أنني خرجت للمرة الأولى عن طَوْري. نعم، لا شيءٍ كان مؤكَّداً، ولكن شيئاً ما في قزحية عينيه كان يربكني، لقد كان يبدو شبه مسرور، وهذا بعيد جداً عن عينيه، وربما كنت قد أسأتُ تفسير هذا التعبير الذي لم أكن قد رأيته منه قطّ، لكن ذلك ضعضعني للحظة، ولحسن الحظ أنه استأنف يقول:

- هل جننت لتكلِّمنا هكذا! ماذا فعلنا لك؟

- ماذا فعلتما لي؟ وتسأل عن ذلك؟ إذن أنت لن تضع نفسك أبداً على بساط البحث؟ ما فعلتَه لي.. ما فعلتَه لي.. لا شيء.. لا شيء، بالضبط.. إذا كنتَ حتى لم تلاحظ ذلك..

- ولكن عن أي شيء تتحدَّث؟ لقد أصبحت مجنوناً، لا أرى سوى ذلك.

- أنا أقول إنك تحطُّ من شأني في كل الوقت، ولم تكن قادراً على أن تذكر قطُّ شيئاً واحداً إيجابياً عني في حياتك!..

- ......

- هيا! جرِّب لنرى! قل شيئاً لطيفاً عني.

- ......

- هيا!

- ......

وأخيراً، قال أبي:

- أحبّ جداً قَصَّةَ شَعْرِكَ.

قمتُ عدة مرات بجولة في المطبخ، وأنا أتمتم بقولي: (قَصّة شَـعْري.. قَصّة شَـعْري)، وكنت أشعر، وأنا أمشـي، بقوة كبيرة تسري في جسمي، لسوف أتحرَّر أخيراً تماماً، ولسوف يشكرني ظهري. وبعد فترة، وقفت أمام أمي، فهذا دورها، وقلت لها:

- وأنتِ، لم تقولي شـيئاً قطّ، فأنتِ جافَّة بشكل غير ممكن، وهذه ليست أمي، إنما هي هندية من (أريزونا) (114) Arizona.

فصاح أبي:

- طيِّب.. هذا يكفي! إن لم تكن سـعيداً بأبويك فاذهب عنا! هل تعتقد بأننا سـعيدان بك..؟ ماذا تعرف عنها؟ لا تصنع مثل هذا السيرك.

- أنا لا أصنع سيركاً، وإنما أقول لك ما في قلبي دائماً، أنتَما لا تحباني، وبخاصة أنـتَ، أنت لا تحبني، لماذا لا تعترف بذلك، وللمرة الأخيرة؟ فعلى الأقل، ستُقال هذه الأشياء.

- ......

- هيا!

فتمتم أبي قائلاً:

- لا.. هذا غير صحيح.. لا يمكنني أن أقول هذا..

قالت أمي وهي تنهض:

- إن أبـاك يحبـك.. وأنت تواجه بالتأكيـد أموراً صعبة في هذا الوقت، فلديك آلام في الظهر، ومشـاغل في العمل.. ولكن لا تظنَّ أننا مسؤولان عن كل ذلك.

---

(114) أريزونا: ولاية في الجنوب الغربي من الولايات المتحدة (المترجم).

– توقّفي عن محاولة اســترضائي، فأنــت تفعلين ذلك دوماً، إنك تبحثين عن الزوايا، لكن هذا لن يمشي اليوم.

حلَّتْ أمي محل أبي في فن نزع الفتيل، ولكني لن أنزعه اليوم، ويجب أن أصمد، يجب أن أصمد أيضاً، فأنا لم أكن طائشاً، ولم أكن عنيفاً، إنهما لــم يكونا يحبانني، وأكرِّر ذلك، إنهما لم يكونا يحبانــي، غير أنني لم أتصرف هكذا قطّ، لقد كانا ينظران إليَّ بعيون مرهقة، بــلا عدوانية، لقد كانا يبدوان بصدقٍ مجروحين مما قلته للتو، كنت أبدو كشــخصية الشــرير في القصة، وأسوأ ما في الأمر بالتأكيد أنك تحبس ما في قلبك منذ سنوات، وفي اليــوم الذي تنفجر فيه تصبح أنت الوغــد! كانت لديَّ رغبة في الاعتذار، غير أن أبي استأنف قائلاً:

– وأنتَ ألن تضع نفسك على بساط البحث؟

– ......

– هــل تعتقد أن من الســهل أن يكون للمــرء ولدٌ مثلك؟ أنت تزعــم أننا نحطّ من قَدْرك دوماً، ولكننا نقول إن هنالك مأســاةً مرســومة على وجهك دوماً، وأنت تبــدو دائماً في هيئة ضحية، إن آلام ظهرك لا تدهشــني، إن نوعــك ينتهي إلى الانطواء على اثنين.. وهذا يجعلك ســعيداً.. لأن أحداً ما يُشْفِق عليك.. وهذا ما تريده أنت؛ أن يُشْفِق عليك أحدٌ ما.

– ......

– أنتَ تريد أن نعجَب بك، ولكن اذكر لي شــيئاً واحداً مُعْجِباً عملتَه في حياتك!

دُهِشــتُ، فقد كنت أعتقد أن هذا هو وقتي المناسب للتحرُّر، هذا الوقت الذي طال انتظاره وأســتطيع فيه أن أهزّ في والديَّ

حقائقهم الأربع (وأكثر من ذلك أيضاً، لأن أربعاً لم تكن لتكفيهم)، وهكذا انعكس الوضع، ومــرة أخرى، كانت الغلطة غلطتي، فأنا إذن المسؤول عن عدم حبهم إياي، كنتُ أحاول أن أصمد، أوليس على المــرء أن يحب طفله مهما كلَّف الأمر؟ إن حب الوالدين هو الذي يجعل طفلاً ما رائعاً؟ وانتهيت إلى القول:

– معك حق.. معك حق.. أنا لست إلا امرأً يثير الشفقة، وأنا آسِف لإضاعتي وقتك، وأنت لن تعود تراني.

فقال أبي:

– آ.. أي إحساس بالمأساة.. إنها صفة تلازمك! نعم، أي شعور بالمأساة! أنت تزعم أنك لا تحب أن تكون في مركز الأوضاع، لكن هذا غير صحيح، أنت تهيم في ذلك، تســتطيع أن تتحدَّث خلال ســاعات عن حياتك، وعن ظهرك، وعنــا! ويمكن أن تكون قادراً على أن تجعل من ذلك رواية!

– ......

– نعم، رواية!

وحينئذ اقتربت أمي مني، بهدوء تام، وهمســت لي: (لا تقُل هــذا.. لا تقُل إننا لــن نعود نــراك)، وكأن كلماتي قد أضعفتها حقاً، إن تقدمها نحوي لم يكن خطِّياً، لقد كانت تجهد ألا تترنَّح، وبدوري، جلســتُ على الكرسي الذي تُرك شاغراً، وبقي والدايَ كلاهمــا واقفين قربي، وأنا أيضاً لم يعد لديَّ مزيد من قوة، ولم أدرِ ما أقول، هل كنت أحلم في كل هذا؟ هل هذه غلطتي؟ لم أكن أدري شيئاً، وبعد دقيقة تمتمتُ بقولي:

– لسوف أطلِّق.

– ......

- لقد قررتُ ذلك مع (إيليز)، والآن، أعيش عند (إدوار).

قالت أمي بلطف:

- لماذا عند (إدوار)؟ كان عليك أن تتصل بنا، وأن تأتي إلى عندنا هنا.. إلى البيت..

لم يكن يبدو عليها أنها قد فوجئت تماماً، وكان لديَّ انطباعٌ بأن والديَّ كانا يتوقعان الكارثة التي أعيشها الآن، وكانت إخفاقاتي هي الشيء الأقل مفاجأة لهما، كما يتوقع المرء أن يخيم الليل في نهاية النهار، ثم كرَّرت أمي قولها:

- نعم، كان عليك أن تأتي إلى هنا.

- لم أفكِّر في ذلك..

وقال أبي:

- كان عليك أن تفكِّر، أنت تنتقدنا وأريد أن أقرّ تماماً بأن أحداً من الناس ليس كاملاً.. لكن الأسرة تبقى هي الأسرة، وربما كان أمراً عادياً أن يكرهها المرء عندما لا يكون بخير.. ولكنها تبقى متضامِنَة..

وردَّدتْ أمي:

- نعم، تبقى متضامنة..

إنهما كليهما الآن قربي، وكأنهما يواسياني عن همٍّ، وكأني لست في هذا العمر، وإنما أنا طفلٌ يستيقظ في جوف الليل بعد كابوس، ولإنهاء فقدان القدرة على الاستشعار، أضافت أمي قائلة:

- لا ينبغي لك أن تذكر هذا الذي قلته.. فنحن نحبك.

لقد سمعت جيداً، قالت أمي: (نحن نحبك)، لقد أسأتُ إليهما، واستهنتُ بهما، وأعربتُ عن كراهيتي، ولكن كيف

انتهـى المشـهد؟ انتهى بكلمة حـب، وهـي الكلمـة التي كنت أسـمعها للمرة الأولى، ولم أتوصَّل إلى أن أقرِّر إن كان والدايَ خائفَيْنِ مـن أن يفقداني، أم أنهما يتمتعان بانحراف كبير في التقدير، فإن كانا يحبانني الآن، فسوف يربكني عندئذٍ حبهما الجديد، لقد جاء إعلانهما هذا بعد سنوات من الجفاء، فكيف أصدِّقه؟ لقد شوشَّني هذا الإعلان أكثرَ مما كنتُ أعتقد، لقد كنت أرغب في قطيعة قاسـية وكلية، ولكنهما حالا دون ذلك، قالا إننا أسـرة واحدة، وأضافا أننـا متضامنون، لا يمكن أن يكون ردُّ فعلهما مُدْرَجاً في أي ردٍّ فعلٍ منطقيٍّ إنسـانياً، كدتُ أَقْتل نفسـي سعياً إلى أن يكون لي تبادلاتٌ طبيعية معهما، أو أن يتغيَّـرا إزائي، لقد ظهرتْ كلماتُ أمي وكأنها إشـارة إنهاء لهذا السـباق غير الإنسـاني الذي كنت قد استسلمتُ له منذ طفولتي؛ وهو الذي يقوم على محاولة فهم والدَيَّ، وكان عليَّ أن أقِرّ للمرة الأخيرة بأن والديّ كانا مجنونين، ولم أكن أسـتطيع تغييرهما، وبأن تبديل أسرتي مستحيلٌ، وغير معقول، ومُنْهِك، وظالم، ولا يُطاق.

لقد كنتُ كالمشـلول، ولو كنتُ في أوقـاتٍ أخرى من حياتي، لربما شـرعتُ في الضحك، ولكن هذا مستحيل الآن، لقد أخذ بعضنا يرقب بعضاً من غير أن يقول شـيئاً إلى أن كَسَـرتْ أمي الصمت قائلة:

- أرجو أن يجعلك هـذا بخير لتقول ما كان في قلبك، الأمر يتعلـق بظهرك بالتأكيد.. أنت تكتم الأشـياء بإفراط يا عزيزي، وعليـك أن تذهب لمقابلة جميع الأشـخاص الذيـن كانت بينك وبينهم مشكلات، لتسويتها معهم دفعة واحدة..

قال أبي:

- أمُّك مُحِقَّة.. ففي الحياة ينبغي للمرء أن يتكلَّم.

- ......

وأضاف أبي قائلاً:

- أنت ترى، نحن مثلاً، لقد اتَّبعنا علاجاً نفسياً زوجياً خلال أكثر من عشر سنوات، ولذلك كانت الأمور تسير، ولو أنك ذكرتَ لنا في وقتٍ مبكِّر ما بينك وبين (إيليز)، لكنا أعطيناك رقم مستشارنا..

- أنتما.. اتبعتما علاجاً نفسياً زوجياً؟ هل أنتَ جادّ؟

- نعم.. وقد أدَّى وظيفته تأدية جيدة جداً.. أنت تلومنا على أشياء، ولكن أمك وأنا متحابان، والأهم من ذلك رباطنا..

فقالت أمي متأثِّرَةً:

- أوه!..

وعندئذٍ تعانق والدايَ تحت بصري منذهلين بشدَّة كبيرة، وهذا مشهدٌ لا نظير له تقريباً، وقد فاجآني مرة أخرى، فقد استمرت قبلتُهما وقتاً لا بأس به، وكانا يبدوان سعيدين جداً، والشيء الوحيد الذي كنتُ أجده جميلاً هو أنني كنتُ ثمرة حبِّهما، لقد كنتُ ثمرة جافَّة بالتأكيد، أو ثمرةً بدأت بالتعفُّن، ولكن ما كان يسرّني هو أني ثمرة، إن قُبْلتَهما، التي واصلتُ مراقبتها، كانت تنتمي إلى شكل فوق واقعي، لم تكن هنالك كلماتٌ لترجمة ما كنتُ قد رأيته، وكانت بعض أحاسيسي تلغي بعضها الآخر، وكانت تتفتح في مولد فوضى انفعالية، كان والدايَ ينظران إليَّ الآن وهما يبتسمان، فغادرت الغرفة من غير أن ألتفت، لقد عشتُ للتو واحداً من المشاهد الأكثر غرابة في حياتي، ولكنه في

نهاية المطاف متميِّز جداً بين تصرُّفاتي؛ وبالبحث عن الشفافية، كنت ألتقي في أغلب الأحيان وجهاً لوجه مع البلبلة.

(٤)

شدة الوجع: ٥
الحالة المعنوية: ضائع

(٥)

لم تكن زيارتي لوالديَّ قد أراحتني، وبالعكس، لقد أصبحتُ أكثر تشوُّشاً من أي وقت مضى، وكانت هنالك نقطة إيجابية وحيدة، وهي أنني كنت مستعداً لأن أُقِرّ نهائياً بأنني لم أفهم شيئاً من تصرُّفهما، لقد كانا أشبه بجسمين طائرين مجهولين[115] deux ovnis، وربما تولَّد فيَّ الميل إلى الأشياء الثابتة من عدم ثباتهما الانفعالي. كنت قد قمت بدراسات جادة، وتزوَّجتُ مبكراً، وأسستُ أسرة مشرِّفة، وأدركتُ أخيراً أن إقامة حياة مؤسَّسة على تصرفات عقلانية كانت هي محركي، وكان لدى والدَيَّ مرضٌ صعبٌ اكتشافه، وهو نادر، ومن المستحيل الإمساك به، وعليَّ أن أتقبَّلهما كما هما، ولربما كان عليَّ أيضاً أن أتعلَّم الضحك على جنونهما اللطيف، لقد كنت أشعر بمولد إمكانية التهدئة في علاقاتنا، وهي بالتأكيد واحد من المجالات الأكثر أهمية لوصولي إلى الحل[116].

وأنا أنتظر، كانت لديَّ دوماً آلامٌ في الظهر، وأسوأ ما في الأمر أنني عند خروجي من عند والديَّ شعرت بوجع شديد، وقد

(115) كلمة (ovni) اختصار للكلمات (objet volant non identifié) بمعنى (جسم طائر مجهول) وأضيف إلى المختصر حرف (s) للتثنية (المترجم).

(116) الحل أو حل العقدة: لقد تنبَّهتُ فجأة إلى رمزية هذه الكلمة (الأصل الفرنسي).

تُرجِم الآن التوتُّر المتراكم أثناء حديثنا إلى تشـــنجات رهيبة، لم أكن أتوقع أن يعود الألم هكذا، مســـلَّحاً بمثل هذه الشَّـــدَّة، وبعد بضع ثوانٍ، مادتِ الأرض تحتي، وحاولتُ التمسُّك بأي شيء كيلا أسقط، ولحسن الحظ كان هنالك عمود نور، لم أكن أبصر جيداً، ولكـــن بدا لي أنني لمحتُ خيالاً، وقـــد حاولت رفع ذراعي، وهي حركة بدت لي ذات صعوبة غير معقولة، وتحتاج إلى جهد خارق، لم يأتِ أحد لنجدتي، وكان الشكل الضبابي ثمرة تخيُّلي، واصلتُ السعي لرؤية مَنْ يمكن أن يساعدني، فلم يكن هنالك أحد، وكان والدايَ يســـكنان في منطقةِ عمـــارات منعزلة، أي المعادِل للموت الاجتماعـــي الهادئ، كان الزمن يتحلَّل وقد استســـلمت لاجتياح حَشْـــد من الأفكار، على طريقة شخصية (ميشيل بيكُّولي) [117] Michel Piccoli لحظة الحـــادث في فيلم (أمور الحياة) [118] Les Choses de la vie، تمتمـــتُ بكلمـــات غير مفهومة على عتبةِ شكلٍ مضيء، يمكن أن أسمِّي ذلك نفقاً من نور، أو غطساً في صُفْرةٍ شاحبة ولكن باهرةٍ ممتزجة بأزرقَ حالم ببحار حارَّة، ومـــن ثَمَّ ســـقطتُ دفعة واحدة، مُغْمَىً عليَّ مـــن أثَر الأزمة التي كانت قد انتشـــرت في جســـمي كله؛ لقد غـــادر ظهري موضعه

(117) ميشـــيل بيكُّولي (مولود سنة 1925): ممثل ومنتج ومخرج وكاتب سيناريو فرنسي غزير الإنتاج في السينما والتلفزة والمسرح (المترجم).

(118) أمور الحياة: أحد أفلام (ميشـــيل بيكولي)، عُرِض ســـنة 1970، ويقصد بلحظة الحادث هنـــا تلك التي بدأت في أول الفيلم، مع بطلـــه (بيير)، الذي يعمل مهندس بناء طرق دولية، حين كان مســـافراً بســـيارته لقضاء إجازة فـــي (رِنّ) Rennes، حيث حصل له حـــادث مروري على الطريـــق أدخله في غيبوبة (كوما) coma، فنُقِل إلى المشـــفى، فاســـتعرض، وهو ينتظر لحظة الوفاة، شريط حياته كله وعلاقته بالأشخاص الذين ظهروا فيها، على طريقة (الخطف خلفاً) أو (استرجاع الماضي) flash-back، وشاركتْه في البطولة الممثلة الفرنسية ذات الأصل النمساوي (رومي شـــنايدر) Romy Schneider والفيلم من إخراج (كلود سوتيه) Cl. Sautet، وكان ذا طابع رومانسي درامي، وهو مقتبَس من رواية بذات العنوان للكاتب (بول غيمار) P. Guimard (المترجم).

المركــزي للألم ليصبح مركز زلزال ســطحيّ لعــدوى كلية، لقد انْهَرْتُ فاقداً الوعي.

وبعد قليل، فتحت عينيَّ في ســيارة إســعاف، وكنت أتنفَّس بواسطة قناع (أوكســيجين)، وكان صوت مِضَخَّته المنتظم تماماً مــن نحو آخر هو الــذي أعادني إلى وعيــي، وليس الفوضى أو الاضطــراب الذي ســبق ذلك، وجَّه إليَّ رجل شــابٌّ ابتســامة عريضة، قائلاً:

- كل شيء مرَّ بخير، لا تقلق.

- ......

- كان لديك توعُّك، وسنصحبك إلى المشفى الأقرب.

- ......

- هل بإمكانك أن تذكر لي اسمك؟

- ......

- اسمك؟ هل تتذكَّره؟

قلت له حينئذ:

- عندي ألم في الظهر..

لقــد كان وجه هــذا الرجل يبدو مُطَمْئناً حقــاً، وقد تعلَّقتُ بابتسامته كما يتعلَّق المرء بابتسامات المضيفات الجوِّيات عندما تجتــاز الطائرة منطقــة اضطراب جوِّيّ، فنحن نتقبَّل بســهولة فائقة أن بقاءنا على قيد الحياة مرتبط بملامحِهِنَّ، فإن ابتســم هذا الفتى الشاب فذلك لأنني قد تخلَّصت من ورطة، وكان يبدو ســعيداً لرؤيتي أعود إلى الحياة ومرتاحاً على وجه الخصوص، وعند الوصول إلى المشفى، وضع يداً على كتفي ليقول لي وداعاً، فقد وضعنــي بين أيدٍ أخرى، ويبدو أنه غيــر مكلَّف إلا بالنقل،

وكان يبدو لي أمراً غريباً ألا آرى ثانية هذا الشاهد المتميِّز على انبعاثــي، لقد كان في مقدمة المشــاهدين لواحدة من اللحظات الحاسمة في حياتي، وها هو ذا ينطلق ليشارك في لحظة أخرى عصيبة جداً مع مجهول جديد، ولم أنجح في أن أذكر له اسمي، وأنا غير متيقِّــن من أنني كنت في حالة يقظة، فالمرء يعود دوماً من اللاوعي عديمَ الاسم، وهو أيضاً لم يذكر لي اسمه، وسيبقى وجهاً يتردَّد عليَّ زمناً طويلاً.

وبعد بضع ســاعات، مُدِّدتُ على ســرير، في غرفة مشتركة مع ســيِّد عجــوز لم يكن يتحرك عملياً قــطّ، ومع وصول الجار الجديــد، الذي هــو أنا، لم تكن لتصدر عنــه أدنى حركة، كانت له لحية مدهشــة، ســوداء، ضخمة، معتنى بهــا، ناعمة، وعلى تباين مع مظهــره العام، وقد حاولتُ الشــروع في الحديث معه بلا طائــل، فكان الممثِّل الصامت الثاني بعدَ الرجل الشــاب في سيارة الإسعاف هذا النهار، إن حضوره البسيط، الشبيه بحضور كل أولئــك الذيــن التقيتُهم هذا اليوم، جعلــه يدخل في ذاكرتي مباشرة، وبينما كنا نُحقَن على الدوام بفقدان الذاكرة، فإن بعض الأيــام تصبح تتابعــاً من الصور التي لا تَمَّحِــي، إن كلَّ تفصيل، وكل شــيء، وكل عابــر في الممر، ذخيرة لفــرط التذكُّر في هذه الســاعات، ومن هذه الناحية، فإن ذاكرتنا هي التي تحدِّد درجة أهمية ما نعيشــه، وبالتأكيد، لن أنســى أبداً الطبيب الذي دخل حينئذٍ إلى الغرفة، قائلاً:

- كيف تحسّ الآن؟

- بخير.

- هل هذه هي المرة الأولى التي يحصل لك فيها ذلك؟

- نعـــم، فأنا لا أدري ما الذي حـــدث، فلدَيَّ أوجاعٌ كثيرة في هذه الأوقات..

- يمكن أن تكون هنالك أزمات محتملة متوالية ســبَّبت بغتةً وعكة خطيرة، وإن ما عانيتَ منه كان يشبه قطرة الماء التي..

- ......

- لقـــد راجعت ملفَّـــك الطبي.. وتمكنت مـــن الحصول على بيانات صورك الشعاعية، وتصوير الرنين المغناطيسي الحديث..

- وبعدَئذٍ؟

- وبعدَئذٍ، ليس لديك شيء.

- ولكن هـــذا غير ممكن، فلدَيَّ ألم شـــديد، ويبدو حتماً أن عندي شـــيئاً ما خطيراً، ويبدو أن الأطباء كانوا مخطئين، فالمرء لا يسقط هكذا في الطريق.

- إن كان الوجع قوياً جداً، فهذا ممكن.

- أنا لا أستطيع منه أن..

- أعلم جيداً.. ولكن بعض الأشـــخاص لديهم آلام في الظهر طيلة حياتهم..

- ......

- اســـمع.. إن ردة فعـــل جســـمك كانت جدِّيّـــة.. لا أريد أن أخوِّفَك.. لأن نتائج تصوير الرنين المغناطيسي كانت بالنسبة لي واضحة جداً..

- ......

- ولكنني سأضعك تحت المراقبة لبضعة أيام.

لم أردَّ بشـــيء، إن جملته: (بعض الأشـــخاص لديهم آلام في الظهر طيلة حياتهم) أجهزت عليَّ، ثم إن كلامه غير متماســـك؛

فقد قال ليس عندي شـــيء، ثم قال إنه سيضعني تحت المراقبة، فليــس هنالك شــيء أكثر إقلاقــاً من هذه العبارة، نحن لســنا حشرات، ولستُ في «مَرْطَبان». أوافق أن يُعتَنَى بي، وأن أُفْحَص، ولكنني لســت موضوعاً للمراقبة، وفي هذه اللحظة، جاء حامِلا نقّالــة إلى جــاري في الغرفة، ولم أفهــم إن كان عليه أن يجري عمليةً أم يغيِّر المكان، غير أن هنالك شيئاً واحداً مؤكَّداً؛ هو أنني لم أره ثانية، وبقي السرير قربي فارغاً. وفي الأيام التالية، حدث أن أدرت رأسي مراراً إلى مكانه، وأنا أتساءل إن كان هنالك حقاً رجلٌ من بداية إقامتي في الغرفة، وبعد كل ذلك، كان عليه هيئة الفقد.

وبعد قليل (ولســت أدري حقاً كم) حضــرت زوجتي، أخيراً حضرت زوجتي السابقة، ولنقل أخيراً (إيليز)، قالت:

- لقد جئتُ منذ أن علمتُ.

- هذا أمر لطيف.

- كيف تشعر؟

- بخيــر.. إنه ظهري.. إنها أزمة حــادة جداً نوعاً ما.. ولقد أغمِيَ عليَّ.. ولا شيء سيِّئٌ جداً.

- لكن لماذا لم تقل لي إن لديك دوماً ألماً؟

- كنتُ أظنّ أنه سيتحسَّن.

- أنــتَ تظنّ، أنــت تظنّ.. أنت بصراحة مُمِــلٌّ، أنت لا تذكر شيئاً، وهذا ما حصل لك أخيراً.

- كل شيء على ما يُرام، حقيقةً..

جلســتْ (إيليز) على حافة الســرير، وقد قــدَّرتُ إلى أي حدٍّ كانت تبدو قلقة، لقد مضى زمن طويل لم أكن أراها فيه مهتمة بي،

وبعد لحظة قلت لنفسي: إن هذه الحالة ستجمعنا ثانية، هذا أمر محتمل، لقد سقطتُ في الطريق، ويجب أن يكون هنالك شخصان لحملي، وانتكاسي كان أشبه بإنذار من الجسم، وقد دفعنا إلى التفكير جيداً فيما ينبغي لنا أن نفعله، ويبدو لي أنني كنت أرى الحب في طريقة حضورها إلى هنا، قربي، ولكنني كنتُ مخطئاً، فما كنتُ أراه كان إعراباً عن عطفها، لا عن حبها، إن التحولات العاطفية تكون أحياناً طفيفة جداً، وتكون خادعة تقريباً، ونمشي على حدٍّ من غير أن ندري إن كان تاريخنا في (سويسرا) أم في (فرنسا)، وبعض الناس يعيشون سنواتٍ هكذا، في غيابٍ من الشفافية، وفي عدم يقين القلب، وإذا ما كان لديَّ قابلية واضحة لعدم الوضوح، فأنا أعلم أن الأمور مع (إيليز) كانت محدَّدة دائماً، فالكلمات معها ستجد دوماً منازلها، في حين إنها يمكن أن تتوه معي سنوات إلى جانب القاموس.

وبعد قليل، وبينما كنت أروي بالتفصيل ما جرى، انخرطَتْ في الضحك، فقلتُ:

– لِمَ تضحكين؟

– لكن هذا حصل بالضبط بعد زيارةٍ لوالديك، منذ زمن وأنا أنتظر ذلك! أعني أن تكلِّمهم أخيراً بصراحة.

– حقاً؟

– لقد كنت أدفعك دوماً لاتخاذ موقف.

– إنهما غريبان، كما أعتقد، وعلى أي حال، قرَّرت منذ الآن أن أنسب تصرفهما إلى الجنون.

– أنتَ أيضاً مجنون قليلاً، فأنت لا تفعل شيئاً أبداً مثل كل الناس.

- أنا؟
- طبعاً، انظر إلى نفسك، حين يكون لديك ألم في الظهر، فهذا يأخذ أبعاداً مقدَّسة.
- وبعدُ، أنتِ لا تعلمين كل شيء.
- حقاً؟
- وأخيراً لا شيء، كنت أحب إلى حد بعيد أن يتوقف الوجع.
- يا مسكين..
- إنهم سوف يضعونني تحت المراقبة.
- حقاً؟
- نعم، لم يكن الطبيب مُطَمْئناً جداً، لم يكن يبدو متأكِّداً.
- يمكنني أن أساعده، فأنا بالتأكيد الشخص الأكثر مراقبة لك..
- أنت مضحكة جداً..

وتكلمنا بعدئذ قليلاً، ناسين تقريباً ظروف المشفى، وكنا نتناقش ببساطة، كزوجين قويين، أو زوجين تغلَّبا على أزمة، ولم تكن هذه حالنا، فلم تكن لدينا أزمة، ولم نتغلَّب على شيء، كانت (إيليز) جميلة، وفكَّرتُ في أنها هي التي يجب مراقبتها هنا، لا أنا. وفجأة، بدا لي ما كان يظهر لي مبادلة خفيفة، بين شخصين على وشك الانفصال، مطبوعاً بطابع الانجذاب، وأثناء تفاهمنا نفسه، كان شيء ما يظهر لي حزيناً، ولم أكن أحبه، وأخيراً، هذا التفاهم، ولستُ أدري لماذا سألتُ فجأةً:

- هل التقيتِ أحداً.
- ماذا؟
- هل لديك شخصٌ آخر في حياتك؟

– طبعاً لا.. لا.. بالتأكيد لا..

وبعــد مدة، نهضـتْ قائلة إنها أحضرتْ لي بعض الأشــياء، لقد اســتعنتُ بها أيضاً، ولقد حافظنا على عاداتنا، وكنت أفكِّر بسذاجة أن انفصالنا سوف يجلب لي الخير، ينبغي إعادة مسألة ما إذا كانت (إيليز) جزءاً مما أمر به حالياً على بســاط البحث إعادةً كليةً، بهدفٍ واحد هو أن أتعافى. لقد انخدعتُ، إن الحياة مــن غيرها كانتْ ترعبنــي، وبخاصة في هــذه اللحظة، حينما تركتني وحيداً في الغرفة.

أمضيت بضعة أيام في المشفى، وكما هو الشأن دوماً، عندما أجد نفســي في ســياقٍ طبي، لا يبقى لديَّ ألــم. لقد أخذوا لي صوراً شعاعية، وأخذوا دماً للتحليل، ولا أدري ماذا.. مسدَّداً من تعاونية الموظفين، ولكن لم يكن هنالك شيء جديد، وجلب ظهري لنفســه النســيان وكل الباقي أيضاً من جهة أخرى؛ كان المشفى عالَماً بين قوسين، كانت أهم الأوقات فيه أوقات الطعام، أتناول اللحوم المســلوقة وأنا أتفرَّج على البرامج السخيفة في التلفزة، وبإمكاني القول إن شيئاً ما لم يكن يؤلمني جداً سوى ذلك.

(٦)

شدة الوجع: ١
الحالة المعنوية: مُخَدَّر

(٧)

وفــي اليوم الذي غادرتُ فيه المشــفى، حضر إلــيَّ (إدوار) و(ســيلفي)، وقد ركبنا السيارة، كانا في الأمام، وأنا في الخلف، فكنــا تقريباً كزوجين مع طفل، وكانــا يرمقاني بنظرات قصيرة

عبر المرآة العاكسـة، بقصد التحقُّق إن كنتُ بخير، وقد جعلتهما يقودانـي بهـدوء وأنـا جالس علـى المقعد الخلفـي، وخاضعاً لعطفهما، لقد كانا يبدوان سـعيدَيْنِ بيومهما، ومسرورَيْنِ سروراً كأنهما لم يشـعرا به منذ زمن بعيـد، كان (إدوار) يصفِّر تقريباً، وكانت (سـيلفي) تحمَرُّ تقريباً، وقد توجَّهْنا نحن الثلاثة جميعاً إلى الريف، لقضاء يوم أحد قرب بحيرة، حيث قُمْنا بنزهةٍ ممتعة، لقد كانا يتخالسان النظر، وكانت تلك هي الزاوية الفضلى للتعبير عن المحبَّة، وذلك يتجلَّى شيئاً فشيئاً، لقد كانا يوطِّدان علاقتهما على حسـاب ظهري، وكنت عندئذٍ أزيدُ من بشاشة وجهي لأقدِّم لهما الألق الجميل لخيرهما.

وفـي بيتهما، كانت غرفتي نظيفة وجاهزة، وكان بإمكاني أن أشم رائحة المعجنات الإيطالية الشريطية المموجة (lasagnes) (طبقي المفضَّل) التي حضَّرتْها (سيلفي)، قال (إدوار):

– لقد أخفتنا..

– هذا لا شـيء، لقد أجريتُ فحوصاً جديـدة، وكل ما فيها يؤكد أن ليس عندي شيء، وأخيراً من وجهة نظرٍ طبية.

– هل لديك بعدُ ألمٌ؟

– ألمٌ قليل.

– يجب أن تجد له حلاً، فهذا غير ممكن أكثر من ذلك.

– أرجو ذلك، ولكنني بصراحة لا أرى شيئاً هنالك.

– اسمع، ربما كانت لديَّ فكرة..

– حقاً، ما هي؟

بدا (إدوار) حينئذٍ منزعجاً قليلاً، واقترب مني، وتكلَّم بصوت منخفض، قائلاً:

- نعم، أعتقد أنني أعرف ما يجب عليك فعله..
- حقاً.

وفي هذه اللحظة، صاحت (سيلفي) بطريقة آمرة، فلا يجب أن نجعلها تنتظر:

- إلى المائدة!

قال (إدوار) وهو يفرك خده:

- طيِّب، سوف أشرح لك فيما بعد..
- لكن لا، قل لي الآن، وبسرعة.
- لا، فيما بعد، فالأمر لا يحكى بثانيتين.
- ......

وأثناء تناول الطعام، لم تكفَّ (سيلفي) عن طرح أسئلة، مثل: (هل هو طيِّب؟)، (هل تحب الباشاميل؟)، (أليس هذا أطيب من مطعمك الإيطالي؟)، (هل أنت سعيد؟)، إلخ، وكنتُ أجيبها بين اللُّقَم: (نعم، نعم)، وكان (إدوار) يحاول أيضاً أن يظهر أنه يستمتع بهذا الطعام، غير أن زوجته كانت أقلَّ اهتماماً بسعادته الطَّبْخِيّة، ومما يثير الابتسام، أننا كنا على هيئة ثلاثة ممثلين في بقعة ضوء إعلانية، فـ (إدوار) كان يريد أن يفتح واحدة من أفضل زجاجاته من أجل (الاحتفال احتفالاً لائقاً) بعودتي، ولكن لم تكن لديَّ أي رغبة في الشرب، فبدت عليه خيبة الأمل وحاول أن يُلِحَّ قليلاً، ولكن (سيلفي) قاطعته بقولها:

- لقد قال لك إنه لا يرغب في الشرب!

فرد (إدوار) بقوله:

- طيِّب حسناً جداً.. سنشرب فيما بعد.

يمكن أن يقول المرء إنهما كانا يشتركان في منافسة للحصول على الميداليـــة الذهبية لراحتي، وإذا ما كنت متأثراً بعنايتهما بي، فعليَّ أن أقرّ بأنها قد فاجأتني، لقد اكتشفتهما من زاوية جديدة، فهنالك فرق شاسع بين معرفة المرء لأصدقائه والعيش معهم، فنحن متقاربون منذ أكثر من عشـــرين ســـنة، ولكن من غير أن نذهب لقضاء إجازة معاً مثلاً، وكان بعضنا يرى بعضاً على موائد العَشـــاء، وفي العروض المســـرحية، وفي المعارض، وفي النزهات، وكان بعضنـــا يرى بعضاً في أوقات من الحياة بعيداً عن المعطيات الأساســية للحيـــاة اليومية، لقد كنتُ أرى في (ســـيلفي) دوماً فنانة، وكانت مموَّلـــةً بالتأكيد، ولنقل مع ذلـــك إنها فنانةٌ ذاتُ ذوقٍ وصورةٌ لمقتضى العصر، لكنها كانت تظهر لي الآن كمهووســـةٍ بالمواعيد، حتى لا أقول إنها مستبدَّةٌ منزلية، وأما (إدوار)، الذي كنت أعرفه مسيطراً، وماكراً، فإنه يأخذ الآن هيئة حيوان مذعور، يقيس كلماته وحركاته خشـــيةَ أيِّ انزلاق صغير.

ولمـــا كنـــتُ متضايقاً من الرعاية المفرطـــة، فقد كظمتُ هذه النـــزوة الغريبـــة؛ يمكن أن تتملَّكنـــا رغبةٌ في قتـــل من يريدون الإحســـان إلينا، وكنتُ أرغب في البقاء وحيداً، وألا أتكلم المزيد، وألا أشـــرح درجة ألمي، فقـــد كان يرهقني أن ألاحظ دوماً القلق فـــي نظراتهما، وفي هذا المســـاء أغلقت غرفتـــي بالمفتاح، وكان ذلك إشـــارة لا تخطئ، وكنتُ أخشـــى أن يأتيا للتحقيق فيما إذا كنتُ بخير خلال الليـــل، لأن صداقتهما لا تعرف راحة، وحبهما لا يأخـــذ إجازة، وإذا ما كنتُ أنام نوماً ســـيِّئاً جداً خلال إقامتي في المشـــفى، فـــإن عدم الحركة القســـريّ أعاد شـــحني تماماً،

لم يكن يبدو عليَّ أنني نعســـان، فأمسكتُ بهاتفي المحمول، فلقد كنـــت -طيلة ســـنوات- متعلقاً بهذا الجهـــاز، أترقَّب بلا انقطاع رسائل جديدة، على حساب الواقع أحياناً، وكانت الرسالةُ المكتوبة تهيمِـــن على حياتي الاجتماعيـــة، والهاتف هو الرابط الدائم مع المؤسسة، وفي كل وقت، كان بالإمكان إعلامي بشيء ما، وعندما كنت أتظاهر بأنني أجد هذا غير محتمل لأن الاتصال عليه دائم بهـــذه الصورة، فمـــن البدهي أنني كنتُ أكـــذب، فقد كنتُ أهيم بذلـــك؛ وكانت تلك حُمَّايَ التـــي كان بإمكانها اقتلاعي دوماً من الحاضـــر، وكنتُ أراجع بريـــدي الإلكتروني (إيميلاتي) بلا أدنى حذف مؤقـــت، وكنت أرد على العملاء يـــوم الأحد، على أمل أن يلاحظـــوا عظَمةَ مِهَنِيَّتي، وكانـــت زوجتي تتوتر أعصابها أحياناً عندما تراني أعمل بلا توقُّف على الجهاز، وكنتُ أشـــرح لها كل مرة إلـــى أي حد كانت القضية التي أعالجهـــا ذات أهمية عليا وكبرى. ولكن منذ بضعة أيام تغيَّر كل شـــيء، فلم أكن أســـتعمل محمولـــي خلال وجودي في المشـــفى، إن هذا الجهاز، الذي كان مهمـــاً جداً في حياتي، فَقَدَ فجأة كل أهمية، وقد تســـاءلتُ لماذا تركتُ نفســـي أتلَوَّث هكذا، فمنذ ســـنوات، لم أعش يوماً واحداً مـــن غير ارتباط بالأمور الافتراضية، وأنا أدرك الآن أن كل ذلك أيضاً قد أسهم في إرهاق أعصابي وظهري.

كانت هنالك عدة رسائل تنتظر في صندوقي الصوتي، وكانت مـــن زملاء وأصدقاء، وهنالك واحدة من والدَيَّ، وباختصار هذا مـــا كانا يقولانه: (نرجو أن تكـــون بخير.. لقد فكَّرنا ملياً في كل مـــا قلتَه.. ولا داعي لأن تضع نفســـك في مثل هـــذه الحالة..)، وهنالـــك بضع جملٍ من هذا القبيـــل، وأيضاً محاولة للحنان في

الآخـــر، وربما كان الأمر يتعلَّق بقولهما: (نقبِّلك)، ولكنني لم أكن متأكِّداً، لقد كان الأمر عَرَضِيّاً؛ كانت الشـــبكة أقل ازدحاماً في وقـــت التعبير عن العاطفـــة، ولم أكن أتحايل علـــى قُبَل والدَيَّ. مســـحتُ الرسالة وانتقلت إلى التالية، لقد فاجأني حقاً أن أكون موضوع هذا التعاطف، لقد ســـمعتُ صوت أمينة سري، وكذلك صـــوت الصديقة الأثيـــرة عند (إيليز)، وللمـــرة الأولى منذ زمن بعيـــد، ومن الحمق قول ذلك، كان لـــدَيَّ انطباع بأنهم يحبونني، أخطأت حين كنتُ متحمِّســـاً لعزلتي، فقد كان لي أصدقاء كانوا يساعدونني وآخرون كانوا قلقين على مصيري، لقد كنت عاجزاً عن إقامة صلة بين ما كنتُ أفكِّر فيه عن حالتي (كنت قد اتخذت قرارات لمحاولـــة أن أتعافَى) وما كان المحيطون بي يحسُّـــون به (فقد كنت عاطلاً من العمل، وعلى وشك الطلاق، وفي المشفى)، وكل ذلك من وجهة نظرهم كان يستحق تماماً دعوة إلى الدعم.

وأخيراً، عرفتُ صوت (أوديبير) صاحب العمل، لقد كان صوتاً وقـــوراً للغاية (إنه صوته في الاجتماعات الكبيرة مع اليابانيين)، وكان يسألني أن أتصل به قائلاً: (لديَّ شيء ذو أهمية أريد قوله لك)، وقد أضاف قوله: (إنه أمر مســـتعجَل جداً)، وقد تساءلت عمـــا لديه ليقوله لي، ومع ذلك، لـــن يحدث أن أطلبه يوم الأحد مساء، حتى ولو ذكر كلمة (مستعجَل)، وهذه القاعدة من التأدُّب كانت تلائمني؛ فلـــم تكن لديَّ على وجه الخصوص رغبة في أن أكلِّمه، فهو لم تكن لديه لي أي مصلحة، فحياتي في المؤسَّســـة، ومـــا كان قد قاله لـــي، وعقابيل قضيتي، لا شـــيء من هذا كان يعنينـــي الآن، وكنت أريد ببســـاطة أن أنام قليلاً، ولكن كيف أبلغ ذلـــك؟ ولم أحاول قـــط أن أَعُدّ الخِراف، فقد كنـــتُ دوماً أجد

جَرْدَ كُتَل الصوف أمراً سخيفاً تماماً كي أنام[119]، وكنت أتخيلها تقفز من فوق جســدي، وبعضها أكثر إثارة للسخرية من بعضها الآخر، وكنت أحكم على نفسي بأنني أكثر إثارة للسخرية وأنا في سريري أراقبها في مخيلتي، وانتهى بي الأمر إلى الضحك منها، وكنــت أيضاً أبعد ما يمكن عــن النوم، ولكنني على الأقل لم أكن أشــعر تقريباً بأي ألم في الظهــر، وكانت الخراف قد انصرفت عني، وأخيراً، لقد أحسنتُ صنعاً باستدعائها.

(٨)

شدة الوجع: ١

الحالة المعنوية: نباتيّ مُغالٍ

(٩)

لقــد مضى زمن طويل لم أكــن أنام فيه نومــاً جيداً، وكانت الطريقــة التي أنقطع فيها عن المادة تبــدو لي طريقة ناجعة، ولما تركت وضع الرجل المتنبِّه للناس، شعرت براحة جديدة، إن الحياة الحديثة تتنافى مع النوم، فالمرء لا يدري كيف يســتريح، فقد كنتُ أتابــع الأخبار على الدوام، وكنت أول مــن يطّلِع على أي اعتداء، وكل إعلان سياســي، وكل نتيجة رياضيــة، وكنتُ أحيا حياتي في الوقت نفسه كما يحياها ملايين الأشخاص، وكان هنالك ما يُشْعِر

(119) من اســتطاع أن يبدع قصة الخراف هذه؟ من هو أول رجل، أو أول امرأة قالت لنفســها: (انتبهي، هذا المســاء ســأعُدّ الخراف كي أنام)؟ وكيف فعل هذا الشخص، بعد ذلك، ليُعْدِيَ بها الناس كلهم؟ (الأصل الفرنســي) [عَدُّ الخراف: تمرين عقلي يلقّنه الوالدان لأطفالهما قبل النوم يتخيلون فيه خرافاً تجتاز حاجزاً أو تقفز من فوق سياج، إلى درجة الغُفُوّ، ويروى أن أصله يعود إلى رعاة في بريطانيا، ثم انتشــر إلى ســائر البلدان الغربية، ويُكَنّى بِعَدِّ الخراف في الفرنسية اليوم عن إنجاز عمل ممل وغير ذي قيمة (المترجم)].

بالإرهاق، ولكن كل ذلك كان ورائي، كان بالإمكان أن ينهار العالم، ولم يكن ذلك يهمني في شيء، نظرت في ساعتي مرة أخرى؛ كانت العاشرة تقريباً، ولم أعد إليها، منذ متى لم أنم صباحاً هكذا؟ بدا لي النهار أيضاً أكثر اعتدالاً، ومُنْبَتّاً عن ساعاته الأولى.

اكتشـــفت حينئذ كلمةً تحت بابي، فنهضتُ بهدوء لالتقاطها، فعرفت فـــوراً خط إدوار غير المقروء (أرجـــل الذبابة)[120]، كان يقتــــرح عليَّ فيهـــا أن أنضم إليه في وجبــــة الغداء، وأضاف في الأسفل بخط ناعم جداً: (وسنتمكَّن من الكلام..)، وكان كل ذلك مع علامات وَقْفٍ، ويشـــبه وشوشـــة بقوة، لقد كان البارحة يريد أن يحدِّثنـــي عن فكرة تتعلَّـــق بظهري، ولكن لم تتوافر لنا فرصة كـــي نكون وحدنا، وقد رأيت بعد قليل أنْ ليس لديَّ رغبةٌ في أن أحدِّد برنامجي منذ اســـتيقاظي، لقد كنـــتُ أمضيت الأحد كله بصحبتهما، وأنا في حاجة إلى اســـتراحة من صداقتهما، وكنت أختلس الدقائـــق بعضها وراء بعض. حضرت (ســـيلفي) وكأنها كانت تراقب استيقاظي، قائلة:

– لقد استيقظت أخيراً؟
– نعم، للتَّوّ.
– لقد جهَّزتُ القهوة، هل ترغب في أن أحضرها إليك؟
– لا، دعيها، لسوف أنهض وآتي إلى المطبخ..

وبعد هـــذا النوع من الجمل، يغـــادر كل مُضيف عادة غرفة الضيافة، ولم تكن جملتي الأخيرة تستدعي أي تأويلٍ، ومع ذلك،

(120) هذا أيضاً، يجب شـــرحه لي: أعني التجافي الكلي بين عالم الطب وعالم الكتابة المقروءة (الأصل الفرنســـي) [يكني الفرنســـيون عن الكتابة التي تشبه الخربشـــة بـ (أرجل الذبابة) لأنها تترك آثاراً عشوائية (المترجم)].

ظلَّت (سيلفي) على العتبة، وكانت ترمقني بثباتٍ من غير أن تقول شيئاً، على الرغم من أنني أضفتُ بعد لحظةٍ قولي لها: (سألحق بك إلى المطبخ..).

ومن غير أن تسمع اقتراحي، اقتربت مني وكأنها منوَّمة مغناطيسياً، لقد كانت تبدو خاضعة لنزوة غريبة، جلست على السرير، وهي تنظر في عيوني مباشرة، وفي هذه اللحظة، بدا لي تعبيرها لم يَسْبِق له مثيلٌ، ولم أكن أراها قط هكذا، فليس على وجهها شيء، لا ابتسامة ولا قلق، بدأت يداها بحركةٍ، أو بالأحرى بدأت يدها اليمنى، لقد شرعت تداعب ملاءة السرير، تداعبها بهدوء، بكل هدوء حقاً، ومسَّت ساقي مساً خفيفاً، غير أني لم أكن متأكِّداً تماماً من ذلك، لم أجرؤ على قول شيء، ولم أكن أدرك ما الذي كانت بصدد فعله، أو بالأحرى نعم كنت أدرك، ولكنني لم أكن أرغب في الاعتراف بأنني كنتُ أدرك، ومع ذلك، لم يكن هنالك حقيقةً أيُّ شك، لأن يدها أصبحت على فخذي الآن، كانت يدها تصعد وتنزل على طول ساقي، وكانت تقترب كلَّ مرة أكثر من مَتَاعي، تظاهرتُ بالتراجع، وبابتعادي، غير أنها زادت ضغطها.

حاولت (سيلفي) عندئذٍ أن تقبِّلني بطريقة كلية، ومدَّت شفتيها، وعلى الرغم من وضعِ شفتيها هذا، وتفوَّهتْ ببضعِ كلمات بذيئة لا أجرؤ على ذكرها، ويمكن القول إن سنوات من الغُلْمَة المقموعةً قد انفجرت فجأة، قلتُ لها:

– ما الذي تفعلينه؟

– لا أستطيع الصبر أكثر، فمنذ زمان وأنا أشتهيك.

– لكن هذا لا يجوز! لا يمكنني أن أفعل ذلك! لا أستطيع فعل ذلك بحق (إدوار)!

- أوه.. (إدوار)، إنني لا أبالي به! لقد مضت شهور لم يلمسني فيها!

لـــم أكن أدري كيف أتفادى هجوم (ســـيلفي) عليَّ، وقد كنتُ محشوراً في زاوية من السرير، وقد أدرتُ وجهي بقدر ما أستطيع، ويبدو أنهـــا لم تتبَيَّنْ أن هنالك نقصاً فـــي تبادل الرغبة، وليس سوى الرغبة، كنت أفكِّر في علم الأخلاق. (إدوار) كان صديقي، وكان يبدو لي أنه لا يجوز للمرء النوم مع نســـاء أصدقائه، وهذا بالتأكيد من نحو آخر تعريف الصداقة؛ أن تكون صديقاً لأحدهم، يعني ألا تنام مع امرأته، إذن لا، وبصراحة لا، وقلت ذلك. وفكَّرت أيضاً عَرَضاً في أن (إدوار) كان قد كذب عليَّ، فأنا لا أزال أذكر خطبته الطويلة عن الحيوية الجنســـية لزوجته، وأنا أســـتمع له، كان هـــو وزوجته قد عثـــرا على علاج الملل، وكنـــت قد أعجبتُ به لذلك، وشـــعرت بأنني مذنـــبٌ فيما بعد لأنني لـــم أكن بهذا الجنـــون في الرغبة الثابتة مع زوجتـــي، وكنت أعاني ليس فقط من الشعور بالذنب من الرغبة في النساء الأخريات، وإنما أيضاً من الشعور بالذنب من الرغبة في زوجتي، ولا شيء كان يبدو لي أكثر مأساوية من التقدم بصورة اثنين يتقاسمان الأشياء الجميلة (الأولاد، والذكريات، والحنان) مضيِّعَيْنِ تدريجياً الميل للشـــهوة، كانت الحياة تبدو لي سيئة الصنع، وكانت قصص (إدوار) تفاقِم فيَّ وعكة الانحطاط الجنسي.

لقد علمت الآن أن كل شـــيء كان مزيَّفـــاً، لأنني أعتقد أنها كانت تقول الحقيقة؛ الجسد لا يكذب، إنَّ جعلَكَ تعتقد أن حياته كانـــت أفضل من حياة الآخرين لا يليـــق بصديق، وأخيراً أدركت تماماً أنه كان يكذب قبل كل شيء على نفسه، ويبدو أن اختراعه

حياةً شـــديدة الحرارة في ســـمعي كان يريحـــه، وأثناء ما كانت جميع هذه التأمُّلات تتزاحم في ذهني، كانت (ســـيلفي) تواصل عراكها ضد مقاومتي، فكرَّرتُ لها قولي:

- توقفي، إنني لا أريد..
- أوه، ليس هذا ما كنتَ تقوله! أنت لم تكن تحلم إلا بهذا!
- كان ذلك منذ عشرين سنة..
- حسناً، إنني أقدِّم لك نفسي.. أخيراً..
- ......

من المستحيل أن ننكر أن ذلك كان حقيقياً، لقد كانت (سيلفي) تذكِّرني بخيالٍ كُلِّيّ بالنسبة لي أثناء لقاءاتنا الأولى، أكبر عمراً، وأكثر تحرُّراً، كانت (ســـيلفي) حلم كل رجل شاب تخلَّص بالكاد مـــن المراهقة، ولكن هذا الخيال تبدَّد، كما رويتُ من قبل، بقدوم (إدوار). إن العـــلاج الأفضل لإنهاء هُيام مـــا هو أن تتزوَّج المرأة المحبوبـــة من طبيب أســـنان، وبعد هذا النوع مـــن الإعلان، فإن الرغبة تهاجر مباشـــرة إلى الطرف الآخر من عالم الغرام، وها هي تحاول إنعاش لهيبي البعيد جداً، نافخة بشـــدَّة على الجمر البارد. وحتى لا أضايقها، قدَّمت حُجَّةً أخلاقية مهمة جداً، حُجَّةً جنَّبتْني الاعتراف بالغياب التام لرغبتي، وهي: (لا أستطيع فعل ذلك بحـــق إدوار!)، وبعد لحظة، اعتدلـــتْ وكأن الواقع أو حتى الحياء قد اســـتردَّها، وأظن أنها تردَّدت في الذهاب من غير أن تقول شيئاً، ولكنها في نهاية المطاف قالت متلعثمة:

- أنا آسفة، لست أدري ما أصابني.
- لا بأس.
- أرجو أن تنسى لحظة الضلال هذه من جانبي.

- نعم، نعم، بالتأكيد..

نهضت بهدوء، ولكنها غادرت الغرفة بسرعة فائقة.

وهكذا، اختارت لطيشها العابر نزوة لا يمكن السيطرة عليها ولــذا فهي معذورة، والغلطة ليســت غلطتها، كان جســدُها قد تصــرَّف تصرُّفاً غير ملائم، وكان لديَّ شــعور بأنها ارتمت عليَّ رغماً عنها، كمن يطلب نجدة. لدى بعض الناس نزوات انتحارية، ولــدى آخرين نزوات جنســية. أنا لا أقــول إن الرغبة في النوم معي تســاوي نوعاً من رفض الحيــاة، لا، أنا لا أقول ذلك، ولكن كان يبدو أن اقتحامها كان اقتحام كائن في آخر الســباق، امرأةٌ تائهة بين الشــكوك، كانت في منتصف العمر، وكانت شابة جداً في ثوب عجوز، ومن قبل كانت عجوزاً جداً في ثوب كائنٍ شابّ، وقد ندَّد جســدها بقلق تجاوز الحرمان البسيط، وكان ما فعلته معي فاصلاً بالنســبة لها، ولسوف نفاجأ جميعاً بالقرارات التي لن تتأخَّر عن اتخاذها.

بعد بضع دقائق، لحقت بـ (سيلفي) إلى المطبخ، كانت تجلس بلا حَرَاك على كرســي أحمر صغير بلا ظهــر، فاقتربت منها، وتناولــت يديها لإجبارها على القيــام، ووجهاً لوجه، أخذ أحدنا ينظر إلى الآخر للحظة قبل أن نشرع في الابتسام، وقد ضممتها بذراعيَّ، كان بإمكان عشــرين سنة من صداقتنا أن تتلخَّص في هذه الحركة، وقد بقينا لحظة هكذا، لم يكن هنالك شيء خطير في الأمر.

(١٠)
شدة الوجع: ٥ ,٠
الحالة المعنوية: الهروب
(١١)

وأنا ذاهب للقاء (إدوار) لتناول الغداء، حملت جميع أمتعتي، وقــد فهمت (ســيلفي) أنني لــن أعود، كان علــيَّ أن أعيش في مــكان آخر، ولم أكن أعلم بعدُ أيــن، وفي النهاية كنت أحب هذا الإحســـاس، إنه لنادر جداً في حياة كحياتي ألا أعرف أين سوف أنام في المســـاء نفســـه، لقد صرت بدوياً مترحــلاً في مدينتي، لســوف آخذ بالتأكيد غرفة في فندق، وهذا لن يقلقني أكثر من ذلك، كانت الأحداث تتساب فوقي، وكان ظهري يشكرني عليها. إن الطريقة التي كنتُ أتصدَّى بها للأشــياء، باســترخاء مدهش جداً، جعلتني أقر أكثر من أي وقت مضى بأن ألمي كان من النوع النفسي-الجســمي[121] psychosomatique، فبالترويح عن نفسي، وبتنظيم مشكلاتي، لسوف أبدِّد أوجاعي.

ولكن هذه الأوجاع كانت بالتأكيد أكثر انحرافاً من ذلك، وقد كان يكفي أن أعبِّر عن أقل يقين يخصّ شفائي حتى تعود وخزاتٌ تلازم أسفل ظهري، فكان جسمي يذكرني وشوشةً بقوله: (لا، لم ينتهِ الأمر). كان ظهري يتصرف مثل شعور (راسكولْنيكوف)[122]

---

(121) هو فرع من فروع الطب النفســي موضوعه معالجة الأمراض العضوية المرتبطة بأسباب نفسية (المترجم).

(122) راســكولْنيكوف: بطل رواية (الجريمة والعقاب) لدوستويفســكي، وهو طالب فقير عمره 23 ســنة، ترك الدراســة وأصبح بلا عمل، رهن ســاعة أبيه لدى عجوز مرابية، ثم قرر قتلها، والاستيلاء على أموالها، إلا أن وخز الضمير وتأنيبه بعد ذلك عكرا عليه صفو حياته كلها، فكانا أشــد عليه من أي عقوبة يمكن إنزالها به من قبل المجتمع [انظر ما سبق لنا ذكره عنه أيضاً في احد هوامش الفقرة (13) من القسم الأول من هذه الرواية] (المترجم).

بالذنب، (ينبغي لي أن أتحمَّل ألمي بصبر)، إنها العبارة التي كنتُ أتمسَّــك بمعناها جيداً أكثر من أي وقت مضــى، وكان عليَّ أن أنتظر ساعة سعادتي، ومع ذلك، فإنني كنت أشعر، عند كل عودة للوجع، بأنني أكثر إنهاكاً، لا شيء أسوأ من الانتكاس (إن الكلمة نفســها مرعبة)، ولا شيء أسوأ من عودة الألم عندما يكون المرء قد اعتقد أنه تخلَّص منه.

جلســت على مقعد وكنت أســتطيع أن أرى سكون روعي من الدقائق الماضية يهرب مني مثل شخص مجهول يدخل في حشد غفيــر، وكانت الراحة قد فــرَّت مني، وتغيَّــرت حالتي المعنوية بقســوة، لقد كنت أخضع لتغيُّرات في جســمي، ضحيَّةِ الجنون الدوري النمطي cyclothymie typique لدى الضعفاء، ومن موضوع إلى آخر، أخذت الأفكار الســود تتقدم إلي، فبينما كنت للتو أتباهى ببهجتي في هذه الحياة الجريئة (كنتُ قد ابتســمت من أنني لا أدري أين ســأنام هذا المســاء)، فهــا أنذا تلاحقني كَثْرةٌ من التســاؤلات: ماذا أصنع بأيامي؟ كيف أكســب عيشي؟ هل ســينتهي بي الأمر إلى كرسيٍّ نقّال؟ ومن أجل توضيح قلقي، رأيــت بغتةً غيرَ بعيدٍ مني رجلاً متشــرِّداً [123] SDF، وكان هذا الرجل في نحو الخمســين من العمر، وربما أقل، وربما كان بدقة في مثل سني، ماذا أعرف عنه؟ إن عاش المرء في الشارع فينبغي له أن يشــيخ، وهو يزيد عشر ســنين عن كل سنة تشرُّد، فكيف لا نجــد فيه علامة واحدة عليه؟ ذلك الرجــل هو أنا، كان ذلك الكائن الذي أمضي نحوه، لم يكن هنالك أدنى شــك، وكيف كان

(123) مر بنا أن هذه الحروف تطلق في فرنســا على المتشــردين، وهي اختصار للكلمات (بلا مأوى ثابت) (المترجم).

بإمكانـــي ألا أُقِرَّ بوضوحِ هذا الظرف الـــذي كان ينتظرني؟ فلم يكــن لديَّ عمل، ولا زوجة، ولا مال، ولا شـــيء، وابناي يواصلان حياتهمـــا الآن من غيري، وكانا قد اســـتبعداني تدريجياً، وكيف لا يخجلان مـــن أب مثلي؟ أبٍ مُنعوِج، وضعيـــف البنية، ومنبوذ عاطفياً ومهنياً؟ كلما كنت أفكر فيه، كنت أعرف نفســـي في هذا الرجل هنا، ولم أكن أســـتطيع أن أكفَّ النظر عنه. اقتربت امرأة منه عندئذ لتناوله قطعة من ذوات العشرة (سنتيمات)، وأخيراً، لم أســـتطع رؤية المبلغ، ولكني كنت أشـــعر أنـــه زهيد، لقد كان الأمر مبادرة صغيرة، وهي بالتأكيد أفضل من لا شـــيء، ولكنها كانت مبلغاً كبيراً في مثل حالته، عشـــرة (ســـنتيمات) لا أكثر.. وقد شـــكرها بتوجيه ابتســـامةٍ عريضة إليها، ابتســـامةٍ واسعة، هي ابتســـامة القرن، اســـتطعتُ أن أرى أنه لم يكن لديه أسنان تقريباً، ولم يكن قادراً على الاعتناء بنفســـه، وكان سيموت. إذن نعم، في مثل هذه الأحوال، يبتســـم المرء لامرأة ألقت إليه بعشرة (سنتيمات)، لقد كنت أود أن أتبع هذه المرأة كي أشكرها بدوري؛ فقد كان يتملكني شعور بأنها كانت قد أعطتني أنا قطعة النقود تلـــك، كنت أود أن أباركهـــا، لأن أحداً لم يكن ينظر إليَّ، ولا أحد سينظر إليَّ.

هذا إذن ما جرى من أمور لا تصدَّق. لقد قدَّمتْ لي الحياة، فـــي علم الأمراض المحض ثنائي القطبية، خبراً أتاح لي تحطيم الخيال الجامح لانحطاطي، لقد كنت للتو أشـــرد في بحر أسود، وينبغي أن أعترف بذلك، مع حقيقة مائلة إلى التضخيم المأساوي لحالتي، وقـــد أفاد ذلك فـــي الانحراف عن النســـخة الكارثية مـــن حياتي، وفي الذهاب إلى (الســـيناريو) الأســـوأ، والبالغون

يحتاجــون أحياناً إلى ذلك، لأنهم لا يبلغون حد البكاء كالأطفال، ولا يبلغون حد تفريغ شكوكهم وأحزانهم عن طريق الدموع. كنتُ جالســاً على مقعدي، عندما تذكرني الواقع بشكل رنين الهاتف، نظرت في الاسم الذي ظهر، فإذا هو: (أوديبير)، ونتيجةً لاعتداء (ســيلفي) الصباحي، نسيتُ تماماً أن أطلبه، مع أنه تلفَّظ بكلمة (مستعجَل)، فتحت الهاتف، وقلت:

- ألو؟
- آ.. صباح الخير.. ألا أزعجك؟
- لا، لا.. إطلاقاً.
- هل تلقيت رسالتي؟
- نعــم، نعم.. عذراً.. لم أســتطع أن أطلبك من قبل.. فلديَّ بعض المشاغل الصحية..
- آ.. أرجو أن تكون بخير.
- نعم، شكراً، أعتقد أن الأمر سيكون على ما يُرام.
- طيِّب، حسناً جداً، لأن الصحة هي الأهم.
- نعم، معك حقّ بالتأكيد.
- كنتُ أود أن أتحدَّث إليك عن تسريحك.
- ......
- لديَّ أخبار طيِّبةٌ جداً.
- آ..
- ســأتجاوز التفاصيل، ولكن زميلك لم يرفع شكوى ضدك، وقد اتفقنا على تجنيبِك التسريح بسبب غلطة خطيرة..
- آ.. شكراً..
- وبالنتيجــة.. وبالنظر إلى أقدميتك في الشــركة، ســوف

تقبض شيكاً.. وأخيراً، عليك أن تحدِّد الوقت الذي تعود فيه..

– أعود؟

– نعم، أخيراً، كما تسمع.. سوف تحدِّد الوقت الذي تعود فيه..

– أحدِّد الوقت الذي أعود فيه؟

– نعم، أخيراً.. أليس هذا خبراً طيِّباً؟!

– بلى، حقاً.. إنه طيِّبٌ جداً.. أشكرك، يا سيِّدي.. على كلِّ ما فعلتَه..

– العفو.

– ......

وأضاف قبل أن ينهي المكالمة قائلاً:

– سوف نشتاق إليك.

بقيتُ برهةً من غير حَرَاك، كانت هذه المحادثة مدهشة، فإذا ما كانت قد جعلتني أفهم أنه كان قد فعل كل شيء من أجل حل مسألة تسريحي هكذا، فقد فوجئتُ بلهجته المرحة، ويمكنني أيضاً أن أقول: بمحبَّته، ولم يكن يخطر ببالي أن يقول لي: (سوف نشتاق إليك)، لقد كنت عملت أكثر من عشر سنوات مع هذا الرجل، فإذا لم يكن جاف الطبع ولا كريهاً، فلا يمكن أن نقول إنه كان حارَّ المعاملة، فقد كان دوماً يحتفظ بمسافة ضرورية مع موظفيه، متجنِّباً إقامة علاقات صداقة مع أيِّ شخص. وأفهم الآن أنه كان يتصرَّف باستراتيجية مهنية، وأما طبيعته الحقيقية فكانت شيئاً آخر تماماً، وقد كان عليه، عندما يصل في الصباح إلى مكتبه، أن يضع شخصيته الحقيقية في صندوق صغير، كانت المؤسسة عالماً داخل العالم، عالم بحِيَله، ومظاهره، حيث

يقــوم كل واحد بدور تبعاً لمركــزه، وقد أدركت القواعد في وقت مغادرتــي اللعبة، وهــذه هي بالتأكيد الســمة الأهم في طبعي؛ وهي امتلاك قطار متأخِّر بلا انقطاع عن الواقع[124]، لقد كانت مشــكلتي تكمن في عدم فهم ذلك الواقــع في الوقت الذي كنت أتقدَّم فيه، داخل المؤسســة، بين السفالات الممكنة. بالتأكيد، لم أكن غافلاً عن بعض أنواع الفساد، بل بالعكس، لكن عدم قدرتي على التقدُّم مقنَّعاً جعلني في نهاية المطاف أعمى عن المنافسات، ولــم يكن لــديَّ أي ندم، لأنني لا أملك القدرات المكتســبة، لكي أمضي إلى أعلى درجات التسلســل الإداري، ولم أكن سياســياً كفايةً، ولا كوميدياً كفايةً، ولم تكن لديَّ موهبةٌ لأن أكون إنســاناً آخر، ولقد كنت أشعر باستمرار بأنني حبيسٌ في نوع من الدرجة الأولى، ومحكوماً عليَّ أن أكونَ أنا نفسي.

ولقد اســتغرقتُ أيضاً بضع دقائق قبــل أن أفهم ما انطوت عليــه هذه المحادثة واقعياً؛ ففي الظاهر، كنتُ ســأذهب لقبض تعويضات مجزية، والإفادة أيضاً من إعانات البطالة، وبعد بضعة أيام من إعلان وراثة زوجتي، واصلتُ الإبحار في الإلغاء الخالص والبســيط لواجباتي الماليــة، وكان بإمكاني أن أعيش على الأقل ســنتين أو ثلاث سنوات من غير أن أعمل شيئاً، وهذا ما لم أكن أتمنــاه، ولكن كان لديَّ الوقت لآخذ وقتي، وقد فكَّرت في كل ما يمكنني عمله بهذا المال، ولم يحصل شيء، لم يكن لديَّ أيُّ رغبة، ولا أيُّ أمنية، ولا حتى في الرحلة أيضاً، إن فكرة سفري في مثل حالتي كانت ترهقني ســلفاً، لم أكن أرغب في شــيء، وهذا لن

(124) كان يحــدث لــي أن اجد يوم الخميس جواباً عن ســؤال كان قد طُــرِح عليَّ يوم الإثنين (الأصل الفرنسي).

يغيِّر في الحقيقة ماضِيَّ، فأنا لم أكن مِصرافاً قطّ، ليس بخلاً، ولكن لعدم اهتمام كلي بالمشـتريات، ولم أكن قد فكَّرت قط في أن أعيش مثل هذه الفترة بلا زوجة، ولا أولاد، وبلا وظيفة، وبلا قلق مالي، كم مرةً في الحياة يمكننا أن نعيش بلا أيِّ إكراه؟ هذا ما لم يكن ليحدث لي، فقد كنت أحيا حياة لا مثيل لها.

كنـت قد أمضيت سـنوات وأنا أشـعر فيها بضيـق مالي، الضرائـب، وكل مـا يتوجب عليَّ دفعه، وفي مـرات كثيرة، كنت أسـتيقظ في عِزِّ الليل، لأن لاشعوري كان يجري حسابات رغماً عني، كنت أفكر في قيمة سداد قروضي، وأتردَّد بين خيارات مالية مختلفة، أحسب ضريبتي الجديدة مع التغيير الحديث للحكومة، وأفكـر بفزع في زيادة التأمين، ومن ثَمَّ كانت فاتورة الغاز تخطر على بالي، وكذا تأمين السـيارة، ونفقات المدرسة لابني، وأعياد الميلاد السنوية لكل الناس وفي كل الأوقات، وكذلك (إيليز) التي كانت تسـأل بانتظام: (متى نعيد دَهْـنَ الحمَّامات؟)، لقد كنت أفكِّر كلَّ الوقت في كل هذه الأمور، ولكن بشكل مُسْهَب، حتى من غير أن أدري به، كما لو أن أسـاليب القلق كانت تجوب أجسادَنا علـى الدوام بطريقة ذاتية، وعندما حصلـت على التحرُّر المالي أقررتُ، بصورة غريبة، إلى أي درجة كنتُ أعيش سنوات من هذا الانقياد المذعور، لقد كنت أشعر به داخل جسمي، إن شيئاً ما كان قد تحرَّر فجأة، فتعافيت، نعـم، يمكنني أن أقول ذلك، لقد كان ظهري يعاني أيضاً من علاقتي القلِقة بالمال، ومن المؤكَّد أن ذلك لم يكن السبب الرئيسي لأوجاعي، ولكنني أشعر بالراحة، وكانت لديَّ الرغبة في أن أدخل إلى أي محلٍّ وأن أشتري أي شيء. في العادة، كنتُ أوازن كثيراً بين حسـنات كل ما أشـتريه ومساوئه،

حتــى إنني كنت أنتهي إلى إقناع نفســـي بأنني لم أكن أرغب في شــيء، وكنت أدرك أن ذلك كان كذبة، لقد كنت أقضي وقتي في الكذب على نفسي حتى تبقى رغباتي متوافقة مع قُدراتي، وهذا هو العلاج الوحيد للحرمان، وفجأة، تفتَّحت الرغبات في نفسي، بحرية، وهي رغبات غير خاضعة لإيعازات لا تتوقَّف من الواقع. مشيتُ وأنا أفكِّر في كل ما أستطيع شراءَه، فتوقَّفتُ أمام صرافة آلية، وســحبتُ قطعة نقدية من فئة الخمسين (يورو)، ووضعتها أمام وجهي، على مســتوى عينَيَّ، ونظرت إليهــا برهة، وحينئذ عدت أدراجي، مدفوعاً بنزوة، إلى المكان الذي تلقيتُ فيه مكالمة (أوديبير)، وكان المتشــرِّد لا يزال جالساً هنالك، ومن المحتمل أن يقضي نهاره هنا، اقتربت منه، ومددتُ إليه قطعة النقود، فتوجه إليَّ بابتسامة، كانت بالضبط هي نفسها التي توجَّه بها إلى المرأة الآنف ذكرها، ويبدو، في الأســـاس، أن المبلغ لا يهمه كثيراً، فقد كان يحسب الحركة وحدها، وأنا لا أروي هذه النادرة لكي أظهر كريماً أو ذا إيثار، وحتى لو تفاخر المرء بعمل صالح، فإنه يستمدّ منه رضا يُفسِــد المبادرة البسيطة في مساعدة الآخر. لا، أنا لم أَرْوِ ذلك لأتباهى بنفســي، لأن الحقيقة شــيء آخر تماماً؛ لقد بقيتُ مقتنعاً أن هذا الرجل إنما هو أنا.

(١٢)
شدة الألم: ٢
الحالة المعنوية: مُعَوَّمٌ
(١٣)

هنالك أناسٌ لا يتغيَّــرون أبداً، وهذا أمر فتّان، و(إدوار) هو الشــخص الأكثر ثباتاً كما عرفته، فالأيام لا تحوِّله، وهذه صفة مُطَمْئنة لصديقه، وهو ذو مزاجٍ ثابتٍ، وكنت أتساءل إن كانت هذه الطريقة من الكينونة ملازمةً لمهنته، فيجب أن يكون هنالك نوعٌ من علاقة اللامبالاة بالأشياء كي يكون المرء دوماً داخل الأفواه[125]. أنْ تكون طبيب أسنان يجعلك، بالتأكيد، بوذياً قليلاً[126]، وهكذا اســتقبلني (إدوار) كعادته في كل الأيــام، وهي كالصلاة اليومية غيــر قابلة للتبديل. ومن ناحيتي، لم أكن أتوقف عن التفكير في الهجوم الغرامي لزوجته، وكنت أرغب في أن أُظْهر نفســي أيضاً أكثــر وداً معه، فاهتممتُ بحياته اهتمامــاً ثقيلاً، وطرحت عليه أسئلة عديدة، حتى أثير شكوكه، فقلت:

- هل أنت بخير؟ أمتأكِّدٌ أنك بخير؟
- نعم، أنا بخير.
- إن وضعك يقلقني..
- آ..؟ لماذا؟
- أنت تهتم بي.. وتريد أن تعرف كيف حالي.. وتســألني عن التفاصيل.. وعن الدقائق..

(125) يلمِّح هنا إلى تعامل أطباء الأســنان دوماً، ومنهم صديقه (إدوار)، مع مشــكلات الأسنان داخل الفم، الأمر الذي يصبح مملاً أو عملاً رتيباً لا يبالي به الطبيب (المترجم).

(126) لعله يشــير هنا إلى قلة حركات البوذيين، وميلهم إلى الوضع السكوني في عباداتهم، لأن أطباء الأسنان قليلو الحركة عادة وملازمون في أغلب أوقاتهم لسرير المعالجة (المترجم).

- وبعدئذ؟ أنا .. صديقك.
- إذا كنتَ صديقي، فقل لي إذن الحقيقة.

فتمتم:

- أيُّ .. حقيقة؟
- حقيقة وضعك، لقد تلقيتَ أخباراً من المشفى، صحيح؟
- لا ..
- أمتأكِّد أنت؟
- لو تلقيتُها لقلتُ لك.
- آ، أنت تطمئنني.
- وإنــك لتقلقني مع كل هذه الأسـئلة، وتبدو عليك هيئةُ مَنْ يريد القول وداعاً ..
- ......

وكانت تبدو على صوتي نبرةٌ ذات إشــفاق كبير نسبياً، ولكن مــن الصعب أن يكون المرء مرتاحاً مع صديق حاولتِ امرأته للتو أن تغتصبــه، وبدلاً من تصــوُّر الحالة، كان يعتقــد أنني تلقيتُ أخباراً مُثَبِّطة من المشــفى، وطالما قيل عن العلاقات بين البشر: إن الاهتمام بالآخر يعني أن هنالك شــيئاً مــا يتم إخفاؤه. وفي الأصل، لم يكن لديَّ شــيء يقلقني، ولم يكن (إدوار) حادَّ الذهن جداً، وكانت تلك ســمةً فــي طبعه كنت أحبها دومــاً، فقد كان يبــدو في بعض الأحيــان منفصلاً تماماً عــن الواقع، ويقال إنه قد نجح في أن ينقل جزءاً من طفولته إلى حياته راشــداً، وتلك إحدى النقاط المشــتركة بيننا، وعلى الرغم من حياتينا المهنيتين، ومســؤولياتنا، كانت صداقتنا تقوم على شــكلٍ من عدم الإيمان بجيلنا، فلم نكن ننجح حقاً فــي إدراك قطار الوقار، فمثلاً، كنا

نحن الاثنان أعضاء في تلك الفئة النادرة جداً من الرجال الذين تبدو ربطات عنقهم مثيرة للضحك.

ولكــن لنأتِ إلى الأمر الجوهري من لقائنا، لقد كان (إدوار)، منذ البارحة، يريد أن يحدِّثني عن فكرة لديه، وقد بدأ بالقول:

– إن للفكرة علاقة بظهرك.

– ......

– إليــك الأمــر.. أعتقد أنك قد جرَّبتَ كثيراً من الأشــياء.. ولكن بقي عليك الشيء الجوهري.

– حسناً.. ما هو؟

– إن الشــيء الأكثر أهمية في حياة الرجل إنما هو أن يتحرَّر من التوتُّر الجنسي.

– ......

– لقــد ذكرتَ لي ذلك بنصف كلمــة، ولكني فهمتُ تماماً أنه لم يكن بينك وبين (إيليز) حقاً ذلك الطيش في السرير.

– نعم.. وأخيراً انقضى الأمر.

– والآن، وقد أصبحتما منفصِلَيْنِ، ينبغي أن تفكِّر حقيقةً في الموضوع.

– بمعنى؟

– لقــد جرَّبتَ الأطبــاء، والأطبــاء النفســانيين، والمنوِّمات مغناطيســياً، ولا أدري ماذا أيضاً، ولم يحدث شــيء، وما تحتاج إليه إنما هو امرأةٌ محترفة.

– محترفة في أي شيء؟

قال بصوت منخفض وهو يدير رأسه بينما كان المطعم مُقْفِراً تقريباً:

– في.. الجنس..

– ولكن هذا لن يحدث! فليس لديَّ رغبة في ذلك مطلقاً.

– الموضـــوع لا يتعلَّق بمعرفـــة إن كنت ترغب فيه أو لا ترغب، أقول لك إن هذا من أجل صحتك، فأنت في حاجة إلى ممارسة الحب تماماً، وكلية.. وبطريقة بهيمية.

– ......

– لا تقل لي إنك لم تفكِّر قط في ذلك.

– لا، أعتـــرف لك بأننـــي لم أفكِّر فيه بمثـــل ذلك، لقد كنت سعيداً مع زوجتي، ثم إن لديَّ على وجه الخصوص أشياء أخرى تحتاج إلى تنظيم قبل أن أبدأ بقصة جديدة..

– بالضبـــط، الأمـــر ليس موضوع قصة، إنه موضوع ســـاعة بسيطة، تدفع، وهوب!..

– وهل جرَّبتَ ذلك أنت؟

– ......

– ......

– أنا؟ هل تسألني إن كنتُ قد جرَّبتُ، أنا؟

– نعم، أنت؟

– بالطبع لا، لنرَ، لقد ذكرتُ لك إلى أي درجة لم يتوقَّف ذلك مع (سيلفي).

قلتُ له كي لا أشوِّش على كذبته:

– نعم، نعم.. أعلم..

لقد كنت أرى في نظرته أنه لم يكن يشك في حقيقة ما كان يعبِّـــر عنه لي، إنها قوة الإقناع بالكـــذب على الواقع، وبعد مدة، يصبح حقيقياً.

ولــم يتوقَّف، طيلة الغداء، عن أن يحدثني عن فكرته، وبدأتُ أطرح على نفسي: هل كنتُ منفتحاً إلى هذا الحد؟ هل كنتُ على حق باعتبار حياتي الجنســية أمراً محترماً؟ ألم تصبح ممارسة الحــب فعلاً مجرداً من هذا الطيــش الذي يحرِّر الحواس؟ لقد كنت أحب النوم بعده، وكان لديَّ شــعور بوجــود فائدة طبيعية، وبراحــة مخلِّصة، أليس هذا كافياً؟ لقد بذر النقاش مع (إدوار) شــكاً في ذلك. على كل حال، ربما كان ســببُ سوء حالي متأتِّياً مــن نوع من الحرمان غير المنظور، ولــو كانت الرغبة أقل عناداً مع زوجتي، لكان لدي انطباع بعدم كونها مكتفية، لقد كنتُ أحبُّ النســاء، والنظرَ إليهن، ولكنني لم أكــن ألتمس اصطياد علاقةً أيــاً ما كانت، ومن نحو آخر، كنت أســتعد لحياة بلا جنس، إلى أن تحين قصتي الغرامية القادمة، من غير أن يثير ذلك مشــكلةً لديَّ، فعندي هموم أخرى. لقد كان اســتمرار الوجع يبعدني عن مجــالات اللذة، ربما كان ما يقوله لــي صحيحاً، يمكن للمرء أن يتخلَّص من نوبات الأوجاع المبرِّحة بالقبلات، والمداعبات، واللذة، وهكذا يكون حلُّ مشكلة الوجع يكمن في جسد الآخر.

يكفي أن يَنْكَــبَّ المرء على التاريخ ليتبيَّن إلى أي درجة ظلَّت الحرية الجنسية علاجاً مطلقاً للصعوبات، وهذا الأمر جدُّ بسيط؛ ففي كل أزمةٍ، يتقــدَّم الناس خطوة نحو تحرُّر (لَبْرَلَةِ) الأخلاقِ، فقد أتاحت الصدمة النفطية (ســنة 1974) مثلاً المصادقة على شرعية الإجهاض، وقد سهَّلت معالجة التقشُّف بعد هبوط قيمة النقد (ســنة 1984) عرض الأفلام الإباحية الأولى في التلفزة، وهكذا الأمر حتى زماننا الذي تدمِّره أزمة شــديدة جداً، فماذا نفعل؟ نعود إلى قيَم الحبّ، إن الناس يتزوَّجون كما في كل وقت،

وفي الشـــارع يعرض مجهولون ملاطفـــاتٍ ومعانقات حرةً free hugs، يجـــب في الحقيقة أن يكـــون المجتمع يعاني من ألم لكي يتحاب الناس هكذا، فكل الأشـــياء كانت تبدو لي مترابطةً. كنتُ فـــي حاجة إلى الحب، وكنـــتُ في حاجة إلى التحـــرُّر مما كنت أحفظه باستســـلام في نفســـي. نعـــم، إدوار كان على حق، كان جســـدي يثور على جوع الشهوة، وبســـبب ذلك، لم أفكِّر في أي علاقة مع امرأة محترفة، غير أن صديقي ألحّ بالقول: (إن الألم خطير جـــداً، وتلزمك امرأةٌ تعرف كيف تأخذه منك..)، وتحدَّث لـــي عن موقع فـــي الإنترنت يمكن للمرء أن يجـــد فيه إعلاناتٍ صغيرة مع تعليقات مراجعين سابقين.. وأخيراً، هم زبائن. قال:

– الفتيـــات فيه مقدَّرات، مع ذكر ما يتقنَّ عمله جيداً، أو غير جيـــد، ومع ذكر مواقفهن العامة، وعلاقتهـــن بالوقت، وكثير من الأشياء..

– ......

ويبـــدو أنـــه لم يكن يجـــد الأمر صادمـــاً أن يتمكن المرء من تســـجيلِ معلومات بهذه الطريقة عن كائن إنســـاني، وقد أضاف أمام تحفُّظاتي قوله:

– هذا شبيه بما عند كل الناس، فالأساتذة يسجِّلون معلومات عنهم، وكذلك أطباء الأسنان[127].

– حقاً؟

– نعـــم، هنالك موقع يعرض فيه كل مراجـــع رأيه، وعلى أي حـــال، إن مجتمعنا الآن مبني على آراء كل واحد فيه، فإن ذهبت

(127) يعنـــي أن المذكوريـــن وغيرهم من الفئات كانوا يدشـــنون مواقع شـــخصية لهم على النت للتعريف بهم وبأعمالهم وسوى ذلك (المترجم).

إلى المســرح، أو الســينما، أو الفندق، فإنك تــرى أولاً ماذا قال المستهلِكون الآخرون.

- ....

- وهذا الأمر شبيه بما لدى البغايا.

هل كان (إدوار) يُظْهِر نفســه بهيئة من كان معتاداً على هذه الممارسات؟ تظاهرت بعدم اكتشافي مضامين معرفته التامة عن الموضوع، وفــي نهاية الغداء، وأنا خارج من المطعم، قلت له إنني سآخذ غرفة في فندق، فقال:

- ولكن لماذا؟ يمكنك أن تبقى في بيتنا قدرَ ما تريد.

- أحتــاج إلى أن أبقى وحيداً قليلاً، وهــذا ما لم يتحقَّق لي من قبل.

- حقاً؟ علــى كل حال، يمكنك أن تعود حينما تشــاء، فنحن هنا، وأنت تعلم.

- نعم، أعلم.

- لسوف يخيب أملُ (سيلفي).

- ......

- لقد رأيتُ أنها كانت تحب الاهتمام بك، وتحضِّر لك أطباقاً صغيرة.. وأخيراً، أنت تعرفها.. إنها امرأة عاطفية..

- ......

مشــيتُ مدة بحثاً عن فندق، لقد كنتُ ســائحاً في مدينتي، وللهــروب من الهموم اليومية التي لا تنقطــع، كنت أحلم أحياناً أن أترك كل شــيء، فكل الناس يفكِّرون في ذلك يوماً من الأيام، ويفكِّــرون فــي أن يغيِّروا حياتهــم، وينطلقوا مــن الصفر، وفي الأســاس، لن أكون قادراً على ذلــك. إذن، القدر قرَّر بدلاً مني،

لم يكن لديَّ أي نقطة علّام، ويحدُث لي ألا أعلم ما الذي أعاني منه، فلا أنا في سـعادة ولا آنا في شـقاء، لقد اكتشفت منطقة غريبـة في الوجود، وينبغي لي القول إنهـا غير مؤلمة بتاتاً، وقد كنتُ أخشـى أن أصبح فاقداً للشعور. لكن لا، فالأمر شيء آخر، إنـه كوني عابراً هذه الأيام، إنني لا أقود شـيئاً، إنني فقط هنا، عائمـاً على توالي الأحداث، لقد كنت أشـعر بـأن ظهري يقدِّر خُمُولي الجديد، فلماذا أمضيتُ كثيراً من السـنوات في المعاناة من الضغط العصبي من أجل تُرَّهات؟

أنا الآن أمام فندق، وهو عمارة صغيرة جداً تدعى (الأهرام) Les Pyramides، وعندما دخلت، لم أجد أحداً في الاستقبال، ولما لم يكن هنالك جرس، فقد أخذتُ أتنحنح بجلبة، وهو الشيء الأول الـذي فكـرت فيه لأنبِّه علـى وجودي، فظهـر رجل في الخمسـينات من العمر، داكن البشـرة، ذو شاربين كبيرين وأنف على شكل مثلَّث متساوي الساقين، وكانت له هيئة مصري، وهذا ما يفسر بالتأكيد اسم الفندق، ولما وصل قال معتذراً:

- لقد كنت أُجْري حساباتي.
- العفو.
- هل يمكنني مساعدتك؟
- نعم، أريد غرفة.
- لليلة واحدة.
- نعم، وربما أكثر.

قال وقـد بدا متفاجئاً قليلاً لأن أحـداً يمكن أن يبقى عدة ليالٍ هنا:

- آ.. اتفقنا، حسناً جداً..

ثــم أرانـــي غرفتي، بدت لي رائعة، وليس فيها ما هو شــاذ، وكانت صغيرة أيضاً، غير أن النافذة كانت تطلّ على فِناء داخلي صغير يبدو هادئاً جداً، يمكــن القول إنه فندق من تلك الفنادق الباريســية التي أخذت طريقها إلى الــزوال، وهو واحد من تلك التي كان بإمكان المرء أن يراها في أفلام الســبعينيات. كان في الغرفة ســرير، ومكتب، وكنبة؛ وهي أشياء تسعِد الرجل المجرَّد مــن الطموح، وكانت صالة الحمامات عملية على صورة الغرفة، لا شيء فيها يُستغنى عنه. أبلغت مدير الفندق أن كل شيء تمام، فذكر لــي موعد تناول الفطور وغادر الغرفــة وهو يقول: (ارتَحْ جيداً)، إذن كان مظهــري يوحي بأنني مرهق جداً. لم يكن معي ســوى حقيبة، ولم أكن حالقاً ذقني؛ وكان يبدو عليَّ أنني أُشْــبِه رجلاً هارباً.

تمدَّدتُ على الســرير، كان الفراش مترهِّلاً قليلاً، خِفْتُ على ظهري، وبخاصة أنني شعرت بعودة الوجع، لقد كان على ظهري أن يدفع حســاب طول نهاري، وجولاتي، وإذا وضعنا ذلك جانباً، كنت أشــعر بالســعادة، ولكن لا يزال عليَّ مجابهةُ أشياء كثيرة، وكانت هذه الغرفة اســتراحة ضمــن عاصفة تحوُّلاتي المفاجئة، لقــد كنت أكذب قليلاً وأنا أتحدَّث عن فترة في الحياة يمكن أن تكون منبِّهة، وكنتُ مرعوباً مما كان ينتظرني.

(١٤)
شدة الوجع: ٣
الحالة المعنوية: سياحية
(١٥)

وفي النهاية، كانت الليلة جيدة، وفي طعام الفطور، تبادلت بعض عبارات المجاملة مع صاحب الفندق، إنه لم يكن مصرياً، وإنما كان يونانياً، وبطريقة غريبة جداً، بقي جالساً قربي، من غير أن يقول شيئاً، وقد كنت أعتقد أنه يريد التحقُّق من أنني أشرب جيداً قهوتي كلها، وبعد فترة، لم يكن لديَّ إمكانية أخرى سوى أن أتظاهر باهتمامي به، فقلت:

– لماذا أسميتَ فندقك بـ (الأهرام)؟

– لأن لديَّ طموحاً، هنا، أنا في بداية الهرم تماماً.

– ......

– ولكن عما قريب، سيكون لديَّ فندق كفندق (الريتس) [128] le Ritz.

لم أفهم تماماً قصته مع الهرم، ولكن كان يبدو جاداً جداً، وقد سحرني قليلاً، ويعجبني الناس الذين يملكون مثل هذا الإيمان بمستقبلهم. رَنَّ الهاتف، فنهض وهو يوجِّه إليَّ إشارة اعتذار، وقد ارتحت لعدم متابعة حوارنا، فقد كنتُ أكره الكلام صباحاً، وبخاصة مع رجل، ورجلٍ ذي شاربين أيضاً، وفي لحظة، دخل زوجان من السيّاح الألمان إلى الصالة، فحيا بعضنا بعضاً

(128) الريتس: أحد فنادق باريس الفخمة العريقة، وهو فندق خمس نجوم، وعمره نحو قرن من الزمان، يقع في ساحة الـ (فاندوم) place de Vendômes في الدائرة الأولى بباريس (المترجم).

بمودَّة، كتواطؤ الذين يتشاطرون سراً. إن النوم في المكان نفسه، يخلق علاقات. غادرت الصالة، وأنا آسِفٌ لعدم معرفة كلمة واحدة بالألمانية، ومع ذلك، كنتُ أرى دائماً أنها أجمل لغة في العالم، والأكثر تعبيراً عن الغرام أيضاً.

وقد عدت إلى بيتي، وأخيراً إلى بيتي القديم، إنه لمن العسير دائماً على المرء أن يحدِّد علاقاته بالأمكنة والأشخاص عندما تكون القطيعة طازجة، لقد أخذتُ بعض الأشياء، والكتب، وحاسوبي، وفي نهاية الصباح، عدت إلى الفندق. لديَّ الآن أيامٌ يمكن ملؤها كما أريد، يشكو المرء في أغلب الأحيان من حياته المهنية، لأن من المريح ألا يأخذ على عاتقه مضمون أيامه، لقد أصبحت ساعاتي صفحاتٍ بيضاء، وأنا جالس إلى المكتب، فتحت حاسوبي، وفتحت مستند (وُرْد Word)، كانت الجمل كلها ممكنة، وكنت أكرِّر بلا انقطاع أنني هجرت مشروعاً للكتابة، فهل أنا متأكد منه تماماً؟ لقد مضى عليه زمن طويل جداً، ربما كنتُ أحلم بهذا القسم من حياتي، وربما اخترعتُ لنفسي هذه البدلة لفنان محروم، وقد جعلت نفسي أصدِّق أنني قد تركت كل شيء من أجل الحياة المادية، ولكن في الأصل، عندما يريد المرء أن يكتب حقاً، فإنه يكتب، وهذا صحيح لكل الهواجس الفنية أو غيرها، ولا يمكن للمرء أن يترك الأمر هكذا لدى الشك الأول، وهذه الرواية ذات خلفية من الحرب العالمية الثانية، فهل كنتُ قد بدأتها فقط؟ لم تكن لديَّ أي ذكرى عما كنت قد تمكنت من كتابته، وأتذكَّر ببساطة وضع رجل شاب عنده مشروع أدبي، وكان ذلك يحرضني أن ألعب دور كاتب.

وقد اجتمعت الآن الظروف لكي أستأنف هذا الوهم غير

المشـــبع، أنا أمام حاســـوب، في المكان المثالي للكتابة (غرفة في فندق)، وقد كان لديَّ المال والوقت.. إذن؟ إذن لا شيء، لم تحضر إليَّ أي جملة، لسبب بسيط هو أنني أريد الكتابة بكسل، إن المرء لا يكتـــب لأن الحياة تركت له وقتاً حـــراً، بل يجب عليه أن ينظِّم حياتـــه حول الكلمات، وليس العكس، وأنا لا أملك أي موهبة، ولا حتى أي فكرة، وتبيَّنتُ الآن أنني لم أكفَّ عن الكذب على نفســـي كل هذه الســـنوات، هذه السنوات التي كنت أقول فيها إن حياتي في مرحلة البلـــوغ (من عمـــل، وزواج، وأولاد) كانت تمنعني من كتابة روايتي، كل شيء كان مزيَّفاً، فلم تكن هنالك رواية قط، لم تكن هنالك رواية أبداً.

ولمـــا كنتُ حائراً، فقـــد بدأت أتجول فـــي الإنترنت، غادرت المكتب لكي أتمدَّد على الســـرير، لأن ظهري أخذ يؤلمني (فأنا لا أستطيع الجلوس على كرسي من خشب)، وقد أمضيت وقتاً في تضييع وقتي، وأخيراً، قرَّرتُ الذهاب لأرى الموقع الذي نصحني به (إدوار). كل أنواع النساء كانت تقترح كل أنواع الأشياء، فاعترفتُ في الحال أن حياتي الجنسية كانت من النوع الكلاسيكي الخالص، وأنها ملحمة لطيفـــة على طريقٍ مُنار، وأنني قليل التجربة جداً، كانت إثارتي تزداد على قدر ما كُنت أرى من عرض الصور، وكان وجعي قد زال، ولم يكن ذلك ليمنعني من الحفاظ على مســـافة انتقادية وعلى قدرة على الشعور بصدمة يسبِّبها عرض تعليقات علـــى خدمات كل واحدة. قرأت بخصوص أوكرانية أن زبوناً كان ينعتها بـ (موظَّف مرور)، (معها ميترو، عمل، ونوم). لقد انفتح لي عالم جديد، شـــدَّت انتباهي أفريقية تدعى (كارمِن ديزيل)، كان اسمها المستعار قد اسْـــتُكمِل هكذا: (D de rêve 95)، وتحت

صورتها كان بالإمــكان قراءة تفاصيل تعليقاتها، وما كانت فعلته أو لــم تفعله، وتابعت الاطلاع على بطاقــات أخرى، لكن الإثارة انخفضت، وبعد مدة، أصبحت الأجســاد المعروضة غير مادية، ومجرَّدة من الإحساس.

في عشــر سنوات، وبالمصادفة، ذهبت مرتين أو ثلاث مرات إلى مواقع إباحيــة، لرؤية بعض الصور أو بعــض الفيديوهات، ولــم أكن في الحقيقة أتأثَّر بالإباحة، وعندما كنت أكثر شــباباً، اشــتريت بضعة أفلام وأرهقت نفسي في رؤيتها مرات عديدة. وهكذا إذن، ربما كان الأمر غريباً، ولكنني أكتشف كل ذلك الآن، في ســن الأربعين، ومن أجــل إراحة ظهــري، كان لا بد لي من اكتشــاف الميدان الجنســي، وأخيراً أصبح ظهري ظهراً سليماً. ومن ناحيتي، كنت أشــعر أنه بخيــر، وكنت أرغب في أن أعيش تجربة مع امرأة ذات خبرة، ولذا اتصلت هاتفياً بـ (كارمِن ديزيل)، فتمتمتُ، وأنا متضايق، وبهدوء تام، ببضعة أســئلة، وكانت حرَّة بعد ســاعة، وهي بالضبط ما يلزمني من وقت لتحضير نفسي، والوصــول إليها، كانت تســكن في (شــاتو-روج) -Château Rouge، فــي الدائرة الثامنة عشــرة بباريس، وقد زودتني على الهاتف بكل إحداثياتها، ودخلتُ دفعةً واحدة وبسرعة في أسفل عمارتها إلى البهو، ورجوتُ ألا أصادف أحداً، ولكن لقلة الحظ، كان هنالك عالم طائــش، وكان لديَّ انطباعٌ بأن كل الناس كانوا يعلمــون إلى أين أنا ذاهب، فالطريقة التــي كانوا يرمقونني بها لــم تكن تترك مجالاً للشــك؛ وكان يبدو علــيَّ أنني زبون، وأمام الواصلة الصوتية (الإنترفون)، ضغطت على الزر (C)، ومن غير أن يجيبني أحد، فُتِح ليَ الباب، وكانت (كارمِن) قد زودتني برقم

الشـــقة والطابق (الدور). لقد كانت تسكن في الدور الرابع، وقد فضَّلتُ الصعود على الســلَّم (الدَّرَج)، وأجرؤ على أن أُوَضِّح هنا فــي هذه اللحظـــة أن إثارتي كانت معدومة، ولــم تكن لديَّ على الإطلاق رغبة في ممارسة الحب مع أي امرأة.

نقــرت على الباب، وكنت متضايقــاً أكثر فأكثر، ففتحت لي امرأة، وأشــارت إليَّ أن أدخل من غيــر كلام، يبدو أن (كارمِن) كانت مختلفة جداً عما كنتُ قد قرأتُه بهذا الشأن، وعن مزاياها الجميلة في الاستقبال، قالت:

- تعالَ..

- ......

تبعتها في ممر، فأشارت إلى غرفة، وقالت:

- انتظرني هنا.

وتركتنــي وحيداً في هذه الغرفــة الحقيرة، فاجتاحت ذهني حينئذٍ أفكار سوداء عديدة، ليست تلك التي كنت أرجوها، وخفت أن أكــون قد وقعتُ في مَهْلَكة، وأن أُقتَل، وأن أُســرَق، وأن أُقَطَّع إِرْباً إِرْباً، فلا أحد يعلم أنني هنا، لقد كنتُ مجنوناً تماماً، ولحسن الحظ، عادت (كارمِن) بسرعة، ولم تكن تبتسم، وقالت:

- تدفع سلفاً.

فقلتُ وأنا أُخْرِج مئة وخمسين (يورو) من جيبي:

- نعم..

- أعطني مئتين، لسوف ترى، سيكون ذلك أفضل.

- موافق، يا سيِّدتي..

وكانــت تلزمني بضع ثــوانٍ لأتبيَّن أن المرأة التي كانت أمامي ليست على الإطلاق صاحبة الصورة، فقلت:

- ألستِ (كارمِن)؟
- لا، أنا (جِسِّكا) Jessica، أنا ابنة خالتها[129]، ولكنك سترى، إنها تشبهني.

قلت وأنا أفكِّر في أن هذا لا يفيد شـيئاً في شرح الخدمات إن وجد المرء نفسه مع بنات خالات:

- آ..

أغلقت (جسِّكا) الباب خلفها، وأشـارت إليَّ أن أتمدَّد على السرير، وقالت:

- يبدو أنك لستَ معتاداً.
- لا.. هذه هي المرة الأولى.. لأن عندي آلاماً في الظهر.
- آ.. موافقة، لكلٍّ طريقته، وأنا أحترم ذلك.

لم أفهم شـيئاً مما قالت لي، لم يكن عليها، بقبتها المفتولة، هيئة الرغبـة في العمل، وأنا لم أتحرَّك، ولم أفعل شـيئاً، كنت أنظر إلى الجـدار، وعندئذٍ أخذت يـدي، ووضعتها على ثديها الأيسـر، فلم أشـعر بشـيء، وكأنما ليس هنالك أي اتصال بين يدي ودماغي، ويجب القول أيضاً إن كَنْزتَها كانت خشنة، قالت:

- لديَّ زُكام، ولذا أحتفظ بكَنْزتي، موافق؟
- أوه.. نعم.. إن شئتِ..
- ......
- ......
- يمكنني أن أجلدك بالسوط إن شئتَ، فلديك رأس يحب أن يجعلك تُضرَب به، أليس صحيحاً؟

(129) في الفرنسية لا يُعْرَف بالتحديد المقصود بكلمة (cousine)، لأنها تدل على ابنة العم أو العمة، وعلى ابنة الخال أو الخالة، معاً، خلافاً لما في العربية من تدقيق فيها (المترجم).

- لا أدري..

كنت أفكِّر على وجه الخصوص في ظهري، لم أكن مقتنعاً بأن السوط ستقدِّر قيمتَه المنطقةُ القَطَنيَّة الغضَّة، أنا لست ضد قليل من الأحداث (الأكشن) action في العملية الجنسية، ولكن هذا لن يصل إلى حد الميل للتوحش، ثم أمرتني قائلة:

- طيِّب، اخلع ثيابك..

كنت قد أتيتُ إلى هنا، فإذن كنت أرغب في أن أعيش هذه التجربة حتى النهاية، وربما أجد، تحت هذه الكَنْزة، وهذا التهاون الظاهري، بطاقتي إلى الـ (نيرفانا) [130] le nirvana الغرامية، هذا المكان الذي كنتُ أرجو بلوغه لأنثر ألم ظهري في الطريق، غير أن ذلك كله كان آلياً (ميكانيكياً) جداً، وبارداً جداً، لقد كنتُ في حاجة إلى إضافة لمسة من الإنسانية، فسألت:

- ألا ترغبين في أن نتكلَّم قليلاً أولاً؟
- آ.. أنت من النوع الذي يتكلَّم.
- لا أدري.
- هذا سيكلِّفك غالياً جداً.
- سيكلِّف غالياً جداً؟ على الكلام؟
- نعم.. ماذا تعتقد؟ أنا لا أنكشف هكذا!
- ......

وأمام وجهي عديم التصديق، أَخَذَتْ في الضحك، وقالت:

- أليس لديك دُعابة؟
- آ.. كان هذا للضحك..

(130) الـ (نيرفانا): هي إخماد الشهوة البشرية والتحرُّر منها والتسامي عليها والتجرُّد من سلطان الماديات (المترجم).

– منذ وقت طويل لم تقم بـ..

– لا أدري.

– أنت، لا تعرف شيئاً، طيِّب، ماذا تريد أن تعرف إذن؟

– لا أدري، فقط أريد أن أتكلَّم.. هكذا.. وليس هنالك شيء محدَّد..

– أوه، أنت مُتَلَوٍّ، لقد كنت أشعر بذلك تماماً..

– من أين أتيتِ أنتِ مثلاً..؟

– من الشرق.

– من الشرق.. من أفريقيا؟

– بالطبع لا، من (ستراسبورغ) Strasbourg، إنني ألزاسية، ألا يبدو ذلك عليَّ؟

– آ.. بلى..

– لكن لا، هذا لا يبدو.. أنا لا أدري من أين أتيتُ.. كنتُ متبناةً.. وقد اغتصبني أبي المتبنِّي عندما كنت في الخامسة عشرة[131].. فحملتُ منه.. فخبؤوني.. وأجبروني على التخلي عن الطفلة.. وفي ذلك الوقت قرَّرتُ الهرب.. فوصلت إلى باريس هكذا.. بلا شيء.. وبلا أسرة.. وبلا مال.. ولا أدري أيضاً أين هي ابنتي.. ولحسن الحظ التقيت بشخص ما.. لكنه أجبرني على ممارسة الدعارة.. وكان يوسِعني ضرباً.. ألا ترى الأثر هنا؟

– ......

– كان ذلك أمس.

– ......

(131) يكشف لنا ذلك مساوئ نظام التبني في الغرب، وهو النظام الذي نهى عنه الإسلام بقوله تعالى: ﴿ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله﴾ (الأحزاب – الآية 5)، لأن هذا التبني لا يحرِّم زواج المتبني من المتبناة، ولا المتبنية من المتبنَّى، لأنه علاقة غير نسبية أصلاً (المترجم).

- وهكذا .. عرفتَ كل شيء.
- ......
- هل نمضي أم ستخلع ثيابك؟

والحقيقة أنني رحلتُ بعد هذه المحادثة، وقد تركتُ لها كل المال الذي كنت أحمله، ولم أكن أعلم إذا ما كانت تسخر مني أو أن قصتها كلها كانت حقيقية، ولكن يبدو أنها حقيقية، وبعد بضع مئات من الأمتار عن العمارة، بدأتُ أشعر بالارتياح، لم أكن أتوقَّع هذا النمط من الراحة، ولكن بعد مثل هذا الوقت من ضيق النَّفَس، تنفَّستُ الصُّعَداء من جديد. إن النجاة من فخٍّ تعادِل ممارسة الحب، لم يعد لديَّ ألم في الظهر، ولم يكن (إدوار)، في نهاية المطاف، مخطئاً، وقد عدت مشياً على قدميَّ إلى فندقي. كانت الشمس قد مالت إلى الغروب عندما أغلقت خلفي باب غرفتي، سعيداً وسالماً من سعيي إلى الفجور.

(١٦)

شدة الوجع: ٣

الحالة المعنوية: مرتاح

(١٧)

وفي الصباح، استيقظتُ متكدِّراً تماماً من الداخل، وكان لديَّ انطباعٌ بأنني قد نمتُ في حقيبة، ولديَّ ألم في كل مكان، ومع ذلك وجدت القوة للنزول إلى قاعة الفطور، وما إن جلست إلى الطاولة، حتى جاء صاحب الفندق ليراني، قائلاً:

- هل أنت بخير؟ وهل سُررتَ في فندقي؟

فيــه أطفالي، ولا أعلم لماذا كنت أعانـــي من صعوبات كثيرة في عيــش هذا التحوُّل الذي يعرفه كل والد. لم يكن لديَّ انطباعٌ أن الناس من حولي لديهم الصعوبات نفســها، والأســوأ أنني كنتُ أسمع والِدِيْنَ يرتاحون لرحيل أولادهم عنهم، وكانوا يقولون إنهم أخيراً ســيجدون حريتهم، هنالــك فِيلم كان فيه الصبي (تانغي) Tanguy، مكــث طويلاً في بيت والديــه، وهو يُطيل بلا توقُّف دراسته، أما ابني فقد رحل إلى الطرف الآخر من العالم منذ سن الثامنة عشرة، وكان الأمر دوماً هكذا؛ الذين يريدون التخلُّص من أولادهم يرثون أعباء ثقيلــة، بينما الذين يريدون إحاطة ذريتهم بعنايتهم علــى مهلٍ يجدون أنفســهم مــع أولاد مُبَكِّري النضج يســعون إلى الاســتقلال. لقد فاتني ابني بشكل فظيع، ولم أكن أحتمل أن أتبادل معه رســائل عبر الـ (سكايب) Skype، أو عن طريــق الـ (إيميلات) e-mails، ومن نحــو آخر، أصبحت هذه الرســائل وهذه اللحظات الافتراضية قصيرة أكثر فأكثر، فليس لدينا شــيء نقوله. إن الحب بين الوالد وابنه ليس في الكلمات، ولا بالمناقشة، إن ما كنتُ أحبه كان ببساطة أن يكون ابني هنا في البيــت، ويمكن ألا نتحادث في النهــار، وهذا ليس أمراً خطيراً، فأنا أحسّ بوجوده، وكان هذا يكفيني، فهل أنا مخطئ؟ لا أدري، أنا لا أســتطيع غير محاولة وضع الكلمات تعبيراً عن مشاعري، ويمكنني أن أؤكــد الآن ما أعرفه منذ البداية؛ لقد كان انفصال ولــدَيَّ عني أمراً أليماً، وقد بدا لي هذا الأمر عادياً، ومســوَّغاً، وإنسانياً، وبيولوجياً، وكل ما تريد، ومع ذلك سبَّب لي ألماً.

كنــتُ أرجو أن يخِفَّ ألم ظهري غــداً، لأنني كنت قد اتفقت على موعد مع ابنتي، وكنتُ سأدعوها إلى مطعمها المفضَّل، وهو

مطعـــم هندي كنـــت أجده ذا بهارات كثيرة، وقـــد تردَّدتُ في أن أطلـــب إليها الحضور مصحوبة[132]، ولكنني لم أكن أشـــعر بعدُ بأنني مســـتعد، وقد أعدت التفكير، خلال وقت طويل، في كل ما كانـــت تلومني عليه في هذه الأســـابيع الأخيرة، وكنت قد خيَّبت أملهـــا إلى أبعد حد، ومع ذلك لم تســـتبعدني قط في الحقيقة. بقيـــت محبَّة لي، لقد خجلت منهـــا وحكمتُ على قصة حبها من غير أن أعرف عنها شـــيئاً، كنتُ مرعوباً بفارق السن بينها وبين (ميشيل)، فقد كان يفصل بينهما بالكاد نحو عشر سنين، لم تكن تلك المرةَ الأولى التي كانت فتاة شابة تنجذب فيها إلى رجل أكثر نضجـــاً، كيف تمكَّنـــتُ من أن أكون محدوداً جـــداً؟ فقد تقدَّمتُ فـــي الحياة مع قصر النظر، واســـتحوذتْ علـــيَّ اجتماعات غير مهمة مع يابانيين متصلِّبين نفسياً، ومخدَّرين بالأخبار السياسية، والاقتصادية، والعملية، ولم يكن لكل هذا أي أهمية، وكنت أمشي تدريجياً نحو الجوهري، وربما كان السير على هذا الطريق سبب قلة وجع الظهر.

تناولت كبســـولتين، ثم كبسولتين أخريين، لم يكن بإمكاني أن أفعل شـــيئاً في النهار، كنت أتفرَّج على التلفزة، كل هذه البرامج البلهـــاء التي يشـــعر المرء بالســـعادة في متابعتهـــا عندما يكون مريضاً، ونمت أيضاً من المسلســـلات، وفي المساء، تابعتُ فيلماً عن الحـــرب معروفاً جداً، لم أكن قد رأيته منذ ســـن المراهقة. وفي الغرفة المجاورة، كان زوجان يمارســـان الحب بصبر يحرِّك الشـــعور، ومن أجل التغطية على صوت نشاطهما، رفعتُ صوت

(132) يريد مصحوبة بصاحبها (ميشيل) الذي كانت تعيش معه كزوجة، لأنه لم يهضم علاقتها به حتى الآن، ولم يكن راضياً عنها (المترجم).

مساعدته، أقل شيء كان يهمني هو العودة إلى العمل. إن حياتي المهنية في مكتبٍ للهندسة كانت منتهية، ولم أكن أدري أيضاً كيف سأملأ أيامي، وكان يبدو لي أنه كان عليَّ أن أبحث عن نقيض كل ما قد فعلتُه حتى الآن، وليس عليَّ، على وجه الخصوص، أن أتخذ ماضِيَّ مرجعاً، لقد كنت أفكِّر في أن أكتب، ولكن المحاولة كانت غير مقنعة. عندما وصلت إلى هذا الفندق، وكردة فعل مهنية، رصدت المكان، واكتشفت كل نقاط التفكُّك فيه، والتبذير في القدرة، وكنت أعرف مسبقاً ما كان بالإمكان عمله من أجل تحسينه، وكنت قد اخترتُ هذا المكان لأكون في أمانٍ من الناس. لقد كان الحق إلى حد ما مع هذا الرجل؛ لقد كنت هارباً، وكنت أخفي ماضِيَّ، وقد اقترفت الجريمة البسيطة في أن أكون أنا حتى الآن، وأن أعيش حياتي وأنا أستبعد تساؤلات كبيرة، وقرارات مهمة، لقد كنت مسؤولاً عن حالة علاقاتي مع الآخرين، ولم أكن أستطيع الفرار من مسؤولياتي. يأتي زمن في حياة الإنسان يطلب فيه جسدُه، بدلاً من عقله، قائمة حسابات، كنت أدرك ذلك أكثر من أي وقت مضى، ولكن خاب أملي لأن بريق هذا الكشف تمَّ على تربة فندق متهالك، وفي قاعة خاضعة لجنون دوري لمصباح (نيون) في آخر حياته.

عاد صاحب الفندق نحوي، بفنجان قهوة كبير، وابتسامة عريضة، وقد بدا لي كل هذا مضحكاً، وفي اللحظة التي نهضت فيها لتناول الفنجان، لاحظ تجهُّم وجهي، فقال:

– أنت بخير؟

– ظهري يؤلمني.

- آ..، إنه شـديد، الظهر، بالتأكيد إنه أسـوأ مكان، وقد كان يؤلمني جداً في فترة من الفترات.

- طيِّب، وكيف صلح؟

- لا أدري، فقـد كان هنالـك شـبه فاصـل، وذات صبـاح، استيقظت، ولم يكن لديَّ أي ألم، إن جسمي هو الذي قرَّر ذلك.

ذات مرة في غرفتي، أعدت التفكير في كلامه؛ فمتى سيقرِّر جسـمي أن يتعافى؟ وأنـا متفق مع فكرة أننـي كنت أعاني من اسـتبداده وديكتاتوريته، إننا جميعاً نعاني من جسمنا، ولكن ما العمل؟ هل ننتظر باستسلام أن يقرِّر تركنا بسلام؟ لا، فقد كنت متأكِّداً من أنه يتوجَّب عليَّ أن أواصل البحث عن أسباب وجعي، هـذا الوجع الـذي لا ينقضي، ويجبرني على قضـاء النهار في السرير.

وخلال سـاعات، تبادلتُ عشرات الرسائل مع ابنتي، لم أكن قد رأيتها منذ مدة سابقاً، ولم أكن أريد أن تأتي إلى الفندق، وأن تشـاهد خرابي، عندما كانت صغيرة، كانت تراني مثلها الأعلى، وسـنةً بعد سـنة، كنتُ أرى في نظرتها أن الأسطورة قد تبدَّدت في أهوال الواقع. لقد سـقط تمثالي عـن قاعدته، وإذا لم أكن أسـعى إلى الكذب بشـأن من أكون، فقد كانت لديَّ رغبة دائماً في أن تراني في أفضل صورة، وفي الأسـاس، يمكنني القول إنه لـم تكن لدينا قط في الحقيقة علاقة طيِّبة، والدليل هذا العجز الطبيعي لديَّ عن الذهاب لرؤية شـقتها، هذا المكان الذي كانت تعيش فيه كزوجة، تلزمنا قرونٌ لنعترف بأن أطفالنا قد أصبحوا راشـدين، ويُقال في معظم الأحيان إن من المسـتحيل أن يشيخ المرء، وأنا يمكن أن أشـيخ بلا تحديـد في الوقت الذي لن يكبر

فيــه أطفالي، ولا أعلم لماذا كنت أعانـــي من صعوبات كثيرة في عيــش هذا التحوُّل الذي يعرفه كل والد. لم يكن لديَّ انطباعٌ أن الناس من حولي لديهم الصعوبات نفســـها، والأســـوأ أنني كنتُ أسمع والِدِيْنَ يرتاحون لرحيل أولادهم عنهم، وكانوا يقولون إنهم أخيراً ســـيجدون حريتهم، هنالـــك فِيلْم كان فيه الصبي (تانغي) Tanguy، مكـــث طويلاً في بيت والديـــه، وهو يُطيل بلا توقُّف دراسته، أما ابني فقد رحل إلى الطرف الآخر من العالم منذ سن الثامنة عشرة، وكان الأمر دوماً هكذا؛ الذين يريدون التخلُّص من أولادهم يرثون أعباء ثقيلـــة، بينما الذين يريدون إحاطة ذريتهم بعنايتهم علـــى مهلٍ يجدون أنفســـهم مـــع أولاد مُبَكِّري النضج يســـعون إلى الاســـتقلال. لقد فاتني ابني بشكل فظيع، ولم أكن أحتمل أن أتبادل معه رســـائل عبر الـ (سكايب) Skype، أو عن طريـــق الـ (إيميلات) e-mails، ومن نحـــو آخر، أصبحت هذه الرســـائل وهذه اللحظات الافتراضية قصيرة أكثر فأكثر، فليس لدينا شـــيء نقوله. إن الحب بين الوالد وابنه ليس في الكلمات، ولا بالمناقشة، إن ما كنتُ أحبه كان ببساطة أن يكون ابني هنا في البيـــت، ويمكن ألا نتحادث في النهـــار، وهذا ليس أمراً خطيراً، فأنا أحسّ بوجوده، وكان هذا يكفيني، فهل أنا مخطئ؟ لا أدري، أنا لا أســـتطيع غير محاولة وضع الكلمات تعبيراً عن مشاعري، ويمكنني أن أؤكـــد الآن ما أعرفه منذ البداية؛ لقد كان انفصال ولـــدَيَّ عني أمراً أليماً، وقد بدا لي هذا الأمر عادياً، ومســـوَّغاً، وإنسانياً، وبيولوجياً، وكل ما تريد، ومع ذلك سبَّب لي ألماً.

كنـــتُ أرجو أن يخِفَّ ألم ظهري غـــداً، لأنني كنت قد اتفقت على موعد مع ابنتي، وكنتُ سأدعوها إلى مطعمها المفضَّل، وهو

مطعــم هندي كنــت أجده ذا بهارات كثيرة، وقــد تردَّدتُ في أن أطلــب إليها الحضور مصحوبة[132]، ولكنني لم أكن أشــعر بعدُ بأنني مســتعد، وقد أعدت التفكير، خلال وقت طويل، في كل ما كانــت تلومني عليه في هذه الأســابيع الأخيرة، وكنت قد خيَّبت أملهــا إلى أبعد حد، ومع ذلك لم تســتبعدني قط في الحقيقة. بقيــت محبَّة لي، لقد خجلت منهــا وحكمتُ على قصة حبها من غير أن أعرف عنها شــيئاً، كنتُ مرعوباً بفارق السن بينها وبين (ميشيل)، فقد كان يفصل بينهما بالكاد نحو عشر سنين، لم تكن تلك المرةَ الأولى التي كانت فتاة شابة تتجذب فيها إلى رجل أكثر نضجــاً، كيف تمكَّنــتُ من أن أكون محدوداً جــداً؟ فقد تقدَّمتُ فــي الحياة مع قصر النظر، واســتحوذتْ علــيَّ اجتماعات غير مهمة مع يابانيين متصلِّبين نفسياً، ومخدَّرين بالأخبار السياسية، والاقتصادية، والعملية، ولم يكن لكل هذا أي أهمية، وكنت أمشي تدريجياً نحو الجوهري، وربما كان السير على هذا الطريق سبب قلة وجع الظهر.

تناولت كبســولتين، ثم كبسولتين أخريين، لم يكن بإمكاني أن أفعل شــيئاً في النهار، كنت أتفرَّج على التلفزة، كل هذه البرامج البلهــاء التي يشــعر المرء بالســعادة في متابعتهــا عندما يكون مريضاً، ونمت أيضاً من المسلســلات، وفي المساء، تابعتُ فيلماً عن الحــرب معروفاً جداً، لم أكن قد رأيته منذ ســن المراهقة. وفي الغرفة المجاورة، كان زوجان يمارســان الحب بصبرٍ يحرِّك الشــعور، ومن أجل التغطية على صوت نشاطهما، رفعتُ صوت

(132) يريد مصحوبة بصاحبها (ميشيل) الذي كانت تعيش معه كزوجة، لأنه لم يهضم علاقتها به حتى الآن، ولم يكن راضياً عنها (المترجم).

التلفزة قليلاً، وهكـــذا أصبح جدارنا يجادِدُ الحبَّ والحربَ معاً، ويبـــدو أن الوقت أصبح منتصف الليل عندمـــا نمت ثانية، وفي الساعة الثانية صباحاً اســـتيقظت في مواجهةِ أمر ظاهر؛ لماذا أنتظـــر الغد لأقول لابنتـــي ما كان في قلبي؟ فهـــذا لا يمكن أن ينتظر، وكان يجب أن أتصرف بأسرع ما يمكن.

(١٨)

شدة الوجع: ٥,٥

الحالة المعنوية: عازم

(١٩)

ذات يوم كنت فيه قد وَعَدْتُ بزيارة شقتهما، لاحظتُ العنوان على طرف ورقة، فأعدت قراءة هذا العنوان، حتى لا أذهب إليه نهائياً، وأتذكَّر حتى رمز باب المدخل، وقد شعرت بالسعادة، وأنا أتجـــوَّل في الليل، لأنني أعيش نزوتي. لقد مضى وقت طويل لم أكن أتصرَّف فيه بلا تفكير مُسَـــبَّق، لقد كنت أعيش دوماً تحت ضغط التروِّي، وأفعالي لم تكن تتم إلا بعد تسجيلها في مفكِّرتي، وبعد إدراج كيفية اســـتعمال الوقت، لم أعُد أحتمل هذا التعبير، فالوقت لا يُسْـــتعمَل، ويبدو أن الوقت غيـــر أكيد، بالقياس على عدم ماديته، يا للســـعادة أن ينحرف المرء هكذا.. لم أعُد أحتمل في سن الرشد أن أكون عاقلاً جداً، وقابلاً لتوقُّع تصرُّفي تماماً، كانت الســـاعة الثالثة صباحاً تقريباً عندما وجدت نفســـي أمام بابهما، وعلى الرغم من سُـــمُوِّي الغنائي الداخلي بشـــأن جمال نزوتي الليلية، تردَّدتُ لحظة، وعلى أي حال، كنت أريد أن أهدِّئ الأشـــياء، ولكن هل كانت هذه هـــي الطريقة الفضلى للتصرُّف؟

يحــدث في أغلب الأحيان أن ينقلب فعلٌ عفويٌّ تماماً إلى ضده، لا يهم، كان عليَّ أن أتَّبِع حدســـي، طرقت الباب بهدوء تام أولاً، كما لو أنني لم أكن أريـــد إيقاظهما (تناقض ظاهر)، وبعد مدة، قرعت الباب قرعاً أقوى قليلاً، فســـمعتُ صوت خُطا، ثم صوتاً قلقاً، إنه صوت ابنتي، تقول:

- ما هذا؟

- أنا أبوك.

فتحت (أليس) الباب، مُلْتَفَّةً في ثوبِ بيت (روب دو شـــامبر) زَهْرِيٍّ اللون (وهذه فـــي حياتي هي المرة الأولى التي أراها فيها هكذا)، وبعد وقت قليل من الوقوف، سألتني:

- حسناً.. ماذا تفعل هنا؟ هل حدث شيء؟

- لا.. لا، كل شيء على ما يرام.

- إذن ما الأمر؟

- حسناً.. لا شيء، هل يمكنني الدخول؟

- نعم..

وجدت نفســـي داخـــل الصالون، ولم أكن أرى شـــيئاً ذا بال، وبكل منطق، كان كل شيء مطفأً، قالت:

- أبتي، إن كان هنالك مشكلة، فيجب أن تذكرها لي.

- لا، يـــا عزيزتي، هذا فقط لأنني كنتُ وعدتُك أن آتي مرات كثيرة، ولم أفعل، وها أنذا الآن آتي هكذا.

- ......

وبقيَتْ من غير أن تقول شيئاً، وفكَّرتُ في أن الألم قد انتابها لمعرفة إن كنتُ أعاني من اختلال عقلي كامل، أو كان الأمر يتعلَّق بأزمة بسيطة وصغيرة عابرة، وفي هذه الأثناء، برز (ميشيل) من

الغرفة، رأيته في آخر الممر، يرتدي اللباس الداخلي، وشعره في معركةٍ (معركةٍ هائلة، وشــيءٍ ما شــبيهٍ بحرب عالمية)، أسرعت ابنتي نحوه لتوشوشه بشيء ما، لم أفهمْ كل شيء، ولكن تُشتَمُّ من ذلك رائحةُ محاولةُ نزعِ فتيلٍ مشتعل، كان يبدو أنها تقول له: (إنه أبي.. وهو ليس بخير في هذا الوقت.. مع الطلاق.. وتســريحه من العمــل..)، غير أنني لم أكن في الحقيقــة متأكِّداً من ذلك، وبعد لحظة تقدَّم (ميشيل) نحوي وقال:

– وأخيــراً، قرَّرتَ أن تأتي لرؤيتنا، يــا لَلْمفاجأة الطيِّبة، هل تشرب القهوة؟

فتمتمتُ:

– أوه.. نعم.

وبعــد بضع دقائق، كنــا جميعاً نحن الثلاثة جالســين حول المائــدة الصغيرة في المطبخ، وعليها قماش مُشَــمَّع، أذكرُه لأنني أعشق القماش المشــمع، فهو يُذكِّرني بطفولتي، وأجدادي، وهو صلــة حنين إلــى الأيام الســعيدة. يمكن للمرء أن يحــبّ مكاناً بأكمله بفضل جزئية وحيدة فيه، وقد اســتهوتني شــقتهما على الفور، وذلك ببســاطة لأنني رأيت فيها القماش المشمَّع. كثير من الأشخاص ليس عندهم قماش مشمع، ويبدو أن الأجيال الشابة لا تعرف ما هو، وأنا لا أدري لماذا ركَّزتُ بشدة على هذه الجزئية، لقد قلتُ لنفسي إنهما يبدوان سعيدين مع هذا القماش المشمَّع، وقد ذكرني ذلك بفكرة الســعادة الراســخة، المرتبطة بســنوات الماضي التي كان كل شــيء فيها أسهل، لقد كان القماش المشمع يبعث على الرغبة في سماع (راديو الترانزيستور) عندما يشرب المــرء عصير الليمون، وكان يبعث على الرغبة في شــرب القهوة

في قدح صغير ذي رقم مسجل في قعره. لقد كانت جلستهما متماسكة جداً مع القماش المشمع، وكان أصحاب القماش المشمع متسامحين، ومن النوع الذي يتقبَّل زيارة ليلية غير متوقعة. كان ميشيل يحضر القهوة، ولم يكن بمقدور أحد أن يصدِّق أننا كنا في قلب الليل.

لم يكن في المدينة أي ضجيج، كان آباء الأسر الآخرون ينامون بهدوء، وبقينا نحن صامتين، فقط هكذا، نستمع لخرخرة آلة تحضير القهوة، والذي يهم هو هذا الوقت الطيِّب. لقد كنت أنتظر كي أكون مستعداً للمجيء إلى هنا، وقد اختار جسمي هذه الليلة ليقول لي: اذهب الآن. لم يكن أحد ينطق بكلمة، وقد نظرت إلى اليسار وإلى اليمين ورأيت تفاصيل حياتهما اليومية، وقد أثَّرت بي أشياء كثيرة، فقد أحببتُ هذا التقويم الموضوع فوق الثلاجة مع عبارة لكل يوم، وقد قرأت عبارة اليوم ونصها: (ليس لديك أي حظ، فاقبض عليه)، كان هذا اقتباساً من (آرثر شوبنهاور) [133] Arther Schopenhauer، وهو يتعلَّق بمجموعة من العبارات الأكثر تثبيطاً للهمم، ونجد فيها أقوالاً مأثورة لـ (سيوران) [134] Cioran وعدد كبير من التشاؤميين[135]. إنني أعشق هذه الفكرة، الأكثر أصالة للغاية

(133) آرثر شوبنهاور: فيلسوف ألماني (1788–1860) أثَّرت فلسفته التشاؤمية في (فريدريش نيتشه) (1844–1900) Nietzsche Fredrich في كتابه (هكذا تكلَّم زرادشت) (المترجم).

(134) سيوران (إيميل ميشيل - Emil Michel): كاتب مقالات روماني [نسبة إلى رومانيا الحاضرة] باللغة الفرنسية (1911–1995) وكان أخلاقياً تشاؤمياً (المترجم).

(135) وكان هنالك أيضاً اقتباس من (وُودي آلن) Woody Allen [كاتب سيناريو وممثل أمريكي (ولد سنة 1935) (المترجم)]: (الطريقة الوحيدة لكي تكون سعيداً هي أن تحبَّ المعاناة)، وهنالك أيضاً هذه الشَّذَرَة المفرحة لـ (فيتزجيرالد) Fitzgerald [(فرانسيس سكوت - Francis Scott كاتب أمريكي (1896–1940) (المترجم)]: (كل حياة هي عملية هدم) (الأصل الفرنسي).

من جميع هذه المجموعات من العبارات الحمقاء عن الحياة، فلا شــيء يؤثِّر أكثر من الأفكار الإيجابية، هنالك شيء من الفكاهة في تقديم عبارة لطيفة قصيرة تنذر بالشر كل صباح، مبيِّنة إلى أي حد لن يكون أي شيء على ما يرام.

إنــه لأمرٌ مؤثِّرٌ جــداً أن يقيم المرء للمــرة الأولى في منزل جديــد بصورة اثنين، وهــذا ما أعادني إلى الشــهور الأولى مع (إيليز). وأن يكون هنالك أطفال، يعني الحياة ثانية عبرهم، وهذا ما عشـــته من قبـــل، لقد كنت أجد أمراً مرعبـــاً أن تعيش ابنتي ما كان يمتُّ بصلة لواحدة من أجمل ذكرياتي؛ البداية المســـتقلة للحياة الغرامية. لقد كانا هنا، يبتســـمان لي، وليســـا متضايقين على الإطلاق من اقتحامي عليهما، ولم يكن (ميشيل) يبدو أيضاً مؤاخـــذاً لي على جميع تلك المرات التـــي كنت قد رفضته فيها، وقد فاقم ذلك توعُّكي.

فكَّـــرتُ كثيراً فـــي لقائنا، وتخيَّلتُ جميع الأســـئلة التي كنت سأطرحها عليه، فلكي يستأهل ابنتي، كنت أرجو أن تكون له سيرة ذاتية [136] CV ذهبية، لقد كنت أريد معرفة ســـوابقه العاطفية، وأفلامـــه وكتبه المفضلة (وفي رأيـــي، يمكن أن يعرف المرء كثيراً عن أحدهم مـــن خلال ميوله)، وعلاقاته بأســـرته، وكدت أكون صورة ســـاخرة لأب لا يُطاق، ومن ثَمَّ تبيَّنتُ أن ذلك سيكون أمراً مضحكاً، لقد كان الأفضل ألا يقول شيئاً، ونحن هنا معاً بسلام.

وبعد تناول القهوة، نهضنا، وأطلعاني على شقتهما الصغيرة،

(136) هـــذان الحرفان اختصار للكلمتين اللاتينيتين (vitae curriculum) وتعنيان (ســـيرة الحياة)، ثم اســـتعمل الاختصار للدلالة على الســـيرة العلمية والوظيفية والخبراتية وغيرها إلى جانب بعض المعلومات عن حياة الشخص عند التقدم للقبول في جهة علمية أو تعليمية أو وظيفية أو مهنية، إلخ، لمعرفة مؤهلاته لما يتقدم إليه (المترجم).

وتجولـــتُ بنور خفيف وأنا أتثـــاءب، فكنا مثل أســـرة من الذين يمشـــون في نومهم، ولم أكن أريد إزعاجهما وقتاً أطول. وعندما هممتُ بالرحيل، شـــدَدْت على يد (ميشـــيل)، فقـــال لي حينئذ: (شـــكراً لمجيئك)، وإضافة إلى ذلـــك كان مهذباً، لقد بلبلتُ عليه ليلته، وفي اليوم التالي، سيكون ساهماً في عمله، ولكنه شكرني مـــع ذلك، لم أكن أدري إن كنا ســـنتفاهم جيـــداً لو تكلَّمنا، ولكن يبدو أن أقسى شيء في علاقة ما إنما هو تقاسم الصمت، وهذا مـــا قد جرى، تركني (ميشـــيلٍ) وحيداً مع ابنتـــي، فأخذتها بين ذراعيَّ معتذراً إليها من كوني شـــديد الحمـــق، فتظاهرتُ بعدم الفهم، وعلى مَيْلة السُّلَّم (الدرج)، أضفت قائلاً:

– إن كنتِ موافقة، فسوف آخذ تذاكر إلى نيويورك، وأريد أن أعمل مفاجأة لأخيك.

– هذه فكرة طيِّبة جداً، سيسَرّ بها.

ورحلتُ في الليل، ومشـــيت وقتاً طويـــلاً في باريس، وبدأتِ الشـــمس تشـــرق، وبدأ الناس عندئذٍ يســـتيقظون، لقد مضت ســـنوات لم أرَ فيها مدينتي وهي تســـتيقظ، كانت تبدو في مزاج طيِّـــب، ومرهقـــة قليلاً، وقـــد انتظرتُ فتح أحـــد المقاهي قرب فندقي، وجلست على رصيفه (تِرَّاسِه).

القسم الرابع

(١)

كنــتُ أعيش في فنــدق ذي نجمتين تبــدو ثانيتُهما منتزعة بالكاد، وبقي مستقبلي غير مؤكّد، وكان ظهري قد واصل سلوكه المتقلِّب، ولم أتوصَّل إلى التحرُّر تماماً من الفرضيات الســوداء. كانت لديَّ رغبة في إجراء تصوير بالرنين المغناطيســي IRM، مع ما يشــبه الحدس بأنه ســيتم هذه المرة اكتشاف الورم الذي يضنيني، ثم هدأتُ، وأخذت أســتعيد العناصر التي في حوزتي واحــداً تلو الآخر، محــاولاً أن أبدو منطقياً؛ لقــد دفعوني إلى الاعتقــاد بأن وجعي كان من أصل نفســي، وقالــت أمي (ولمرة واحــدة كانت تقول شــيئاً ما فيه ذكاء): (أنــت تحافظ بإفراط على أشيائك، وعليك أن تذهب لرؤية كل الأشخاص الذين لديك مشكلات معهم، وتسويتها مع الكل دفعة واحدة)، كان الحق معها، إن ألم ظهري ينبغي أن يكون حصيلة كل العقد التي لم تحلَّ قط، وهنالك بالتأكيد قلب حياتي: زوجتي، وولدايَ، ووالدايَ، وعملي، وربما أهملت الكثير من نقاط التوتُّر التي كانت تحُفّ مســيرتي، ويبدو أن عليَّ إنشــاءَ قائمة بكل النزاعات التي كنت أعيشــها، وبكل ما كان يكدِّر عليَّ، ويحرمني، ويجمِّدني، وبالتفكير قبل كل شيء فيما لم يكن يبدو حاسماً، وربما كان الحلُّ يكمن في الأمر الزهيد.

وبالمصادفة حضر إلى ذاكرتي كثير من التفاصيل:
اتهامٌ على غير أساس بسرقة كتابٍ من المجموعة الإعلامية في (بربينيان) Perpignan

* * *

عدم دعوة (صوفيا كاستلو) Sophie Castelot لي في سن الثامنة

* * *

علامة الإنكليزي الظالمة بشكل مرعب التي تلقيتها في الصف السادس بسبب ورقة امتحانية مفقودة

* * *

اغتيال (جون لِنُّون) John Lennon
(الحرمان الكلي لعدم معرفة ما ألفه بعد سنة 1980)

* * *

قص شعر مخفق بفظاعة سنة 1995

* * *

عدم النجاح في انتقاد فيلم عندما كان كل الناس يمتدحونه

* * *

هزيمتي الظالمة مـــن الجولة الأولى لمباراة كرة الطاولة (بنغ-بونغ)
في نادي (فاكانـــس إلدورادو) Vacances Eldorado في تركيا سنة 1984

* * *

القبول الاستكاني لفاتورة فلكية عند صاحب مرآب

* * *

احتضار (ألبير) Albert، هامســـتر طفولتي، وقد مات أمام عيوني سنة 1979

* * *

وقوع دراجة ابني الهوائية في اليوم الذي نزعت منها العجلتين الصغيرتين

* * *

خرق جانب سيارة واقفة، والانطلاق من غير ترك كلمة

* * *

اســتحالة الحصول على مكان لحضــور حفلة (مايلز ديفس) Miles Davis الموسيقية

في الـ (فيلِّت) La Villette في 10 يوليو سنة 1991

* * *

عدم تمكني من أن أقول لـ (كلود جاد) Claude Jade، عند مفرق شارع الـ (غيتيه) Gaiete في مارس سنة 1987، إلى أي حد كنتُ معجباً بها

* * *

إلخ..

* * *

وهكــذا يمكنني أن أتابع قائمة الجراحــات التافهة.. أليس محتملاً أن تشكِّل عشرات المكدِّرات الصغيرة ألماً؟ إن وجعنا إنما هو محصِّلة أشـياءنا التافهة المخفقة، فإذا ما سـوَّيتُ كل ذلك، فلــن يكون لديَّ ألم في الظهر، لقد أصبــح الوقت متأخِّراً جداً بالنســبة لبعض هذه الحسرات، ولكن بالنسبة لغيرها فكل شيء لا يزال ممكناً، فليــس هنالك تقادُمٌ لحرماناتنا، ويعتقد المرء أن

الوقت أصبح متأخِّراً جداً، لكن لا.. لا شـــيء يمنعنا من الذهاب لرؤية شخص بعد عشــرٍ أو عشرين من السنين من أجل متابعة نقاش كان قد انتهى نهايةً ســيئة، ومثال ذلــك، هذه القصة مع حلاق، لم يكن بإمكاني أن أنسى بأي إهمال كان قد وضعني بين يدي متدرِّب شــوَّه لي شــعري، ففي ذلك اليوم، كنت قد تحوَّلتُ لأداة تجربةٍ، وبعد المأســاة، بقيت بلا حَــرَاك أمام المرآة، ولقد أمضيــت الصيف، على ما أعتقد، وأنـــا أتخفَّى عن الناس، وقد اســتبقَ الحلاقون ردة فعلي، وراحوا جميعاً يتقرَّبون إليَّ، وبسوء نية مدهش، راحــوا يمتدحون العبقرية المبدعــة للمتدرِّب، ولم يُقِــرَّ أحد منهم بأنني كنت ضحية (هيروشــيما) Hiroshima المِقَصّ، ورأيتُ أيضاً ابتساماتهم المتضامنة، ولكن ما كرهته أكثر من أي شــيء، في هذه الذكرى، إنما هو ردة فعلي الخاصة، فقد أخذت بالابتســام معهــم أيضاً، ولا يزال تصــوُّر ذلك يبعث فيَّ القشــعريرة. ربما بدأ ألم ظهري هناك، فقــد خرجت من غير أن أقول شــيئاً، وبأدب، بعد أن ســدَّدتُ الحساب، ونتيجة ذلك، لم أكن أستطيع العودة إلى الحلاق من غير أن أستعيد التفكير في إخفاق سنة 1995، وفي كل مرة يكون عليَّ فيها أن أحلق شعري، كانت تحصل الصورة نفسها؛ توتُّرٌ يتعاظم في كل جسمي، وألوم نفسي بخاصة ولا أزال ألومها لعدم قول شيء، وتلك المرة، ككثير من المــرات الأخرى، كنت أحتفظ في نفســـي بكثير من الكلام، وغزير من الكلمات، إما حياءً، وإما تهَيُّباً، وكيلا يكون هنالك ألم فــي الظهر، يجب عدم الاحتفاظ بالأشــياء في النفس. وهكذا، وبعد خمســـة عشر عاماً، سوف أذهب إلى صالون الحلاقة وأدع غضبي يتفجَّر هنالك، وهذا هو الحلّ.

فـــي قائمتي، هنالك أيضاً واقعةٌ هـــي أنني كنت عاجزاً عن نقـــد فيلـــم كان الجميع يُطرونـــه، هل كان ذلك بســـبب الجبن؟ لا أعتقد، وإنما كنت سيِّئ التسلُّح لمواجهة الحياة الاجتماعية، وقد دفع ظهري أيضاً حســـاب ذلك العجز، وكنت أود أخيراً أن أحكم بالســـوء على جميع هذه الأفلام، فإذا ما اعترفتُ بكرهي لأفلام مثل: (Mélancholia)، (Gomorra)، (Magnolia)، فربما تعافيتُ[137]، لقد كان يجب عليَّ أن أهُبَّ خلال ســـاعات لقول كل مـــا أفكِّر فيه، من غير أي رادع، ولســـوف يطرد جســـمي بذلك مئـــات من الآراء النكِدة في نـــوع من التلذُّذ بالحقيقة. لقد كانت المجاملة تضنيني، وترهقني، فأناً لم أكن أســـتطيع أن أعيش في ظل الالتزام وجهـــودِ عدم صنع الشـــبهات. إن مفاتحتي والديَّ بشـــأن توعكـــي جعلتني بخير، أخيراً هذا مـــا يبدو لي، ولم أكن متأكِّداً جـــداً إلا من هذا، فقد تحرَّرت للوهلة الأولى، إنها راحة عابرة، ولكن هل سيدوم ذلك؟ أوليس من الأفضل أن يعيش المرء بهـــدوء في مأمن من التعبير عن آرائـــه؟ إن الكذب الاجتماعي، فـــي الأصل، يحمي مـــن التوتُّرات ومن عدم الاتفـــاق، وهذا ما جعلني على ما يرام تماماً، فأنا لم أكن أطيق النزاعات، وفي كل الأوقات، كان تدوير الزوايا شعار عُصابي، ونتيجة ذلك، الحقيقة في كل شيء ربما كانت نقطة.

كان منطقـــي يدور بشـــكل دائري، محشـــوراً بـــين خِيَارات متناقضة، وربما كان ذلك سببَ معاناتي؛ فقتالٌ جنوني ولا يتوقفُ ينصرف إلى داخل جســـمي. كنت مســـرحاً للتردُّد المعاصر، لقد

(137) لقـــد تبيَّنـــتُ -عَرَضاً- أن الأفلام التي كنت لا أحبها تنتهي أســـماؤها في أغلب الأحيان بالحرف (A) (الأصل الفرنسي).

كنا تائهين بشـــأن كل المواضيع، وعاجزين عن أن نُعرِّف أنفسنا، وكنـــت متأكِّداً من أن أي عصر مضى لم ينْتِج قطُّ العدد نفســـه من الأمراض النفسية-الجسدية في عصرنا. إنني أتذكَّر كلمات الصيدلانيـــة: (إن ألم الظهر أصبح موضـــة)، وحتى في آلامي، لم يكن لديَّ شـــيء أصيـــل، إن حداثتنا، إنما هـــي إذن هذه. إن المرء يعاني من عـــدم معرفته جيداً جداً ماذا يفعل وماذا يعتقد، ولـــم تكـــن الْمُثُل العظيمـــة إذن لتنعِش نفوســـنا، وقد أصبحت السياسة خدمة لحركات البورصة ولن تلُوح أيُّ حرب في أوروبا. إذن، لأي شيء الكفاح؟ إن عصرنا فارغ من أي التزام، وأنا متأكِّد من أن (ســـارتر) Sartre [138] و(كامـــو) Camus [139] لم يكن لديهما ألم في الظهر.

ولما أعدت قراءة قائمتي، توقَّفتُ عند اسم (صوفيا كاستلو)، فأنا لم أفكِّر فيها منذ سنوات، وها هو اسمها قد ظهر منذ بداية عرض حرماناتي، وقد تســـرَّبتْ ســـابقاً مباشـــرة من لاشعوري، وحضرتْ إلى ذاكرتي مع ابتسامتها الخالدة ذات الثماني سنوات، وكانت هنا صدمة نفســـية، إنها صدمة نفسية، إنها حقيقةٌ، لقد عشـــتُ مأساة مع (صوفيا كاســـتلو)، كان اسمها نفسه يستدعي هزة أرضية في نفسي، لقد كنتُ متألِّماً للغاية في اليوم الذي كنت قـــد علمتُ فيه أنني لم أكن مدعوًّاً إلى عيد ميلادها، فقد بلغتْ سن الثامنة، وكان ذلك من غير حضوري، والأسوأ في الأمر أنها كانـــت قد دعتْ (رودولف بولمـــي) Rodolphe Boulmi [140]،

---

(138) سارتر (جان-بول Jean-Paul) كاتب ومفكر فرنسي (1905-1980).

(139) كامو (البير - Albert): كاتب فرنسي (1913-1960).

(140) يبدو أن هذا الاسم كان لزميل منافس له في حب (صوفيا) المذكورة (المترجم).

إنه جرح فظيع في (السـنة الثانية من الدراسة الابتدائية) [141] CE2، ربما كان كل شـيء قد بدأ من هنا. ولذا تجب العودة إلى أصل جميع نقاط الضعف، كيف أصبحت (صوفيا) الآن؟ ينبغي أن تكون قد تزوجت، ولديها طفل، لا، يبدو أنها قد طُلِّقَتْ، سوف أتمكَّن من العثور عليها وأسـألها لماذا لم تدعُني إلى عيد ميلاها الثامـن؟ إنني في حاجة إلـى إجابة، في الفترة التي كنت مذعناً فيها لقرارات الآخرين لم أكن أقول شـيئاً، وكنتُ أتظاهر بأنني لم أُجْرَح، وكنتُ أبكي في غرفتي.

كنـت أرغب في صنـع قائمة لجميع هذه الحـوادث لأختار مـا يمثِّل حرماناتي، ولن أصلحها جميعاً، ولكني سـأختار حدثاً وحيـداً يمكن إكماله، هو الذي يرمـز إلى اندمال جميع خدوش الماضي هذه، لقد جرَّبتُ كل شيء، حتى المنوِّمة مغناطيسياً. إذن لن تبـدو لي هذه الفكرة أكثـر جنوناً من غيرهـا، وفيما يتعلَّق بقائمتي، كان اختيار (صوفيا كاسـتلو) هو الأوضح، لقد قادني حدسـي إليها، وباستعادة التفكير فيها، كان جرح القلب من هذه القصة أول وجع كبير في حب الذات، وقد يكون ألم الظهر نتيجة متأخِّرة لاكتئابنا الأول من الحبّ، وعلى كُلٍّ، هنالك شـيء واحد كان أكيداً، هو أن عليها أن تفسِّـر لـي: لماذا لم تدعُني إلى عيد ميلادها الثامن؟

(141) هذا مختصر للكلمات (cours élémentaire de 2ème année) (المترجم).

(٢)
شدة الوجع: ٣
الحالة المعنوية: نصف قتاليّ ونصف حنينيّ
(٣)

في بعض الأحيان، كان بودي أن أجري تحقيقات واسعة على الطريقة القديمة كتجنيد مُخبر، يحسب نفسه (أنطوان دوانيل) Antoine Doinel [142] في (قُبُلات مُختَلَسة) Baisers volés التي لا أزال أعرفها، ولكن، في فترة تعيسة كفترتنا، يمكن العثور علينا بسهولة متناهية، ويمكن الاتصال بنا بلا جدوى، لقد كانت (صوفيا كاستلو) هنا، على طرف أصابعي، ففي بضع ثوان، اكتشفت لمحة عنها في الإنترنت، وكان بإمكاني أيضاً أن أبعث إليها رسالة. لقد عرفتُ هذه الفتاة في فترة كانت كلمة (حاسوب) ordinateur فيها تمثِّل مراقبة آلة ضخمة مرتبطة بصاروخ مع رواد فضاء داخله لرؤية المحيط الجوي خارج الأرض. وفي النهاية، استخدم كل ذلك في ربط الناس فيما بينهم، ربطهم بالطريقة الأسرع، والأكثر مباشرة، والأشمل، أكثر من أي وقت مضى في تاريخ البشرية، لقد أصبح بعض الناس أقرب جداً من بعض، ولكن في أغلب الأحيان بطريقة افتراضية، وقد غيَّر ذلك على وجه الخصوص علاقتنا بالعزلة، وصار بإمكان المرء ألا يشعر بأنه وحيد، بينما كنا نشعر بذلك دائماً ولا نزال، ولسوف يأخذ ذلك فقط مزيداً من الوقت حتى

(142) أنطوان دوانيل: اسم شخصية المخبر الخاص في فيلم (قبلات مختلسة) الشهير، ومثَّل دوره (جان-بيير ليو) Jean-Pierre Léaud وقد قامت بدور البطلة (كريستين) إلى جانبه الممثلة الشهيرة (كلود جاد) التي أشار إليها في أحد إخفاقاته آنفاً، وقد ظهر الفيلم سنة 1968 من إخراج (فرانسوا تروفو François Truffaut) (المترجم).

نتقبَّله، وسيستسلم المرء بعض الوقت للتعلُّل بأوهام مشاطرة الناس واقعياً.

لقد عثرتُ على (صوفيا) بسرعة هائلة إلى حد أنني لم أكن أملك الوقت للتفكير فيما يمكنني أن أقوله لها، ماذا يكتب المرء لشخص بعد أكثر من ثلاثين سنة؟ إنه يختار مباشرة التوافق الضمني، كما لو أن الزمن لم يفصل بيننا قط: (هل أنتِ بخير؟)، أو بتنغيم نصف مسترخ، ونصف متطفِّل: (ماذا أصبحتِ؟)، وكان هنالك أيضاً الخيار قليل الطمأنة: (لا أدري إن كنتِ تذكرينني..). وأخيراً، بعثتُ رسالةً محايدة تماماً، نصها: (أرجو أن تكوني بخير، بعد كل هذه السنوات..)، ولقد تجنَّبتُ أن أكون ودوداً أو عاطفياً، لأنني كنت أجد دائماً أمراً مثيراً للشجون أن أكتب هكذا لمعرفةٍ قديمة، وهذا يبعث الرجلَ ذا الأربعين عاماً على الاكتئاب، وهو في غمرة الطلاق، ويسعى إلى تجديد الصلة مع كل النساء اللواتي التقى بهن في حياته، وكانت العودة إلى علاقة من الصف الثاني الابتدائي تفاقِم إمكانية أن يجد المرء مسعاه مُغِمّاً.

ظاهرياً لا، لأنها أجابت في اليوم نفسه بحماسة، وقد اعترفت بأنها هي أيضاً كانت تبحث عن أصدقاء قدامى على الشبكات الاجتماعية (ومن هذا النص أستنتج أنني لم أكن جزءاً من عمليات بحثها)، لقد افتتنتُ بواقعة أن ذلك كان يعود إلى زمن بعيد وأن من الجنون أن يتمكن المرء من أن يجد نفسه هكذا، ولقد كنتُ متفاجئاً جداً بلهجة رسائلها. وخلاصة القول، كان لديَّ انطباعٌ بأنها لم تتغيَّر، لقد قرأتها وكأنني أسمع فيها صوتها وهي فتاة صغيرة، وقد استمرّ شعوري هذا إلى اللحظة

التي سألتها فيها ماذا أصبحتِ، فقالت: (أنا عالمة جنس) – se - ologue، (صوفيا كاستلو) عالمة جنس، (صوفيا كاستلو)، تلك الفتاة التي كنت قد أحببتها في سن الثامنة، والتي لم تدعُني إلى عيد ميلادها، قد أصبحتْ عالمة جنس. بقيت مرتبكاً لبضع دقائق، لقد بدا لي مسعاي بغتة حينئذٍ مثيراً للسخرية، أحدث ذلك استياء في القلب (إنها لم تكن قد دعتني إلى عيد ميلادها الثامن) من امرأة مشغولة بالعالم الفوضوي للرعشة، في الأصل، كان ذلك رمزياً جداً لكثير من الأشياء في حياتي.

اتفقنا على أن نتناول طعام الغداء سويَّةً في اليوم التالي، منذ وقت طويل لم يكن لي موعدٌ مع امرأة شبه معروفة، أمضيت ساعة في صالة الحمَّام (وهو ما كان مفخرةً حقيقية عندما يمعن المرء النظر في ضيق المكان)، وأنا أسرِّح شعري، وأعود أُشَعِّثه، ثم أعيد تصفيفه، لقد كانت مهنتها على وجه الخصوص هي التي تقلقني، فأنا لم أخالط عالمة جنس قط، يبدو أنها تعلم كثيراً من الأشياء، وكان ذلك يؤثِّر فَيَّ، لقد أمضيت حياتي بزواج شريف، مبتعداً قليلاً عن المجال التقليدي للنشاط الجنسي. هنالك ما يشبه العالَم بيننا، وبغتة، فكرت في أنها كانت خبيرة تماماً في مشكلات الظهر، وعلى أي حال، كان (فرويد) يقول: (كلُّ شيء جنس). إن ألمي من النوع الجنسي، وهذا مؤكَّد، ولكنني أخطأت حين ذهبت لزيارة بَغِيٍّ، فأنا أقل حاجة إلى علاقة جنسية من تحليلٍ يسمح لي بأن أتبيَّن مشكلاتي، فقد كنت أعاني من مرض نصفُ نفسي، ونصف جنسي. هكذا خُلِقتِ الحياة، وهذا الموعد ليس فيه شيء للمصادفة، لقد كانت الرغبة في حل صدمة الطفولة إيعازاً من لاشعوري لدفعي إلى الاتصال بتلك التي

ســتنقذني. يفهم المرء فــي أغلب الأحيان الأســباب الحقيقية لأفعاله بعد فوات الأوان، والحاسَّــة السادسة الشهيرة هي التي تقودهــا، وبعد أن جرَّبت كثيراً من المجالات للعلاج، بات عليَّ أن أكتشــف تلك الحاسَّة، إن شفائي، بطريقة مستبعدة جداً، يعتمد إذن على ما أنا أقل موهبة فيه، وهو: الحدس.

ففي صفحتها على الـ (فيسبوك)، لم تثبِّت (صوفيا كاستلو) أي صورة لها، وهذه إشارة سيِّئة عموماً، فهل سأجد على وجهها ما كنتُ قد أحببتُه كثيراً. لقد كنت أصادف في الشــارع من قبلُ أشــخاصاً من الماضي وكانت المصادفــة كارثية كل مرة، وعندما كنــت أراهم، كان عليَّ أن أقر بأنني أنا أيضاً قد شــختُ. فعلى وجوه الآخرين ينبغي لنا أن نقرأ وجوهنا، فما الذي سوف أقرؤه على وجــه (صوفيا)؟ لقد كنتُ أخشــى من ســنِّنا، وفي لحظة مــن اللحظات، كنت أرغب فــي التراجع، يتحدَّث المرء في أغلب الأحيان عن الخوف من المســتقبل، ولكــن الماضي كان يبدو لي أيضــاً مخيفاً أكثر. ســوف أذهب لإلقاء نظــرة على ما هو غير موجود، وعلى ما لا يمكن أن يوجد أبداً. كان عليَّ أن أتوقَّف عن التفكير، وأن أعيش ببســاطة هذه اللحظة، وأن أتجنَّب الحديث إليها عن ظهري، لقد كنت مغفَّلاً عندما عَدَدْتُ هذا الموعد تحت هــذه الزاوية، فأنا لــن أذهب لرؤية عالِمة جنــس، وإنما لرؤية النسخة البالغة من فتاة صغيرة.

وصَلَتْ بعد تأخُّر عشــر دقائــق[143]، لقد عرفتُها مباشــرة، وهــذا مدهش، وحين رأيتها رأيت ســنواتنا الثماني، وفي المقابل، مَسَحَتْ بنظرها المطعم، وهذه إشارة إلى أن الأمر لم يكن متبادلاً.

(143) أو أنني كنت قد بكَّرتُ عشر دقائق (الأصل الفرنسي).

وقد كان عليَّ أن أعمد إلى إشـــارة صغيرة، وعندها فقط توَجَّهَتْ نحوي بابتسامة عريضة، وتبادلنا قُبْلَةً كأصدقاء قدامى، وبطريقة عفوية أخذنـــا نتبادل الحديث، تماماً كما في الرســـائل المكتوبة، وكانت الكلمات تنثال ببســـاطة، كان لدى (صوفيا كاســـتلو) حسٌّ فطريّ في المحادثة، ولم يكن معها أي مجال للصمت، وهذا ما كان يضايقنـــي؛ لقد كان يصيبني دائماً صُـــداع من الحديث مع امرأة والنظر إليها في الوقت نفســـه، وكانت لديَّ رغبة في النظر إليها حقيقة، وكانت لديَّ رغبة في أن أتفرَّســـها، وأن أتفحَّص تفاصيل أنوثتها، إن تحليلي لغياب صورتها عن صفحتها على الـ (فيسبوك) كان خاطئاً كليةً، فقد كانت (صوفيا) جميلة، وكانت جميلة عندما تســـاءلتُ لماذا أمضيت ثلاثين ســـنة من غير أن أراها، وقد تركتُ نفســـي أثير الإعجاب لمدة طويلة، قبل أن يستعيدني الواقع؛ وهو ســـبب لقائنا، أي أنها لم تكن دعتنـــي إلى عيد ميلادها، إنها هي التي اســـتبعدتني من حياتها، عندما يغيب شخصان أحدُهما عن نظر الآخر، فإن أحدهما يكون أكبر مسؤولية من الآخر.

كان علـــيَّ أن أنتظر، فيمكن أن يعـــاد الأمر ثانية، لقد كانت مـــن النوع الذي يفتنك، وبعد ذلك لـــم تدعُك إلى عيد ميلادها، وعندئذٍ قالت:

- إنه لأمر غريب أن نلتقي، يوم الســـبت مســـاء ســـوف أقيم سهرة كبيرة بمناسبة عيد ميلادي، ويسرُّني أن تحضرها.

- ......

- هل أنتَ هنا؟

- أوه.. لا .. لا، لســـوء الحظ.. يوم الســـبت، لـــن أكون هنا .. سوف أسافر إلى الولايات المتحدة مع ابنتي..

وعندهـــا أخذت تتحـــدَّث عن ابنها، فهو وحيـــد، وكان ذلك يحزنها، فلقد كانت تريد أن ترى لها طفلاً ثانياً، ولكنْ حسناً، فقد تم طلاقها، ولم تتزوج إلى الآن، وهذا بالضبط ما قد تخيَّلتُه عن حياتهـــا، وأنا أفكر تفكيراً عابراً، وقد واصلت ذكر ابنها، ولكنني لم أكن أسمعها حقيقة، وقد بقيت عند حدث عيد ميلادها. لقد كان ذلك يبدو لي مضحـــكاً، لقد عثرت على هذه الفتاة لأضمِّد جرحـــاً من الطفولـــة، ومن غير أن تعرف الأمـــر، ها هي تقترح علـــيَّ، وبغرابة لا تصدَّق من الحياة، إصلاح ذلك الظلم، فلم تعد لديَّ أيُّ رغبة في أن أسألها لماذا لم تكن قد دعتني، فهل سأفعل ذلك في مـــرة أخرى عندما نلتقي؟ لأن ذلك لن يوقع أي شـــك، فتفاهُمنا يشير إلى بداية عصر جديد بيننا. يجب على المرء إذن أن يتبع حُدُوسَه، حتى الأكثر طيشاً منها. كانت (صوفيا) لا تزال تتكلَّم، من غير أن تتصوَّر لماذا نحن هنا، ولقد تمَّ شفاء الجرح.

وخـــلال تنـــاول الطعام، عرضنـــا لمواضيع شـــخصية جداً، ويحصـــل في معظم الأحيان أن يبوح المرء بأســـراره هكذا، حول أشـــياء جوهرية، لأشخاص يعرفهم قليلاً أو يراهم قليلاً، حلَّقتُ فوق حياتي، وعملي، وانفصالي الأخير، قالت لي:

– إن شيئاً مما رويتَه لي لم يدهشني.

– حقاً؟ لماذا؟

– لأنك كنت تريد أن تراني.

– وبعدئذ؟

– أنت في نقطة تحوُّل في حياتك، إذن أنت تفكِّر في الماضي، وهذا أمر عاديّ.

– لم أفهم..

- إننا نحن الاثنان في الوضع نفسه، فكل منا في سن الأربعين، ونحن في حالة طلاق، ولا نعرف حقاً ما سيحدث.

- ......

بقيت بلا جواب، لقد انقلب حديثنا بالنتيجة إلى نغمة أكثر حزناً، وهذا ما فاجأني، فالمرء في أغلب الأحيان تكون لديه رغبة في أن يُظهِر أفضل ما في نفسه، وربما يُورِد زيادة على ذلك شواهد من الماضي، ويُظهِر إلى أي درجة يسيطر على حياته، وعلى مصيره، أراد ذلك أم لم يُرِد، ويرى شبحاً في المستقبل، وهذا تقويمٌ لما أُلْنا إليه. إن الحميمية المفاجئة في حديثنا أدخلتنا في جو آخر، أكثر واقعية، ومجرَّدٍ من هذه السطحية التي كان يبدو أنها لنا، لقد كان لدينا كثير من النقاط المشتركة، وفي النهاية ما المدهش في ذلك؛ لقد كنا جميعاً نعيش الحياة نفسها.

لقد قارنتُ وجهها بوجه طفولتها، فقد بدت لي أنها قد أصبحت أكثر سمرة الآن، وكان الأمر يتعلَّق بشعرها، وكانت تبدو أكثر نموذجية، كما لو كانت قد أصبحت بالتدريج إسبانية، كان مظهرها قد ولَّى، وهذا ما كنت أفكِّر فيه حين قالت لي:

- أنت لم تتغيَّر بالمرة.

- حقاً؟

- نعم، لقد كبرتَ أخيراً، ولكن لديك دائماً المظهر نفسه.

- أي مظهر؟

- إنه خليط غريب، فأنا لم أتوصَّل معك قطّ لمعرفة إن كنتَ سعيداً أم مشغول البال.

- ......

كانـــت تلك هـي المرة الأولى التي أفهم فيها بصورة ملموســة بعض الأشـــياء التي كنت أشعر بها، لقد تواصلنا، لقد كانت تقرأ ما في نفسي، وكنت أنا أفكِّر في وجهها، وكانت هي تتحدَّث عن وجهي، وكنت أفكِّر فــي جرح عيد ميلادها، وكانت هي تدعوني إليه، لقد كانت تملك إحساســاً كبيراً بالحدس، وهذا ما لم يكن يدهشــني كثيراً غيرُه، فقد كنت أعتقد دوماً أن فهم شخص ما يمر عبر جسده، قلت لها:

– أنــتِ مرهفةٌ جداً، كمــا أرى، وهذا بالتأكيــد جانبُ عالِمة الجنس فيك.

– ربما، عندما أكتشــف مشكلات كل واحد، يمكنني أن أفهم فهماً أفضل شخصياتهم، فتصوَّر لو أن العكس أيضاً صحيح.

– يعني؟

– يعني.. عندما يتكلم المرء في أي شيء خلال أكثر من خمس دقائق، يمكنني أن أعرف كل شيء عن علاقته بالجنس.

– أكيد؟

– نعم.

– ومعي أيضاً.. تفعلين ذلك؟

– بالتأكيد، فأنا أرى جيداً جداً أي نمط من المرضى ستكون.

– قولي لي..

– آ.. آ.. هــذا يهمك.. حســناً، في مرة أخرى، لأنني تأخرت كثيراً، لديَّ مريض ينتظرني.

– ......

– ليس لديه انتصابٌ منذ سنة 1989.

– إنه لأمر قاسٍ..

فضحكتْ بينما لم أسعَ أنا لأن أكون مضحكاً، ثم إنها نهضت بسرعة كبيرة، بالطريقة نفسها التي كانت قد دخلت بها إلى المطعم. بعض الأشخاص ليسوا موهوبين في الانتقال، وقد كانت هي منهم، وكادت تنهض في وسط الجملة، وقد قالت لي، وهي تعانقني:

– لقد سُرِرتُ برؤيتك حقاً.

– نعم، وأنا أيضاً..

وما إن أصبحت وحدي حتى مكثت مدة على طاولتنا. غادر الزبائن الآخرون المطعم، وكان عليَّ حينئذٍ أن أرحل.

(٤)
شدة الوجع: ٢
الحالة المعنوية: نصف قلِق ونصف سعيد
(٥)

في الطائرة، كنت أفكِّر في (صوفيا كاستلو)، وقد أخبرتُ ابنتي بلقائنا، فرأت فيه تصرُّفاً غير معقول، وأخذت (أليس)، بدورها، في التفكير بكل الأشياء الصغيرة التي كانت قد جرحتْها، وقد ندِمتُ على أنني تحدَّثتُ لها عن قائمتي الخاصة، لأن في قائمتها هي موقفي الحديث تجاه حبيبها، وقد اقترحتُ عليها أن ترى الأفلام المتاحة في الطائرة، فقد كان هنالك خِياراتٌ كثيرة، ولكن منذ بضع سنوات، لم يكن بإمكان المرء أن يرى سوى فيلم واحد فيها، وبحسب مقعده، كان له مدخلٌ احتمالي إلى حدٍّ ما إلى البرنامج الوحيد، وأتذكَّر أنني رأيت فيلماً بعنوان (على

جِسْر ماديســون Sur la route de Madison [144]، وكانت الشاشــة فوق رأسي تماماً[145]، وقد شاهدت مع (أليس) أطرافاً من الفيلم، بالتشــارك في الســماعتين؛ لكل واحد سماعة. لقد مضى وقت طويل لم نجد أنفســنا هكذا نحن الاثنان، بعيداً عن المنزل، وبعيداً عن ديكور رتابتنا العاطفية، كنا نطير فوق المحيط الأطلنطي، وكان ذلك جيِّداً.

وحين وصلنا [إلى نيويورك]، بعثتْ (أليس) رسالة إلى أخيها تســأله فيها عــن أخباره، فأجاب أنه بخير، وأنه يســتعدّ للعمل طيلــة ما بعد الظهر فــي المكتبة، فأخذنا ســيارة أجرة صفراء للذهاب مباشــرة إلى (كولومبيــا) Colombia [146]. إنه لأمرٌ ســاحرٌ عبورُ هذه المدينة، وهي المدينــة الوحيدة في العالم التي يكون فيها التنافر الصوتي شجياً، قالت (أليس) بإعجاب:

- هل تلاحظ؟ إننا في نيويورك!
- نعم، ألاحظ..
- ماذا تعتقد أنه سيفعل عندما يرانا؟
- لا أدري، ستكون هنالك صدمة، بالتأكيد.
- نعم، وبخاصة معك، فلست من النوع الذي يصنع مفاجآت..
- ......

(144) وهو فيلم أمريكي رومانســي عاطفي مأســاوي مؤثِّر، عنوانه الأصلي بالإنكليزية (The Bridges of Madison county) أي: (جسر مقاطعة ماديسون)، من إخراج (كلِنت إيستوود) Clint Eastwood، وظهر ســنة 1995، وقام فيه أيضاً بــدور البطل (روبرت) Robert، إلى جانب الممثلة (ميريل ســتريب) Meryl Streep، التي لعبت دور (فرانسيســكا)، وكلَّف إنتاجه أربعة وعشــرين مليون دولار في حينه، والفيلم مدبلج بالفرنســية وغيرهــا من اللغات، وقصته مقتبســة من رواية بذات الاســم الإنكليزي للكاتــب (روبرت جيمس وولــر) Robert James Waller (المترجم).

(145) لا يمكنني أن أنسى أبداً الأداء الرائع لـ (ميريل ستريب) (الأصل الفرنسي).

(146) يقصد جامعة (كولومبيا) في (نيويورك) (المترجم).

كنــتُ أودّ أن أرد، غيــر أن (أليس) لم تكــن على خطأ، لأن التفكير المسبَّق في الأمور مملكتي.

حــين وصلنا إلى المكان، لم يكن لزامــاً أن نجد (بول)، وفي مدخل قاعة المطالعة، توجَّهتْ إلينا امرأةٌ بالكلام، فلم أفهم شيئاً مما كانت تقــول، وبلغة إنكليزية تقريبية، حاولتُ أن أوضِح أنني قد جئتُ لرؤية ابني، فلم تدرك شــيئاً أيضاً، وبنوع من «التنبلة» بالتأكيد، تركَتْنا نمر، إن أفضل وسيلة، في بعض الأحيان، للحصول على شيء ما، هي ألا تجعل نفسَك مفهوماً، وفي الداخل، أخذنا نمشــي بتمهُّل تام، ونحن ننسَلُّ خلف خزائن الكتب، وكان الطلبةُ ينظرون إلينا بنظرات غيــرِ مبالية تقريباً، كما لو أن العيش في الولايات المتحدة كان يفرِض شــكلاً من التسامح إزاءَ التصرفات الأكثر غرابة، وبسرعة فائقة لاحظْنا (بول)، وقد كنا وراءه، وكان على بعد بضعة أمتار، وهو يجهل تماماً المفاجأة التي كانت تُحَاك لــه. كانت (أليس) تقفز كطفلة، وقد كان أمراً مدهشــاً جداً أن يشعر المرء بهذا الجموح في معبد الصمتِ والتركيز هذا.

واقتربنا بهدوء، وبقينا ســاكِنَيْن، خلال بضع ثوانٍ، كمَلاكين حطَّا على كتفيه، ولما شــعر بوجود أحد عندئذ اســتدار وصرخ، فكانت هذه الصرخة مثل انزلاق داخل المكتبة لا يحتجَّ عليه أحد، نهــض (بول) وهو غير مصدِّق، فكان منظــره كأصلعَ أُنْعِمَ عليه فجأة بالشعر، وراحت (أليس) تردِّد:

– مفاجأة! مفاجأة!

– ولكنَّ هذا جنون! ماذا تفعلان هنا؟!

فقلت ببساطة:

– لقد افتقدناك..

نســـينا الســـياق، فبدأ الطلبة الآخرون يتذمَّرون، فشرح لهم (بول) بالإنكليزية أننا جئنا من فرنسا لنفاجئه، ولما كانت (أليس) انفعاليـــة، فقد أخذت تبكي، وعندئذ، قـــدَّر الأمريكيون الموقف معجبـــين، لقد قاربـــوا هذا الموقف مـــع ذروة المواقف التي كانوا يحتفظون بســـرها، كانوا يتسلون بترهات هوليوود، ولكن حسناً، كانت الحماســـة ســـريعة الـــزوال، وكان من الأفضـــل أن نخرج بلا تأخير، وحين أصبحنا في الخارج، روينا لـ (بول) قصة القرار الطائش، وقلت:

– ولكن، أتستطيع مغادرة عملك هكذا؟

– لم يعد لديَّ أي عمل..

– ......

وبقي بلا صوت، وكان لديَّ انطباعٌ بأنني عرفتُ نفســـيَ فيه، فقد كان لدينـــا ذاتُ الطريقة في الاحتفـــاظ بالكلمات داخلنا، وهذا نوع من الـحُبْسَـــةِ الشفوية الوراثية، فطمأنتُه، قائلاً له إلى أي درجـــة يمكـــن أن يصبح كل شـــيء على ما يُـــرام تماماً، وقد ذهبنا لنضع أمتعتنا في شـــقته، وكان يتقاســـمها مع طالب آخر باريســـي في (ويليامزبورغ) Williamsburg، وهو حيٌّ متفرِّع من (بروكلين) Brooklyn. قال (بول):

– لن تشعرا بالغربة كثيراً، فهنا فرنسيون كُثُرٌ.

هذا صحيح، فنحن نســـمع لغتنا فـــي كل مكان، وقد وجدتُ أمـــراً غريباً أن يذهب المـــرء بعيداً ليكون كأنه فـــي بلده، ولكن (بول) كان يحب هذا الإحســـاس، وليس من النادر أن يحب المرء بلاده في مكان آخر كما فـــي بلاده. وخلال إقامتنا، انتهيت إلى فهم ذلك، إن اللقاء بالفرنســـيين في الشارع، ونسج علاقات مع

أولئك الذين يشاطرهم المرءُ الأصولَ، يخفف بوضوح دُوَار البلد الأجنبي، وبالنسبة لتعبير دُوار البلد الأجنبي، فإن نيويورك هي الغالبة عليه.

كانت شقة (بول) تبدو لي أوسع على الصور، وكنتُ أعتقد أن بإمكاننا أن ننام عنده طيلة إقامتنا، ولكن باكتشافنا المكان، بدا الأمر معقداً، قال (بول):

- لا، سنرتِّب الأمر، سأترك لك سريري، ولسوف أنام على الأريكة في الصالون.

فقالت (أليس):

- نعم، حسناً جداً.

لم يعد للرفاهية أخيراً أيُّ أهمية، حضر شريك ابني في الشقة، فلم يبدُ عليه أنه منزعج من وجودنا، ولا من فكرة أننا سوف نبقى بضعة أيام، لقد كان مقيماً على بعد يتعذر الوصول إليه من الهموم اليومية، كان (هكتور)، عبقري المعلوماتية، واحداً من هؤلاء الطلبة الذين كانت موهبتهم في الرياضيات تتناسب عكساً مع نضجهم، وفي رأي ابني، كان شريكه في الشقة لا يتحدَّث إلا عن (الخوارزميات = اللوغاريتمات) - alg rithmes أو الكسور، ويُقال إنه كان يباشر كفاحاً فيزيائياً حتى يَظْهَر لطيفَ المعشر. وفجأة، حدَث شيء ما لنظرته، فابتسم بطريقة جامدة، متَّبِعاً بعض سخافات المدينة، وكان يلزمنا بضع دقائق حتى نفهم أن سبب هذا التحوُّل الكلي والمفاجئ لم يكن شيئاً آخر سوى (أليس)، فقد كان يلقي، وهو يتكلَّم، نظرات صغيرة وحيوية باتجاهها، مشفوعة بابتسامات متشنِّجة، انتهى هذا الضغط برشح بضع قطرات من العرق، وهذه جزئية جعلتني

أشـــعر نحوه بتعاطف مباشـــر، ومع شــعوره بأنه أنجز نوعاً من مهمـــة فضائية (وهـــذه حالة اجتماعية تســتلزم فتاة)، عاد إلى الرفاهية العذبة بين الأرقام في غرفته.

في ذلك المســاء، لم نكن أنا و(أليـــس) تَعِبَيْن، مع أن الوقت، حسب فارقِ التوقيت، كان متأخِّراً جداً في فرنسا، وأنا أحب عادة أن أنام مبكِّراً، فنحن غرباء، حتى بالنســبة لتصرفنا الجســمي الخـــاص بنا. اقتـــرح (بول) أن نذهب لتناول العَشـــاء في مطعم باكســـتاني صغير قرب ســكنه، وقد بدا لنا ذلـــك فكرة ممتازة، وقد شـــممتُ، منذ أن جلســـنا إلى الطاولة، رائحة غريبة أشبه تقريباً باللحم الفاسد، وفي الليل التالي أحسستُ بألم في بطني، وربما كان ذلك بســبب الطعام المبَهَّر، فكل طبق طلبناه كان لهيباً فـــي الفم، وكان ذلك متلائمـــاً تماماً مع الجو، لأن الحرارة كانت متفجِّرة، وقد شـــرح لنا صاحب المطعم أن مكيِّف الهواء كان قد انكســـر، وأن مِروَحتَه الإضافية كانت قد سُرِقتْ مؤخَّراً، ولسوء الحظ، لا يملك، مع الأزمة [المالية] الوســـائل لشراء بديلٍ منها. وبالتأكيد، كان ابني هو الذي يترجم كل ذلك، لأنني لم أكن أفهم جيـــداً إنكليزيته، ثم كان على الطاولة بالجوار زوجان لا يتوقفان عن الجدل، وكنا بالكاد نســـمع بعضنـــا، وكان لذلك مظهر جاد كمشكلة، ربما كان بإمكان (صوفيا كاستلو) أن تسوِّيَها، وقد كانا يتصايحان في الحقيقة بقوة، ولكنني لم أكن أرى جيداً وجهيهما، لأنني كنت متضايقاً من كرة من الكريســـتال كانت تبعث موجات من النور على الزبائن، فكان المرء أشـــبه مـــا يكون في علبة ليلٍ تقريبـــاً، ولم أكن أرى فائدة من تثبيت شـــيء كهـــذا في مطعم، فكان المرء يُختَرَق بانعكاســـات صفراء وبرتقالية، وكانت رشقات

النور تجعل جدران المطعم صفراء، وتلك الجدران مزيَّنة بلوحات ضخمة رديئة، ولقد كان الديكور، بصراحة، دليلاً على قلة الذوق الفني، ونوعاً من الاحتفال بالابتــذال، فهنالك لوحات لأبقار أو دجاج، ولوحات لرجالٍ ذوي شــوارب، ولفتيات بثدي واحد. وفي رأيي، يبدو الفنان، أو الرجل الذي رســم هذه الأشــياء، ابن عم الأســرة، وهو نوع من العبء الفني الذي تمتلكه كل أسرة، أو كل عضو في مجموعة. ويبدو أنه الفنان الباكستاني في (بروكلين). وبعد مدة، بدأت أجد أن هنالك ما يشبه جَمالاً في القبح، ولكن بعد ذلك كان عليَّ أن أركِّز على ظهري، لأن الوجع عاودني بشكل مطــوَّل، وكان ذلك على وجه الخصوص بســبب الكرســي، فهو كرســيٌّ لا مثيل له، ظهره لم يكن قائماً، ومن المستحيل أن يثبِّت المــرء عليه أَلْيَتَيْهِ في وقت واحــد، وكان لديَّ انطباع بأنني أقوم بالتزلُّــج قاعداً.. إنه لأمرٌ رهيــب، وكل ذلك، في النهاية، لأقول إنني كنتُ مع ولدَيَّ في مطعم بـ (نيويورك)، وكل ذلك لأقول إنني قد أمضيت إحدى أجمل سهراتي في حياتي.

(٦)

شدة الوجع: ٤

الحالة المعنوية: ساحر

(٧)

كانــت الليلةُ من تلك الليالــي الغريبة التي يصعب فيها على المــرء أن يميِّز أوقات الاســتيقاظ من أوقــات النوم، وقد أصبح الحدُّ بين الشــعور واللاشعور مَســامِيّاً أكثر من أي وقت مضى. وكان هنالك عنصر وحيد أكيد؛ هو أنني حلمت بامرأة، ولكن من

المســتحيل أن أعرف من كانت، لكن وجهها كان مألوفاً لديَّ كما يبدو لــي، ربما كانت ممثِّلة كنت أحبها أو ببســاطة كانت امرأة مجهولة صادفتها في الشــارع، أو كانت مزيجــاً غريباً من عدة نســاء، ولم يكن هذا الحلم يمثِّل شــيئاً مخصوصاً، كانت تجلس فيه قربي، وقد ناولتني يدَها، فشــعرت بسكينة حقيقية لا يمكن تصديقها.

وعندما اســتيقظتُ، بقيت في هذا الشعور بالارتياح متأسفاً تماماً على عدم واقعية الســعادة المرتســمة، ويبدو أنه لا ينبغي أبداً الحلم بالأشــياء الجميلة، وفي الســرير، تابعت التفكير في هذه المــرأة زمناً طويلاً، محاولاً إعادة تكوين لغز وجهها، وخلال الليل جاءت (أليس) إليَّ، وهمست قائلة:

- أولم تنم؟

- بلى.

- هل أســتطيع النوم في الغرفة؟ لســوف أنام على الأرض، على الـ (موكيت)، وسيكون ذلك حسناً جداً.

- حقاً؟ ألم تكوني بخير على الكنبة؟ هل كان أخوك يتحرَّك؟

- لا، ليــس الأمــر كذلك، إنه شــريكه في الســكن، المريض النفســي الآخر، إنه لم يتوقَّف عن فتح بابــه، ولديَّ انطباعٌ بأنه كان يتلصَّص عليَّ وأنا نائمة.

- ......

- لقد أفزعني!

فكظمــتُ ضحكة، فقد تصــوَّرتُ (هكتور) يمضي ليله في النهوض لمراقبة (أليس)، وهذا هو الفارق الكبير معي؛ كان هو قريباً من حلمه، وكنت أنا أفكِّر فيه، كلما كنت أتيقّن أنني كنت

التقيتُ سابقاً هذه المرأة، ولكن أين؟ هنالك كلمات وأسماء تفرُّ منـا، فنقول عندهـا إنها على طرف اللسـان (وأنا أهيم بهذا التعبير)، فعلى طرف لسـاني، كان هنالـك وجه لا ينتمي إلى أحد.

لقـد أمضينـا يومين رائعـين بالتنـزُّه فـي الحدائق مع سـناجب حمراء تقريباً، وفي تناول وجبـات الـ (هوت دوغز) hot dogs فـي الشـارع، وفي زيارة الصـالات الحديثة ذات التجهيزات الغريبة، كنا نعلِّق على كل شـيء، من أتفه شيء إلى أعمق شـيء. منذ متى لم أتكلَّم مع ولديَّ بهذه الطريقة؟ وقد تأسَّفتُ لعدم قيامي بذلك في وقت مبكر، ما الذي كان يمنعني من اصطحابهما في عطلة نهاية الأسـبوع إلى (برلين) أو إلى (مدريد)؟ لا شيء، بالتأكيد لا شيء، تخليتُ بسرعة فائقة عن فكـرة تنظيم علاقتنا، قبل ذلك، كنـتُ أمضي وقتي في رصد العروض المسـرحية، والأفلام، والمعارض التي كانا يحبانها، ثم أتت فترةٌ شـعرتُ فيها بأنهمـا كانا يفضِّلان قضاء وقتهما مع آخريـن، غير أن هذا ربما لم يكن صحيحاً، فقد كانت تمر بي أوقات بسـيطة وأنا أعتقد أنهما غيـر موجودين. والآن، نحن مندهشـون تقريباً من كوننـا معاً، كما لـو أن القياس أصبح العلاقـة المتباعدة، وتمكنت كذلك من التحدث عن أمهما، لقد أثَّـر انفصالنا في ولدَيَّ تأثيراً أكثر مما كنت أتوقَّع، ولكن ذلك قدَّم لي فائدة بمعنى واحد، لم أعد أعاني من فقدان الشـعور العام الذي كان يبدو أنه طبع فترة زواجنا، فقد كان كل شـيء يبدو عادياً؛ فالسـعادة مثلها مثل الشراسـة، وكان المرء يسبح فـي خَدَر عاطفي، حتى إن الإعلان عن مآسـينا الشـخصية

لم تحـــدِث أي ضجة، كان ولدايَ حزينـــين، وبخاصة أنهما لم يكونا يدركان شـــيئاً، وكنت أعني: ولا أنا أيضاً. ربما كان ذلك صحيحاً، فليس هنالك دوماً سببٌ للانفصال.

ومنـــذ وصولنا، وفي كل مـــرة أفكر في الأمر، كنت أســـعى جاهداً لانتقاد الولايات المتحدة، لا عن قناعة، ولكن في محاولة فظَّةٍ لتنفير ابني من البقاء فيها، لكنه قال لي في المطار:

- إن ذلك يبيِّن إلى حد بعيد أنك تحبّ هذه البلاد.

- حقاً؟

- أنت لا تعرف قول السوء، وهذا يكشف أنك لست جاداً.

- ولكنك لن تبقى هنا مع ذلك؟

- لا، سأعود إلى فرنسا، هذا الصيف، وبالعكس، ربما أذهب إلى ألمانيا في السنة القادمة.

- ماذا؟

- هذا صحيـــح، ولكنها أقل بعداً، ولســـوف تأتي لتراني في أغلب الأحيان..

قالت (أليس) مؤيِّدةً:

- إنها فكرة جيدة جداً..

تعانقنـــا طويلاً، وأنا أصعد إلـــى الطائرة أعدتُ التفكير في ألمانيا، وسألتُ ابنتي:

- هل تعتقدين أن الوالدَيْنِ اللذين لديهما أولاد يعيشـــون في الخارج ليسا مسؤولَيْنِ تقريباً عن ذلك؟

- طيِّـــب، ســـيكون من الأفضـــل أن تنام، لقـــد أرهقتك تلك الرحلة، فقد بلغتَ على الأقل أربعة وأربعين عاماً.

- آ..

ونامـت هـي أولاً، كنا نطير ليلاً، وأنا لا أسـتطيع النوم في الطائـرة، وأيضـاً لا أسـتطيع أن أنام في أي مكان آخر سـوى سـريري، وإنه ليبهرنـي الناسُ الذيـن يسـتطيعون النومَ وهم جالسـون، ويبدو لي هذا غيرَ مناسـب كمن يمشي وهو متمدِّد. ومـع ذلك، انتهـى بي الأمر إلى أن أهدأ مـدة، ويبدو أنني، في الوقت نفسه، قد حلمت، ومر في حلمي شيء لا يُصدَّق، فبالحلم يمكن الوصول إلى مفتاح الحلم، نعم، لقد حلمت مجدَّداً بالمرأة، وفـي هذه المرة رأيـتُ وجهها، لقد كان دومـاً لطيفاً وذا نضرة، وقد عرفتُ من تكون، وكنت سـعيداً ألا يكون وجهها على طرف لساني، إن الأحلام في بعض الأحيان تكون قِناعاً لقراراتنا، ومن الواضح أن أحد الأشياء الأولى التي سأقوم بها عند الوصول إلى باريس هو أن أذهب لرؤيتها.

(٨)
شدة الوجع: ٢
الحالة المعنوية: وسط الغيوم
(٩)

عندما وصلتُ إلى الفندق، بدا (فاسِّيلِس) سعيداً حقاً، فأثَّر ذلك فـيَّ تأثيراً غريباً، فليس لديَّ فـي العادة من ينتظرني في مكانٍ ما بمثل هذه الحماسة، قال:

- كنتُ أتخوَّف من أنك لن تعود..
- ولكني تركتُ أمتعتي هنا..
- من يدري.. وأخيراً، لقد سعِدتُ بحضورك..
- ......

- فأنا في حاجة إليك!

في بدء الأمر، كنت قد قلت إنني أستطيع مساعدته، كعبارةٍ للمجاملة تقريباً، إذن يجب على المرء أن يحذَر المجاملة، فهنالك دوماً أناسٌ يأخذون أقوالك على محمل الجدّ، ففندقه، الذي كان متهالكاً، كان كلَّ حياته، وكان قد أثَّر فيَّ أن أراه يستطيع أن يحبّ حباً عظيماً مكاناً يهرب منه الآخرون جرياً، وكان قد ائتمنني من قبل على مخطَّطات كل غرفة، ولكنني لم أفكِّر فيها ولو مرة واحدة خلال إقامتي. قال لي:

- هل تمكَّنتَ من النظر.. في المخطَّطات؟
- أوه.. نعم..
- وبعدئذ؟
- وبعدئذٍ ماذا؟
- هل لديك فكرة عن الطريقة التي يمكن أن نتَّبعها؟
- آ.. أنت تخاطبني بصيغة المفرد[147]؟
- حسناً، بما أننا سنعمل معاً، فهذا أفضل.

---

(147) من المعروف أن الفرنسيين يخاطب الواحد منهم الآخر بصيغة الجمع (أنتم vous) إن كانت العلاقة بينهما رسمية أو كان فيها كلفة أو كان المخاطَب أعلى منزلة أو غريباً أو أكبر سناً، من باب الاحترام والتقدير والتهذيب والتأدُّب، أما إذا كانا صديقين أو حميمين أو قريبين أو أصغر سناً أو أدنى منزلة فيخاطبه المتكلم بضميرِ المفرد (أنت tu) من باب رفع الكلفة والمشاركة الوجدانية والتحبب أو استصغار الشأن أحياناً، وقد التزمنا صيغة الإفراد على طول الترجمة لمناسبتها أكثر للغتنا العربية التي لم تكن تهتم لهذه الفوارق، وهذا أقرب للتساوي بين الناس، وأبعد عن الطبقية والتفاوت في المقامات الذي دخل إلى لغتنا في أزمان التسلط الأعجمي والحكام المستبدين، فجعل الناس طبقات ومنازل، وبخاصة زمن العثمانيين، وهو ما نلمسه في كثرة الألقاب وعبارات المجاملة في بعض اللهجات العربية إلى اليوم، والمعروف أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يخاطب أفراد الناس بصيغة المفرد وكانوا يخاطبونه بها بلا أي حرج أو تقليل من قيمة المخاطب، في تعامل ديمقراطي حقيقي فيما بينهم، وسبب سؤال بطل الرواية لصاحب الفندق هو تحوله في سؤاله في العبارة السابقة (هل لديك فكرة..؟) من ضمير الجمع إلى ضمير المفرد، ولسوف يسوِّغ ذلك، ويبيِّن سبب هذا التحول في العبارة التالية (بما أننا سنعمل معاً، فهذا أفضل) (المترجم).

– اتفقنا، طيِّب اسمعوا.. أعني: اسمع[148].. الأفضل هو أن أنظر أيضاً في كل ذلك، وأن أحضِّر أيضاً تقديراً لميزانية الأعمال..

– آ.. وهل تعتقد أن ذلك سيكلِّف كثيراً؟

– هذا يتعلَّق بما تريد فعله، وسنتكلَّم في ذلك.

– ......

– ......

ثم قال فجأة بعد تردّد:

– ألا تودّ الاستثمار في الفندق؟

– ماذا؟ أنا؟

– أجل أنت، أنت تحب هذا الفندق تماماً، وإلا لم تُقِمْ هنا، وعندئذٍ ربما تمكنت من أخذ حِصَص..

– ......

إنه لأمر سيِّئ أن أعرف أنه يعتقد أنني بقيت في المكان عن رغبة، فقد وصلتُ بالمصادفة التامة إليه، وأقمت فيه دفعة واحدة، وأنا لست من النوع الذي ينتقل من المكان، فقد كنت نموذجاً للقُعُودي البدائي، وفي البداية، بدا لي اقتراحه غيرَ ملائم، ولكنني، بمجرد دخولي إلى غرفتي، قلت لنفسي: (لِمَ لا؟)، وعلى أي حال، كان لديَّ قليل من المال، ووقتٌ حُرٌّ، وقد منحني هذا الرجل الثقة، وأنا كنتُ أعمل دوماً للآخرين، ولكن ماذا بقي من ذلك؟ وأي آثار جديرة بالذكر تركتُ على هذا البناء أو ذاك؟ وقد بدا لي ماضِيٌّ تَرِكةً في الظلّ، وإذا ما قبلتُ،

(148) نلاحظ هنا تعوُّدَ لسان بطل الرواية على استعمال ضمير الجمع، مع موافقته على أن يخاطَب بضمير المفرد، ثم استدراكَه ما اتفقا عليه باستعمال ضمير المفرد المخاطب مع صاحب الفندق (المترجم).

يمكنني أخيراً أن أعدّ نفسي مسؤولاً عن مبنى. إنني غير قادر على الكتابة، ولكن هذا لا يعني أنني غير قادر على الإبداع، وأنا في حاجة إلى قاعدة ملموسة لكي أتيح لخيالي أن يعيش، لقد كنتُ من تلك الفئة النادرة جداً من الحالمين العمليين.

وخلال لياليَّ الأولى في هذا الفندق، وبينما كنتُ أعاني من ظهري بسبب النوعية الرديئة للفراش، وبينما كنتُ أعاني بسبب النوعية السيئة للعزل الصوتي، وبينما كنتُ أبرد برداً شديداً أو احترّ حرارة مفرطة بسبب مزاج الجنون الدوري لدى مكيف الهواء، تساءلت: (ماذا أصنع هنا؟)، ربما احتفظت بالجواب، وإذا لم يطرأ شيء بالمصادفة؟ لقد حططتُ هنا لأحصل على هذا الاقتراح، وسيكون هذا الفندق بدايةً لمغامرتي الجديدة، وسأصبح (مهندس عمارة لفنادق بالية)، إنه عنوان لبطاقة تعارف جميلة. في الأساس، كنت أشعر بمحبة للمهمات اليائسة، وكنت دائماً أحب الأماكن سيِّئة التكوين، والمباني المخفقة، والمتاحف الخانقة، وحينئذٍ ينبغي العثور على حلولٍ لمعالجة أخطاء الإبداع الأولي، فقد كانت أعمال التضميد، والترميم، والعناية تسرني. وينبغي، بالنسبة إلى هذا الفندق، قبل كل شيء، معالجة ضيق المكان، وينبغي توفير التهوية للغرف، وعموماً، ينبغي حل مشكلة المكان، ولم أكن بعيداً عن الاعتقاد بأن هذا الفندق هو تقريباً فندقي.

إذا كان المشروع يهمني، فسأدع صاحب الفندق يشكّ قليلاً، ولم أرغب في أن أعلن له شيئاً في الوقت الحاضر، وهذا الموقف، الذي كان رغماً عني، تجلَّى عن تكتيك ممتاز في المفاوضة، فقد عرض عليَّ صاحب الفندق، في اليوم الأول، قوله: (سأترك لك

15% مـــن الفندق)، وقد قام صمتي برفع المزاد إلى 30%، وفي اليوم التالي، جاء نحوي، مضطرباً، وقال:

- طيِّب، أنت رهيب..
- ......
- 40%، لا يمكنك أن ترفض! هذه هي كلمتي الأخيرة!
- ......

لا شـــيء يعدِل الصمت كحجـــة، وفي النهايـــة، اتفقنا على التقاسم 50/50 في مقابل أن آخذ على عاتقي مجموع تكاليف التجديـــد. وعلـــى أي حال، لم يكـــن هنالك خيـــار، كان الفندق يتقوَّض، إضافة إلى أن أي مصرفٍ لم يكن راغباً في أن يقرضه المال، وعند الاســـتثمار في التجديد، أكون قد أنقذت مشروعه، وكانت لديَّ أفكار أكثر فأكثر، وكنت ســـعيداً لأنني تمكَّنتُ أخيراً من المشـــاركة في إعداد مشروع من أوله إلى آخره، وعدم البقاء حبيســـاً داخل الجانـــب المالي. كان الموقع مثاليـــاً، فيمكن للمرء أن ينتقل من حانة مشـــبوهة لعابري الســـبيل إلى مأوى للهروب الرومانســـي، وفي أول الأمر، يجب إقامـــة حاجز مضاعف، ثم، بوصفي مالكاً، ســـأحجز لنفســـي مكاناً لأعيش فيه، وأنا أحب فكرة امتلاك شقة في وسط غرف الفندق.

وخـــلال أيـــام المفاوضـــة الصامتة، عـــدت لزيـــارة المنوِّمة مغناطيســـياً، وكان يبدو لي أن هذه المراجعة كانت تعود إلى فترة بعيدة جداً، وكان لديَّ إحســـاسٌ بأنني قد عشـــت ســـنواتٍ في بضعة أيام، جلســـت في ركن من قاعة الانتظار، مع أنني لم أكن قد أخذت موعداً، كانت هنالك امرأة تبدو في حالة ســـيِّئة، وقد ألقت عليَّ نظرةً مريرة تقريباً، ومن أجل طمأنتها، قلت بهدوء:

- ليس لديَّ موعد.
- نعم، وبعدئذٍ؟
- لا، أقــول هــذا.. لأنــك تبدين قلقة مــن أن تضطري إلى الانتظار.. طويلاً بسببي..
- مطلقاً، إنني أعلم تماماً أن دوري هو الآتي.
- آ.. حسناً..
- إنها ستخرج بعد أربع دقائق وسبع عشرة ثانية.
- آ.. كيف عرفتِ ذلك؟
- إنني كُلِّيَّةُ العلم.
- كلية العلم؟ يعني.. أنَّ..
- نعم، يعني أنني أعلم كلَّ شيء، وأرى كلَّ شيء.
- هذا غير معقول.. أو هذا أمر فظيع.. وأخيراً، لا أدري..
- نعم، ربما كان ذلك صعباً في بعض الأحيان، ولذا جئتُ إلى هنا.
- حقاً؟
- نعم، إن العلاج المغناطيســي يتيح لــي ضبط علمي الكلِّي، وأصل إلى أن أوجه ومضاتي توجيهاً أفضل.

فقلت لها وأنا أنظر في ساعتي:

- حسناً..

وعندها أعلنت قولها:

- أكثر من دقيقتين وخمس ثوانٍ.
- هذا صحيح..

وخلال لحظة، ســألت نفسي إن لم أكن ضحية مقلب، ولكن لا، إنها تبدو جادَّة، فلهجتها، والطريقة التي تعبِّر بها عن نفسها،

كل ذلك يبدو مطمئناً للغاية، فسألتُها حينئذٍ لاختبارها:

– ما دمت تعلمين كل شيء.. فينبغي لك أن تعرفي ماذا أصنع هنا..

– بالتأكيد..

– حقيقةً؟

– نعم، حقيقةً.

– وبعدئذٍ؟

– وبعدئذٍ ماذا؟

– ماذا أفعل أنا هنا؟

– أنت تعلمه جيداً جداً.

– نعم، ولكن اذكريه لي!

– آ..، أنت تريد اختباري..

– لا.. أخيراً.. نعم..

– حسناً، هذا أمر بسيط جداً؛ إنك هنا لأنك تسعى إلى العثور على امرأة، هل هذا صحيح؟

– ......

– هل هذا صحيح؟

– نعم..

– ومنذ عشرة أيام كنتَ قد جئتَ من أجل مشكلات في الظهر، بعد أن مررتَ بفحوص طبية عديدة، فقرَّرتَ أن تجرِّب شيئاً ما مختلفاً قليلاً، وقد جئتَ إلى هنا بناء على نصيحة أخت زوجتك، وأخيراً، هي أخت زوجتك السابقة، ويبدو لي أنكما ستُطَلِّقان، أليس كذلك؟

– ......

- أنتما ستُطَلَّقان: نعم أم لا؟
- أوه.. نعم..
- لذلك جئتَ، وقد نُصِحْتَ بالذهاب لمراجعة طبيب نفساني، والمشـكلة ليسـت في ظهرك، وإنما في حياتك، وبمرور الوقت، يبدو لي أنك ستتعافَى، أليس كذلك؟
- ......
- وقـد حلَلْتَ مشـكلَات في حياتـك المهنية، وفـي حياتك العاطفيـة، ومع ولديك، وأصبح وجعك أقلَّ قوَّةً، ولديَّ أمل طيِّبٌ في أن كل شـيء سـينتظم لديك، وأعتقد أنـك عملياً في أول الطريق، ولا أقول إن ذلك انتهى، لأنك في رأيي ستمر بك أيضاً أشياءُ مفاجئةٌ.. ولكن بالنسبة لظهرك، فسنصل إليه..
- آ..
- هـل كانت رحلتك جيدة مع ولديك؟ وأخيراً، من المؤكَّد أنها أدت إلى كثير من التحسُّن.
- ......
- ومـن نحو آخر، لقد حلمت بهذه المرأة التي تريد أن تراها، فقد أحببـتَ الوقت الذي قضيتماه معـاً، ولكن ليس هذا وقت التفكيـر في قصة علاقة، إذن هـذا اللقاء تم ترتيبه بحكمة في لاشعورك، قبل أن يظهر في حلم، ونِعْمَ الأمر.
- ......
- وبالنسـبة للمرأة، لا أستطيع أن أقول لك شيئاً عنها، فأنا لسـتُ كلية العلم إلا في حضور صاحب العلاقة، ولكنني متأكِّدة أنها جيِّدة جداً، أنت تتخذ أخيراً القرارات الصحيحة.
- ......

ابتسمت وقالت:

– حان الوقت..

وفي هذه اللحظة المحدَّدة، فتحتْ المنوِّمة مغناطيسياً الباب، وفوجئت برؤيتي، وسألت:

– ألم تتعافَ؟

– ......

فقالت كليةُ العلم:

– أعتقد أن الجواب سوف يشُقُّ عليه، لقد جاء ليطلب تزويده بإحداثيـــات[149] واحدة من مرضاك، لســـوف ينتهي بك المطاف إلى أن تصبحي وكالة زواج..

– ......

لم يُبّـــدِ أحدٌ تأثُّــراً، وفيما يخُصُّني، كنـــتُ تحت الصدمة، لا أحد يستطيع أن يقول عني إنني رجل غامض جداً، أو نوعٌ من الشخصية غير القابلة للسَّـــبْر ومعقَّدة، ولكن بصراحة أنا كائن منكشف كليةً بما يتجاوز العقل حتى تاريخه، لقد كنتُ أبدو عارياً أمام هذه المرأة، كانت موهبتهـــا مفزِعة، وقد نظرت إليَّ المنوِّمةُ مغناطيســـياً أيضاً للحظة من غير أن تقول شيئاً، قبل أن تبتسم أخيراً.

(149) ســـبق أن مر بنا اســـتعمال هذه الكلمة، ويبدو أنها تعني باختصار كل الوسائل التي تتيح لشـــخص أن يتواصل مع آخر، من مثل: عنوان ســـكنه، أو مكان عملـــه، أو رقم هاتفه الثابت، أو هاتفه النقال، أو صندوق بريده، أو عنوان (ســـكايبه)، أو بريده الإلكتروني، أو بريده العادي، إلخ (المترجم).

(١٠)

شدة الوجع: ١

الحالة المعنوية: خارق للعادة

(١١)

لقد أصبحتُ مزعزعاً بعد هذه التجربة الأخيرة، طبعاً، كنت دوماً حساساً للامعقول، أحسّ بأنني متصوِّفٌ، وكنتُ أؤمن بالحيوات السابقة والتناسخ، وكنتُ أؤمن بفكرة أن المرء يستطيع تجاوز الشعور بالمباشِر، ولكن درجة كلية العلم مثل هذه كانت أمراً يعكِّر المزاج، ويمكنني الاعتقاد بأن هذه المرأة كانت قد قرأت رواية عن حياتي.

لقد كانت المرأة التي التقيتها بعد موعدي لدى المنوِّمة المغناطيسية هي التي جاءتني في الحلم، وبطريقة قوية جداً. وكانت لديَّ رغبة في أن أصدِّق أن جمال بعض الأحلام يمكن أن يتوافق مع الواقع، لقد تأثرتُ تأثُّراً عميقاً بمقابلة مع (جون لنُّون) [150] John Lennon بشأن (يوكو أونو) [151] Yoko Ono، فقد كان يحلم بها قبل أن يعرفها، وكان يصفها وصفاً مقارِباً من غير أن يكون قد رآها قط، كما لو كان الحلم تمهيداً للواقع، وعندما التقاها، قام ببساطة بمطابقة اللاشعور على الشعور، وأنا لستُ أدري أي قصة سوف أعيش مع هذه المرأة،

---

(150) جون لنُّون: سبقت ترجمته في أحد هوامش الفقرة (15) من القسم الأول من هذه الرواية (المترجم).

(151) يوكو أونو: فنانة يابانية شاملة (مولودة سنة 1933)، ومغنية، وناشطة سلام، انتقلت إلى الولايات المتحدة سنة 1953، والتقت (جون لنُّون) سنة 1966، وتزوجها سنة 1968، وكانت الزوجة الثانية في حياته، وكان هو الزوج الثالث في حياتها، وكانت وراء انفراط عقد فرقة الـ (بيتلز) سنة 1970، عارضت مع (لنُّون) الحرب في (فيتنام) (المترجم).

فأنا لم أعرف شيئاً عنها ما عدا بضع دقائق قضيناها معاً، ولكن تتملكنـــي رغبة شـــديدة جداً في رؤيتها ثانية، وأخشـــى أن تجد طريقتي هـــذه غريبة جداً، ففي هذا النوع من الأحوال، يبدو أن النساء كنَّ منقسمات؛ فمن جهة، كان بعضهن يتباهى بأن الرجل يرغب في الوصول إليهن بأي ثمن، ومن جهة أخرى، كان بعضهن يفـــزع من كونهن ثمرة تقـــصٍّ محموم من قبله. وفي الأســـاس، أنا لســـت من هـــذا الصنف ولا ذاك، فاللاشـــعورُ عندي ذكَّرني فقط بجمال لقائنا وبساطته. وعلى المرء، في أغلب الأحيان، أن يســـتعين بجسده ليتصرَّف. ربما لا ينتهي ذلك إلى شيء، ولكنني كنتُ أريد أن أتحقَّق من الأمر[152].

رفضتْ المنوِّمةُ مغناطيسياً أن تعطيني رقم هاتف مجهولتي، وأمام خيبة أملي، أســـرَّت إليَّ مع ذلك بتاريخ وســـاعة موعدها القـــادم عندها، وهكـــذا عدتُ في اليوم التالي مســـلَّحاً بحلُمي، ومسلَّحاً بإحساسي الداخلي. رأيتُها تدخل العمارة، وكنت أنتظر في الأســـفل نهاية مراجعتها. مع الأيام، كانت ذاكرتي المتعبة قد غيرت قليلاً ملامح هذه المـــرأة، وكان حلمي قد بدَّل فيها، كيف أقـــول: كانـــت هذه هي من غيـــر أن تكون هـــي. إنني أحب هذا الالتباس المرتبط بتراكب الأشـــكال في الأنوثة، لم يكن لذلك أي أهمية. كنت أنتظرها، وكان قلبي يخفُق، كان يخفُق وكأنه لم يكن يخفُـــق منذ زمن بعيد، وفي هذا الوقـــت المحدَّد لم يكن لديَّ أيُّ ألم في الظهر، وبإمكاني الإقرار بأن القلب حين ينشَـــط، وحين ينكشِف، يَسْـــحَق بهيمنته الحساسة الحوادث العرضية في بقية

(152) وهـــذه عبارة أحبها (أن أتحقق من الأمر)، فالقلب مليء دوماً بالتردُّد وعدم اليقين، ولذا يجب جعله يتحقَّق، حتى لا يدع مجالاً لأي شائبة ندم (الأصل الفرنسي).

الجســم، إضافة إلى أن شــيئاً لم يكن موجوداً سوى هذا القلب الــذي كان يخفُق فيَّ، مندهشــاً مما كان يشــعر به، وراجعاً إلى الحياة.

وبعــد ســاعة، خرجــتْ، فعلمتُ فـــي الحال دقَّة حدســـي، وأشــعرني جسمي بالألم، ولكنه كان قادراً أيضاً على أن يهديني نحو الأفضــل، ومن الغريب أن أقول إن هــذه المرأة فاتنتني، مع أننـــي، لم أكن قد فكّرتُ فيهـــا ثانية واحدة قبل أن تظهر لي في الحلم، ربما كان الفقد إحساســـاً بعــد فوات الأوان. عندما يرى المرء شــخصاً، يمكنه أن يقدِّر أخيراً الفـــراغ الذي يمثِّله غيابه. والآن كيــف أتصرَّف؟ لقد كنتُ غير قـــادر على الذهاب لأكلِّمها في الوقت الذي كانت قد خرجت فيه من العمارة، عندئذ تبعتُها، وكنت خلفها، كانت تمشـــي بسرعة، بسرعة أكثر قليلاً منّي، لقد كانت تبدو كأنها مضغوطة بمرور الوقت، وكنت أخشى الاقتراب منها أكثر فأكثر، كنتُ أبدو كطبيب أمراض نفسية، في حين إنني كنت أشــعر بأنني ســليم أكثر من أي وقـــت مضى، لقد خطرتْ ببالي بديهةٌ لطيفة، وهادئة، وجيِّدة؛ بديهة سويسرية، توقَّفتْ في ممرٍّ للمشاة، وأنا خلفها بالضبط، وكان بإمكاني أن أفيد من ذلك لأومئ إليها بإشارة، أخذ جسمي يخفُق أكثر أيضاً.. أعني قلبي.. لقــد تزاحمت علـــي الكلمات والحركات الممكنة، ولكن لا شـــيء أفعله، لقد بقيت جامداً من الحياء، انتقلت الإشارة الضوئية إلى الأخضر، وتابعنا سيرنا.

ولمـــا كنتُ دائماً على وشــك أن أكلِّمها، كنـــتُ أفكِّر في خلق مصادفـــة مصطنعة، ولذلك، كان عليَّ أن أمشـــي بســـرعة، وأن أتجاوزهـــا، وأعود أدراجـــي، ويمكنني عندئــذٍ أن ألتقيها، وأن

أنتشي بالمصادفة الجميلة. سارعْتُ إيقاع خطاي، ثم قلت لنفسي سيكون هذا الأمر غير معقول، فلم أُقْدِم على التظاهر بذلك، وكان عليَّ أن أقول لها الحقيقة، وعلى أي حال، إنها ليست مجهولة، وسيكون ذلك سهلاً، فقد تناولنا القهوة معاً، وكنا متفاهمَيْنِ تماماً، لم يكن في طريقتي شيء من الانحراف، وعلى العكس، سوف تكون بالتأكيد مسرورة برؤيتي، إذن لماذا لم أُقْدِم على ذلك؟ إنها ترعبني، ولم أكن أرى سوى ذلك. واصلتُ المشي هكذا أيضاً مدَّة، مبطئةً قليلاً، وواصلتُ اتباعها، وقد خطرت ببالي من كل جهة تساؤلاتي عن رجل لا يعرف كيف يُغْري، نعم، إن الأمر كذلك، لم أكن أعرف شيئاً، ولم يكن لديَّ أيُّ علامة، لقد أصبحت غريباً عن عالم النساء، كان الزمن يتمطّى، ولكن هذه الملاحقة المضحكة لم تستمرَّ أكثر من ثلاث دقائق، ولحسن الحظ، حدَث أخيراً شيء ما، فقد توقفتْ فجأة، فتوقفتُ أيضاً، وإذا ما استدارت، فلسوف تراني جامداً خلفها، وسُخْفُ هذه الصورة سوف يمحو كل أمل في المستقبل، ومع ذلك هذا ما جرى بالضبط: استدارت، فوجدنا أنفسنا حينئذ وجهاً لوجه، فأنعمت فيَّ النظر، من غير أن تقول شيئاً، معتقدة أنني كنتُ مجنوناً بالتأكيد، فكان ذلك مشهداً غريباً جداً، كان كلانا هناك صامتاً وسط جمهور المدينة الصاخب، ولم نتحرك. لقد كنا، في عيون المارة، لوحة من الفن الحديث غير المفهوم، ولقد بقينا مدة هكذا مع توقُّف الزمن، ولم يعد للمدينة تدريجياً من أهمية، لقد كنا وحيدين في العالم.

القسم الخامس

(١)

مرت بضعة أســابيع، نادراً ما كانت لي فيها حياة ناشــطةٌ جداً، كنتُ أقضي ســاعاتٍ في ورشــة البناء، ولما كان الفندق مغلقاً خلال فترة الأعمال فيه، فقد كان عليَّ أن أعمل بسرعة، فشــغَّلت عاملَيْنِ بولونيين كنتُ أعرفهما جيداً لمساعدتي، وقد أقمــتُ في شــقتي الجديدة المكونة مــن غرفتين قديمتين في الدور الأخير. لقد كنت فوق أســطُح باريس، وهذا ما أعطاني الانطباع بكوني طالباً، وقد كنتُ أتأمَّل كلَّ مساء التخييم البطيء للظلام على المدينة. وأخيراً، أصبح لدي الوقت كي أراقب هذه الأنواع المعروضة من الجمال، قلة من الأشياء كان بإمكانها أن تتنافس مع الطبيعــة، ومنها هذه المدينة. إن المرء يقضي وقته فيها في محاولة الإبداع الســاحر عن طريق الشعر، والسينما، والرســم la peinture، والموســيقى، وكل هذا منظَّم بلطفٍ، ويحب المرء بيئتها المختلفة حســب العصور، وحسب ما يعيشه المــرء، لقد أمضيت كل حياتي في هذه المدينة وضواحيها، ومع ذلك كان يبدو لي أنني أكتشــفها للمرة الأولى، فقد كانت تعيد رســم نفسها تحت ناظريَّ مشــهداً من الجنون لا يَنْفَد، وكنت أشتاق إليها كما هو الشأن دوماً.

انطفأ توقُّــدي الانفعالي بحضور (إدوار)، فقد كان كاقتحام الواقع الهزلي (الكاريكاتوري) لحلم[153]، من الواضح أن شيئاً ما لا يجري على ما يرام، ومع ذلك حاوَل أن يرسم وجهاً طيِّباً خلال بضع دقائق، معبراً عن افتتانه الفاتر بشــقتي، وممتدِحاً هنا أو هنالــك بعض التفاصيل حتى مــن غير أن ينظر إليها. قدَّمتُ له كأســاً من النبيــذ الأحمر فتجرعه دفعة واحــدة، حتى من غير أن ينتظرني، لم يكن ذلك منطقياً؛ فقد كان يهيم في دق كأســه بكأسي، وكان عليه أن يقول: (بصحة شقتك الجديدة!)، أو بقليل من الطموح أكثر (بصحة حياتك الجديدة!)، فلم يقل شــيئاً من هذا، لقد شرب نبيذه، ومدَّ يده مرة ثانية فوراً، ففي لغة الكحول يتعامل المرء فــي أغلب الأحيان بالإشــارات لا بالكلمات، وهذه الحركة تعني: (أيضاً)، وقد شــرب بهــذه الطريقة عدة كؤوس، حتى إنني لم أستطع فعل شيء آخر سوى أن أسأله:

– هل لديك مشكلة في العيادة؟

– ......

لم يجبني بشــيء، وبإعادة التفكير، قلت لنفسي كان بإمكاني فقــط أن أســأله: (هل لديك مشــكلة؟)، فقد كنتُ حــدَّدتُ له جغرافية همومه المحتملة، كما لو أن مشــكلات (إدوار) لا يمكن أن تكــون متَّصِلةً إلا بحياته المهنية. هنالــك أناسٌ مقتنعون بأن الحياة العاطفية أو الأســرية إنما هي نوع من الصخر الراســخ، فيعيشون ألف حادثة، وألف مأساة صغيرة، ومع ذلك لا يحيدون

(153) أو كطبيب أســنان في قصيدة لـ (إيلوار) Éluard [بول إيلوار: واسمه الحقيقي (أوجين غرانديل Eugène Grindel)، شــاعر فرنسي (1895–1952)، كان يتغنى في شعره بالعدالة والحرية (المترجم)] (الأصل الفرنسي).

عن المســـار؛ فهم يبتهجون داخل نوع من طريق سيارات عاطفي، وإلى الحوادث الأخيرة، كنـــت متأكداً منها لدى (إدوار)، وينبغي الاعتقاد بأن تلك الفترة كانت قد انتهت تحت ناظريَّ، نظراً لأنه تهالـــك على كنبة صغيرة كنت قد عثرت عليها لدى متجر ســـلع مستعملة، فقلت له:

– لكن ما الذي لا يجري على ما يرام؟

– ......

– تســـتطيع أن تكلِّمنـــي، فأنا أرى جيـــداً أن الأمر على غير ما يرام، إنني لم أرك قط هكذا.

– إنها (سيلفي).

– ما بها (سيلفي)؟

– لقد.. تركتني.

– ......

إنني لم أرها ثانية منذ الصباح الشهير الذي كانت قد حاولت فيه الاعتداء عليَّ جنســـياً، وكنتُ قد فضّلتُ الابتعاد عنهما، لقد وفَّر لي اســـتغراقي في العمل ذريعة رائعـــة، وقد كنتُ أتكلَّم في أغلـــب الأحيان بالهاتف مع (إدوار)، ولكن من غير أن أجرؤ على الســـؤال عن أخبار (ســـيلفي). ومن جهتها، ولأنها منزعجة، كان يبدو أنها مرتاحة لعدم رؤيتي، قلت:

– ولكن ما الذي جرى؟ هل تشاجرتما؟

– لا، بالتأكيد.

– إذن ماذا؟

– حتـــى إن الأمر كان بهدوء تـــام، وقد أعلنت لي ذلك ببرود، كما لو أنه قرار كانت قد اتخذته منذ زمن طويل.

- أنا آسف.
- والأسوأ، هو أن هنالك شخصاً آخر.
- شخصاً آخر؟ لا.. هذا مستحيل..
- بلى.. هذا فظيع..
- آ..
- حقيقة.. فظيع..
- ولكن.. هل.. تعرفه؟
- ......
- هل قالت لك من يكون؟
- نعم..
- ......
- هذا فظيع حقيقة، لم أكن أفكِّر قط..
- ربما لم تكن تعرف ما الذي تفعله.. إنها تجتاز أزمة، بالتأكيد.
- لا، إن الأمر ليس أزمة، لقد رأيت نظرتها، إنه يقين.
- ......
- إنها عاشقة، وهذا ظاهرٌ في الحقيقة، إنني مشمئز.
- ......
- لقد رَحَلَتْ مع امرأة.

كان يلزمني بضع ثوانٍ حتى أهضم الخبر، (سيلفي) ترحل مع امرأة، وهي التي تحب الرجال كثيراً، وأنا أذكر من سنواتنا الأولى عندما كنا نلتقي، لم تكن تتكلَّم إلا عنهم، وكانت تحب أن تكون في مركز الاهتمامات الذكورية، وكان هذا الأمر يبدو لي، في الحقيقة، غير لائق، لقد كانت تحب الرجال إلى درجة أنها

ألقت نفسها عليَّ، ربما كنت أنا نزوتها الأخيرة، قال (إدوار) وهو يتظاهر بالبكاء:

- أنا قرَّفتُها من الرجال، هل تبيَّنتَ ذلك؟

- لكن لا، لا تقُل ذلك.

- لكن.. بلى.

- إنني أجد هذا الأمر أقل قسوة تقريباً لأنها رحلت من أجل امرأة لا من أجل رجل..

- ليس مع (سيلفي)، فأنا أعرفها، إنها ليست سُحاقيَّة، إنني أنا المشكلة.

- أنت تقول أيَّ شيء كان..

ظلَّ (إدوار) مدة يثرثر في هذا الموضوع، وهو يواصل شرب الأقداح، كان ما حصل له شديداً جداً، ولكنه أيضاً انطلاقةٌ جديدةٌ، في هذه المناسبات، يستعمل المقرَّبون تعابير مثيرة للضحك ولا تعني شيئاً[154]. يحاول المرء أن يكون متفائلاً ليعزِّي من يعاني، وحينما لا يكون هنالك شيء يُقال، هذا أمر شديد، وهكذا، لقد رحلتْ، لأجل رجلٍ أم لأجل امرأة، ولا يكون لذلك أي أهمية في نهاية الأمر، كان (إدوار) يعيش لأجلها، وكان يشعر أنه أبتر، ويكاد قلبه يختلّ، ومن وجهة نظري، لا ينبغي له أن يُشعر نفسَه بالمسؤولية؛ إن (سيلفي) لم تكن مبتهجة، وبخاصة مهنياً. قال (إدوار):

- ولكن الأمر كان يسير عندها على ما يرام.

(154) وكان الأسوأ من بينها قولهم: (إن ضاعت واحدةٌ، لقيتَ عشراً)، فمن يمكن أن يفكّر في أن عشر نساء تنتظر عزوبيتنا؟ ومن ثم، وبصراحة، رقم عشرة مبالغ فيه، لتعزيتنا، فواحدة فقط تكفي (الأصل الفرنسي).

- لا تكثر من هــذا، بصراحة.. وحدهم الأصدقاء هم الذين كانوا يشترون لوحاتها.

- هذا غير صحيح..

- هــذا صحيح بالتأكيد، وبعد مدة.. بعد ســنوات من حجب الحقيقة.. يمكن الاعتراف بالهزيمة..

- ......

- وطُرِح كلُّ شيء للنقاش على بساط البحث.

- ......

- مثلي تقريباً.. وبطريقة أكيدة.

- ......

- نعم، ولكن أنت لم تصبح مِثْلِياً جنسياً.

- ......

ولما رأيته خائرَ القوى على الكنبة، أدركت أنه سيبقى هنا وقتاً طيِّباً، فاقترحتُ عليه أن ينام عليها، ولقد كنت مســروراً تقريباً لأنني اســتطعت أن أرد له جميــل صداقته، لقد كان لطيفاً جداً معي خلال فترتي العصيبة (باســتثناء المرات التي حاول فيها أن يعتني بي عن طريق الـ «دوليبران» Doliprane)، وبعد ساعتين أو ثلاث ساعات، وبعد زجاجتين أو ثلاث زجاجات، تمتم يقول:

- لحسن الحظ أن لديَّ مهنتي، التي هي هوايتي..

- ......

- أنت تعلم، إنني أحب الأسنان حقيقة.

- أعلم، أعلم..

- وأنــت؟ كيف حالك؟ فنحن لم نتحــدَّث إلا عني.. ولم تقل شيئاً عنك.

- هذا أمر عادي، كل شيء يسير على ما يرام بالنسبة لي.
- كنتَ تحدَّثتَ لي عن امرأة تعجبك؟
- نعم.
- وبعدئذ؟ ما الذي جرى معها؟

بقيت زمناً لا أستطيع أن أجيبه، فأنا لم أكن متأكِّداً حتى من وجود شيء ما يُقال، وكان (إدوار) يلحّ قائلاً: (احكِ لي، احكِ لي)، ثم أضاف قوله: (أريد أن أعرف كل شيء من البداية)، كنتُ متأثراً لاهتمامه بي بينما كان يضمحِلّ عاطفياً، وهذا لطف تام منه، أو هو سؤالُ البقاء على قيد الحياة. ربما كانت حياة الآخرين أفضل ملجأ عندما تصيبنا حياتنا باليأس، وقد رأيت، وهو يستمع إليَّ، أنه قد أبعد عنه مصاعبه، غير أني تجنَّبتُ أن أتريَّث عند الأوقات البهيجة، محيطاً بالاحتشام شكل السعادة التي كانت تستولي عليَّ.

(٢)

شدة الوجع: ٥ر٠

الحالة المعنوية: سالٍ

(٣)

كانت (بولين) Pauline [155] قد التفتت، فبقينا، للحظة، متوقِّفَيْن عن كل شيء، وكنت أشعر بأنني مغفَّلٌ لعدم فتح الحديث معها أولاً، وقد كان عليَّ أن أجد الكلمات لتفسير الوضع، وتعليل وجودي وراءها، وكأن شيئاً لم يحدث، فتكلَّمتْ هي أولاً، قائلة:

(155) نعم، سوف أحفظ اسمها الأول (بولين)، فقد فوجئتُ عندما اكتشفتُه، ومن غير أن أدري لماذا، كان لديَّ حدسٌ بأنها كانت تسمَّى (كارولين) Caroline أو (أماندين) Amandine (الأصل الفرنسي).

- حسناً.. لقد كنتَ تلاحقني نعم أم لا؟

- ......

وبعــد بضع دقائــق، وبينما كنا نجلس علــى رصيف مقهى، اعترفت لي بأن المنوِّمةَ مغناطيســياً كانت قد روت لها كلَّ شيء، فقد كانت تعلم إذن أنني كنتُ أسعى لرؤيتها ثانية، وعندما خرجت بعد مراجعتها، كانت قد رأتني، ولكنها تظاهرت بالتجاهل، وكانت تمشي، وهي تحسّ بوجودي وراءها، ولما نَفِدَ صبرُها أو لاحظت أننــي غير قادر على التصرُّف، قرَّرتْ أخيراً أن تلتفت، قالت لي دفعة واحدة في المقهى:

- لقد صرفتَ وقتاً.

- هل هذا جيد؟

- نعم، بعد لقائنا، كنتُ أظنّ أنكَ ســوف تســعى لرؤيتي في أسرع وقت..

- إنني بالتأكيد بطيء تقريباً..

- يمكن القول هذه مثل تلك.

- ......

لا أدري لمــاذا كان الإدراك يفوتني هكذا، فلم أكن قط قادراً علــى أن أرى الأمور البدهية، ومع ذلــك، كان لقاؤنا كاملاً، فقد تحدَّثنا بحرية عن أشياء وأشياء، حتى من غير أن نتعارف، فقد كنت أحب أن يبقى هذا اللقاء مُغْفَلاً (فلم نتبادل أســماءنا)، ولما كان اللقاءُ غيرَ مؤكَّدِ المســتقبَل (فإننــا لم نتبادل أرقامنا). وفي النهايــة، كان ينبغي لنــا أن ندع الحياة تفعــل فعلها، فقد كانت الحيــاة قد جاءت على صورة حلم، وقــد اجتمعنا، وهذا لم يكن يعني أن لدينا لهذا السبب أشياء نقولها، بل على العكس، إذا كان

اللقاء الأول مفعماً بالسهولة والبساطة، فاللقاء الثاني يبدو أكثر تعقيداً، وذلك بسبب السياق، الذي لم يكن طبيعياً. وبعد دقائق طويلة من الحيرة، أخذتُ أحدِّثها عن الحلم الذي كان يدفعني إلى البحث عنها، فقالت: (أنا امرأة أحلامك)، واستغرقنا في الابتسام.

كانت (بولين) عَزَبَةً منذ ستة أشهر، ولم تكن تشعر بأنها في حاجة إلى علاقة، فهي بعد ثماني سنوات مضت مع مصور (فوتوغراف) حربي، قرَّرتْ أن تتركه، لأنه لم يكن يريد طفلاً، وكان عمرها ستاً وثلاثين سنة، والزمن يضغط عليها، فأرادت أن تهرب قبل فوات الأوان، في البداية، كان يبدو لها أنه لا يمكن العيش من غير هذا الرجل. ثماني سنوات، لقد كانت أبدية، وقد تعوَّدت على رسائله اليومية، وعلى أن تعيش مع رجل يخاطر بحياته في الطرف الآخر من العالم، وقد كانت تتألَّم من تسليمها أنها صارت تحب حباً أقلَّ ذلك الرجل، فكانت تحب أن تخرج وحيدة في المساء، وأن تصبح غرضاً لبعض النظرات، وهي تعلم تماماً أنها لم تكن ترتبط إلا به، لقد كان بعيداً، وكان غائباً، ولكنه كان حجتها كي لا تقيم أي اعتبار للرجال الآخرين، وكانت تحب هذا الوضع الذي لم يكن فيه مع ذلك شيء من الكمال. يمكن أن يحب المرء عيشَ قصص مخلخَلَة، فقط من أجل أن يسلِّيَ وحدته، ومن غير هذه الرغبةً في طفل، كان بإمكانها أن تبقى أيضاً زمناً طويلاً حبيسة تلك الحياة، لقد كانت رغبتها بديهةً في جسمها، كان مصوِّرها يمسح أنواع البؤس في العالم، وكان يجد في ذلك سبباً جيداً لعدم إعادة إنتاجه (بإنجابِ طفلٍ في مثل هذا العالم؟.. إنه جريمة!)، كانت تعتقد في البداية أنه سيغيِّر رأيه، ولكن لا،

لقــد ظلَّ لا يتزحزح عن قناعاته، كلما كان يعرف العالم أكثر، كان يفهــم زوجته فهماً أقــل، لقد كانت (بولين) تــروي ذلك من غير أدنى مرارة، وبطريقة غير مكترثة تقريباً، وكنت أفكّر مراراً، أثناء سردها، في أنها لم تكن تتحدث عن نفسها حقيقة، وإنما عن نوع من بطلات الخيال، الخيال الذي أصبح ماضياً.

أن تلتقي أحداً، فهذا يعني أن تحكي عن نفســك، وقد تركنا تدريجياً وضعنا كمجهولين، إنني أكبر منها ببضع سنوات، ولدَيَّ ولدان كبيران، ويبــدو أن هذه المعلومة قد فتنتْها، فطرحت عليَّ أســئلة عديدة عن (بول) و(أليس)، وقد حاولتُ أن أجيب عنها لا بوصفي أباً، وإنما بوصفي موظفــاً في حياتي، ورويت لها نهاية قصتــي مع زوجتي، تلــك النهاية التي اتخذت شــكل تغيير بلا مقاومة، وفي الأيــام الأخيرة كنا قد انفصلنا عبر جدار، وعاش كل منا وجعه (أنا ظهري، وهي أبوها)، فأصبحنا بلداً مقسَّماً بين عدة قوات محتلَّة، هي قوات الملَل. قالت مقاطعة إيايَ:

– أنت غريب.

– حقاً؟

– نعــم، إنك لكذلك، فهــذا خليط أحبه تماماً، وأنا أســتمع إليــك، لم أصل إلى معرفة إن كنتَ قــد عانيتَ قصتك، أم كنت فيها المنظِّم الكبير..

– ......

هــذا صحيح إلى حــد بعيد، فعلى الدوام، كان هذا الســؤال يجتاحني، إن كل المبــادرات الحديثة كانت على صلة بألم ظهري، حتى إنني لم أكن أعلم إن كنتُ قد اتخذتُ قراراتٍ بطريقة واعية، أم كانــت ناتجة عن تضايقي من الوجع، ولــم أتوصَّل إلى تحديد

نصيب إرادتي الحرة في ذلك، وكنتُ أقدِّر، في أغلب الأحيان، أنني ضحيـــة الأحداث، كما لو كنتُ تخليتُ عـــن كل أمل في أن أمتلك تأثيـــراً أياً ما كان في الواقع. ولكن لا، لم يكن هذا صحيحاً، وإذا مـــا كنت هنا، أمام هذه المرأة، فلأننـــي كنتُ قد اتخذت القرارات الســـليمة، وكان ظهري قد ساعدني فقط في هذا التحوُّل، بجعل نفســـه المحرِّك المجنون لكل اضطراباتي، ويمكنني الاعتراف بأن ما كنت أعيشه هنا، إنما بدأ بوجع في يوم أحدٍ بين الأصدقاء.

(٤)

شدة الوجع: ٥,٠

الحالة المعنوية: مبتدئ

(٥)

كنا قد اتفقنا على أن نلتقي ثانية، وربما كان ذلك أمراً بســـيطاً، ولكنـــه نادراً ما يكـــون كذلك، فرقصـــة الـ (فالـــس) la valse في اللحظات الأولى بين شـــخصين تفتقر إلى الإيقاع، وما كان يبدو لي واضحاً في الأوقات الأولى تحوَّل إلى مصدر قلق، فوضعت كل شيء موضـــع نقاش. فهـــل كان عليَّ أن أتصل بها فـــي الحال تحت طائلة الظهور بمظهـــرِ المتعجِّل؟ أم أنتظر بضعة أيـــام تحت طائلة الظهور بمظهرِ قليل الحافز؟ ما التوقيت المثالي لاتصالٍ هاتفي لتحديد موعد جديـــد؟ ماذا كنت أعرف عن ذلك؟ كنت أدخلُ في ثوب الأربعين وأنا أوشـــك على الطلاق، وأكتشف ثانية تيه الإغواء. لم أكن معتاداً على شيء، إن حياة الزواج تخدِّر قدراتنا على الإغواء، ولما كنتُ مرهقاً من الرتابة، فقد هَجَرَ قلبي جسمي، فعدتُ إلى زمن المراهقة عندما كان العالم الأنثوي يَسْـــحرني وهو يُرْهِبني تماماً، كان ذلك أمراً سخيفاً،

لأن عليَّ أن أكون بســيطاً، أخذتُ هاتفي واقترحتُ عليها في رسالة أن نتلاقى يوم غد مســاء لتناول العَشاء، فردَّت بأنها موافقة (فكنت سعيداً بأنها ردت مباشرة، وأنا لا أؤيِّد أولئك الذين يتظاهرون بأنهم مشغولون جداً وهم يردُّون بعد ثلاث ساعات)، وهذا يعني أنني كنتُ بعيــداً عن الانتهاء منها في موعــدي، ويتوجَّب عليَّ الآن العثور على المطعم الجيد.. إن السعادة مشروع متعب.

كنــتُ أعلم ذلــك، وكنــت مثيراً للضحــك لاهتمامــي كثيراً بالتفاصيل، لم تكن (بولين) تعلِّق أي أهمية على المكان، فهي يمكن أن تقــول (المهم هو أن نكون معاً)، وفي هــذه المرة أيضاً، وجدتها مختلفــة، فقد كانــت أنوثتها بدوية، وقد كنــت دائماً أصرف وقتاً فــي أن أعيد عقلياً تكوينَ اليقــين بأنني كنت أمام هذه المرأة التي التقيتها من قبل، ومع ذلك، لم يكن يبدو لي أنها غيرت تســريحتها أو طِلاء وجهها (مكياجها)، لا، فهي في نفســها، كان الســفَر يبدو علــى وجهها، وكانــت (بولين) أيضاً تراقبني بلا أدنى شــك، فقد كنــا في مرحلة الإغواء، وقد كان لديَّ انطباعٌ بأنني أعجبها، وكان هذا يزعزعني، فليس هنالك شــيء يجعل المرء ســعيداً ســوى أن يُعجِب أحداً يُعجِبه، ويبــدو أن تبادل العواطف يبقى أكثر تقديراً، ويوضع في قمة الفرح الإنســاني. عندما يقــوم المرء بلقاء جميل، فإنه يعيد اكتشــاف كنوز علاها الغبار كانت قد ماتت في نفســه، ويوقِــظ رغباتــه وهواياته. لقد كنتُ أتحدَّث عن كل شــيء أحبه، ولــم يكن لديَّ انطباع بأنني قد ذكرت كثيراً من الكتب إلا في هذا اللقاء، فقالت لي:

- لديك ثقافة أدبية واسعة.

- آ.. شكراً.

- هل قرأت (غومبروفيتش) [156] Gombrowicz؟
- أوه.. لا.

وانزعجـــتُ، لأن هذا الإخفاق حدث بالضبط بعد ثنائها على ثقافتي، لقد ذكرته (بولين) بحماســة لا حد لها، ممتدحة تأثيره الفكــري وجانبه الصعب أيضاً، وأثنــاء المواعيد الأولى كان المرء يتحلَّــى في أغلب الأحيــان وإلى حد لا يصـــدَّق بالذوق الرفيع، وسوف تذكر أن فيلمها المفضَّل هو (الوهم الكبير) La Grand Ilusion لـ (رينوار) [157] Renoir، ولكن في الموعد الثاني عشر فقـــط، وإذا ذهبنا إلى هذا الحد، فســـنجد اعترافها بحبها غير المحدود لفيلم (التايتانيك) [158] Titanic، وهنا ركَّزتُ بقوة على

(156) غومبروفيتش (فيتولد - Witold): كاتب روائي ومسرحي بولوني (ولد في بولونيا سنة 1904- وتوفي في فرنسا بسبب الربو سنة 1969 ودفن في فانس Vence قرب نيس Nice)، كان قد هاجر إلى الأرجنتين إثر الاحتلال النازي لبلاده ســـنة 1939، وعاش فيها 25 ســـنة، ثم عاد إلى ألمانيا سنة 1963، واستقر في فرنسا سنة 1964، كانت أعماله ممنوعة في بولونيا إبان الاحتلال النازي والحكم الشـيوعي فيها، تتميز أعماله بعمق التحليل النفسي، ويعدّ اليوم واحداً من كبار الكُتّاب في القرن العشرين، وكان له تأثير في كثير من الكُتّاب (المترجم).

(157) رينوار (جان - Jean): مخرج ســينمائي فرنســـي (1894-1979)، كان يمزج في أسلوبه بين الواقعية والشعر، والإنسانياتية l'humanisme والنقد الاجتماعي، وكان أستاذاً لعدد كبير من المخرجين، ومن أشهر أفلامه: (الوهم الكبير) المذكور آنفاً، و(قواعد اللعبة) La Règle du jeu، و(جان رينوار) هو ابن الفنان المصوِّر peintre الشـهير (أوغست رينوار) (1841-1919) أحد كبار أساتذة المذهب الانطباعي l'impressionnisme.

(158) التايتانيك: اسم فيلم أمريكي ظهر سنة 1997، ليلقي الضوء على الكارثة، التي أصابت، يوم 15 أبريل من سنة 1912، السفينة التي تحمل هذا الاسم، أثناء رحلتها عبر شمال الأطلسي من ميناء (ســاوث إمبتون) Southampton البريطاني إلى مدينة (نيويورك)، حين اصطدمت قبيــل منتصف الليل برأس جبل جليدي، وعلى متنها 2224 مســـافراً، هلك منهم بغرقها 1500 مسافر، علماً أنها كانت من أقوى السفن صناعة وأماناً وبذخاً، وكانت رحلتها تلك أولى رحلاتها وآخرها، والذي أوحى بإحياء ذكرى هذه الســفينة اكتشــافها في الموقع ســـنة 1985 على عمق نحـــو أربعة كيلومترات تحت ســطح المحيط، وقد أحدث الفيلم تأثيــرات هائلة في العالم، وقد كلَّف إنتاجـــه نحو 210 مليون دولار، وحصد أرباحاً تجاوزت ملياري دولار. كتب قصته وأخرجه (جيمـس كاميرون) James Cameron، معالجاً الموضوع من خلال قصة حب جارف بين فتى وفتاة نشــأ على متن السفينة، وقد مثَّل دور الفتى (ليوناردو ديكابريو) Leonardo Dicaprio ودور الفتاة (كيت ونْســلت) Kate Winslet، وأدت أغنية الفيلم الحزينة (قلبي سيشتعل) My Heart will go on المغنيةُ الفرنسية الكندية (سيلين ديون) Céline Dion (المترجم).

(غومبروفيتش)، لا شيء سوى الاسم كان يفرض نفسه عليها، كان بإمكانها أن تتحدَّث عن (سيلين) Céline [159] أو (توماس مان)[160]، ولكن ذاك كان اسماً يعقد صاحب مكتبة، قالت:

– عليك أن تقرأ كتابه (كوسموس) Cosmos، إنه جميل جداً.

– آ..

– وله طريقة في الاهتمام بالتفاصيل، فعندما يتحدَّث عن امرأة، بإمكانه ألا يتحدَّث إلا عن فمها[161]، إنني أهيم بهذا الشكل من تسلُّط الفكرة.

– ......

وبنطق هذه الجملة، لاحظت أنها كانت تنظر إلى فمي، وقد وافقت على ذلك بقولي:

– أحبّ كثيراً هذه الفكرة، أي التركيز هكذا على جزء واحد من شخص.

– ......

(159) سيلين: لقب أطلق على (لوي- فرنان ديتوش) Louis-Fernand Destouches، وهو روائي فرنسي من أشهر أعماله الروائية التي كانت على شكل سيرة ذاتية (رحلة في آخر الليل) Voyage au bout de la nuit، ويبدو أن مؤلف روايتنا الحالية (دافيد فوينكينوس) كان متأثراً بتلك الرواية (المترجم).

(160) توماس مان: سبق لنا التعريف به في أحد هوامش الفقرة (9) من القسم الأول آنفاً في هذه الرواية (المترجم).

(161) وفي اليوم التالي، ذهبت لشراء هذا الكتاب، كان بالفعل يذكر امرأتين، ولا يتحدَّث إلا عن فميهما: (بدأ فمٌ يُطبِق على آخر، وكنت أرى في الوقت نفسه زوج لينا Léna الذي كان يتكلَّم، وليون Léon الذي انخرط في المحادثة، وكاثريت Catherette التي كانت قد انهمكت حول الطاولة والفم يُطبق على الفم الآخر، كنجمة تطبق على نجمة، كانت هذه المجموعة الفموية تؤكد مغامراتي الليلية، التي كنتُ أريد أن أنساها.. هذا الفم وهذا الفم.. فمن جانب هنالك قبحُ انحراف جانبي متباعد، ومن جانب آخر هنالك العذرية الهشة والنقية التي كانت تنغلق وتتفتح برشاقة، ماذا بإمكانهما أن تمتلكا من مشترك؟) (الأصل الفرنسي).

- هنالــك لوحة لـ (إدفارد مونــك) [162] Edvard Munch تســمَّى (رأس رجلٍ في شــعر امرأة)، يَلْمَح فيها المرء وجه رجل ضائع في شــعر طويل، ويمكننا الاعتقاد بأنه يعيش فيه، كما لو كان لا يرغب في أن يحافظ على علاقة إلا مع قســم الشعر من هذه المرأة..

قالت:

- آ.. لا أعرف هذه اللوحة، هذه فكرة جميلة، هذا صحيح..

هنالــك علامة في كل مكان، كنت أحاول الرد على مؤلفها البولوني بمصــوِّرٍ نرويجي. كان هذا هو الرد الثقافي الوحيد الــذي كنت قد وجدته في ذلك الوقــت، كان هذا قليلاً فقط، ولكن على الأقل، كنتُ قد نجحتُ في أن أتجنَّب ذكر (الصرخة) Le Cri، وهي اللوحة التي كانت شهرتها ستمحو صدمة إحالتي إلى (مونك).

لقد همِتُ بهذه الأمســية التي تحدَّثنا فيها -بصدق إلى حدٍّ مــا- عما نحب وما لا نحب مــن الميول، ولم يكن هنالك أي زمن ميِّت في تحادثنا، وكنتُ ســعيداً في أن أتشارك مع من كان يبدو المفضَّل عندي، لقد كتمتُ طوال ســنين حماســتي للثقافة، كنتُ منكمشــاً في مأمن من رأي الآخرين، وقد اكتشــفت إحساسات مشــتركة، وقد كنتُ أكذب تقريباً أيضاً عندما لم أقل لها، مثلاً، إنني غير مبالٍ بفيلــم كانت هي تحبه كثيراً. لقد كانت اللقاءات مفعمــة بتهذيــب عاطفي، وكذلــك بالتجميل الخفيــف للواقع، وكنا نســعى إلــى اللقاء فــي منتصف الطريق مــن اختلافاتنا.

(162) إدفارد مونك: مصوِّر Peintre نرويجي (1863-1944)، كان أحد كبار ممثِّلي التعبيرية expressionnisme في الفن، أشــهر لوحاته لوحــة (الصرخة) Le Cri، وهي تلخص الطاقة الرمزية والمأساوية لفنه (المترجم).

لقـــد كانت (بولين) تعجبني، وقد تمكَّنَتْ من جعلي أقرأ أي رواية مـــن مجموعة (روايات بماء الـــورد)[163] roman à l'eau de rose، أو اصطحابي لمشـــاهدة عرض لفيلم ألباني غير مترجم، لقد كنت أرغب في الجري نحو عالمها.

وفيمـــا بعد، تحدَّثنا فـــي أمور أكثر خصوصيـــة، ففي لقائنا الثاني ذكرتُ طلاقي وبعض عناصر من حياتي، وتحدَّثت (بولين) خاصة عن قصتها مع المراسل الصحافي الحربي، لكنني لم أكن أعلم شـــيئاً ذا بالٍ عنها، فأي زمن أروع من زمن الاكتشاف، فقد سألتها عن مهنتها، وكان يمكن أن تكون: بائعة أزهار، أو محامية، أو صحافية، أو محاسِـــبة، أو ممرِّضة، أو بائعة كتب، أو موظفة مصـــرف، أو مراســـلة صحافية، أو طبيبة أطفـــال، إلخ، وخلال بضـــع دقائقٍ لم يعد لهذا العالم من الاحتمالات وجودٌ، ولن يكون بإمكاني أبداً التراجع نحو تلك اللحظة التي لم أكن فيها أعلم ما مهنتها، وببطء، يحدِّد المرء، وهو يزيِّن معرفة شخص ما، الحقل اللانهائـــي للافتراضات، فالمرء يقلِّـــص الفضاءات للوصول إلى حدود حياة ما، قالت لي:

- إنني مصمِّمة ديكور.

- ......

- مصمِّمة ديكور داخلي.

فوجئـــتُ، فقد كنتُ تكلمتُ عن مهنتي، وعن الســـنوات التي قضيتها في مكتبٍ لهندســـة العمارة، وكانت تستمع إليَّ من غير

(163) تأثَّر اسم هذا النوع من الروايات بقيام الفتيات في زمن العشق بتعطير رسائلهن إلى من يحببن بماء الورد، وأصبح الاسم يدل على روايات العشق والغرام والرومانسيات التي تشدّ أنظار المراهقـــين والفتيات إليها، واعتراف بطل روايتنا هـــذه بقراءة هذا النوع دليل على انجرافه نحو ما تحب (بولين) (المترجم).

أن تقول شــيئاً، ومن غير أن تقاطعني لتذكر لي مهنتها هي التي تعدّ مثل ابنةِ عمٍّ لمهنتي، لقد كنا من ذات الأســرة، أســرة تجهيز الأمكنــة للعيش فيها، وقد كان كل ذلك غريبــاً، فقد كنتُ أعيد تهيئــة الفندق، وكنتُ بالضبط في حاجة إلى شــخص أفكِّر معه فــي الديكور الجديد، ويا للغرابة، لقد كان الأصدقاء يحكون لي مراراً عن الظروف (غير المعقولة) للقاءات كانت قد جرت معهم. لقد كنتُ أعيش حتى الآن كأن ذلك الجمال قد هجرني، ولم تكن الحياة قد اختارتني قط للمشــاركة في سحر المصادفات، حتى إنني كنت أستطيع في بعض الأحيان أن أشك في وجودها؛ ربما كنت محاطاً بمهووسين بالكذب، وبروائيين ناشئين، كانوا يريدون أن يجعلونــي أصدِّق أن النصيــب يمتلك في بعض الأحيان بريق المعجزة، قــد يتعلَّق لقاؤنا بمصادفة بســيطة، ولكن الأمر ليس كذلك بالنســبة لي، لقد كان هذا الحدث انقلاباً رمزياً، وبإمكان حياتي الآن، كحياة الآخرين، أن تحظى بالرضا، قلت لها:

- إنني أبحث بالضبط عن شخص أعمل معه في فندقي..
- إنني باهظة الأجر..
- ......

ثم قالت وهي تبتسم:

- لكن حسناً.. من أجلك.. يمكن أن نتفق.

وبعد بضع دقائق، خرجنا، كان الزمن يمر من فوقنا بلا أدنى شغب، إن جودة الوقت كانت مثل إمكان اعتقادي بأن الليل يكذب عليَّ، قالت (بولين):

- يمكننا الذهابُ إلى الفندق.
- ......

- ......
- إلى الفندق؟
- نعم، إلى فندقك، فلديَّ رغبةٌ في أن أبدأ بالعمل..

(٦)

شدة الوجع: ٥,٠

الحالة المعنوية: كوسموس

(٧)

لقد تركنا التخاطب بضميـــر الجمع وراءنا[164]، في المطعم، وقد مشينا ساعة للوصول إلى الفندق، لم تكن هنالك كلمات في هذه النزهة، التي قمنا بها هنا في الليل.

لقد كنت أقلِّل من قيمة المظهر الرومانســـي لمكاننا المقصود إليه، فقد وصلنا إلى فندق بصورة ورشـــة عمل، ومقفر، ومشينا ببـــطء من غرفة إلى غرفة، وكان يبدو أن (بولين) كانتً تســـجِّل ملاحظات في ذهنها، وتشرح في بعض الأحيان ما يمكنها عمله هنا أو هناك. كنت أنظر إلى هذه المرأة التي كانت تسير أمامي، كنت أراقب جســـدها، ورقبتها. عندما دَخَلَتْ إلى الفندق ربطت شـــعرها، وســـأتعلَّم فيما بعد أن الأمـــر كان يتعلَّق هنا بتفاصيل متعدِّدة بشـــأن أنوثتها؛ لم تتمكَّن من تركيز شعرها المربوط، كان الوقـــت بعد منتصف الليل، وكنا بالغَيْنِ في شـــبهِ عتمة، ولم يكن هنالك شـــكٌّ في أن غايتنا كانت شهوانية، وكان لدينا عائقٌ أمام

(164) ســـبق أن بيَّنا أن الفرنســـيين إذا رفعوا الكلفة بينهم تخاطبـــوا بضمير المفرد (أنت tu) بـــدلاً من ضمير الجمـــع (أنتم vous)، وهذا ما جرى بين بطل الرواية و(بولين)، وهو هنا يصرح بذلـــك وينبِّـــه عليه، وكانت هي البادئة منذ قولها الآنف ذكره (نعـــم، إلى فندقك) بدلاً من (نعم، إلى فندقكم) (المترجم).

خِيارنا، كان يكفي أن نجد الغرفة الأفضل، أخذنا وقتنا، في متعة تدبير الإغواء، ولم يكن يضيء لنا سوى مصابيح منافذ الخروج. جَلَسَتْ (بولين) على سرير، وكانت تنظر إليَّ، وإذا ما كنتُ أشعر، في أول الوقت، شعوراً أقل منها بالراحة، فذلك لنقص الممارسة العملية، وللرهبة من الجمال، ولفرط الرغبة، التي أعرفها أيضاً، واستولت عليَّ ثقة لطيفة بالنفس، فأنا لم أكن أخشى من شيء، فقد كنت أعلم أن باستطاعتي أن أقترب منها. كان ذلك يبدو لي أمراً سهلاً الآن، بما في ذلك الشهوة، تقدَّمت منها لأداعب شعرها، وكان رأسها على بطني، وأحسستُ بيدها تصعد على طول ساقي؛ أستطيع أن أتذكَّر كل تفصيل، لقد تمدَّدنا، فصَرَّ السرير، فقالت لي:

- ينبغي تغيير الأسِرَّة.
- نعم، سنجرِّبها جميعاً، وسنرى الأولويات.

نظرتُ إلى جسمها، وكان لديَّ انطباعٌ بأنني أعرفه، ربما كان ذلك بسبب حلمي، ولكن لا، لم يكن يبدو لي أنني رأيت عُرْيَ (بولين) في طَيْفِها الليلي، يتحدَّث المرء في أغلب الأحيان عن رؤية سابقة في مجال الأحوال والأماكن، ويتحدَّث عن ذاكرة الجدران، وليس من النادر أن يصل المرء إلى مكان للمرة الأولى ويعاني من شعور أنه كان قد أتى إليه من قبل، وهذا ما شعرت به إزاء جسم (بولين)، فقد كنت أعرف بلادها[165]، ولديَّ انطباع بأنني أعرف أين أذهب غريزياً، ولم أكن في حاجة إلى دليل.

رأت على صدري ندبَة، فقد كنت أجريتُ عملية قلب في سن السادسة عشرة، فراحت تمرِّر إصبعها على أثر الجرح

(165) يكني بها هنا طبعاً عن جسدها (المترجم).

جيئةً وذهاباً، قبــل أن تقول: (إنه جميل)، ثم أضافت تقول: (إن ندبَتَــكَ جدارُ برلين)، وهذه أيضاً جملة صحيحة جداً، فقد كنتُ أشــعر دائماً كأن عالمين مختلفين يخترقاني؛ عالم الحلم، وعالم الواقع.. عالم الإبداع، وعالم المادة. كان ألم ظهري ذا صلة قوية باختلال توازنهما، وقد أُرهِق ظهري من انقسامهما الدائم، ومن استحالة توحيدهما، بتمرير (بولين) إصبعها على النّدبَة صنعت مني شخصاً وحيداً هو نفسه، لقد جَمَّعَتْني.

خطــر علــى بالي أن نذهب إلى برلين معاً. مارســنا الحب ونحــن نفكــر بتلك المدينة التــي كانت تهيم علينــا، هناك دوماً جغرافيا للرغبة، كنت في حالة من الراحة التامة، ومع ذلك جاء وجه (إيليز) ليمتزج بســعادتي. كان قســم مني يجدُ أمراً غريباً جداً أن يكون بجانب جســم امرأة أخرى، والقسم غير الحيواني مني، هو القســم الذي يثير حياة كاملة في اللحظة الراهنة. لقد كانت (إيليز) بقربي، مثل شــبحٍ لمرجعي الأنثوي، وهكذا لا يمكن التخلُّص، بسهولة تامة، من ماضٍ طويل، وفي نهاية المطاف، كان لدى (إيليز) لباقــةٌ، فتركتْنا وحيدَيْن، وفرَّت من ذهني، فقادتني (بولين) إلى أراضٍ لا مثيل لها، وتحرَّر تفاهمنا الجنسي في هذه اللحظة من كل احتشــام، لمست جسمها لمساً خفيفاً، كنت أرغب في أن أمنحها كثيراً من المتعة، وقد مارســنا الحب مطوَّلاً، فكان ذلك عالماً جديداً، كان أحدنا ينظر إلى الآخر في بعض الأحيان، لا من أجل تحقيق شــهوة الآخر، ولكــن لنكون متأكِّدَيْنِ من واقع اللحظة، إن ما كنا نعيشه إذن كان حقيقياً.

أمضينا الليل متعانقين، وتناوبت أوقات النوم والأوقات التي كنا نتبادل فيها النظرات، منذ كم من الســنوات لم يكن جســمي

يعرف مثل هذه الراحة؟ لقد أبعدتُ وجعي بجسم (بولين)، ومع هذه الراحة، كان لديَّ انطباع بأن ألم ظهري يرجع بجلاء إلى زمن بعيد جداً، وكأنه كان يعيش فيَّ بطريقة خفية قبل أن يظهر مؤخَّراً. لقد قامت سنواتٌ وصعوبات كثيرة بحياكة ألم ظهري، وبالتحرُّر منها، بدأتُ أحيا عصراً جديداً، صحيح أن كل شيء لم ينتهِ تماماً، فقد سوَّيت الأمور مع والِديَّ، وولدَيَّ، وعملي، وزوجتي بطريقة ما، ولكن ماضِيَّ كان يضايقني، ويَلزَمني بعضُ الوقت لأفهم ما لم يزل يزعجني.

في الفجر، عانقتني (بولين) برقَّة، ثم رحلت، في مفاجأة كبيرة لي، من غير أن تقول شيئاً، فقلت في نفسي إنها كانت تريد أن تدع استيقاظنا لسِحْر الليل، ومتجنِّباً النور والاضطرار إلى الكلام، كانت لدَيَّ رغبةٌ في تمديد الوقت معها، ولكن هذا ما جرى، وفي مثل عمري، توقَّفتُ عن السعي إلى فهم كل تصرُّفات المرأة، وبعد بضع دقائق، عانيتُ ما يشبه شَكّاً. لقد كنت أشعر بارتياح للغاية معها حتى إن ذلك أثار عندي هياجاً جديداً، وهذا هو التأثير الثانوي للسعادة، إنه لأمر في غاية الهشاشة شعورُ المرء بالارتياح مع شخص ما، ويكون أكثر سعادة في العزلة أحياناً، من غير أن يستجمع كل قواه ليصنع قصة حب، ويكون أكثر هدوءاً، وهذا أكيد. وبعد ساعة من مغادرتها، قلت لنفسي إن عليَّ أن أبعث إليها رسالة، وهذا ما فعلته، إنه لأمر بسيط جداً: (شكراً على تلك الأمسية، لقد كانت رائعة)، هل كان عليَّ أن أضيف أنني مستعجلٌ لرؤيتها ثانية؟ لا، هذا أمر جليٌّ، جليٌّ أنني كنتُ أريد أن أراها ثانية، وجليٌّ أننا سنلتقي، ليس هنالك تفصيل واحد ووحيد في أمسيتنا يكشف عن قصةٍ بلا مستقبلٍ، وربما التقينا حتى في

هذا المســاء، فقد حَلَمْتُ بذلك، لقد كنت أفتقدها بشكل مخيف؛ أفتقد عطرها، وبشــرتها، وصوتها، وقد بقيــت أمام هاتفي، ولم أكن أســتطيع عمل شــيء آخر ســوى ذلك، وكنت أنتظر أن تردّ، وقد لعنتُ مخترع هذا الشــيء. يعتقد الناس أنه البركة العصرية، ولكنه أحياناً وسيلة خالصة للتعذيب، فعندما يربط بعضنا ببعض بســهولة فائقة، فإن المرء يحقِّق الرد بمباشَــرة مذهلة، فلماذا لم تــرد عليَّ؟ فقد أحدث صمتها قلقاً في نفســي، فاســتدعى هذا القلق نفسُه توتُّراً في ظهري، كان هذا حلقةً مُفْرَغة.

(٨)

شدة الوجع: ٢

الحالة المعنوية: بين السعادة والقلق

(٩)

تقدمت الأعمال بســرعة، وســنتمكَّن، في بضعة أسابيع، من تنظيم احتفال لإعادة افتتاح الفندق، وكنتُ أعرف امرأة تعلم تماماً كيف تنظِّم ذلك، وســتتصل بمراســلة صحافيــة يمكنها أن تكتب مقالات عن الحدَث، ويبدو أن (فاسِّيلِس) لم يكن يدرك بماذا يفيد الاحتفال بافتتاح فندق، ولكنه كان يمنحني الثقة، وكنت أشــعر به أحياناً مزعزعاً؛ فقد كان ســعيداً جداً مــن التغيير الذي حصل، وفي الوقت نفســه كان بإمكاني أن ألمح في نظرته شــبهَ حنين إلى فندقه البائس، لقد كان الرجل الذي سيصل أخيراً إلى بلوغ حلمه، مع تبيُّنِه أن الســنوات التي انقضــت بالحرمان كانت تملك البريق اللطيف للبســاطة على زعمه، ولكنه كان في أغلب الوقت مندهشاً وفخوراً، إنَّ تحول فندقه كان تقريباً كما لو أن ابنه نجح في امتحان

الدخول إلى مدرسة كبيرة، كان في المساء يجلس في البهو، ويراقب صالة الاستقبال بهيئة المنوِّم مغناطيسياً خلال دقائق طويلة.

وقد كانت لديَّ فكرة هـــي أن أحوِّل الفندق إلى فندق أدبيٍ، ولم يكن في ذلك شـــيء من الأصالة، ولكني وجدت من المســلِّي أن أكمـــل قَدَرِي الأدبي بهذه الطريقة، وذلك بإنشـــاء مكان على شكل (بانثيون) [166] pantheon للكلمات، ويكون ذلك مثل عَونٍ للكتَّاب. كنا نمشـــي عبر الممرات، ماريـــن أمام الغرف، فعرضتُ نظريتي على (فاسِّيلس)، وقلت:

- السيَّاح يهيمون في أن يجدوا شيئاً من بلادهم في الخارج، ويحبون أن يُعْمَل لهم لَفتُ نظر.

- وبعدئذٍ؟

- سوف نعطي لكل غرفة اسم كاتب[167]، ونعمل على أن نضع الإسبان في غرفة (سِـــرفانتِس) [168] Cervantès، والألمان في غرفـــة (موزيـــل) [169] Musil، والإيرلنديين في غرفة (جويس) [170] Joyce، والإيطاليـــين في غرفة (كالفينو) [171] Calvino،

(166) الـ (بانثيون): يعني في الأصل الصرح الذي يقام لتخليد كبار العباقرة (المترجم).

(167) ســنلاحظ أن بطل الرواية، هنا، كان انتقائياً في اختيار أسماء الكتاب الذين ذكرهم، ولا ندري المعيار الذي اتبعه في اختيارهم، لأن لدى الشـــعوب التي ذكرها من هم أهم منهم وأشـــهر بكثير، باستثناء (غومبروفيتش) الذي اختاره لنزوته الخاصة (المترجم).

(168) ســرفانتِس (ميغيل دو - Miguel de): كاتب إســباني (1547-1616)، عرف برائعته الأدبيـــة (دون كيخوته) أو (دون كيشـــوت) التي كان لها أثر واســـع في الحيـــاة الفكرية الأوروبية والأدب العالمي، ترجمها عن لغتها إلى العربية الدكتور عبد الرحمن بدوي (المترجم).

(169) موزيل (روبرت - Robert): روائي نمساوي (1880-1942)، وهو بطبيعة الحال ألماني اللغة، عرف بروايته الأولى (اضطرابات التلميذ تورلِسّ Törless) سنة 1906، ولد في أحضان جيل التعبيرية الألمانية، تشهد أعماله على قدرة نقدية عميقة للمجتمع (المترجم).

(170) جويـــس (جيمس - James): كاتـــب إيرلندي مجدِّد (1882-1941)، من أعماله (أناس من دبلن Dublin)، و(أوليس Ulysse) (المترجم).

(171) كالفينو (إيتالـــو - Italo): كاتب إيطالي (1923-1985) عرف بثلاثيته (البارون بركيه perché [لماذا]) (المترجم).

والروس في غرفة (غوغول) Gogol [172] أو غرفة (تشـــيخوف) Tchekhov [173]..

– نعم، هذا جيد، أعتقد أنني فهمت، ويمكن وضع اليونانيين في غرفة (أرسطو) Aristote [174].. أو (أفلاطون) Pl - [175] ton.. أو (ســقراط) Socrate [176].. يصعب الاختيار.. فلدينا كثير من العباقرة في تاريخنا..

فقلـــت له لجعلـــه يرتاح في خضم هـــذه الاندفاعة المفاجئة للوطنية الفلسفية:

– هذا صحيح..

ونحـــن نواصل التقدم عبر فندقنـــا، وصلنا إلى أمام الغرفة التي كنا أنا و(بولين) قد مارسنا فيها الحب، فقلت حينئذٍ:

– هذه ستكون غرفة (غومبروفيتش).

– ومَنْ هذا؟ (غومبريش) Gombrich [177] ماذا؟

– إنه كاتب بولوني.

(172) غوغــول (نيكــولاي – Nikolaï): كاتب روســـي (1809–1852)، مـــن أعماله (الأنف) و(النفوس الميتة) (المترجم).

(173) تشيخوف (انطون – Anton): كاتب ومؤلف مسرحي روسي (1880–1904)، تناول في أقاصيصه ومسرحياته المجتمعات المنحطة والمضطربة (المترجم).

(174) أرسطو: عالم وفيلسوف يوناني (384–322 ق.م)، وضع علم المنطق، وتطرَّق إلى مختلف ميادين المعرفة (المترجم).

(175) أفلاطون: فيلسوف يوناني (428–348 ق.م)، كان تلميذاً لـ (سقراط)، تقوم نظريته على عالم المُثُل، من أعماله (الجمهورية)، وقد تركت فلســـفته تأثيرات واســـعة في الفلســـفة الغربية (المترجم).

(176) سقراط: فيلسوف يوناني (470–399 ق.م)، عرف عن طريق تلميذه (افلاطون)، وهو أبو علم الجدل (الديلكتيك) عن طريق المحاورات والأسئلة والأجوبة، وهو أيضا أبو الفلسفة عموماً، حكم عليه بالموت عن طريق شرب السم (المترجم).

(177) تقصَّد الكاتب أن يجعل اليوناني (فاسِّيلِس) صاحب الفِندق الأصلي، وشريك بطل الرواية الآن، يخطئ في لفظ اسم هذا الكاتب ليمعن في كونه مجهولاً، وربما ليسوِّغ جهله به عندما سمع اسمه لأول مرة من (بولين) (المترجم).

- آ.. موافـق.. لاحظ، هذا صحيح، لدينـا أحياناً بولونيون، إنهم في أغلب الأحيان ودودون..

وثرثر (فاسِّيلِس) ببعض الجمل عن البولونيين، وهو ينزل إلى صالة الاستقبال، ويبدو لي أنني سمعته يقول:

- إن فندقي فندقٌ دُوَليّ.

أو شيئاً من هذا القبيل، وأنا بقيت أمام الغرفة البولونية.

بعد ليلتنـا الأولى، لم تردّ (بولين) في الحال على رسـالتي، ولكـن فقط في آخر النهار، لقد كان الانتظار عذاباً، فقد كتبتْ: (إنني أشـعر بالراحة معك)، لقد اسـتغرقتُ زمنـاً للرد، وكأنه انتظارٌ لهضم السـعادة، ومثلي تماماً، تزعزعتْ بسبب الهناء في الأمسـية، وكان ذلك أحد التناقضـات الظاهرية غير المحدودة للراحة، والدليل على أن الكائن البشري يملك في داخله إحساساً فِطريـاً بالوَهَن العصبي الاسـتكاني، لا أدري لماذا، ولكننا نحن الاثنـان كنا خائفَيْنِ قليلاً، فكنا نعيش سـنواتنا الأخيرة من غير أدنى تعرُّض للخطر؛ وكانت قلوبنا تخفق بلا إفراط وبحكمة، ولم أكن أفهم دائماً موقف (بولين)، ولم تكن هي تفهم دائماً موقفي. وكنـت أفتقر إلى البسـاطة، وكنتُ أفكِّر قبـل أن أبعث إليها أي رسالة، ومن جديد، أدركتني كل تلك الهشاشة المرتبطة بالسعادة الحمقـاء من لقائها، فكنا نسـتغرق عدة أيام قبـل أن نتلاقى. وأخيراً، كان الأفضل ألا نتكلَّم، وقد مارسـنا الحب مراراً خلال عطلة نهاية الأسـبوع كلها التي كنا نقضيهـا في بيتها، لقد كان الجسـم يخلِّصنا من مخاوفنا، وكانت ممارستنا الجنس بسيطة وحرَّة، وكان لديَّ انطباعٌ بأنني اكتشفتُ الحب مرة ثانية.

لقد أصبحت قصتنا جادة مباشـرة، وبسرعة فائقة، تحدَّثنا

عن أمور كانت تخصّ المســتقبل، قالت لي: (أنا مستعجلة لمقابلة أطفالك). وذات مســاء، كنــتُ أودّ أن أقدِّم لهــا (أليس)، ولكن الأخيــرة لم تكن جاهــزة، وقد كانت، عدة مــرات، تجد أعذاراً حتــى لا تلتقــي (بولين). وكان يبدو لي أنهــا كانت تحرص على أن تشــعرني بما كانت تشــعر به هي، ولم يكن ذلك ضاراً، وكنت أعرفه جيــداً، وقد كانت هي أيضاً مزعزَعة من الســرعة التي ألقيت نفسي بها في هذه القصة الجديدة. ثم إنها هي التي كنت قد بحثُ لها بالسر، بينما لم أذكر شيئاً لـ (إيليز)، وقد فاقم ذلك الإحراج، فأنا لم أكن أعرف دائماً كيف أتصرَّف، لقد كنت أحاول أن أكون بســيطاً، ولكن ليس من الســهل أن يقطع المرء مع فترة طويلة جــداً في الحياة، كانت العلاقات مــع (إيليز) طيِّبة، فقد كنا نتكلم معاً مرتين أو ثلاث مرات في الأســبوع، متجنبَيْن دوماً المجــال الحميمي. كنا نأتي على ذكر الفنــدق، وعملها، وولدَيْنا، ولكن لم نكن نطرح أي ســؤالٍ عن حيــاة أحدنا من غير الآخر. أبــدت (بولين) ذات يوم ملاحظة بشــأن العلاقــات التي كانت لا تــزال تجمعني مع (إيِّليز)، لم تكن غيورة، وكانت تعرف قصتنا المنتهيــة، حيث إن كلماتهــا جعلتني أفهم أننــي لا أزال مرتبطاً بماضِيَّ، ولكن ماذا أفعل خلاف ذلك؟ لقد كنا نعيش الحياة معاً، ولــم يعد ارتباطنا غرامياً، ولكن لا يمكنني أن أقول إنه كان ودياً أيضاً، كنت أشــعر أنني واضح ومن غير التباس، ولكن شــيئاً ما كان يضايقني، إنه محادثة مع (بولين) أتاحت لي أن أفهم ما كنتُ أشعر به شــعوراً عميقاً، قالت لي إن مصوِّر (الفوتوغراف) كان يريد أن يلتقيها، قلت لها:

- وماذا قلتِ له؟

- قلت له لا، غير أنه أصرَّ كثيراً.
- لا يزال مغرماً، هذا أمر عادي.
- ربما، لا أدري، ولديَّ انطباع على وجه الخصوص بأنه يريد أن يتحـــدَّث عنا، وعن نهايتنا، وقد فاجأني ذلك قليلاً، وعليَّ أن أكاشفه.
- لماذا؟
- لأنني لا أظنه حساســاً جداً، ولا أظنه قادراً أن يضع نفسه في مثل هذه الحالة.
- بكل تأكيد، عليك أن تتجنبي لقاءه..
- لا أدري..

لم أكن أشـــعر بغيرة أنا أيضاً، ولم أكن أخشى أن تعود معه، ربما أكون مخطئــاً؟ ولكن كان يبدو لي أمراً عادياً أن تتشــابك قصص الحب هكذا[178]، هنالك إذن ما يشـــبه المنطقة المشتركة في القلب، وكان هذا يســـتدعي في بعـــض الأحيان البلبلة، وفي أغلب الأحيان الوجع، وفي الأساس، من المؤكَّد أن ليس هنالك ما هو أصعب عملاً من إنهاء قصة حب، ولقد فهمت ذلك للتو، وأنا أستمع لـ (بولين) وهي تتحدَّث عن مصوِّر (الفوتوغراف).

---

(178) وهـــذا يذكرنـــا بقـــول الأعشـــى البكري فـــي معلقته الشـــهيرة (انظر: شـــرح القصائد العشـــر، صنعة الخطيـــب التبريزي، تحقيق: د.فخـــر الدين قَباوة، المكتبـــة العربية بحلب، ط1، 1969م1388-هـ):

عُلّقْتُها عَرَضاً وعُلّقَتْ رَجُلاً ... غَيْرِيَ وعُلِّقَ أُخْرَى غَيْرَها الرجُلُ
وعُلّقَتْهُ فَتاةٌ ما يُحـــاوِلُها ... ومِنْ بَنِيِ عَمِّهَا مَيـتٌ بها وَهِلُ
وعُلِّقَتْنِيْ أُخَيْرَى ما تُلائمُنيْ ... فاجْتَمَعَ الحـــبُّ حُبٌّ كُلُّهُ تَبِلُ
فكلُّنا مُغْرَمٌ يَهْذِيْ بـصاحبه ... ناءٍ ودانٍ ومَخْبُـــولٌ ومُخْتَبَلُ

(١٠)

شدة الوجع: ١

الحالة المعنوية: الرغبة في إنهاء الصلة مع الماضي

(١١)

وصلتُ إلى بيت (إيليز) من غير إعلامها، فأنا لم أعُد، منذ عدة أسابيع، إلى بيتي القديم، بقيتُ برهة أمام الباب، وكأنني موقوف من قِبَل ماضِيَّ، لقد كنتُ أدخل إلى هنا مراراً بشكل آلي، أُخرِج المفاتيح من جيبي، وهذه المفاتيح ليست معي الآن، وأنا أضغط على الجرس، كنتُ أدشِّن صفتي الجديدة؛ صفة زائر، لم أكن أريد أن أعلمها بزيارتي، إن بعض الأفعال لا يمكن الإعلان عنها، ولا يمكن أن تخضع لمحادثة أياً كانت مُسَبَّقاً. على الدرج فقط فكَّرتُ في أنها يمكن ألا تكون في البيت، وحتى قد لا تكون وحدها، وهذا الاحتمال جعلني أتردَّد، وفي هذا الوقت الدقيق، فتحت (إيليز) الباب، قالت:

- ماذا تفعل؟

- أنا..

- لقد رأيتُك تمر في الشارع، منذ خمس دقائق، فلا تقل لي إنك كنتَ تتردّد في رن الجرس منذ ذلك الوقت!

- لا.. في الحقيقة، بلى، كنتُ أخشى أن أضايقك، هذا كل شيء.

- أنت لا تضايقني، فقد كنتُ على وشك أن أقرأ، هل تودّ الدخول؟

- نعم.

وجدت نفسي في الصالون، كان الجو يبدو لي كئيباً، فقد

جُلتُ بنظري في الأمكنة، لا شـــيء تغيَّـــر، يمكن القول إن البيت هنـــا كان ضريح قصتنا، وهنا، كنت أرى ماضِيَّ، لقد كنتُ مقتنعاً بأن (إيليز) ســـوف تغيِّر كل شـــيء بعد رحيلي، وبخاصة حياتها، فالقطيعة تكون مصحوبة في أغلب الأحيان برياح الحرية، والمرء يرغب في الشـــرب، والخروج، ويستســـلم لوهم التماس شـــباب جديدٍ واقعياً، ولكن لا، لا شـــيء من هذا، لقد كان البيت غاطساً فـــي عتمة خفيفة كالحة، وكانـــت الغرفة على قيد الحياة بفضل إضاءة متواضعة لمصباح موضوع قرب الكنبة، وكانت (إيليز) تقرأ رواية ضخمة جـــداً؛ وهذا الأمر أيضاً لم يكن صورة للســـعادة، فالمرء عندما يكون ســـعيداً يقرأ رواياتٍ قصيـــرةً، وهذه علامة هشاشـــة أكثر منها علامة رغبة في الهـــروب هكذا تحت مئات الصفحاتٍ. كنتُ جالســـاً على الكنبة بصمت، وبعد مدة، أخذت (إيليز) تبتسم، قائلة:

– لقد جلستَ، ولم تقل شيئاً، أنت تعلم، عندما يصل المرء إلى مكانٍ ما.. فإنه يعلن سبب حضوره.

– نعم، عفواً، كنت أريد أن أكلِّمك.

– هل تودّ شرب شيء؟

– حسناً.. أودّ..

ذهبت إلى المطبخ لتعود بزجاجة خمر، وعندئذٍ أشعَلَتِ النور، فاستولت علينا هذه الهجمةُ من الإضاءة القوية، قالت:

– إنني مرهقة، فقد خرجت متأخرة مساء أمس.

– ......

وخلال بضع ثوانٍ، غيَّرت رأيي تماماً، فأنا الذي كنت أعتقد أننـــي تقدمت في قدرتـــي على تحليل الأوضـــاع بدقة ووضوح،

هــا أنذا لا أزال أنطلــق في الاتجاه الخاطــئ. إن (إيليز)، التي كانت تبدو لي على حافــة الكارثة، كانت فقط منهكة، ومن نحو آخر، ومع النور، اســتطعتُ أن أشاهد أن الصالون لم يكن مرتباً، واكتشفت أيضاً، هنا وهناك، أشــياء غير مرتبة، وثياباً مبعثرة، وهي التي كانت دوماً مهووســة جــداً [بالترتيب]، توافقت الآن مع القانون على الفوضى، وهذا التفصيل البســيط كان يعلن عن تحــوُّلٍ عظيــم، تمتمتُ بعد نصف دقيقة علــى الأقل من نطقها جملتها، قائلاً:

- حسناً.. أنت خرجتِ.. أمس؟

- نعم، لقد فتح لي (بول) حســاباً على الـ (فيسبوك)، وتلقيت (إيميلاً) من رفيق قديم في الثانوي.

- ......

- إنه لأمر غريب أن ألتقيه.

مرة أخرى، كنت ألاحظ أننا جميعاً نعيش الحيوات نفسَــها، وتلك كانت الــدورة: يلتقي الناس، يتوارون عن الأنظار، والموضة اليوم أن يلتقي بعضهم بعضاً، ومع الزمن، سيتبيَّن المرء أن الحياة تحــوِّل إمكاناتنا إلى عبارات عن العلاقات الإنســانية، وعندئذٍ يجدِّد المرء معلوماته عن معارفه القدامى، قلت لها:

- هذا غريب.

- ما الذي هو غريب؟

- أنا أيضاً، التقيت معرفة قديمة، هي (صوفيا كاستلو).

- إنك لم تحدَّثني عنها قط.

- كنــت في الصف الثاني الابتدائي معها، وقد أصبحت عالمة جنس.

لمــاذا ذكرتُ لها في الحال ذلك بشــأنها؟ ماذا يمكن أن يهم (إيليــز) كونُ (صوفيا كاســتلو) عالمة جنس؟ فــي هذه اللحظة، فكَّــرتُ على وجه الخصوص في أنني لــم أعد أراها أبداً، ولقد خرجَتْ تماماً من ذهني، ومع ذلك فقد كانت لقاءاتُنا رائعة، وقد تواعدنــا على أن نتلاقى، ولكن الغــداء كان هزة من الماضي بلا ارتــدادٍ. يحب المرء أن يلتقي الناس، مــرَّةً وحيدة، وحتى لو كان التفاهــم جيِّداً، فمن النادر حقاً أن تنبعــث علاقة بعد انفصالٍ طويل جداً، إن الإثارة في الأمر تقوم على الأســئلة الكثيرة التي يثيرها الزمن الماضي في فترة الغياب: ماذا أصبحت؟ ما حياتنا؟ ولكن ما إن انتهى الملخص حتى استعدنا بشكل خفيف لذة اللحظة المصطنعة، قلت لها:

- أنت لم تذهبي للقائه.
- حقاً؟ لماذا تقول هذا؟ لقد أمضيت أمسية جميلة معه.
- نعم، كنتُ أشكّ في ذلك، عمَّ تحدَّثتُما؟
- عن لا شيء، عن حياتنا.
- أنا أتساءل عمَّا قلتِهِ له عنا، وعن قصتنا، وعن خاتمتنا.
- ......
- ......

ثم قالت فجأة:

- أنتَ تعلم، لستُ مستعجلة لكي أعيش حياةً أخرى.

هل كانت تلمِّح إلى (بولين)؟ لا، أنا متأكِّدٌ أن (أليس) لم تقل لها شيئاً، ربما كانت تشعر بذلك؟ هذا أمر ممكن، تذكَّرتُ طُرْفةً كانت قد ألقتْها في المشــفى، عندما كانــوا يريدون أن يضعوني تحــت المراقبة، إذ قالت: (ينبغي لهم أن يســألوني، فقد راقبتُك

كثيــراً ..)، كان ذلك صحيحاً، كانــت نظرة (إيليز) تبدو لي ثاقبة كجهاز كشــفِ الكذب، فقد كانت تستطيع أن تقرأ ما في داخلي، ولذلك حاولت أن أغلِق الكتاب بألا أترك شيئاً يظهر على وجهي.

لا، لقد تلفَّظتُ فقط بجملة، وكنت قد سمعتها كما هي، وكانت لديَّ عــادةٌ غريبة هي البحث في كل مــكان عن المعنى المضمر، بينمــا تؤخذ الكلمات في أغلب الأوقات بالدرجة الأولى، لم تكن (إيليــز) مضطــرة أن تعيش قصة أخرى، هذا ببســاطة صحيح بلا شك، فلم يكن ذلك طموحها. رغبتها كانت على وجه الخصوص أن تشعر بأنها حُرَّة، إن مغادرة حياتنا كان أملاً بالحرية، لا أملاً بقصة أخرى، يا له من واقع رهيب! نفترق لنسترد الحرية، يسجن الزوجان، مهما يحدث من أمر، إنهما يسجنان في واجب تشاطر حياتهما، وعبارة حياة مشــتركة تعني كلَّ ذلك؛ فالمرء يعيش حياة واحدة لاثنين، وعندئذ سيأتي حتماً وقت يشعر فيه أنه في مكان ضيِّق في هذا الشــطرِ من الحيــاة، فيختنق، ويحتاج إلى الهواء، ويبدأ الحلم بالحرية. ولدانا وماضينا، هما كل حياتنا المشتركة، والآن لدينــا حياتــان متمايزتان، ومع ذلــك، لا أعتقد أن يتمكَّن المرء من التخلُّص بســرعة هائلة من عشــرين سنة مضتْ معاً. لقد كانت (إيليز) في كل مكان داخل حياتي، ولن تتوقَّف ذكرياتنا عن الظهور في حاضري، وفي الحقيقة، كانت قصتنا تفتقر إلى خاتمة، لقد ضاق نَفَسُ حبنا، ولكنني كنتُ لا أزال أشعر بأنفاس (إيليز) قربي، بينما كنتُ أريد أن أبدأ القسم الجديد من حياتي.

أبدت (إيليز) ملاحظة قائلة:

- لم تقل لي حتى الآن لماذا أنت هنا.
- لقد حللتُ كثيراً من الأمور، وقد تعافى ظهري.

- نعم، هذا واضح، فأنت تجلس مستقيماً، وتقف وقفة جميلة.
- آ.. شكراً..
- وإذن؟
- بقي أمر واحد لم يُسَوَّ.
- ما هو؟
- انفصالنا.
- يعني؟
- أعتقد أننا انفصلنا بطريقة مهذَّبة جداً.
- ......

وأخيـــراً، نجحتُ في وضع كلمات عن شـــعوري، لقد انتهت قصتنا بلا أدنى صِدَام، مثل احتضار شـــمعة، ومن أجل التقدم، كنـــتُ في حاجة إلى عنف، وصَدْع، وكســـر، وكنت في حاجة إلى تجسيد القطيعة مادياً كي أستطيعَ الإقلاع، فهل كان هذا غريباً؟ قلتُ:

- إنني في حاجة إلى أن أتشاجر.
- ماذا؟
- نعم، وبخيني على أشياء، عَصِّبي، اعثَرِي على طريقةٍ ما.
- لكن..
- مثلاً، سلال المهملات.
- ماذا؟ سلال المهملات؟
- كنتِ تتوتَّرين عندما لم أكن أخرجها من البيت، حسناً، هذا هـــو وقتَ الصـــراخ، قولي لي إنك لم تكونـــي تتحمَّلين ألا أخرج سلال المهملات.
- ولكني لم أكن أبالي بسلال المهملات.

- لا، هــذا مهــم جداً، عَصِّبــي، قولي لي إنــكَ خامل كبير، ومخبول من الدرجة الأولى، لا أدري، اخترعي! أغضبيني!

- ولكني لا أستطيع..

- أوه.. أنــتِ لا تفهمين شــيئاً، لقد عصَّبتنــي، إن كان الأمر كذلك، فسأهتم به!

وعندئذٍ تقدَّمتُ نحو (إيليز) وناولتها صفعة كبيرة، فقالت:

- لكن هذا لن يذهب سُدَىً! أنت مجنون؟!

بقِيَــتْ مبهوتة، ويدها على خدهـــا، فقد كنتُ صفعتها بقوة، ربما كنت قد ذهبتُ في الأمر بعيداً جداً؟ وبقينا مدَّة هكذا، قبل أن تقول:

- هذا إذن ما تريده.. حســناً.. نعم، أستطيع أن أذكر لك كل ما لم يكن بيننا على ما يُرام، يمكنني أن أسرد لك قائمة عيوبك، وأستطيع أيضاً أن أصرخ، إن كان ذلك يرضيك.

- ......

- أنت خَرِع، أنت خرِعٌ بشــكل غير معقــول، وليس بالإمكان العيش مع متزلِّف مثلِكَ، إنني لم أرَ مثلَك هكذا قط، وأنت بليد، وتُصِمُّ أذنيك عندما تتخذ قراراً، وأحياناً كنتُ أتســاءل أيضاً إن لم تكن مُغَفَّلاً..

- ......

- أتسمع؟ أنا أرتاب بحماقتك!

- ......

- هل الأمر جيد هكذا؟

- نعــم، إنه جيــد، لكن من أجل عمل مشــاجرة جيِّدة، لا بد أيضاً من تكسير أشياء، اتفقنا؟

- آ .. اتفقنا ..
- ......
- سوف أبدأ بتكسير مجموعة أسطواناتك، لقد تركتَها هنا .
- آ .. لا ..
- بلى! لقد نفختني بأسطواناتك للعجوز الأحمق!

انطلقت (إيليز) حينئذٍ جرياً إلى غرفتنا القديمة، فتبعتها، فالتقطت أسطوانة، كانت تسجيلاً حياً لـ (جون كولتران)[179] John Coltrane في اليابان، وهي قطعة نادرة.. فقلت:

- لا، ليس هذه.. أرجوكِ..
- ......

نَظَرَتْ إليَّ بعينيها، ثم حطَّمتْها بعنفٍ لا مثيل له، ورداً عليها، اندفعتُ إلى خزانة ثيابها لتمزيق قميصها المفضَّل، ثم توجَّهتُ إلى المطبخ، وكسَّرتُ كل الأطباق، وبدورها، حطَّمت الكؤوس والصحون، وأصبح البيت بلداً في حالة حرب، فقد كانت هنالك قطع زجاج في كل مكان، ثم تناولتْ (إيليز) البيض من الثلاجة لترميني به كالصواريخ، فوقعت على قفاي، لقد كانت (ض.-ق.)[180] (K.-O.).

رفعتُ يدي لأستسلم، وطلبتُ السلام، فاقتربت مني، وشدَّ كل منا على يَدَيِ الآخر، وقالت حينئذ:

- كان الحق معك، لقد أحدث ذلك راحة في نفسي أيضاً.

بقينا هكذا مدة طويلة، وسط الكارثة، مع قوة إمكانية أن يعيش الآن أحدنا من غير الآخر، وهكذا انتهت قصتنا معاً.

(179) جون كولتران: عازف جاز أمريكي ومؤلف موسيقي (1926-1967) (المترجم).

(180) (ض. - ق.) ترجمة مختصرة للمصطلح (K.-O.) الذي يستعمل في مباراة الملاكمة ويعني (الضربة القاضية) knockout (المترجم).

(١٢)

شدة الوجع: ٠

الحالة المعنوية: نحو المستقبل

(١٣)

نظرتُ إلى نفســي في المرآة مدة، لقد مضت مدة طويلة لم أكن أرتدي خلالها بدلة، جاءت (بولين) إلى قربي، متظاهرةً بأنها قد وقعت تحت سحر رجل مجهول، فقدمت لها هدية لأشكرها، لقد كانت مساعدتها قيِّمة جداً، وهذه الأمسية هي أمسيتنا، كان عملهــا رائعاً. عندما فتحت العُلْبَة، أصدرت صرخة فرح صغيرة قائلــة: (أوه.. لقد كنتُ أحلم أن أذهــب معك!)، وتعانقنا، وقطع علينا (فاسِّيلِس) قبلة، وهو يقول: (حسناً، أيها العشّاق، هذا هو المســاء العظيم!)، وقد كان مُجْهَداً جداً، ولكننا كنا واثقين أن كل شيء سوف يجري على ما يُرام.

وبعد بضع ساعات، تنفَّس الاحتفال بملء رئتيه، نجحت مُنظِّمةُ الاحتفــال والملحقةُ الصحافية في دعوة عــدد من الصحافيين، ودعوة شــخصياتٍ من العالم الأدبي أيضاً، وكان يبدو أن الجميع يقدِّرون عملنا، وجاء ناشــرٌ ليراني ويقول لي: (عليك أن تنشــئ جائــزة أدبية للأهــرام). آ.. نعم، لِمَ لا؟ ولم أكن أعرف شــيئاً عنهــا، اقترب كاتب منا، وقــال: (إنه لمكان جميل.. ولكن لا أفهم لماذا لا توجد غرفة باسمي!)، ثم انخرط في الضحك، وكان عدة أشخاص حوله يصحبونه، وقد ربت على كتفي ربتة ودية خفيفة، قبل أن يذهب نحو الآخرين، فتوجهتُ عندئذ نحو (سيلفي) التي كانت تشــرب كأســاً في أحد الأركان وحيدةً، وقد كنتُ تفاجأتُ برؤيتها تصل مع (إدوار)، والأكثر إدهاشاً أيضاً، أنهما كانا يبدوان

مسرورين كما كانا في أول يوم، سألتُها:

- هل أنتِ بخير؟ ألا تملّين؟

- لا، إنه حقاً احتفال جميل جداً، وإننا جميعاً فخورون بك.

- إنني سعيدٌ برؤيتكما ثانية معاً، وأنتِ تعلمين.

- شكراً، وأنا أيضاً.

- ......

- بعد ما حدَث بيننا.. عندما أردتُ.. معكَ.. في الواقع، أنتَ تتذكَّـــر.. باختصار، بعد هذا.. أدركـــتُ أنني على غير ما يُرام.. وانطويـــتُ على حياتي.. وكان (إدوار) يعاملني معاملة الأطفال.. وأوشكتُ أن أصبح شرسة الطبع.. وكنتُ في حاجة إلى استنشاق الهواء..

- أفهم ذلك..

- ولمـــا كان (إدوار) لا يريـــد أن يســـمع.. كان علـــيَّ أن أكون عنيفة.. حتى إني اخترعتُ قصة المرأة تلك.. حتى يخلي ســـبيلي قليلاً..

- آ..

- والآن، تبـــيَّن لـــي الوضـــع، وتعافيتُ، وقمـــتُ بالتوقف عن التصويـــر la peinture.. وبدأتُ بإعطاء دروس في الرســـم.. وهذا ممتاز بالنسبة لي.. وأنا في وسط الأطفال هكذا..

وفي هذه اللحظة، أعتقد أنها كادت تنخرط في البكاء، وقد أدركتُ فجأة ما لم أكن أتوقعه قط، وهو معاناتها من عدم إنجاب أطفال، وعندئذٍ حضر (إدوار)، وقال:

- ما بالكما؟ إنه الاحتفال هذا المساء!

فردَّتْ (سيلفي)، وهي تعانقه وتستعيد في الحال لونها:

- نعم.. نعم، إنه الاحتفال، معك حق!

هو ذاك ما لم نكن عليه أنا و(إيليز)، أما هما، فلم يستطيعا أن يعيش أحدهما من غير الآخر، لقد خُلِقا لتكون حياتهما مشتركة.

وتابعتُ تجوُّلي عبر جمهور المدعُوِّين، وقد التقيتُ أصدقاء كثيرين لـ (بولين). وأخيراً، قدمتُ لها ولدَيَّ، لقد كانت مناسبة طيِّبة. كان (بول) قد عاد من نيويورك وقرَّر أخيراً أن يبقى في باريس، وقد اقترحت عليه أن يعيش في الفندق، وأعجبته الفكرة. وكانت (إيليز) قد جاءت أيضاً، وقد كانت أجمل من أي وقت مضى، وبإمكاني أن أعتقد تقريباً بأنني كنت آلة لعدم ابتهاج النساء، لقد كانت مع صديقة لم أكن أعرفها، كنتُ أخشى في هذا الوقت أن أقدم لها (بولين)، لكن كل شيء سار ببساطة، فقبَّلتْ إحداهما الأخرى بحرارة، ثم إن (إيليز) قالت لـ (بولين)، بعد أن رأتني: (حظاً موفقاً)، وخلال الأمسية، رأيتهما مراراً تتحادثان، وكنت أتخوَّف من هذه المحادثات أن تذهبا إلى تشريحي، ولكن لا، لقد كانتا تبدوان متفاهمتين جداً، ومع ذلك، كان من الغريب أن أشهد هذه التبادلات، لقد كنتُ أراقب (إيليز)، ولم أتوصَّل إلى معرفة الوقت الذي كان زواجنا قد انتهى فيه، بعد موتِ والدها، أعلنت القطيعة، ولكن إلى أي زمن كان يعود مولد نهايتنا؟ لم أستطع أن أعرف أصل الانحدار؛ ربما إلى الزمن الذي كنتُ فيه ضعيفاً فيزيائياً، عندما كانت حياتي ترهق أعصابي وجسمي، كل هذا أصبح الآن بعيداً، وأنا أنظر إلى (إيليز) كامرأة لم تعد زوجة لي.

وبطريقـــة رمزية، كنوع من تســجيل الإقــلاع الأول لأيامي، دعوت شـــخصيات الأشـــهر الأخيرة، وكان يكفي أن يمشي المرء معي ليراهم جميعاً؛ كان والدايّ هنا يجلســـان في أحد الأركان، ولم يقل والدي شـيئاً ســلبياً عن الفنــدق، وكان ذلك نوعاً من المعجــزة، وكانــت أمينة ســري القديمة (ماتيلــد) قد حضرت، بصحبة زوج المســتقبل، وقد كنتُ ســعيداً جداً، ومتفاجئاً قليلاً أيضاً، من حضور (أوديبير)، الذي قال لي: (أرجو ألا تكون منافساً لنا!)، وقد ســررتُ كثيراً أيضاً بلقاء (صوفيا كاستلو)، وقد كنت أسألها مراراً بشـــأن أحد المدعوِّين: (إذاً ماذا تعتقدين أن تكون مشــكلته؟)، كانت غريبة جداً، وهي تعلِّق في الأمسية على وجهة النظر المتشدِّدة بشأن المشكلات الجنسية لكل شخص. وبمتابعة طريقـــي، وجدتُ أيضاً الشـــهود على أوقاتـــي العصيبة؛ طبيب العظام، وهو صديق (إدوار)، وكذلك الطبيب النفســـاني الذي لم أتبع عنده ســـوى جلســـة واحدة، والمنوِّمة مغناطيسياً كانت طبعاً في الاحتفال، وكانت تقريباً الســـبب في زواجي كذلك، وكنت قد بعثـــتُ بطاقة إلى الطبيب الذي أجرى لي صوراً شـــعاعية، وإلى طبيـــب التصوير بالرنين المغناطيســـي، وكان غريبـــاً جداً إمكان ظهورهما هذا، فقد أتيا.

وهكـــذا، كنت أبحر عبر كل هؤلاء الأشـــخاص، الذين كانت تجمعهم نقطة غريبة مشتركة هي: مرورهم في حياتي.

خاتمة

كنــتُ قد قدَّمتُ لـ (بولين) تذاكر إلى (برلين)، ســافرنا لمدة أســبوع في بداية السنة، كانت المدينة فارغة، والجو بارداً، وكان ذلــك رائعــاً؛ لقد كنا نملك كل الأســباب في العالــم لنبقى في السرير، وســيكون خارج الموضوع الخروجٍ من الغرفة؛ وإنه لأمر ســخيف أن يزور المرء مدينة، جميلة جداً، عندما يكون عاشقاً، فتكــون بوابة (براندبــورغ) [181] Brandebourg هي (بولين)، ويكون (تشــيكبوينت تشــارلي) [182] Checkpoint Charlie هو (بولين)، ويكون (الرايشستاغ) [183] Reichstag هو (بولين)،

---

(181) بوابــة براندبــورغ: وبالألمانية (Brandenburger tor) معلم أثري ســياحي بارز فــي برلين، بنــي في الســنوات (1788-1791)، وهو قوس نصر فخــم مبني على الطراز الكلاســيكي الجديد، يقع في الجهة الغربية من وســط برلين، ويمر منه الطريق من برلين إلى مدينة (براندنبورغ) التي ســميت البوابة باســمها، وكان جدار برلين الشهير محاذياً له من جهة الغرب (المترجم).

(182) تشــيكبوينت تشارلي: هو الاســم الذي أطلقه الحلفاء الغربيون على جزء من (جدار برلين) الشــهير، خلال الحرب الباردة، وكان أمر ببناء الجدار (فالتر أولبريشــت) Walter Ulbrecht رئيس ألمانيا الشــرقية الشيوعية، ســنة 1961، لمنع الهجرة من برلين الشرقية إلى الغربية، وتم هدمه سنة 1989، إثر انهيار النظام الشيوعي، فكان فاتحة توحيد ألمانيا، وقد بقيت منه بقايا للذكرى يقصدها السياح لكونها أحد معالم الماضي البغيض لدى الألمان (المترجم).

(183) الرايشســتاغ: هو مبنى البرلمان الألماني، تم بناؤه في برلين في الســنوات (1884-1894)، بعد توحيد ألمانيا على يد المستشــار (أوتو فون بسمارك) Otto von Bismarck سنة 1871، ويقصده السياح للتمتع بجمال هندسته المعمارية الرائعة (المترجم).

ويكــون (عمود النصــر) colonne de la Victoire [184] هو (بولين)، وهكذا .. فإنني أعدِّد جماليات هذه المدينة التي لا أريد زيارتها.

كانــت غرفتنا قوقعة، يســتطيع المرء أن يســمع فيها صوت المطر على المدينة. كانت (بولين) تحت المِرَشّ (الدوش) منذ مدة طويلة (كانت تسترخي واقفة، وكأنها في حوض حَمَّام عمودي)، وجَّهتُ إليها، عبر الزجاج، إشــارات، غير أنها لم ترَني، فأخذتُ أرتب ألبستها وألبســتي الداخلية المبعثرة على الأرض. قد يظن المرء أن ذلك من آثار مشهد جنسي جنوني، لكن لا، إننا ببساطة فوضويِّــان. أخذتُ براحتَــيْ يَدَيَّ واحداً من ســراويلها التحتية وأخذت أشــمه كمجنون، ومهــووس، ومعتوه، وقــد نظرت إليّ، بدورها، عبر الزجــاج من غير أن أراها، فغادرتْ حوضَ الحمام بهدوء، منزلقةً وكأن جسمها قد أصبح صابونة، لتنتصب أمامي، رفعتُ رأســي فجأة من غير أن أدري إن كان عليَّ أن أكون خجِلاً أم بطَلاً، وأخيراً قالت:

- أنت مريض نفسانياً.
- ماذا؟
- لقد سمعتَني جيداً، إنك مريض نفسانياً.
- لأنني كنتُ أشُمُّ سراويلَك التحتية؟

(184) عمــود النصر: وهــو بالألمانيــة (siegessäule)، بني لتخليد انتصارات بروســيا على الدانمارك (ســنة 1864)، والنمسا (ســنة 1866)، وفرنسا (سنة 1870)، وإقامة الإمبراطورية الألمانية الموحدة، وبلغ ارتفاعه 67 متراً، واســتغرق بناؤه الســنوات (1864-1873) ونصب أمام مبنى الـ (رايشســتاغ)، ثم نقله النازيون ســنة 1939 إلى مكانه الحالي وزادوا في ارتفاعه 7.5 أمتار، وفي قمته تمثال مذهب لإلهة النصر اليونانية (فيكتوريا) يبلغ ارتفاعه نحو 8 أمتار ووزنه 35 طناً، ويقصد السياح للزيارة (المترجم).

– ليس لهذا فقط، بل أيضاً لطريقتك عندما كنت تراقبني وأنا أستحمّ.

– لقد كنتُ أعتقد أنكِ لم تكوني ترينني.

– لقد تظاهرتُ بذلك، وهل رأيتَ امرأة من قبل لا تعلم أن أحداً ينظر إليها؟[185].

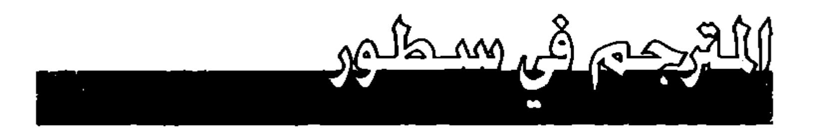
هنالك مشاهد مماثلة لا تحصى عدداً حصلت خلال أسبوعنا البرليني، وهنالك أحداث قصيرة بذلنا كل الإمكانات لإخراجها في مشهد غرامي، وهكذا انقضت الساعات، بسرعة خبيثة. وفي يوم رحيلنا، استيقظنا متأخِّرَيْنِ (أهو فعل خاطئ؟)، فطلبنا سيارة أجرة، ونحن نرتب حقائبنا بكل سرعة، وفي المطار، أخذنا نجري كالمجانين بحثاً عن شباك التذاكر، وكانت (بولين) تركض أمامي، فكنت أرى شعرها المربوط الذي يتطاير في كل اتجاه، إنه الصورة الفوضوية المهدِّئة جداً (وهذا تناقض ظاهري)، يركض المرء، ويركض، ويركض، وأنا كنتُ أركض، وأركض، وأركض، منذ زمن طويل لم أكن أركض، لم أكن أشعر بأي وجع، وهذه فرحة لا حدود لها، ومجنونة، وحُرَّة، وقد كانت لديَّ رغبة في أن أروي هذه السعادة لكل الناس.

---

(185) تذكرنا هذه المراقبة بقول أبي نواس في وصفه مستحمَّة رأت من يراقبها وما كانت ردة فعلها:

رأَتْ شَخْصَ الرقِيْب على التدانيْ
فأسبلَت الظلامَ على الضِّيَاءِ

أرادت أن تستر جسدها الأبيض العاري كالضياء عن عيون الرقيب المتلصّص بأن غطته بشعرها الأسود الفاحم الطويل كالظلام (المترجم).



المترجم في سطور

د. محمود فارس المقداد

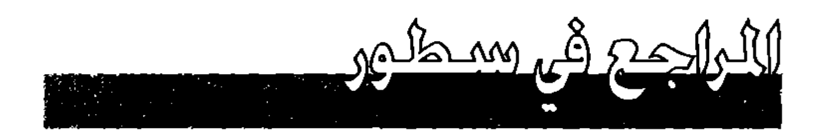
- ولد في مدينة بصرى (محافظة درعا - سورية) سنة 1951.
- حاصل على دبلوم الدراسات الأدبية العليا سنة 1975 في قسم اللغة العربية من جامعة دمشق.
- نال درجة الماجستير سنة 1982.
- حاصل على شهادة الدكتوراه سنة 1986.
- أعير إلى جامعة عمر المختار بليبيا سنتي 1991/1992 و1992/1993، وإلى كلية التربية الأساسية في الكويت من سنة 1993/1994 إلى سنة 2006/2007.
- ويعمل الآن أستاذا مساعدا في كلية الآداب الثالثة (بدرعا) - جامعة دمشق.
- له نحو 60 بحثا ودراسة ومقالة، و15 كتابا مؤلفا ومترجما من أبرزها:

1 - ثلاثة كتب عن «تاريخ الترسل النثري عند العرب» في الجاهلية، وصدر الإسلام، والعصر الأموي.

2 - تاريخ الدراسات العربية في فرنسا (ضمن سلسلة عالم المعرفة بالكويت).

3 - ديوان محمود المقداد، بيروت، دار العودة.

4 - مسرحيتان لفرانسوا دو كوريل: «الرقص أمام المرآة» و«المدعوة» (ترجمة عن الفرنسية) (ضمن سلسلة من المسرح العالمي في الكويت).



المراجع في سطور

د. منتجب صقر

- يعمل حاليا في المعهد العالي للفنون المسرحية بدمشق.
- ويعمل أيضا في جامعة دمشق، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم اللغة الفرنسية.
- عام 2009 دكتوراه في المسرح الفرنسي من جامعة باريس الثامنة.
- عام 2007 ماجستير عن المسرح العربي من جامعة باريس الثالثة/ السوربون الجديدة.
- في 2008 حاضر في جامعة باريس الثامنة، معهد المسرح، فريق العمل «دراماتورجيا المسرح المعاصر».
- شارك في عدة مهرجانات دولية بالإضافة إلى إعداده لورش عمل فنية على عدة مسارح في باريس.
- بين عامي 2008/2006، شارك في عدة مؤتمرات دولية حول المسرح في فرنسا، بريطانيا، المغرب، الجزائر.
- له عدد كبير من الأبحاث والمنشورات والمقالات باللغة الفرنسية منها: «مؤلفان عن المسرح باللغة الفرنسية «مسرح فيليب مينيانا»، و«الشكل الدرامي القصير في المسرح المعاصر»، دار المنشورات الأوروبية، المانيا، 2010.
- في عام 2005 قام بترجمة 3 مسرحيات قصيرة من العربية إلى الفرنسية للكاتب المسرحي السوري سعد الله ونوس: «مأساة بائع الدبس الفقير»، «جثة على الرصيف»، «لعبة الدبابيس».
- في عام 2006، أصدر رواية بالعربية «أقدامنا تختار الطريق»، دار الينابيع، دمشق، سورية.
- صدر له مسرحية مترجمة من الفرنسية للعربية بعنوان «منتصف الليل يا دكتور شويتزر» للكاتب الفرنسي جيلبير سيسبرون، سلسلة المسرح العالمي، الكويت، سبتمبر، 2013.
- يتقن اللغتين الفرنسية والإنجليزية.

ما صدر من هذه السلسلة

ما صدر من هذه السلسلة

349	القصة القصيرة الإسبانو أمريكية في القرن العشرين	تأليف: مجموعة من القاصين المتحدثين بالأسبانية
350	مسرحيتا: -1 محنة الأخ جيرو -2 تحوُّل الأخ جيرو	تأليف: وول سوينكا
351	روض الأدب (مختارات قصصية)	تأليف: أو. هنري
352	مسرحية «آنتيجون»	تأليف: ب. بريشت
353	أجمل حكايات الزن يتبعها فن الهايكو	تأليف: هنري برونل
354	مسرحية «المقهى»	تأليف: لاوشه
355	مسرحيتا: -1 صناعة تاريخ - 2 ترجمات	تأليف: برايان فرييل
356	رواية «الشباب»	تأليف: ج. م. كويتتزي
357	مختارات من الشعر المجري المعاصر (شعراء السبعينيات)	تأليف: مجموعة من الشعراء المجريين
358	مسرحيتا: -1 تلاميذ الخوف -2 الغزاة	تأليف: إيجون وولف
359	اسمي آرام (مجموعة قصصية)	تأليف: وليام سارويان
360	حامل الإكليل (قصص مختارة)	تأليف: مجموعة من القاصين المتحدثين بالألمانية
361	الصُّــورة (مسرحية)	تأليف: سيلافومير مروجيك
362	الأيام الخمسة الأخيرة لرسول (رواية)	تأليف: تحسين يوجل
363	سبع مسرحيات ذات فصل واحد (من بولند)	تأليف: إيرينيوش إيريدينسكي أندجي ماليشكا ستانيسلاف ليم (ستانيسواف) سوافومير مروچيك
364	سبع نساء... سبع قصص	تأليف: مجموعة من القاصات الفارسيات
365	زمن الضحك (ملهاة خفيفة من ثلاثة فصول)	تأليف: نويل كاورد
366	بالأبيض على الأسود (رواية)	تأليف: رُوبين دايڤيد غونساليس غاليغو
367	مسرحيتا: -1 سهرة في المقهى -2 موت ممثل مشهور	تأليف: تيان هان
368	إمرأة وحيدة «فروغ فرخزاد وأشعارها» سيرة حياة	تأليف: مايكل هلمان
369	«الملاح» (مسرحية من الأدب البولندي)	تأليف: ييجى شانيافسكي

ما صدر من هذه السلسلة

370	ليلة التنبؤ (رواية)	تأليف: بول أوستر
371	هذا الجيل المحظوظ (مسرحية)	تأليف: نويل كاورد
372	لا وجود لخصومات صغيرة	تأليف: أمادو همباطي با
373	الليلة التي أمضاها ثورو في السجن (مسرحية)	تأليف: جيروم لورنس وروبرت إي. لي
374	مختارات من الشعر الإيراني الحديث	تأليف: مجموعة من الشعراء الإيرانيين
375	العقرب وقصص أخرى (الجزء الأول)	تأليف: بول بولز
376	العقرب وقصص أخرى (الجزء الثاني)	تأليف: بول بولز
377	«الأسيرة» (مختارات من ديوان شعر)	تأليف: فروغ فرخزاد
378	شارع بريك لين (الجزء الأول)	تأليف: مونيكا علي
379	شارع بريك لين (الجزء الثاني)	تأليف: مونيكا علي
380	الطريق (رواية)	تأليف: كورماك مكارثي
381	مختارات من القصص القصيرة الأوزبكية	تأليف: مجموعة من الأدباء الأوزبك
382	عشيق الصين الشمالية (رواية)	تأليف: مارغريت دوراس
383	المجموعة القصصية الكاملة لإرنست همنغواي (الجزء الأول)	تأليف: إرنست همنغواي
384	المجموعة القصصية الكاملة لإرنست همنغواي (الجزء الثاني)	تأليف: إرنست همنغواي
385	المجموعة القصصية الكاملة لإرنست همنغواي (الجزء الثالث)	تأليف: إرنست همنغواي
386	النمر الأبيض (رواية)	تأليف: آرافيند آديغا
387	موطن الألم (رواية)	تأليف: دوبرافكا أوجاريسك
388	فيلا أماليا (رواية)	تأليف: باسكال كينيارد
389	الإحساس بالنهاية (رواية)	تأليف: جوليان بارنز
390	ياسمينة (وقصص أخرى)	تأليف: إيزابيل إبرهاردت
391	المغامرة الغامضة (رواية)	تأليف: شيخ حامد كَان
392	الرجال الذين يحادثونني (رواية)	تأليف: أناندا ديفي
393	أنطولوجيا القصّة الإيرانية الحديثة	تأليف: مجموعة من الأدباء الإيرانيين
394	حكايات حكماء أفريقيا وأسطورة نجدو ديوال	تأليف: أمادو همباطي با
395	خرائط (رواية)	تأليف: نور الدين فرح
396	إله الصدفة (رواية)	تأليف: كريستن توروب
397	أزهار عباد الشمس العمياء (رواية)	تأليف: ألبرتو ميندیس
398	الأبدية بعيدة جدا (وقصص أخرى)	تأليف: تيه نينغ

ما صدر من هذه السلسلة

399	اذهب حيث يقودك قلبك (رواية)	تأليف: سوزانا تامارو
400	الحضارة أمي (رواية)	تأليف: إدريس الشرايبي
401	فنان الاختفاء (ثلاث روايات قصيرة)	تأليف: أنيتا ديساي
402	عيناها (رواية)	تأليف: بزرگ علوي
403	السباحة إلى المنزل (رواية)	تأليف: ديبورا ليفي
404	الرِّقَّة (رواية)	تأليف: دافيد فونكينوس
405	على قيد الحياة (رواية)	تأليف: يو هوا
406	الأب (رواية)	تأليف: يورج أكلين



البيان	إبداعات عالمية		مجلة الثقافة العالمية		مجلة عالم الفكر		سلسلة عالم المعرفة	
	د.ك	دولار	د.ك	دولار	د.ك	دولار	د.ك	دولار
المؤسسات داخل الكويت	٢٠	–	١٢	–	١٢	–	٢٥	–
الأفراد داخل الكويت	١٠	–	٦	–	٦	–	١٥	–
المؤسسات في دول الخليج العربي	٢٤	–	١٦	–	١٦	–	٣٠	–
الأفراد في دول الخليج العربي	١٢	–	٨	–	٨	–	١٧	–
المؤسسات في الدول العربية الأخرى	–	٥٠	–	٣٠	–	٢٠	–	٥٠
الأفراد في الدول العربية الأخرى	–	٢٥	–	١٥	–	١٠	–	٢٥
المؤسسات خارج الوطن العربي	–	١٠٠	–	٥٠	–	٤٠	–	١٠٠
الأفراد خارج الوطن العربي	–	٥٠	–	٢٥	–	٢٠	–	٥٠

الرجاء ملء البيانات في حالة رغبتكم في: تسجيل اشتراك ☐ تجديد اشتراك

الاسم:	
العنوان:	
اسم المطبوعة:	**مدة الاشتراك:**
المبلغ المرسل:	**نقداً/ شيك رقم:**
التوقيع:	**التاريخ: / / ٢٠٠م**

تسدد الاشتراكات مقدما بحوالة مصرفية باسم المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب مع مراعاة سداد عمولة البنك المحول عليه المبلغ في الكويت.

وترسل على العنوان التالي:

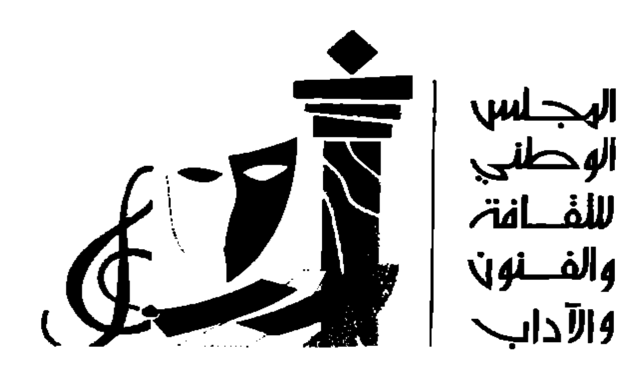
السيد الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

ص.ب: 28623 - الصفاة - الرمز البريدي 13147

دولة الكويت



الدولة	وكيل التوزيع الحالي	العنوان	تليفون	فاكس
الكويت	المجموعة الإعلامية العالمية	الشويخ – الحرة – قسيمة 34 – الكويت – الشويخ – ص.ب 64185 – الرمز البريدي 70452	24826820/1/2 24613872 /3	24826823
الإمارات	شركة الإمارات للطباعة والنشر والتوزيع	Emirates Printing, Publishing & Distribution Company Dubi Media City/ Dubai UAE P.O Box: 60499	+971 242629273	+971 42660337
السعودية	الشركة السعودية للتوزيع	المملكة العربية السعودية – الرياض – حي المؤتمرات – طريق مكة المكرمة – ص.ب 62116، الرمز البريدي 11585	+966 (01) 2128000	+966 (01) 2121766
سورية	المؤسسة العربية السورية لتوزيع المطبوعات	سورية – دمشق – البرانكة	+963 112127797	+963 112128664
مصر	مؤسسة دار أخبار اليوم	جمهورية مصر العربية – القاهرة – 6 شارع الصحافة – ص.ب 372	+202 25782700-25782632	+202 25782632
المغرب	الشركة العربية الأفريقية للتوزيع والنشر	المغرب – الرباط – ص.ب 13683 – زنقه سجلماسه – بلفدير – ص.ب 13008	+212 522249200	+ 212 522249214
تونس	الشركة التونسية للصحافة	تونس – ص.ب 719 – 3 نهج المغرب – تونس 1000	+216 71322499	+216 71323004
لبنان	مؤسسة نعنوع الصحفية للتوزيع	لبنان – بيروت – خندق الغميق – شارع سعد – بناية فواز	+961 1666314/5 01 653259	+ 961 1653260
اليمن	القائد للنشر والتوزيع	الجمهورية اليمنية – صنعاء	+967 2/3201901	+ 967 1240883
الأردن	وكالة التوزيع الأردنية	عمان – تلال العلي – بجانب مؤسسة الضمان الاجتماعي	+962 65300170 - 65358855	+ 962 65337733
البحرين	مؤسسة الأيام للنشر	----	+973 17 617733	-----
سلطنة عُمان	مؤسسة العطاء للتوزيع	ص.ب 473 – مسقط – الرمز البريدي 130 – العذيبة – سلطنة عُمان	+968 24492936	+24493200968
قطر	دار الشرق للطباعة والنشر والتوزيع	قطر – الدوحة – ص.ب 3488	+974 4557809/10/11	+ 974 44557819
فلسطين	شركة رام الله للنشر والتوزيع	رام الله – عين مصباح – ص.ب 1314	+970 22980800	+ 970 22964133
السودان	دار الريان للثقافة والنشر والتوزيع	السودان – الخرطوم – الرياض – ش المشتل – العقار رقم 52 – مربع 11	+2491 83242702	+ 2491 83242703
الجزائر	شركة بوقادوم للنقل وتوزيع الصحافة	Cite des preres FARAD.lot N09. Constantine. Algeria	+213 (0) 31909590	+ 213 (0) 31909328
العراق	شركة الظلال للنشر والتوزيع	----	+964700776512 780662019 +964	
نيويورك	Media Marketing	Long Island City. NY 11101 - 3258	+ 1718 4725488	+1718 4725493
لندن	Universal Press	Universal Press & Marketing Limitd	+ 44 2087499828 + 44208 7423344	+44208 7493904
ليبيا	شركة الناشر الليبي	----	+218 217297779	----


المجلس
الوطني
للثقافة
والفنون
والآداب

الوصول إلى الحقيقة يتطلب إزالة العوائق
التي تعترض المعرفة، ومن أهم هذه العوائق
رواسب الجهل، وسيطرة العادة، والتبجيل المفرط
لمفكري الماضي
أن الأفكار الصحيحة يجب أن تثبت بالتجربة

روجر باكون

التعليم ليس استعدادا للحياة ، إنه الحياة ذاتها
جون ديوي
فيلسوف وعالم نفس أمريكي

إنِّي أتعافى

صورة لرحلة حياة مضنية عاشها بطل الرواية، الموظف في حسابات أحد مكاتب الهندسة المعمارية والمقاولات، في الأربعين من العمر، انتقل خلالها من الشقاء إلى السعادة. كان إنساناً تقليدياً جداً في حياته، وقليل المخالطة للناس، يشعر دوماً بأنه مضطهد ومظلوم، يعمل بإخلاص وأمانة، علاقاته مع زملائه علاقة مودة ضمن إطار الرسمية. له زوجة وبنت في العشرين هجرت المنزل لتعيش مع حبيبها في شقته، وولد في الثامنة عشرة سافر في منحة دراسية إلى نيويورك من غير إذن والده. يشعر في عطلة يوم أحد بوجع شديد في أسفل الظهر، فتتزاحم عليه الوساوس، ويسعى للشفاء في كل اتجاه، ويتعرض لتآمر من أحد زملائه المنافسين، فيفصل من عمله، وتطلب زوجته الطلاق، فيطلقها. تزيد شدة وجعه وتنخفض بحسب الظرف والحالة النفسية التي يمر بها. أصبح شديد الحساسية لكل كلمة أو عبارة أو إشارة أو حركة، يحللها ويفكر في دوافعها وأهدافها وما تنطوي عليه من معانٍ. كان يفتقر إلى حنان أمه، وكان دأب أبيه أن يتسقط عثراته وأخطاءه، ويحط من قدره في كل لقاء. ولما ثقلت عليه الهموم وتشابكت المشكلات، راح يفكر في أسبابها منذ الطفولة، وأخذ يسعى إلى حلها في العمل ومع الزملاء، والأصدقاء، ومع الزوجة، والولدين، والوالدين، وأعلن تمرده على بعضها، وشق لنفسه طريقاً جديداً في الحياة والعمل والحب، ووصل أخيراً إلى الشفاء التام من وجع الظهر، وانطلق في حياة تفاعلية مع الواقع والمجتمع، وعادت إليه الثقة المفقودة في النفس، وتخلَّى عن طموحه الأدبي القديم في تأليف رواية، لكنه خط هذه الرواية متحدثاً عن جملة تجاربه التي خاضها بضمير المتكلم، في شكل سردي واقعي أقرب إلى النزعة التسجيلية، لكثرة ما حشد فيها من إشارات وتلميحات إلى أماكن وكتاب وروايات وأفلام وبرامج تلفزية، وشخصيات فنية، وصروح أثرية، وأنواع من العلاجات والأدوية، وطرق تعامل الأطباء مع مرضاهم. وعلى الرغم من طول الرواية لم نعرف اسم بطلها، إلى درجةٍ توهِّمنا بتماهي بطلها مع كاتبها (دافيد فوينكينوس) نفسه.

ISBN: 978-99906-0-455-9
رقم الإيداع: 2015/339




Exclusive
For
www.ibtesama.com